الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

الحِكَمُ العَطَائِيَّة

شَرحٌ وتحليل

الجُزءُ الثَّالِث





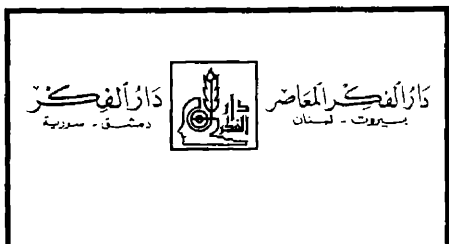
دارُ الفِكر المعاصر
بيروت - لبنان

دارُ الفِكر
دمشق - سورية

الدكتور
محمد سعيد رمضان البوطي

الحكم العطائية

شـــرح وتحليـــل



الرقم الاصطلاحي: ١٣٩٨,٠١١-٣
الرقم الدولي: ISBN: 1-59239-037-4
الرقم الموضوعي: ٢٦٠
الموضوع: التصوف والأخلاق
العنوان: الحكم العطائية شرح وتحليل
التأليف: د. محمد سعيد رمضان البوطي
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات: ج٣/٥٢٠ص
قياس الصفحة: ١٧×٢٥ سم
عدد النسخ: ٣٠٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية

فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦
Http://www.fikr.com
e-mail: info@fikr.com

إعادة
١٤٢٤هـ=٢٠٠٣م



مقدمة الجزء الثالث

اللهم لك الحمد على ما أقمتني فيه، ولك الحمد أن عرفتني على ذاتك العلية، ولك الحمد أن وفقتني لإنجاز هذا الجزء الثالث من هذا الكتاب الذي أُقرُّ بأن الفضل في إنجازه وفيما قد تضمنه من معان وأحكام وأسرار قطفتها من ثمار هذه الحكم العطائية التي سارت بها الركبان، إنما هو للتوفيق الذي أكرمتني به وللإلهام بل الوارد الذي أهديته إليّ.

أنّى لي أن أخوض يمّ هذه الحقائق، لولا التلقين الذي حبيتني به؟ وأنى لي أن أجلس في الناس مجلس الكشف عن آياتك الساطعة، ودلائل وحدانيتك، وباهر آلائك وصفاتك، ومظاهر ربانيتك التي تشعّ من خلال ذلّ عبوديتنا لك، لولا المنة التي طوقت عنقي بها إذ أقمتني في هذا المقام، ثم أكرمتني بواردات الإلهام، ثم أمرتني بإنجاز هذا الذي سيرتني فيه.

أسألك اللهم أن تديم عليّ فضلك وأن لا تقطع عني رفدك، وأن تيسر لي إتمام هذا الذي وفقتني للسير فيه، على النحو الذي يرضيك. وأن تجعل أنيسي ورفيقي الدائم على هذا الدرب، نعمة الإخلاص

لوجهك الكريم، وأن تقدرني على شكرك الدائم باللسان والسلوك والجَنان.

أنت ربي وأنت عوني وأنت حسبي ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

محمد سعيد رمضان البوطي

الحكمة الثامنة والسبعون

((قبضك بحيث لايبقيك مع البسط، وبسطك بحيث لايتركك مع القبض، وأخرجك عنهما كي لاتكون لشيء دونه))[1]

من المعلوم أن لله تعالى صفات تنبئ عن سطوته وعقابه وجبروته، منها ما تجده في أسمائه الحسنى كاسمه: المهيمن، الجبار، القهار، المنتقم، الرقيب، القوي المتين، ومنها ما تقرأ التعبير عنه في القرآن، كقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ﴾ [الرحمن: ٥٥/٣١]، وكقوله: ﴿وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلَى ظَهْرِها مِنْ دابَّةٍ﴾ [فاطر: ٣٥/٤٥] وكقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١١/١٠٢].

كما أن لله تعالى صفات أخرى تنبئ عن واسع فضله، وعظيم كرمه ومغفرته، منها ما تجده في أسمائه الحسنى، كاسمه: الرحمن الرحيم، الغفار، الوهاب، الرزاق، الغفور، الشكور. ومنها ما تقرأ التعبير عنه في القرآن أيضاً، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا

---

(١) وردت هذه الحكمة في بعض المصادر على النحو التالي: ((بسطك كيلا يبقيك مع القبض، وقبضك كيلا يتركك مع البسط، وأخرجك منهما كيلا تكون لشيء دونه)).

عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣/٣٩]، وكقوله: ﴿هَلْ جَزاءُ الإِحْسانِ إلاّ الإِحْسانِ﴾ [الرحمن: ٦٠/٥٥] وكقوله عز وجل: ﴿وَإِنِّي لَغَفّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢/٢٠].

فالمسلم في إقباله على الله تعالى بالمراقبة والذكر، قد تهيمن على مشاعره الطائفة الأولى من الصفات، فيقع منها في حالة من الخوف والوجل، ولايتبيّن من مصيره الذي هو مقبل عليه، إلا العقاب والنكال، لاسيما إن تذكر تقصيره وراجع أيام غفلته وشروده، فهذه الحالة يسمونها: القبض.

وربما تجلت أمامه وهيمنت عليه الطائفة الثانية من صفات الله عز وجل، فلايتذكر إلا رحمته ومغفرته ولطفه، ولايتسابق إلى ذهنه من آيات القرآن إلاّ تلك التي تؤكد فضل الله وجوده وعفوه، فيجد نفسه من ذلك في حالة من الفرح والاستبشار والطمأنينة إلى مغفرة الله وعفوه، وهذه الحالة هي التي يسمونها البسط.

إذا تبيّن لك معنى كل من هاتين الكلمتين، فاعلم أن ابن عطاء الله يلفت أنظارنا إلى منهج تربوي دقيق يأخذ الله به عباده الصالحين، ويتلخص فيما يلي:

يجذبك إلى شواهد البسط ويذيقك من معانيه وأنسه، حتى إذا كاد البسط أن يأخذ بمجامع نفسك ويوصلك إلى درجة اليقين والقرار، حيث التألّي على الله عز وجل، شدّتك التربية الإلهية من تلك الحال ومضت بك إلى شواهد القبض التي يفيض بها كتاب الله، ويعبر عنها

الكثير من أسمائه الحسنى، حتى إذا كادت سطوة القبض تهيمن على كيانك كله، وتزج بك في ظلمات اليأس، عاودك الشعور بالبسط وعادت تمرّ بذهنك شواهده ودلائله.

والنتيجة التي لابدّ أن يوصلك إليها هذا التردد، الوقوف على مزيج من الحالتين، بحيث يجعلك راجياً خائفاً، متأملاً التجاوز والعفو، متوقعاً العقاب ودقة الحساب.

وهذا معنى قول ابن عطاء الله «قبضك بحيث لايبقيك مع البسط، وبسطك بحيث لايبقيك مع القبض» والنتيجة أن تكون في حالة بينهما، وأن تكون متأثراً بكل منهما. فلا البسط يثبطك ويؤمّلك، ولا القبض ييئسك ويحطمك.

وقبل أن نصل إلى الحديث عن المقام الأسمى الذي يشدّنا إليه ابن عطاء الله، ينبغي أن نتساءل: من أين استقى ابن عطاء الله، هذا المنهج التربوي الذي يأخذ الله به عباده، إذ لايسلمهم لأي من حالتي القبض أو البسط، بل يشدّهم إلى مزيج منهما؟

إنما استقى ابن عطاء الله ذلك من كتاب الله عز وجل. فهو يأخذ عباده فيما يحدثهم فيه من صفات انتقامه وإنعامه، ومغفرته وعقابه، بمزيج متكافئ من وحي كل منهما. وسبيل كتاب الله إلى ذلك أنه يقرن دائماً آيات الشدة والوعيد مع آيات الرخاء والوعد بالمغفرة والعفو، فلايحدثك عن واسع فضله وعظيم مغفرته إلا ويحدثك قبله أو بعده عن بالغ سطوته وشديد عقابه. لاتجد وعداً ينفك عن وعيد، ولا وعيداً ينفك عن وعد، بل هما متجاوران دائماً، ليتحقق من ذلك هذا المقصد التربوي الهام.

انظر إلى قوله عز وجل: ﴿نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ١٥/٤٩] كيف جاء بعده مباشرة قوله: ﴿وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الأَلِيمُ﴾ [الحجر: ١٥/٥٠].

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مَنْ مَزِيدٍ﴾ [ق: ٥٠/٣٠] كيف جاء بعده مباشرة قوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ، هَذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوّابٍ حَفِيظٍ﴾ [ق: ٥٠/٣١-٣٢].

والقصد من هذا التجاور الدائم أن لايرهب المؤمن رهبة يُلقي فيها بيديه، وأن لايرغب رغبة يتمنى فيها على الله ما ليس له، كما قال أبو بكر رضي الله عنه في وصيته المعروفة لعمر، قبيل وفاته[(١)].

بل إنك لتنظر، فتجد أنه، أي القرآن، يصف الصالحين من عباد الله بأرقى مزاياهم وصفاتهم التي اختصهم الله بها، فيقول عنهم مثلاً ﴿كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ ، وَبِالأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ، وَفِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ٥١/١٧-١٩] فإذا وقفت على صفاتهم هذه، قلت في نفسك: أين عملي من أعمالهم؟!..

ولكنه عندما يتحدث عن العاصين والمسرفين على أنفسهم، يصفهم أيضاً بأسوأ أعمالهم وأشنع ارتكاباتهم، فيقول عنهم مثلاً: ﴿قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ، وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ، وَكُنّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ ، وَكُنّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ، حَتَّى أَتانا الْيَقِينُ﴾ [المدثر: ٧٤/٤٣-٤٧] فإذا وقفت على صفاتهم هذه قلت في نفسك مستبشراً: إني لأرجو أن لا أكون منهم.

---

(١) انظر نص وصيته لعمر قبيل وفاته في (البيان والتبين) للجاحظ ٢/٤٥.

وفي الحصيلة، تعود إلى نفسك فتجد أنك، من هذين الفريقين، على خطّ تمازج فيه الخوف مع الرجاء.

وهو في القرآن منهج تربوي يرمي إلى أن يعيش المسلم في حالة وسطى بين جاذبي الرجاء والخوف، إذ يكون ذلك باعثاً على أن ينهض بالواجبات ويتجنب المحرمات، دون أن يستسلم لمخاوف اليأس ولا لطمأنينة الأماني والآمال.

وعن هذا المنهج التربوي يعبر ابن عطاء الله إذ يقول: ((قبضك بحيث لايبقيك مع البسط، وبسطك بحيث لايبقيك مع القبض)).

* * *

ثم إن ابن عطاء الله رحمه الله تعالى، بعد أن أوضح هذا المنهج التربوي الذي ينبغي أن يسلك سبيله كل مسلم صادق في إسلامه، أياً كانت مرتبته في مدارج السالكين إلى الله، نبه إلى المرتبة العليا التي ينبغي أن يشدّ نفسه إليها كل من ينشد في حياته الوصول إلى صفاء العبودية التامة لله عز وجل. فيقول: ((وأخرجك عنهما كي لاتكون لشيء دونه)).

ولعلك تقول: ولكن ابن عطاء الله لايفرد بخطابه هذا فئة دون أخرى من المسلمين، بل الذي يبدو أنه إنما يتوجه بخطابه في هذه الحكمة كلها إلى المسلمين كلهم، أياً كانوا، بصيغة المفرد، أي موجهاً خطابه إلى كل فرد منهم على حدة.

والجواب أنه رحمه الله لم يلتفت - فعلاً - في هذه الفقـرة الأخيرة من حكمته إلى فئة متميزة من المسلمين، ولكنه إنما فعـل ذلـك، ليدعـو بحديثه هذا المسلمين كلهم أينما كانوا وأياً كانوا، إلى أن يبذلوا كل ما يملكـون مـن جهـد، ليتجـاوزوا رتبـة العـوام مـن المؤمنـين إلى درجـة الصدّيقـين والعـارفين.. إن المفـروض بكـل مسـلم صـادق مـع اللـه في إسلامه، أن يكون مطمح نظره وغاية أمله، الوصول إلى أعلـى مراتـب القرب من الله، والحب والتعظيم لله، بقطـع النظر عـن مـدى التوفيـق الذي يصاحبه إلى هذه الغاية.

فمن أجل ذلك، استمر في تنبيهه إلى هـذه الرتبـة المتميزة، متوجهـاً بالخطاب لكل مسلم، على سبيل الأفراد.

فما هي هذه المرتبة؟ وما معنى هذه الفقرة المعبرة عنها؟

هي أن يتوجه العبد إلى الله بالحب والتعظيم والخوف والمهابة لذاتـه هو، أي بقطع النظر عن عوارض النعم والمتع المحببة إلى النفس، وبقطع النظر عن عوارض الآلام والشدائد التي تكرهها وتتخوف منها النفس.

إذ إن من المعلوم أن توجه القلب بالحب إلى الله، لما يصلـه منـه مـن عوارض النعم والمبهجات، لايعبرّ عن المحبـة الصافيـة والصادقـة لـذات الله تعالى، إذ يوشك أن لايتوجه القلب إليه بهذا الشـعور إن انقطعـت عنه هذه العوارض والأسباب.

كذلك توجه القلب إليه جل جلاله بالمخافة والهيبة لما قد ينالـه منـه من آلام الجزاء والعقـاب، لايعبّر عـن مخافـة اللـه لذاتـه، إذ يوشـك أن لايشعر القلب بهذه المخافة أو المهابة لو اطمـأن إلى أن شـيئاً مـن هـذه العوارض المؤلمة لن تناله.

ولاشك أن ألوهية الله عز وجل من جانب، وعبودية الإنسان له، من الجانب الآخر، يشكلان دافعاً فطرياً إلى كل من الحب والخوف معاً لله عز وجل، بقطع النظر عن عوارض الثواب والعقاب.

إن الروح الإنسانية معجونة بمشاعر الحب والمهابة لله عز وجل، قبل أن يخاطبها الله بالتكاليف التي تستتبع الثواب والعقاب.

وهذه المشاعر الفطرية، أقل ما تستوجبه نسبةُ الروح إلى الله عز وجل في قوله: ﴿فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ﴾ [الحجر: ١٥/٢٩].

فانظر إلى فرق مابين الرتبتين: رتبة العامة من المسلمين الصادقين في إسلامهم إذ تكون بواعث الحب لله تعالى في نفوسهم آتية من عوارض نعمه وآلائه التي لاتحصى، وتكون بواعث الخوف والمهابة منه في نفوسهم آتية من عوارض ما قد يتهددهم من عذابه وعقابه، ورتبة العارفين والصدّيقين من عباد الله، إذ تكون قلوبهم فياضة بمشاعر الحب والخوف له بآن واحد لأنه ربهم ولأنهم عباده، أي لمجرد هذا النسب الذي يملأ نفوسهم نشوة وسعادة وحباً له عز وجل.

أين المسلم الذي لاتتحرك مشاعر الحب في قلبه لله تعالى إلا بعد أن يأتي من يذكره بعظيم آلائه ونعمه ومظاهر فضله وإحسانه، من واحد كمعاذ بن جبل رضي الله عنه، إذ كان يناجي الله قائلاً، وهو يتقلب في غمرات الموت: أي رب: أخنقني خنقاتك، فوعزتك إنك لتعلم أن قلبي يحبك.؟!..

ذلك حب تنبعث دواعيه من الأسباب والعوارض، وهذا حب تنبعث دواعيه من الذات الإلهية واستحقاقها للمهابة والحب.

فهذا هو معنى قول ابن عطاء الله: ((وأخرجك عنهما كي لاتكون لشيء دونه)) أي حررك من القبض الآتي من خوف النفس من العقاب، ومن البسط الآتي من فرح النفس بالعطاء والمنن والثواب. ليوجه قلبك بالحب والمهابة لذاته هو، لالشيء آخر من دونه.

وهي رتبة، وإن كان الواصلون إليها ثلّةً من الأولين وقليلاً من الآخرين، كما ذكر الله عز وجل، إلاّ أن على كل مسلم أن يسعى سعيه للوصول إليها أو إلى قريب منها، والتوفيق من الله عز وجل.

بقي أن أجيب عن سؤال قد يخطر في بال من يقول:

فإذا كانت هذه هي الرتبة التي ينبغي أن تكون مطمح أنظار المسلمين، وهي توجه القلب بالحب والمهابة إلى الله عز وجل لذاته، بقطع النظر عن عوارض الشدة والرخاء، فلماذا قال رسول الله إذن: ((أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله إياي))؟[1].

والجواب: أن توجه القلب إلى الله عز وجل بالحب والمهابة لذاته إلهاً ورباً، لاينسخ وجود عامل ثان لهذا الحب، ألا وهو وصول النعم والمنح متوالية تترى من الله للإنسان.

فحب الإنسان ربه لما يفد إليه من نعمه وآلائه، جامع مشترك بالنسبة للمسلمين جميعاً على اختلاف مراتبهم والتزاماتهم؛ ثم إن السابقين منهم في مدارج السلوك إلى الله، تتوهج بين جوانحهم هذه

(١) رواه الترمذي والحاكم في المستدرك من حديث ابن عباس، بزيادة ((أحبوا أهل بيتي لحبي)).

المحبة في ضرام أشدّ، وتعلو بهم ربما إلى أضعاف المحبة التي تشكل الجامع المشترك بنيهم وبين بقية المسلمين، والشأن في مخاطبة رسول الله لعامة المسلمين، يقتضي أن ينهج بهم منهج ضعفائهم، وأن يخاطبهم بما يعقلون، وأن يكلفهم بما يستطيعون.

ولكن جلّ الصحابة سما بهم جهادهم السلوكي والتربوي إلى هذه الرتبة الباسقة، ولاغرو، فقد كان أصحاب رسول الله لاسيما الخاصة منهم هم الطبقة الأولى ممن أصبحوا يسمّون فيما بعد بالعارفين والصديقين.

والخلاصة: إن كل من هيمنت عليه محبة الله وتعظيمه لذاته، لابد أن يهيمن عليه كل منهما لعوارض النعم والشدائد أيضاً، ولكن ليس كل من هيمنت عليه محبة الله ومهابته لعوارض النعم والنقم لابدّ أن يهيمن عليه كل منهما لذات الله عز وجل ولمجرد عبودية الإنسان له.

ولعلك قد علمت أن السبيل الموصلة إلى هذه المرتبة الخاصة، هي الإكثار من ذكر الله مع دوام مراقبته، والحذر من أكل المال الحرام، والمواظبة على القيام في الأسحار.

* * *

بقي أن في الناس من ينكر وجود المحبة الحقيقية بين العبد وربه، إذ يقول قائلهم: إن الحب الحقيقي إنما يسري بين النظير والنظير، وبين أفراد الجنس الواحد، وهذا لايتأتى بين الإنسان وربه، وفسّر هؤلاء الناس محبة الله لعباده ومحبتهم له، حيثما ورد كل منهما في القرآن

بلوازمه وآثاره، من المواظبة على الطاعات واجتناب المحرمات والصبر على الابتلاآت.

وأختصر الجواب فأقول: إن أقوى البراهين والحجج في مجال المناظرة والنقاش، ما يسمونه بدليل التجربة والمشاهدة، وهذا البرهان ماثل وظاهر أمام من ينكر حقيقة معنى المحبة من الله للعبد أو من العبد لله.

ما اسم الحال التي كانت تعتري أولئك الربانيين من السلف الصالح، وأولهم رسول الله، فتلهب أفئدتهم بالشوق والحنين إلى الله والأنس به أي بكلامه وبالحديث عنه؟ وما اسم الدافع الذي كان يدفع أحدهم إلى تحمّل الشدائد والاستخفاف بالآلام، استرضاء لله، وتقرباً منه؟.. وما اسم الشعور الذي كان يحمل معاذاً على أن يناجي الله - وهو يعاني من سكرات الموت - أي رب أخنقني خنقاتك، فوعزتك إنك لتعلم أن قلبي يحبك.

سمّ هذه الحال ماشئت، فإن الناس، كل الناس، لايعلمون للحب إلاّ المعنى الذي تترجمه هذه الحال.

ويخطئ من يظن أن الحب لايسري إلى القلب إلا من خلال عين ترى أو أذن تسمع، والله ليس جسماً فتراه العين، وليس له صوت يبلغ الآذان..

لأنا نقول: رب محبوب استقرت محبته في القلوب دون وساطة عين ترى ولاوساطة أذن تسمع. والجمال ليس محصوراً في المقاييس المتآلفة التي ترصدها العين أو الأذن، والكمال أيضاً ليس محصوراً في مثل ذلك.

ودعني أضعك هنا أمام ما يقوله الإمام الغزالي حجة الإسلام في وصف أجمل جميل ما ينبغي للقلب، أي قلب كان، أن يحب غيره:

يقول: ((الجميل المطلق هو الواحد الذي لاندّ له، الفرد الذي لاضدّ له، الصمد الذي لامنازع له، الغني الذي لاحاجة له، القادر الذي يفعل ما يشاء، ويحكم مايريد، لا رادّ لحكمه ولامعقب لقضائه. العالم الذي لايعزب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض، القاهر الذي لايخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة، ولايفلت من سطوته وبطشه رقاب القياصرة، الأزلّي الذي لا أول لوجوده، الأبديّ الذي لا آخر لبقائه، الضروري الوجود، الذي لايحوم إمكان العدم حول حضرته، القيوم الذي يقوم بنفسه ويقوم كل موجود به، ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال والقدرة والكمال، الذي تتحير في معرفة جلاله العقول وتخرس في وصفه الألسن، الذي كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته، ومنتهى نبوة الأنبياء الإقرار بالقصور عن وصفه))(١).

أقول: أرأيت إلى هذه الصفات، أليس الجمال المطلق جزءاً لايتجزأ منها؟ أوليس من شأن القلب الذي هو من صنع هذا الجميل، أن يتعشقه ويهواه؟

وهل كان سبيل تعشق القلب لهذا الجمال عيناً رأت أو أذناً سمعت؟

---

(١) إحياء علوم الدين ٤/٣٠٥.

ياعجباً لمن يحاول أن يطوي عالم المشاعر القلبية، داخل مضيق هاتين العينين، أو داخل الثقب المؤدي إلى الصماخين!..

والروح الإنسانية التي ينسبها الله إلى ذاته العلية، كيف يتأتى لك أن تتصور أنها غير معنية به وغير ملتفة إليه؟.. وإذا سلّمت أنها معنيّة به وملتفتة إليه، فهل لذلك من معنى إلا التفاتة الحب لمن تكرم فنسبها إليه، ولمن تفضل فقرّ بها منه؟

ياهذا، ألا تصغي لتسمع أنين روحك شوقاً إلى الله؟.. ألا تشعر بجوى الحنين مهتاجاً من أعماقها إليه؟.. ألم تحسّ يوماً بضرام نارٍ يسري من كيانك الذي هو مجلى الروح فيه، وأنت تقرأ قول الله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ..﴾ [المائدة: ٥/٥٤].

ما اسم ذلك كله، إن لم يكن اسمه الحب؟

أما إن كنت لاتحس بشيء من ذلك كله، فلاتجعل من مرضك الذي ابتليت به حجة على من قد عافاهم الله منه.

وإني لأسأل الله لي ولك العافية التامة من كل داء، وأسأله أن يذيقني ويذيقك شربة من كأس محبته، وأن يبعث في روحي وروحك وهجاً من تباريح الشوق إليه.. وماذلك على الله بعزيز.

* * *

الحكمة التاسعة والسبعون

((العارفون إذا بُسطوا أخوف منهم إذا قُبضوا. ولايقف على حدود الأدب في البسط إلاّ القليل))

وقد علمت أن العارفين - وقد مرّ بك تعريفهم - لايركنون في تقلبات أحوالهم إلى قبض ولا إلى بسط. للسبب الذي أوضحته لك.

غير أنهم أشدّ خوفاً وفراراً من حالة البسط إذ تمرّ بهم، من حالة القبض إذ يمكن أن تمرّ بهم هي الآخرى.

ذلك لأن حالة البسط - وقد عرفت معناها - تتناسب مع حظوظ النفس، إذ هي ميالة إلى البحث عن أسباب الطمأنينة ودلائلها، لتستغني بذلك عن مراقبة الحال، وحراسة المحيط والمناخ، ولكي تركن إلى اقتطاف متعها والحصول على متطلباتها دون أي وجل أو حساب.

بل إن حالة البسط، إن استمرت، أورثت صاحبها، ربما، ثقة بحسن المآل، وسعادة العقبى، ومن شأن ذلك أن يبعث على التكاسل عن النهوض بعزائم الطاعات، والتراجع عن طريق الاستكثار من النوافل والقربات، والانصراف عن كل ما يحمّل النفس عنتاً ويكلفها جهداً من الطاعات، هذا بالإضافة إلى أن حالة البسط هذه تغري صاحبها

بالكشف عما قد عرفه لنفسه من خوارق وكرامات، فيجلجل بالحديث عنها بين المريدين والأقران، وتختلط عليه عندئذ مشاعر السرور من البسط الذي يطوف بقلبه من بواعث التجليات الإلهية، بمشاعر النشوة التي تهيمن على نفسه من انجذات الناس إليه وتبجيلهم له وعظيم اعتقادهم به.

وهذا كله من نذر الشقاء والهلاك!..

فمن هنا، ولهذا السبب، يفرّ العارفون من حالة البسط، بل من بواعثها إذ تقبل إليهم.

على أنهم يفرّون أيضاً من حالة القبض إن وجدوا شيئاً من بوادرها أو بواعثها يتجه إليهم، ذلك لأنهم يخشون من أن ينشغلوا بالخوف من عوارض العذاب والعقاب، عن الخوف من الله لذاته، إذ يرون أن في انصرافهم إلى التفكير في هذه العوارض كلها، نوعاً من الغفلة عن ذات الله عز وجل.

كما أنهم يرون أن خوفهم من العذاب الذي يتهدد به الله المارقين والكافرين يتنافى مع خوف الله، المأمور به في كتابه عز وجل، في قوله تعالى: ﴿وَخافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥/٣] إذ إن القلب إن انشغل بالخوف من العصا التي هي مبعث العذاب لايفرغ للمخافة ممن يحمل العصا من حيث ذاته، بدليل أنه إن وضع العصا من يده وابتعدت عنه، لايشعر القلب عندئذ بالخوف ممن كان يلّوح بها قبل قليل.

واعلم أن المطلوب من كل مسلم أن يجمع بين حب الله والخوف منه، ألا ترى أن الله عز وجل في الوقت الذي يخاطب عباده قائلاً:

﴿وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يذكرهم أيضاً بضرورة محبتهم له، فيقول: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾ [البقرة: ٢/١٦٥]؟

ومن المعلوم، في علاقات الناس بعضهم مع بعض، أن المحبة والمخافة لايجتمعان في قلب واحد، تجاه شخص واحد.. إن اتجه القلب إليه بالحب لم يخفه، وإن اتجه إليه بالخوف لم يحبه.

والسبب في ذلك أن محبة الناس بعضهم لبعض، إنما هي لعوارض الأسباب، فهي في الحقيقة حب للذات، أي إن المحب يحب ذاته في كيان الشخص الذي يحبه، لفائدة ما يرى أنها تسري منه إليه.

كما أن خوف الناس بعضهم من بعض، هو الآخر لعوارض الأسباب، من بطش أو قهر أو أي من أنواع الإيذاء أو الظلم، فهو الآخر نتيجة لحب الإنسان لذاته، إذ إن حبه لنفسه يستوجب إبعادها عن كل ما فيه إيذاء أو عذاب لها. وإنما يحمله على الابتعاد عنه ما نسميه بمشاعر الخوف.

وإذا أحب الإنسان ذاته حجب عن محبة الآخرين، إلا بمقدار ما قد يجرّ اللذة والخير منهم إلى نفسه، ويتحول الحب إلى خوف وكراهية، عندما يرى أن الذي يناله منهم إنما هو السوء والعذاب، فهو إذن إما حبٌّ فلاكراهية عندئذ ولاخوف، وإما خوف وكراهية فلامحبة عندئذ ولا أنس.

غير أن هذا الذي أوضحته لك عن علاقات الناس بعضهم ببعض، لايَرِد هو ذاته في علاقة العبد بربه. إن من الممكن أن يجتمع الحب لله

والخوف منه في قلب العبد المؤمن تجاه ربه، بل هو المطلوب والواجب، فكيف السبيل إلى ذلك؟

سبيله أن يكون الحب لذات الله لالشيء إلاّ لكونه رباً واحداً لاشريك له، وأن يكون الخوف أيضاً من ذاته، لالشيء إلاّ لأنه الرب الواحد الذي لاشريك له..

فإذا اختفت العوارض المتناقضة التي يعود بعضها باللذة والخير إلى الإنسان، ويعود بعضها بالعذاب والبؤس إليه، ولم يعد لها أي دور في بعث مشاعر الحب لله والخوف منه، في قلب الإنسان، فإن الحب والخوف يتصافحان، بل يتعانقان عندئذ في القلب الواحد، لأن مصدرهما واحد، ألا وهو ذات الله عز وجل، ولأن العوارض المتناقضة غائبة في هذه الحال عن السببية والتأثير.

ولعلك تدرك الآن خطر حال من يحب الله لايحبه إلا لعوارض إنعامه ويخشاه، لايخشاه إلا لعوارض عقابه ونكاله.

إن هذا الإنسان، إذا أحب الله للنعم التي تنهمر إليه منه وللذائذ التي يتقلب فيها بفضله، لابدّ أن تغيب عنه عندئذ مشاعر الخوف منه، لأن أسبابها غائبة.. وإذا خاف من الله للنقم والابتلاءات التي تأتيه أو التي يتوقعها منه، لابدّ أن تغيب عنه عندئذ مشاعر الحب له، لأن أسبابها تكون غائبة عنه في ضرام المآسي والابتلاءات التي يتقلب فيها.

وهذا يتعارض، كما ترى، مع أمر الله الموجه إلى عباده بأن يتوجهوا في وقت واحد إليه بكل من مشاعر الحب لذاته والخوف من ذاته.

فما السبيل إلى الانقياد لأمر الله عز وجل في هذا الذي يأمرنا به؟

سبيل ذلك أن نحب الله لأنه إلهنا وربنا المعبود بالحق، وأن نخافه لأنه إلهنا وربنا المعبود بالحق، ثم نقبل إليه بمزيد من الحب له لما يغذونا به من نعمه، وبمزيد من الخوف منه لما يتهددنا من العقاب على التقصير في أداء حقوقه.

* * *

ثم يقول ابن عطاء الله رحمه الله تعالى: ((ولايقف على حدود الأدب في البسط إلا القليل)).

معنى هذا الكلام واضح، أي إن هيمنة حال البسط على الإنسان عرضة لإساءة الأدب مع الله.

ولكن ما السبب في أنها عرضة لذلك؟

السبب أن الإنسان إذا استبدت به مشاعر كرم الله وعفوه عن السيئات والأوزار، فالشأن الغالب في هذه الحال أن تستيقظ في النفس أطماعها في أن تنال حظوظها وأن تتمتع برغائبها... وللشيطان في هذه الحال صولة وأيّ صولة، إذ يهيج في النفس هذه الرغائب، ثم يوسوس إلى صاحب تلك النفس، بأن مغفرة الله لاتظهر حقيقتها ولاتتجلى فاعليتها إلاّ بوقوع الآثام والذنوب فعلاً ثم تجاوزه عز وجل عنها.

وربما وسوس الشيطان إليه، منتهزاً فرصة حالة البسط هذه، بأن المسلم إذا سما صعداً في مدارج السلوك والقرب من الله، إلى رتبة الشهود، فإن المعاصي عندئذ لاتضره، ولاتؤثر على صفاء سريرته.

والواقع أن هذا الوسواس يفعل فعله اليوم في نفوس كثير ممن يسلكون مسلك التصوف، ويلتزمون أو يلزمون مريديهم بقواعد الطريق؛ وإنما يتم ذلك في مناخ البسط الذي يتحدث عنه ابن عطاء الله.. فكم من معاص ترتكب بسائق من هذه الوساوس الشيطانية الباطلة، فلا الشيخ الذي يرتكبها يشعر منها بالوجل الذي يبعثه على الندامة والتوبة، ولا المريدون يجدون في ذلك منكراً يستوجب إنكاره بالآداب الإسلامية المعروفة.

فهذا هو السبب في أنه لايقف في حدود الأدب مع الله في البسط إلا القليل، كما يقول ابن عطاء الله.

وهذا هو السبب في أن العارفين لايطمئنون إلى حالة البسط ولايركنون إليها، وإن مرت بهم.. كما أنهم لايركنون إلى حالة القبض أيضاً، إذ يرون في انصرافهم إلى الاهتمام بالعقوبات والتأمل في آلامها وشدائدها، ما يشغلهم عن مراقبة الله والتوجه إلى ذاته العلية بكل من مشاعر الحب والخوف، دون التعثر بوسائط البسط والقبض.

ولكن عندما تنبثق حالة البسط من مشاعر محبة العبد لله، بالمعنى الذي سبق بيانه للحب، فتلك إذن حالة من البسط لاخطر فيها ولا خوف على السالك منها.. إن البسط الذي يهيمن على شعور الإنسان من جراء محبته لله عز وجل، من شأنه أن يدفعه إلى مزيد من الالتزام بعزائم الطاعات والقربات، إذ هذا هو شأن الحب، ومن ثم فلا خطر فيه.

غير أن ابن عطاء الله إنما يتحدث عن البسط الذي يتجلى على السالك لدى استغراقه في صفات الرحمة والإحسان والعفو والمغفرة،

التي هي من أبرز أسماء الله الحسنى، فهذا هو الذي يعرض صاحبه لسوء الأدب مع الله، وتجاوز حدوده، للسبب الذي ذكرته لك.

ثم إن ابن عطاء الله، يوضح سبب ما يقوله من أن العارفين إذا بُسطوا أخوف منهم إذا قبضوا، موضحاً أثر كل منهما على النفس في الحكمة، التالية التي هي بحكم التتمة لهذه الحكمة التي شرحتها لك.

* * *

الحكمة الموفية تمام الثمانين

((البسط تأخذ النفس منه حظها بوجود الفرح والقبض لاحظّ للنفس فيه))

ذلك لأن البسط (وقد عرفت المعنى المقصود به) نوع من البشارة يهجم على النفس، فيلذّ لها ذلك، إذ تبتعد عن كدورات المخاوف وتوقعات السوء، فتشعر من ذلك بفرح وطمأنينة يسريان في الكيان. وربما كان من آثار ذلك التهاون في أداء الواجبات، والتراجع على طريق الحيطة والورع في الانضباط بالأحكام.

ومن الواضح أن هذا (البسط) لايمكن أن يستقر في كيان، أو شعور من لايغيب عن باله قول الله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢/٣]. أو قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبادِ﴾ [آل عمران: ٣٠/٣].

ويكفي موجباً لتبديد هذه الحال أن يتذكر صاحبها أن الخاتمة مجهولة، وأن الإنسان أياً كان ليس إلا أسيراً في قبضة الله، وأن قلبه رهن بل مملوك بيد مولاه، يقلبه كما يشاء. فمن أين له اليقين بالمآل حتى يستبشر؟

وقد زاد ابن عطاء الله هذا الكلام بياناً وتفصيلاً في كتابه (لطائف المنن) فقال:

((القبض أقرب إلى وجود السلامة، لأنه وطن العبد، إذ هو في أسر قبضة الله، وإحاطةُ الحق محيطةٌ به، ومن أين يكون للعبد البسط وهذا شأنه؟ البسط خروج عن حكم وقته، والقبض هو الأليق بهذه الدار، إذ هي وطن التكليف، وإبهامِ الخاتمة، وعدم العلم بالسابقة، والمطالبة بحقوق الله))[١].

غير أن هذا لايعني أن الصفوة الصالحة من عباد الله تعالى يركنون إلى القبض بدلاً من البسط، ويجعلون منه وطنهم وغذاء مشاعرهم ماداموا في هذه الحياة الدنيا، فقد مضى بيان أن العارفين لايركنون إلى بسط ولا إلى قبض، لأنهم مشدودون إلى رقابة الله وشهوده، منصرفون عن عوارض الرجاء المتمثلة في مغفرته وصفحه، وعن عوامل الخوف المتمثلة في عقابه وعذابه. ولأنهم يحبونه لذاته ويخافونه لذاته، وقد مرّ بيان ذلك مفصلاً في شرح الحكمة الثامنة والسبعون.

إنما المراد بيان أن المسلم إن كان ممن يتعرض لحالتي البسط والقبض أو الرجاء والخوف، فليكن أكثر حذراً على نفسه في حالة البسط أو الرجاء، للأسباب التي تم بيانها. أما الربانيون والرعيل الأول، من أصحاب رسول الله، فالشأن فيهم أن لايركنوا إلى أي من الحالين، بل أن يكون دائماً في مزيج متكافئ من التأثر بهما والركون إليهما.

---

(١) لطائف المنن بتقديم وتعليق الشيخ خالد العك ص٢١٢.

يقول ابن عطاء الله في كتابه (لطائف المنن) موضحاً هذا المعنى، ومبيناً حال هذه الصفوة من عباد الله:

((وأهل الله إذا خافوا رجوا، عالمين أن وراء خوفهم وما به خُوِّفوا، أوصاف المرجوّ الذي لاينبغي أن يُقنَطَ من رحمته، ولا أن ييأس من منه، فاحتالوا على أوصاف كرمه، علماً منهم بأنه ما خوّفهم إلا ليجمعهم عليه، وليردّهم بذلك إليه.

وإذا رجوا خافوا، يخافون غيب مشيئته التي هي من وراء رجائهم وخافوا أن يكون ما أظهر من الرجاء اختياراً لعقولهم، هل تقف مع ظاهر الرجاء أو تنفذ إلى خوف ما بطن في مشيئته، فلذلك استأثر الرجاء بخوفهم، وحكمهم في القبض والبسط كما هو في الخوف والرجاء))[1].

* * *

ثم إن المقصود بالبسط في هذه الحكمة والتي قبلها ما قد عرفت من تغليب الرجاء برحمة الله وعفوه على الخوف من بطشه وعقابه.

أما البسط الذي يعتري أحدهم من شعوره بنشوة انتسابهم إلى الله بالعبودية وجذب الله إياهم إليه بجاذب الولاية المعبّر عنها قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢/٢٥٧] وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ٤٧/١١] فهو بسط سالم من الآفات وسوء العواقب، وليس فيه ما قد يحمل صاحبه

---

(١) المرجع السابق ص٢١٢.

على التهاون في أداء الواجبات. إذ لاعلاقة له بمسألة الرجاء أو الخوف، وإنما هو حال من السرور تعتري أحدهم إذ يجد نفسه مشدوداً إلى الله بنسب العبودية له، والدخول تحت مظلة ولايته له، إنه ينظر إلى نفسه فيرى أنه ليس لقيطاً لا نسب له، في بيداء اللقطاء التائهين عن الذات، الشاردين عن ولاية الله لهم وعن عبوديتهم له.

إن هذا النوع من البسط، يبعث على نقيض ما يتخوف منه ابن عطاء الله، أي يبعث على مزيد من الانضباط بالأوامر والانقياد للتعاليم، شكراً له عز وجل على أن أدخله في رحاب ولايته، وأدناه من عين ملاحظته، وناداه بنسب العبودية له.

ألا ترى إلى هذه النشوة كيف تختلف عن البسط الذي كنا بصدد الحديث عنه، بجلاء ووضوح، في هاتين البيتين:

وممـا زادنـي شـرفاً وتيهـاً   وكـدت بـأخمصي أطـأ الثريـا

دخولي تحت قولك يا عبادي   وأن صيرت أحمـد لـي نبيـا

ومازلت أذكر يوماً كنت عائداً فيه من حلب إلى دمشق، مع بعض الرفقة، وأدركتنا صلاة المغرب في حمص، فدخلنا مسجد خالد بن الوليد لنصلّي فيه، ولما انتهينا من الصلاة وتوجهنا خارجين من المسجد، واجهني، داخلاً إليه، شخص بسيط الهيئة، ممن لايؤبه بهم، وإن السرور يفيض من قسمات وجهه الذي تعلوه السمرة، وأقبل إليّ قائلاً: مالك؟.. مالك لاترقص فرحاً؟.. إننا لسنا يتامى في جنبات الأرض، ألا تعلم أن الله مولانا؟

لقد كان فيض السرور على وجهه ينبعث ممتداً إلى كل من يواجهه، ولقد داخلني من كلامه ابتهاج لاعهد لي به، ورأيتني أردد في نشوة بالغة قول مولانا عز وجل: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ٤٧/١١].

وربما سميت هذه الحال، لدى كثير منهم بـ ((السرور بالله)).

وربما تحركت من ذلك في نفوس بعض منهم دواعي الوجد، فتجاوبوا معها بحركات تشبه الرقص، بدون قصد منهم ولا اختيار.

فأما الذين ينسجون على منوالهم تقليداً لهم، وأفئدتهم خاوية عن هذه الحال، فهم إنما يمارسون بذلك نوعاً من النفاق، بالإضافة إلى كونهم يخالفون في عملهم التقليدي أحكام الشرع.

ولقد كان والدي رحمه الله من أشد العلماء إنكاراً لتكلّف هذه الحال، واختلاق نتائجه دون وجود لمقدماته، ولكن لما زاره في مرضه الذي توفي فيه بعض المنشدين واستقبلهم في غرفته الصغيرة، طلب منهم أن يسمعوه شيئاً فأنشدوا أبياتاً مطلعها:

كن مع الله تر الله معك ودع الكل وحاذر طمعك

لاتؤمل من سواه أملاً إنما يسقيك من قد زرعك

فإذا أعطاك من يمنعه ثم من يعطي إذا ما منعك

فاهتاج به الوجد، وتملكه هذا السرور الذي أحدثك عنه، وخرج عن طوره المألوف، وانطلقت حنجرته تردد لفظ الجلالة في حركة

إيقاعية رتيبة تنطلق من جُمْعِ كيانه!.. كان شيء يغلي وراء صدره فيفور ويصّاعد جسمه وهو جالس، كالمرجل[1].

فإذا استبدت هذه الحال بصاحبها، وحرّكه في داخله الوجد الحقيقي، فلاضير في الحركات التي تصدر منه أياً كانت، بل لافائدة من تبريرك أو عدم تبريرك لها، لأنه ليس في وضع يمكّنه من اختيار ما يريد أو ماتريد، ولو كان والدي رحمه الله يملك لنفسه اختياراً عندما استبدت به تلك الحال، لضبط نفسه وقيدها عن الانحراف في تلك الحركات بكل ما يملك.

ولسيدي الشيخ أحمد الرفاعي كلام كثير في التحذير من التواجد الذي لاوجد فيه، والاهتزازات الجسمية التي لاباعث لها في القلب.

من ذلك قوله: «إيش أعمل بالسماع الذي رقص فيه الراقصون بغير قلب، ونجاسة النفس لطخته؟ كيف يحسب برقصه ونقصه من الذاكرين؟

ورب تال تلا القرآن مجتهداً بين الخلائق والقرآن يلعنه

لله ملائكة جرد مرد تحت العرش يرقصون ويذكرون الله، ويهتزون لذكره، هذه أرواح رقصت بالله لله، وأنت يا مسكين!.. ترقص بنفسك لنفسك، أولئك الذاكرون وأنت المغبون المفتون.

سمّى القوم الهز بالذكر رقصاً، إذا كان وارد الهزة من الروح، فنسبوا الرقص للروح لا للجسم، وإلاّ فأين الراقصون؟ وأين الذاكرون؟ طلب هؤلاء حق، وطلب هؤلاء ضلال.

(١) انظر هذا الخبر ونحوه في كتاب (هذا والدي) لمؤلف هذا الكتاب ص١٦٥.

سارت مشرقة وسرت مغرّباً شتان بين مشرّق ومغرّب

الراقصون كذابون، والذاكرون مذكورون[١]، بين الملعون والمحبوب بون عظيم، إذا دخلتم مجالس الذكر، فراقبوا المذكور واسمعوا بأذن واعية))[٢].

* * *

إذن، فالبسط الذي ينبثق من تزايد الأمل بمغفرة الله وصفحه، حتى يتغلب على مخاوف العقاب على التقصير وسوء الحال، مزلّة قدم، ومبعث لحظوظ النفس، كما قال ابن عطاء الله، وعلى المسلم أن لايركن إليه ولايستسلم له.

أما البسط الذي يسميه بعضهم ((السرور بالله)) أو ((الأنس بالله)) والذي ينبعث من شعور المسلم بنسبة عبوديته إلى الله، وبأن الله وليه ومولاه، كما قد بينت وأوضحت لك، فلاخوف منه على صاحبه، بل الشأن فيه أن يبعث صاحبه على مزيد من الانضباط بأوامر الله والتقيد بتعاليمه.

* * *

(١) أي أن الله يذكرهم، إشارة إلى قوله تعالى: فاذكروني أذكركم.

(٢) البرهان المؤيد لسيدي الشيخ أحمد الرفاعي، بتحقيق الشيخ عبد العزيز سيروان ص٦١.

الحكمة الحادية والثمانون

((ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك))

مراد ابن عطاء الله بالعطاء والمنع هنا، ما يتعلق بأمور الدنيا وأسبابها، أما ما يتعلق من ذلك بالدين ومقوماته والسبل إليه، فليس للعطاء والمنع فيه إلاّ وجه واحد، كما هو معلوم.

والمعنى الذي ترمي إليه هذه الحكمة بيان حقيقتين اثنتين:

الحقيقة الأولى: أن العبد يجب أن يصرف كلاً من طمعه وخوفه إلى الله، بأن يعلم علم اليقين أن رغد عيشه وأن مقومات سروره وسعادته، كل ذلك إنما يفد إليه من عند الله.. وأن يعلم علم اليقين أيضاً أن منغصات عيشه وعوامل كربه وضيقه، كل ذلك إنما يفد إليه أيضاً من الله.

والحقيقة الثانية: أن العبد يجب أن يستيقن بأن الله لايحتاج في إسعاده العبد إلى وساطة منع أو عطاء، وأنه عز وجل لايحتاج في تعكير صفوه وتكدير حياته إلى وساطة شيء من ذلك أيضاً.

فإذا تحلّى العبد بهذا اليقين، الذي ترمي إليه هذه الحكمة، فلا العطاء عندئذ يؤمّله وينعشه، ولا المنع يخيفه أو يكدره.

ذلك لأنه، وقد وثق بأن الله قد يسعد عبده ويمتّعه بدون عطاء، وقد يشقيه ويعذبه بدون منع، تسقط قيمة كل منهما في حسابه، ويظل في الحالين، أي حالي المنع والعطاء، مشدوداً بآماله إلى الله، ومنصرفاً بمخاوفه إليه.

أمام هذه المعرفة التي يجب أن يتمتع بها كل مسلم، تتجلى حقيقة هذه الحكمة للذهن، ويستبين مصداقها في الواقع: ((ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك)).

إذ لاقيمة لأي منهما أمام ما قد يقضي به الله.

افرض أنه عز وجل أعطاك من المال أكثر مما تتوقع أو تريد، ثم جعل من هذا المال سبباً لمصائب في بدنك أو بيتك، أو باعثاً للضيق في صدرك أو الهم والغم في فكرك، ألا ينمحي ذلك العطاء في ضرام هذا البلاء؟

وافرض أنه أعطاك الوظيفة التي تطمح إليها، أو المركز الذي كنت تكافح دونه، ثم توجهت إليك من تلك الوظيفة أو ذلك المركز مشكلات مستعصية، أو تناوشتك منها أيادي الإيذاء، ألا تبترم بذلك العطاء وتبصر فيه عين المنع الذي كنت تخشاه؟

وافرض أنه عز وجل منعك مما كنت تحلم به وتطمح إليه من النجاح في دراستك لاختصاص ما أو حتى في سعيك للحصول على الثانوية أو الشهادة الجامعية، ثم إنه فتح لك على أعقاب ذلك المنع، وبسببه ربما، سبيلاً إلى رزق وفير وعيش رغيد، ولعلك لو نجحت فيما كنت تسعى إليه وتطمع فيه، لوقف نجاحك سداً في بلوغ ما يسّره الله

لك، أليس هذا الذي تراه منعاً في الظاهر إنما هو عطاء في الحقيقة والباطن؟

وانظر إلى هذه الحقيقة كيف يشير إليها البيان الإلهي بقوله عز وجل: ﴿فَأَمَّا الإِنْسانُ إذا ما ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ، وَأَمَّا إِذا ما ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ ، كَلاّ..﴾ [الفجر: ٨٩/١٥-١٦].

أي إن شأن كثير من الناس أن يتعلقوا بظواهر الأسباب، ويروا فيها مصدر استبشارهم أو تخوفهم وتشاؤمهم.. فيُسَرّ إن ابتلي بالنعم ظناً منه بأنها مصدر سعادته، ويضيق ذرعاً إن ابتلي بخلاف ذلك، ظناً منه بأن ذلك مصدر شقائه وسوء حاله.. ثم يردّ الله هذا الوهم على أصحابه، فيقول: كلاّ، أي ليس الأمر كما تتوهمون، فقد يكون العطاء إهانة وإشقاء، وقد يكون المنع عناية وإسعاداً.. ولله أن يخلق من الأسباب ما يشاء لما يشاء. إذ هي في الحقيقة ليست أسباباً ذاتية حتى يقف الإنسان عندها ويعتمد عليها، بل هي أحداث كونية تخدم حكم الله وقضاءه.

* * *

والمعنى التربوي الذي تحمله هذه الحكمة، هو أن يظل المسلم مشدوداً بكل من حبل الرجاء والخوف إلى الله عز وجل، دون أن يتغلب الواحد منهما على الآخر، مهما ظهرت أو اختفت ما بينه وبين مصالحه الدنيوية العوامل والأسباب.

وإنما الذي يعينه على ذلك يقينه بأن الأسباب التي تظهر أو تختفي أمامه، لاتوجد لها قيمة ذاتية، فهي كما قال علماء العقيدة أسباب جعلية أي جعلها الله مقترنة بالنتائج التي قضى في سابق علمه بإيجادها.

كما يعينه على ذلك يقينه بأنه عز وجل قد يخلق من الشرور التي يراها ويراها الناس، أسباباً للخير، وقد يخلق من الخير الذي تراه ويراه الناس جميعاً، أسباباً للشر.

فكم من أناس أعطاهم الله المال الكثير، فانقلب المال وبالاً عليهم، وكم من صناع وتجار استعانوا على ترويج بضائعهم بأسباب مفيدة ومروجة، في رأي العين وحكم العادة، فكانت في حكم الله وقضائه أسباباً لخسرانهم..

وكم من أناس توالى في حياتهم المنع، فكانت عاقبة ذلك الخير والعطاء.

غير أن هذا لايعني الدعوة إلى إهمال الأسباب والقفز فوقها في مجال الأعمال والأنشطة الدنيوية، اعتماداً على ماقد يأتي به القدر من الغيب المجهول.. لو كان هذا مشروعاً وجائزاً لكانت ظاهرة العلل والأسباب في حياة الناس أمراً لامبرر ولا معنى لوجوده.

بل الذي شرعه الله وأمرنا به هو أن ننسجم مع النظام الذي أقامنا داخل مجاله، فنتعامل مع الأسباب الجعلية التي أقامها من حولنا، بأن نجعل منها مطايا لما قد أمرنا الله به، من أمور ديننا ودنيانا، والحديث

في هذه الحكمة إنما هو عن أمور الدنيا ومعايشها كما قد ذكرت لك في أول هذه الحكمة.. فتخرج إلى السوق وتسلك الأسباب المعروفة إلى الكسب والرزق، وتبني الدار وتجملها بالأثاث، وتستنبت الأرض بالزراعة واستخراج ما فيها من الأقوات والمعادن والمدّخرات.. فإذا أنجزت هذا الذي طالبك الشرع به، فإياك أن تتخذ من ظواهر هذه الأسباب التي كنت تتعامل معها دليلاً على بواطن الأمور التي هي نتيجة مباشرة لخلق الله عز وجل.

بل توجه إلى الله، خالق الأسباب والمسببات، بكل من الرجاء بفضله والخوف من ابتلائه، في كل الأحوال، أي سواء لانت لك الأسباب واجتمعت لك، أو تأبت عليك وابتعدت منك.

وإذا تأملت، وجدت أن كل هذا الذي قلته لك، مجتمع وماثل في قول الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ١٠/٥٨].

ثم إن من أبرز الأمثلة على المنع الذي يتضمن في باطنه العطاء، المصائب التي تداهم الإنسان في جسده أو ماله، أو أمنه وطمأنينته، فيجعل الله له منها كفارة لأوزاره وربما لبعض الكبائر أيضاً، فيرحل إلى الله وقد وضعت عنه أعباؤها، وطهرت نفسه من عقابيلها.

وقد صح أن أبا بكر رضي الله عنه قال لرسول الله ﷺ، بعد أن نزل قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَلا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ٤/١٢٣] كيف الفلاح بعد هذه الآية، فكل سوء

عملناه سنُجزى به!.. فقال له رسول الله ﷺ: ((يغفر لك يا أبا بكر، ألست تمرض، ألست تنصب، ألست تحزن، ألست تصيبك اللأواء؟)) قال: بلى. قال: ((فهو ما تجزون به))[1].

أفترى عطاء أبلغ وألطف من العطاء الذي تراه في تلافيف هذا المنع؟

ومع ذلك فإنا لنسأل الله تعالى أن يتفضل علينا فيكفر عنا السيئات والأوزار، بمغتسل بارد من رحمته ومغفرته، دون وساطة منع من المصائب والابتلاءات.

* * *

(١) رواه أحمد، ورواه الحاكم من طريق سفيان الثوري به، وروى أحمد عن سفيان بن عينية ومسلم والترمذي والنسائي من حديث سفيان بن عينية أيضاً أنه لما نزلت هذه الآية شق ذلك على المسلمين، فقال لهم رسول الله: ((سددوا وقاربوا، فإن في كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها)).

الحكمة الثانية والثمانون

«متى فتح لك باب الفهم في المنع عاد المنع هو عين العطاء»

هذا الذي يذكره ابن عطاء الله هنا، مثال من الأمثلة على ما ذكره في الحكمة السابقة «ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك».

فكأنه يقول: من الأمثلة التي تبين كيف أن المنع قد يكون هو عين العطاء، أن لاينال الإنسان ما كان يسعى ويطمح إليه، وأن يبتلى من ذلك بالحرمان، والمنع. فيلهمه الله أن الخير الذي يبتغيه إنما يكمن في هذا الحرمان، ولن يتحقق له من وراء ما كان يكدّ له ويسعى وراءه من الكسب الذي كان يبتغيه، فيطمئن عندئذ بذلك بالاً ويركن إلى السكينة والرضا.. إن هذا الإلهام الذي فتح الله عليه به، والذي أورثه ما أورثه من الطمأنينة والرضا، هو في الحقيقة، عين العطاء، وهل هناك عطاء أبقى وأرقى من أن يثق العبد بأن لطف الله لاينفك عنه، فإن مني بما هو المنع في الظاهر، فإنما هو عطاء ورعاية منه عز وجل في النتيجة أو الباطن.

ومقصود ابن عطاء الله، أن المنع أو الحرمان الذي قد يبتلى به العبد، ربما لاتظهر نتائج العطاء فيه فيما بعد، لا عاجلاً ولا آجلاً، ولكن ثقته

بحكمة الله ورحمته، تريح نفسه وتطمئن قلبه، فلايقع من جراء ذلك الحرمان في هم ولا غم ولايشرد به الفكر ولاتضطرب منه النفس، فليعلم أن هذا الذي منحه الله إياه هو عين العطاء.

وإنما يتم إدراك هذا المعنى، عندما تعلم أن واجب المسلم أياً كان، أن يكون في كل الأحوال مع ربه، أي مشدوداً بالفكر والانفعال الوجداني إلى صفاته وأسمائه الحسنى، فيتفاعل مع صفات اللطف والجمال، كما يتفاعل مع صفات القهر والجلال، ويكون حاله في ذلك كله بالتسليم والرضا والثقة بحكمة الله ولطفه، حتى عندما يجد نفسه في ساعات الشدائد والمحن.. ولايكون ذلك إلا إن حُجِبَ بفكره ووجدانه عن دنيا الناس، وشؤونهم وشجونهم.

فعندئذ لايشعر هذا المسلم بأن فيما يأتيه من عند الله، شيء اسمه المنع، بالمعنى السلبي الذي يراد منه الحرمان. لأنه في كل الأحوال والتقلبات إنما يتلقى الألطاف والمنح المناسبة في أوقاتها من الله.

فإن تلقى منه العطاء المتمثل في النعم المتنوعة ورغد العيش، وجد نفسه من ذلك مشدوداً إلى صفات الله، وإن تلقى منه ما يعبّرون عنه بالمنع، وجد نفسه من ذلك مشدوداً أيضاً إلى صفات الله. هنالك يشهد صفات بره ولطفه وإنعامه، وهنا يشهد صفات قهره وسطوته وسلطانه، والجامع بين الحالين ما ينبغي أن تلمسه فيهما من حكمته ورحمته.

وسيتجلى هذا المعنى بمزيد من الشرح والبيان عندما نصل إلى الحكمة الآتية التي يقول فيها «متى أعطاك أشهدك برّه، ومتى منعك أشهدك قهره».

وإنما قيدّ ابن عطاء الله هنا، تحوّل المنع إلى عطاء، بشرط أن يفتح الله أمام عبده باب الفهم، في حين أنه لم يقيد ذلك بهذا الشرط، في الحكمة التي قبلها، ليلفت نظرك إلى أن هذا الشرط إنما يتحقق لمن أكرمهم الله بمرتبة متميزة.

فالمعنى الذي عبرت عنه الحكمة السابقة، شامل لمدارك الناس جميعاً، إذ من شأن كل متدبر أن يعلم أن تحقق ظواهر الرغبات والآمال، لاتعني أنها تحمل معها عوامل السعادة والخير الذي يبتغيه، بل ربما كانت تجرّ معها إليه موجبات المصائب والنكبات؛ وأن يعلم أيضاً أن عدم تحقق تلك الرغبات والآمال، لايعني أنها تحمل إليه معها الشدة والبلاء، بل ربما كان ذلك هو السبيل إلى مبتغياته ورغباته الحقيقية. وقد ذكرت لك أمثلة من الوقائع والظروف الاجتماعية التي تدلّ على أن العبرة ببواطن الأمور ونتائجها، لا بمظاهرها وأشكالها.. وهذا مما يدركه الناس جميعاً على اختلاف فئاتهم ورتبهم.

أما المعنى الذي يرمي إليه ابن عطاء الله، في هذا الذي يقوله هنا، فهو شيء خاص، إنما يدركه ذوو البصائر، أولئك الذين يتعاملون مع مولاهم بمحض معاني عبوديتهم له. ولذلك اشترط في تفهم القارئ لهذا المعنى أن يكون ممن فتح الله لبصائرهم هذا الفهم الخاص.

فأصحاب هذا الفهم، لايفرقون بين إقبال الرغائب وإدبارها، لا أملاً في أن يحمل إدبارها إليهم ما يتطلبون.. ولاتحسباً لأن يجرّ إليهم إقبالها ما يكرهون، كما بينت لك آنفاً من الأحوال والظروف الاجتماعية المتوقعة.

وإنما السبب في عدم تفريقهم بين إقبالها وإدبارها، أنهم يرون أنفسهم مشدودين، بسبب كلا الحالين، إلى مراقبة الله وشهوده.. ونظراً إلى أن هذه الحال هي قصارى ما يبتغونه ويطمحون إليه. فقد غدا الإقبال والإدبار شيئاً واحداً في نظرهم واعتبارهم. إذ يسقط فرق ما بينهما عندهم، للمعنى الواحد الهام الذي يعود به كل منهما إليهم دون أيّ فرق، إلا وهو التمتع بشهود الله، أي بشهود صفاته، من خلال ما يسميه الآخرون منعاً وعطاء، أو إدباراً وإقبالاً.

وإنما ينال هذه الرتبة، ويتمتع بهذا الفهم الذي يذكره ابن عطاء الله، من تحرروا من حظوظ أنفسهم، ورخصت المتع الدنيوية في حسابهم.

ولايتحقق هذا، إلا لمن هيمنت صفات الربوبية على أفئدتهم، فاكتسوا من ذلك جلباب العبودية التامة لصاحب تلك الصفات، دون أن تشوبها شائبة أو زغل أو شرك.

فافرض أن أحدهم افتقر بعد غنى أو غني بعد افتقار، أو مرض بعد عافية أو عوفي بعد مرض، أو وفدت إليه نعمة مولود، أو مني بفقد قريب أو عزيز.. إنه (وقد تحرر من حظوظ نفسه وحلت محل ذلك من نفسه مشاعر عبوديته لله عز وجل)، لايفرّق بين شيء من هذه الأحوال ونقائضها ما دام أنه ينظر إليها بعين شهوده لله عز وجل، إذ يرى أن الله هو الذي يعامله ويقبل إليه من خلال كل ذلك، إما بصفات جماله ولطفه، أو بصفات جلاله وقهره، إن هذا الإقبال من الله عليه، ينسيه فرق ما بين الحالين. على أن لايستبين في أي منهما

دليل سخط أو مقت، فكأنه يردد في سائر التقلبات والأحوال كلام ذلك القائل:

إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب

* * *

ولكن إياك أن تفهم من هذا الذي أقول، في شرح هذه الحكمة العالية في مرماها والدقيقة في معناها، أن صاحب هذه الرتبة تتخلى عنه في هذه الحال طبيعته البشرية، فلايشعر بألم أمام المصيبة التي تأتيه، ولابلذة من جراء النعمة التي تطوف به.

بل الطبيعة البشرية باقية ومستمرة في كل الأحوال، والشأن في الإنسان أياً كان أن يشعر بمستلزماتها وآثارها، من الألم عند الشدائد، والراحة عند المبهجات والرخاء، ولقد علمت أن النبي ﷺ بكى وحزن لوفاة ابنه إبراهيم، وأعلن عن شعوره هذا قائلاً: إن العين لتدمع وإن القلب ليجزع، وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون.

غير أن طبيعته البشرية ومشاعره الإنسانية، لم تعكر عليه انصرافه بالكلية إلى التسليم لحكم الله وقضائه، وإلى الثقة التامة بحكمته ورحمته، وإلى اليقين بأن الخير كل الخير فيما قضى به الله، ومن ثم فليس ثمة فرق عنده، فيما يقضي به الله عز وجل بين المنع والعطاء.. ولذا قال عليه الصلاة والسلام، بعد أن أعلن عن مشاعره الإنسانية: ولانقول إلا ما يرضي ربنا، إنا لله وإنا إليه راجعون.

وارجع إلى ما ذكرته من قبل، من حال معاذ بن جبل رضي الله عنه، عندما وقع في سياق الموت واشتدت به برحاؤه، فقد لاحظت أن الإقبال والإدبار أو المنع والعطاء، على حدّ تعبير ابن عطاء الله استويا عنده، وذاب الفرق بينهما في ضرام حبه لله عز وجل ولذلك كان يقول له: أي رب، اخنقني خنقاتك، فوعزتك إنك لتعلم أن قلبي يحبك.

ولكن ضرام حبه هذا، وعلوّ منزلته التي ساوت بين المنع والعطاء، أو السراء والضراء، لم يحرره أي منهما عن طبيعته البشرية ومشاعره الجسمية الإنسانية، ولذا فقد كانت آلام الموت إذا اشتدت به، وقع منها في غشية، وطاف به منها ما يشبه السكر من شدّة الألم.. فإذا خفّ عليه الألم وأدركته الصحوة، عاد إلى مناجاته تلك مع ربه.

ولقد داهمتني يوماً ما مصيبة، وقعت منها فيما يشبه هذا الحال: القوى البشرية المحدودة والمشاعر الإنسانية الضعيفة، تئن وتتألم وتتوجّع.. ولكن اليقين بحكمة الله، مع ما أنجدني به الله تعالى آنذاك من مشاعر الحب له والثقة برحمته ولطفه، أورثني يقيناً بأنني من ذلك الحدث أمام مصيبة في الظاهر، ورحمة، بل فضل إلهي في الحقيقة والباطن.

ولقد صغت آنذاك كلاماً عبرت به عن كلا الحقيقتين، التوجه البشري والإنساني لوقع المصيبة، واليقين التام بأنها ليست إلا علاجاً لسوء حالي، وإصلاحاً لفساد نفسي، وتكفيراً لكثير من زلاتي.

وها أنا أضع أمامك هذه الكلمات، آملاً أن لاتفهم منها أنني قد تبوأت بها هذه المرتبة التي يشير إليها ابن عطاء الله بقوله: ((متى فتح لك باب الفهم..)) بل إنني أقف الآن في مرحلة المتعلم لقوله السابق: (((ربما أعطاك فمنعك وربما منعك فأعطاك))، ولم أنته بعد من إدراكها والتشبع السلوكي بها.. ولكن الله كثيراً ما يبعث مع المصائب التي قد يبتلي بها عباده، من اللطف بهم والحماية لهم، ما يجعلهم ينصرفون إليه بتجديد العبودية، وتأكيد البيعة له، ويركنون إلى الأنس به والدينونة لسلطانه، وصدق الربانيون إذ قالوا: في كل جلال جمال.

وهي تجليات ونفحات ربانية لايكاد يحرم منها إنسان مسلم، لاسيما في ضرام المصائب والشدائد، ثم إما أن تبقى وتستمر معه إن أحسن وفادتها وقام بأداء حقها. وإما أن تغيب عنه لتعود إليه بعد حين.

فبنفحة من هذه النفحات الربانية استقبلت تلك المصيبة، وبلطف بالغ منه أدركت أنني منها أمام جاذب أخاذ من جمال الله ولطفه، أُسدل عليه حجاب غير ضيق من جلاله وقهره، فعن ذلك الجمال الجاذب وهذا الجلال القاهر تحدثت قائلاً:

((إنه مالكي الذي أنا عبده، شاء (وهو اللطيف الودود) أن يمنحني كأساً مترعة بذوب النعيم الصافي، رشفت بردها على ظمأ، وعللت بها القلب في نشوة بالغة وشكر عظيم.. ثم شاء (وهو الحكيم الخبير) أن يسلبنيها وأنا أشدّ ما أكون تعلقاً بها وحاجة إليها، فله مني أصدق الحمد يوم أعطى ويوم أخذ، وله مني الرضا الكامل بقضائه الذي لامعقب له)).

أجل... لقد تألمت كثيراً لوقع المصيبة، ولقد تلوّى هذا القلب الذي بين جنبيّ – ولايزال – على جمر من العذاب. ولكن العقل لم يشك لحظة واحدة في الحقيقة الراسخة الكبرى ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢/٢١٦] ورب مريض يعذَّب تحت مبضع طبيبه الجراح، وهو يشكره باللسان ذاته الذي يتوجع به.

إنني لأتوجع!.. وإنه لينبعث التوجع من وراء أضلاع صدري نداء وأنيناً اتجه بهما إلى رب العالمين، ولكنني أشهد أن عبوديتي لهذا الإله العظيم لن تترجمها لغة أبلغ من هذا النداء المتوجع الشاكي.

ومتى تظهر العبودية لله على حقيقتها، إن لم تظهر تمرّغاً وأنيناً على باب رحمته وإكرامه؟.. ومتى يتمرغ الإنسان بهذا الشكل إن لم يصبه سهم نفاذ من نوائب القدر وحكمه؟..

((اللهم يا أنيسي في الوحشة، وياعوضي عن كل مصيبة، ويا أملي عند اليأس، بل يا منتهى أملي في كل شيء.. لقد وضعت جراح قلبي بين يديك، واتكلت في كل أمري عليك، واستعنت بك في متابعة طريقي إليك. فلاتبعدني عن جنى رحمتك وأذقني برد إحسانك ولطفك))[١].

لقد كان هذا الكلام ثمرة فهم تجلى الله به عليّ لطفاً وتفضلاً منه عليّ، أثناء وقوع تلك المصيبة، ليشعرني جل جلاله من خلالها بأن

---

(١) من مقدمة لكتابي: (من هو سيد القدر في حياة الإنسان).

المنع المتمثل في ذلك البلاء هو ذاته العطاء المتمثل في ذلك الانصراف إليه، والأنس به، والانضواء تحت سلطان قهره وجناح رحمته ولطفه.

إلاّ أن المهم أن يبقى هذا الفهم، ولايغيب في تلافيف الغفلات، والانصراف إلى الملهيات والمنسيات.

والمأمول من كرم الله ولطفه أن يمتعنا به ويديمه علينا، وأن لايحوجنا لاستمراره إلى سلسلة المصائب والابتلاءات.

اللهم إنا نسألك بالضعف الذي وصفتنا به، أن تجعل عطاءك لنا صافياً عن شوائب المنع، وأن تعرفنا نعمك بدوامها، وأن لاتحوجنا في معرفتنا لها إلى فقدها، فإنك القادر على كل شيء، ولك الخلق والأمر.

* * *

الحكمة الثالثة والثمانون

«الأكوان ظاهرها غرة وباطنها عبرة، فالنفس تنظر إلى ظاهر غرّتها، والقلب ينظر إلى باطن عبرتها»

كلمة «الأكوان» جمع كون، والمراد بها المكوّنات، فهي مصدر بمعنى اسم المفعول.

والمراد بالمكونات هنا الدنيا، والمعنى الإجمالي السريع لهذه الحكمة يتلخص في التالي: هذه الدنيا التي من حولنا لها ظاهر سطحيّ تراه العين وتتأثر به النفس، ولها باطن خفي يدركه العقل المتدبر. فأما ظاهرها السطحي فزينة وزخارف تأخذ الأبصار وتغرّ النفوس، وأما باطنها الخفي فمبعث للاعتبار ومصدر للحذر من سوء العواقب، لمن تأملها بعقله ونظر إليها بالعين المتطلعة إلى النتائج.

والمراد بالنفس هنا الغريزة الحيوانية التي نلتقي نحن وسائر الحيوانات العجماوات على جامع مشترك فيها.. والمراد بالقلب مهبط الأنوار العلوية، ومهبط التجليات الربانية، وربما تمثل ذلك في العقل الذي هو من أثر تجليات الله على الدماغ، وربما تمثل في العضلة التي وراء الصدر، والتي هي معين العواطف والوجدان.

وقبل أن نخوض في تفاصيل ما تدل عليه هذه الحكمة، ينبغي أن ألفت النظر إلى أن كل ما يحتاج إليه الإنسان من متاع الحياة الدنيا لاستمرار عيشه وللنهوض بواجباته التي كلفه الله بها، لايعدّ في المصطلح الديني من الدنيا التي يتحدث عنها ابن عطاء الله في هذه الحكمة.

فالمسلم يحتاج إلى وطن يجد فيه أمنه واستقراره، وإلى أسرة يسكن إليها وتسكن إليه، وإلى دار تؤويه، وإلى رزق يكتسبه وينفق منه؛ وإنما يتسنى له السير إلى الله والعمل على بلوغ مرضاته، على راحلة من هذه الوسائل والأسباب. فإن أعوزته هذه الأسباب لم يتسنّ له القيام بما كلفه الله به من عمارة الأرض على الوجه الذي طلبه منه، ولم يتح له أن يمارس عبوديته لله بالسلوك الاختياري كما قد خلق عبداً له بالواقع الاضطراري.

ومن القواعد الثابتة في علم أصول الفقه قولهم: ما لايتم الواجب إلاّ به فهو واجب، وما لايتم المندوب إلاّ به فهو مندوب. إذن فكل ما لابدّ منه من المعايش وأسبابها، لتحقيق أوامر الله والوصول إلى مرضاته، حكمه حكم تلك الأوامر ذاتها، وللمسلم على استجلابها والاستفادة منها أجر النهوض إلى الغايات التي أمره الله بها، إن نوى استخدامها لبلوغ مرضاة الله.

إنما الدنيا التي تتحدث عنها هذه الحكمة، هي ما تجاوز حاجة المسلم في طريقه إلى الله، فإذا نال المسلم ما يحتاجه من المعايش وأسبابها للنهوض بما قد كلفه الله به من واجبات وآداب، ثم اتجهت

منه المطامع إلى المزيد من ذلك، مما لايتوقف عليه شيء من طاعاته وقرباته الدينية، فهذا المزيد هو الدنيا التي نتحدث عنها الآن في شرح هذه الحكمة.. إذ إن هذا القدر الزائد الذي ليس له أي دور في تقريبك إلى الله، لابدّ أن يكون له دور كبير في شغلك عنه.

والخلاصة أن كل ما شغلك بالله أو أعانك في التقرب منه، فهو من الدين أو من ملحقاته، وكل ما شغلك عن الله أو حجبك عنه فهو من الدنيا أو ملحقاتها.

* * *

والآن، وبعد أن عرفنا خلاصة معنى هذه الحكمة، نتساءل:

لماذا لاترى النفس من الدنيا إلا ظاهر غرّتها، في حين يرى القلب منها باطن عبرتها؟

وأقول لك في الجواب (بعد أن أذكرك بأن المراد بالنفس هنا الغريزة الحيوانية التي تشكل جامعاً مشتركاً بيننا وبين سائر الحيوانات العجماوات) إن النفس تعيش دائماً، فيما تتقلب فيه من شدة أو رخاء، في الحاضر الذي هي فيه. أي فهي لاتقيم وزناً للزمن المستقبل وما قد يأتي به، ولا لعلاقة الحال الحاضر به. فإذا ذاقت النفس نعيم الدنيا وعاشت منها في زخارفها ومتعها ومشتهياتها، ركنت إلى ذلك كله ولم تبغ عنه بديلاً، ورأت فيه الخير الذي لاعوض عنه، وذهلت في غمرة ذلك عما قد يأتي به الغد، وعن معنى الزمن الممتدّ من الحاضر إلى المستقبل، وعن مدى تأثير الأول في الثاني.

أما القلب (وقد عرفت المعنى المراد به) فالشأن فيه أنه ينظر إلى الزمن الحاضر، من خلال كونه طريقاً موصلاً إلى المستقبل، بل من خلال كونه باعثاً عليه ومؤثراً فيه. فهو إذ ينظر إلى نعيم الدنيا وزخارفها ومشتهياتها، إنما ينظر إليها من خلال ما ستؤول إليه ومن خلال ما قد تكون سبباً له.

ولقد تكونت من مجموع هاتين النظرتين اللتين يتعرض لهما الإنسان، قاعدة لاتشذ، بوسع كل منا أن يدركها ويتنبه إليها، وهي أن الإنسان كلما حبس نفسه ومشاعره في الزمن الحاضر الذي هو فيه، تعاظمت أمام عينيه متع الدنيا وزخارفها ورأى فيها الكنز الذي لاينفد، والنعيم الذي لايزول، فازداد سعيه وراءها وتعلقه بها... وكلما رمى الإنسان بآماله وأفكاره إلى المستقبل الذي هو مقبل إليه، ونظر من خلال ذلك إلى المصير الذي هو آيل إليه، صغرت أمام عينيه متع الدنيا وزخارفها وتضاءلت وخمدت جذوتها وغاب عنه ألقها.

إذن هي قاعدة: اِحبس نظرك واهتمامك وطموحاتك في الحاضر الذي أنت فيه، تتعشقه مهما كان تافهاً.. وجّه اهتماماتك ورغباتك إلى البعيد، إلى المآلات التي أنت مقبل إليها، تجد أن سائر كنوز الدنيا ومتعها التي من حولك غدت تافهة إلا بمقدار ما تكون سبيلاً إلى تلك المآلات والغايات.

وإنها لحقيقة ربانا الله عليها تربية عملية منذ نعومة أظفارنا، منذ طفولتنا الأولى، لكي نقطف منها ثمار العبرة والدرس، بعد أن نبلغ الرشد وتتفتح عقولنا لحقائق الدنيا ومآلاتها.

أتذكرون يوم كنا أطفالاً صغاراً حديثي عهد بالتعرف على الدنيا، ما الدنيا التي كنا نعشقها ونتعلق بها؟ إنها لُعَبٌ تافهة ننظر إليها اليوم فلانعيرها أي أهمية ولا نجد لها أي قيمة، هناتٌ وأدوات وقطع وحطام لأجهزة، كنا نملأ بها جيوبنا، ونعتز بامتلاكنا لها، وفي الليل نضعها في مخبأ أمين على مقربة من مكان رقادنا!..

لقد كان تعلقنا بتلك التوافه، آنذاك، كتعلق صاحب الكنوز بكنوزه وحرصه الشديد على رعايتها وحمايتها!. والسبب في ذلك أن أحلامنا وطموحاتنا ومداركنا كلها، كانت محصورة آنذاك في تلك الهنات والتوافه الحاضرة والماثلة أمام أبصارنا، كانت تلك هي دنيانا آنذاك.

فلما تجاوزنا تلك المرحلة الأولى من الطفولة، وشب أحدنا عن الطوق وبدأت مداركه العقلية تتفتح وتَعْرِفُ كيف تنسج له الآمال والأحلام في نظرات إلى المستقبل القريب، بدأ يتطلع إلى احتياز أشياء وممتلكات بسيطة وربما تافهة ولكنها أكثر جدوى، بحيث تتفق وما ينسجه لنفسه من أحلام مستقبلية قريبة. وفي غمرة تطلعاته هذه ظهرت لعبه وهناته التي كان يتعشقها من قبلُ ويرى دنيا آماله وأحلامه محصورة فيها، تافهة حقيرة لاقيمة لها.

ثم إن المدارك العقلية ازدادت لديه تفتحاً ونضجاً، واتجهت الرغبات الغريزية إلى آمال أبعد وطموحات أعلى، فأخذ يتطلع إلى بناء المسكن اللائق والبحث عن الزوجة المطلوبة وجمع المال اللازم، طامحاً إلى الحياة الفارهة.. وفي غمرة هذه التطلعات الجديدة إلى المستقبل الأبعد ظهرت الرغائب التي كانت قبل ذلك، تافهة لاقيمة لها ولامعنى للتعلق بها ولا للوقوف عندها.

هكذا إذن.. كلما ازداد العقل نضجاً واتجه بصاحبه إلى مآل أبعد عاد الحاضر الذي كان النظر محبوساً في أرجائه، تافهاً رخيصاً لا قيمة له ولا جدوى منه، اللهم إلا القدر الذي يمكن أن يتخذ منه سلماً لبلوغ طموحاته البعيدة.

ذلك هو واقع الحياة الإنسانية التي يعيشها كل منا، بمراحلها التي تبدأ بالطفولة، فالطفولة اليافعة، فالشباب، فالكهولة فالمشيب والموت. وقد جعل الله عز وجل من نشأة الطفولة وما وصفت لك من حالها، منطلقاً بل مقياساً للقاعدة الإنسانية التي حدثتك عنها.

اِحبس نظرك وآمالك فيما أنت فيه، يعظم في ناظرك الشيء الصغير، ويكبر أمامك الأمر الحقير، وتبدو لك التوافه كنوزاً لا غنى عنها.

وارم بآمالك وبصيرتك إلى المآل والمستقبل الذي أنت متجه إليه، يصغر عندئذ في ناظرك هذا الكبير، ويهون العظيم، وتبدو تافهة وحقيرة تلك الكنوز.

إنها مرحلة اللعب ذاتها في حياة الإنسان، ولكنها تنطلق سائرة من طور إلى طور، طبق قانون النسبية التي يخضع لخداعها الإنسان، ويظل هذا التنقل مستمراً، ريثما يرتفع الغطاء عن عين الإنسان وبصيرته، ويرى أمامه الحقيقة المطلقة التي كانت المقاييس النسبية تطوف كالخادم من حولها، ومن ثم فقد كان الإنسان غافلاً عنها، وصدق الله القائل - وهو يحدث الإنسان عن هذه النهاية التي سيقف عندها تطوافه وتنقلاته بمراحل الحياة -: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٥٠/٢٢].

وتأمل في الطور الأخير الذي يفترض أن يبلغه الإنسان عندما ينضج منه الإدراك، ويتكامل لديه الوعي، ويصفو له التأمل.. إنه يدرك عندئذ أن آماله الكبرى ليست هنا، بل هي جاثمة هناك.. إنه يعيش من حياته هذه في محطة.. في استراحة.. وهو راحل عنها عما قريب. وكل آت قريب كما يقولون. العمر المتبقي لهذه المحطة عام أو أعوام، ولسوف تنطوي الأعوام طالت أو قصرت.. إذن ينبغي أن يبني لنفسه حياة فارهة مسعدة فياضة بالنعيم، حيث هو متجه في رحلته إليه، وحيث سيضع عنده عصى التسيار، ويكون ثمة المقام والاستيطان.

ولاحظ أن الإنسان في كل الأطوار يبحث عن مقومات سعادته وأسباب نعيمه، ولكن مداركه كلما ازدادت وعياً ونضجاً، ألقى بحبال آماله وأحلامه إلى مستقبل أبعد.. ولقد كان هذا الإنسان ينظر إلى الدنيا التي هو فيها نظر المخلّد، نظر من سيبقى فيها ولن يتحول عنها، فتعلق بها وتعشقها وجعل منها مطمح آماله وأحلامه.. ولكن علم اليوم بوعيه الثاقب أنه راحل عنها، وأن مقرّه هناك في العالم الآخر (ونحن إنما نتحدث عمن آمن بالله وكتبه ورسله وعلم قصة الرحلة الإنسانية في فجاج الحياة) إذن فلابدّ أن يسعى سعيه اللاهث إلى تحقيق ضمانات سعادته التامة هناك، بكل الوسائل والسبل المتاحة له. وكلما ازداد اهتماماً بذلك المصير وتهيؤاً له ازداد الحاضر الذي من حوله ضآلة وتفاهة.

فهذه القاعدة التي شرحتها لك، تستوجب - إذا علمها الإنسان - أن لا يحبس نفسه من متع الدنيا ومشتهياتها في طور الحاضر، بل ينبغي

أن يتجاوزه إلى المستقبل الذي هو آيل إليه، وهي تستوجب أن يستمر في تطوره هذا، مادام المستقبل أمامه مفتوحاً، ومادام سائراً من حياته التي يعيشها على متن الطريق. فعندئذ يتحرر من أسر نفسه التي تنظر إلى حاضر مارآه من نعيم الدنيا فلا تراه إلاّ نعيماً مقيماً وألقاً ورغداً من العيش. وهذا هو مظهر اغترار النفس بها، وهو المظهر الذي عبر عنه ابن عطاء الله بكلمة ((غرّة)) أي اغترار.

وإذا تحرر الإنسان من اغترار نفسه بها، نظر إليها من خلال قلبه الذي هو مبعث الفيوضات الإلهية ومهبط التجليات الربانية، (وليس العقل المدرك إلا أثراً لهذه الفيوضات والتجليات) فبدت أمامه تافهة صغيرة، كما تبدو أمام الطفل الذي شب عن الطوق وتفتحت مداركه العقلية، هناتُه ولُعَبُه التي كان من قبل متعشقاً لها، أشياء تافهة حقيرة لاتستأهل الاهتمام ولا النظر.

وإذا شق عليك الأمر، فقس نفسك اليوم، وأنت رجل كبير، على أيام صغرك، مع فارق واحد..

لقد كنت في ذلك العهد، أيام طفولتك الأولى، تنظر إلى السيارة الصغيرة التي اشتراها لك والدك لتلعب بها، على أن الدنيا بكل متعها ورغائبها قد اجتمعت فيها.. ولاتنس أن عقلك لم يكن قد تفتح ونضج آنذاك، فلم تكن تستطيع أن تتحرر من نفسك وأن تشدّها إلى المستقبل لتعلم أن هذه اللعبة شيء تافه، بالنسبة إلى ما أنت مقبل عليه ومحتاج إليه، لذا فقد كنت معذوراً آنذاك..

لكن عقلك الآن متكامل وناضج.. فإذا كنت اليوم على الرغم من ذلك لاتزال أسير نفسك، متعلقاً بما تراه من حاضر هذه الزخارف الدنيوية، فدعني إذن أقل لك: إن ذلك الطفل الذي كان كامناً في كيانك قبل عشرين أو ثلاثين عاماً، كان أعقل منك، إذ كان هو معذوراً، لايتسع عقله لإدراك ما هو أكثر من الحاضر الذي كان يعيش فيه. أما أنت فقد نضج عقلك وتكامل وعيك، وعلمت أنك تعيش من حياتك هذه داخل قطار يسير طبق رحلته المبرمجة دون توقف، وعلمت الآن أنك مهما حملت نفسك من أثقال الدنيا فلسوف تتركها، وبمقدار ما تتكاثر لديك هذه الأثقال اليوم، تشتدّ غصتك عندما تتركها وترحل عنها.

إذن فعليك أن تفعل اليوم كما فعلت بالأمس عندما تجاوزت الطفولة إلى الشباب، ألم تعرض أنذاك عن لعبك وهناتك التي كنت مشدوداً إليها أيام طفولتك؟ ألم تلقها من حياتك في زاوية الذكرى، متجهاً إلى ما تتطلبه أحلامك المستقبلية التي صحوت إليها؟

واليوم.. ألم تصح إلى المستقبل الأبعد والأهم؟.. فمالك لاتتجاوز طفولتك الثانية لتتدارك ما تتطلبه حاجاتك المستقبلية الجديدة التي أنت مقبل عليها؟

أما إنه لافرق بين طفولتك الأولى والثانية.. اللهم إلا أنك رحلت عن التمسك بأوهام الأولى عندما صحوت إلى غرائزك وتعرفت على حاجات شبابك، ولم ترحل عن أوهام الثانية عندما صحوت إلى مستقبلك الأهم والأخطر، وتعرفت على حاجاتك الأخرى التي ينبغي

أن تتداركها بين يدي رحيلك إلى ذلك المستقبل، بل ذلك المستقرّ الأخير.

ما الفرق بينك وبين رجل مثل الحارث بن مالك الأنصاري رضي الله عنه، ذاك الذي قال لرسول الله ﷺ، وقد سأله: كيف أصبحت ياحارث؟ أصبحت مؤمناً حقاً!.. فقال له: أنظر يا حارث، إن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك؟ قال: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري، وكأني بعرش ربي بارزاً، وكأني بأهل الجنة في الجنة ينعمون فيها، وكأني بأهل النار في النار يتعاوون فيها فقال رسول الله ﷺ: عبد نور الله قلبه[1].

إنني أقول: ما الفرق بيني وبين حارث بن مالك؟ وأنا أتكلم عن نفسي.. كما أدرك الحارث أنه راحل عن هذه الدنيا ومقبل على الله تعالى، أنا أيضاً أعلم ذلك وأدركه بعقلي، إنني لم أعد اليوم صغيراً.. كنت في طفولتي أغتر بالدنيا التي ترقص حولي، وكانت لعبها تستهويني وتأخذ بلبي، ولكن هاأنا اليوم أعلم - وقد تكامل لديّ الرشد - أن قطار العمر يغذّ بي السير إلى غاية، وأن كل ما كنت مأخوذاً ومفتوناً به من زخارف هذه الدنيا، استراحات وبوارق زينة تلتمع عن يمين الطريق ويساره، إنني أجتاز بها ولا أتوقف عند شيء ما، وإنما القرار هناك، عند الغاية التي يسوقني قطار العمر إليها، وصدق الله القائل: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: ٤٢/٥٣].

---

(١) رواه عبد الرزاق في مصنفه معضلاً، ورواه ابن المبارك في الزهد كذلك، وروي موصولاً من طرق كثيرة أخرى، منها ما أخرجه الطبري بسنده من حديث الحارث بن مالك، وذكر الحديث بألفاظه هذه أو قريباً منها، وانظر ترجمة الحارث بن مالك هذا في الإصابة للحافظ ابن حجر ٢٨٩/١.

حسناً، إذن أنا راحل عن الدنيا مدبر عنها، مقبل على شأني الذي أنا صائر إليه، فلماذا لا أفهم الحقيقة التي فهمها الحارث بن مالك؟ لماذا لاتعزف نفسي أيضاً عن الدنيا كما عزفت نفسه عنها؟ بل كما عزفت نفس الشاب عن لعبه التي كان مأخوذاً بها أيام طفولته، إذ كان محبوس الشعور آنذاك بحاضر علاقته معها؟..

إنه السكر... ولاشيء غير السكر!.. ولكنه سكر تطاول أمده، على خلاف ما نعلم من عاداته وشأنه!..

السكران بالخمرة يصحو بعد ساعة أو ساعات، ولكن سكر النفس بخادعات الليالي والأيام سكر متطاول لانهاية له إلا مع نهاية العمر والانتقال إلى المقطع الثاني من رحلة الحياة الإنسانية هذه.

ولقد مر الحارث بن مالك بنفق هذا السكر أيام جاهليته، ولكنه تجاوزه من بعد، كما يتجاوز الطفل سكره بزخارف اللعب وبوارق الزينة، إذ يصحو بعقله إلى المستقبل الذي هو متجه إليه، فهلاّ صحونا نحن أيضاً بالعامل ذاته إلى المستقبل الذي نحن جميعاً آيلون إليه؟!..

بل لقد مرّ أصحاب رسول الله جميعاً بهذا السكر إذ كانوا يخبّون في ظلام جاهليتهم، فتعشقوا الدنيا وأخذوا بزخارفها، ثم إن الإيمان بالله أيقظهم، وخطاب الله القائل: ﴿يا أَيُّها الإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾ [الإنشقاق: ٨٤/٦] نبههم. فتعاملوا عندئذ مع الدنيا بعقولهم بعد أن كانوا مأخوذين بها بتأثير نفوسهم.

انظر إلى الخنساء (تماضر بنت عمرو بن الشريد) يوم كانت تنظر إلى الدنيا من خلال نفسها، فلاترى فيها إلا ظاهر غرّتها، على حدّ

تعبير ابن عطاء الله، كانت لاترى منها إلا الحاضر الذي تعيش فيه، ومن ثم فقد ملأت الدنيا عويلاً على موت أخ لها اسمه صخر، ورأت في موته فاجعة لا عزاء لها ولابديل عنه من بعدها، وقام الكرب عليه بين جوانحها ثم لم يقعد، حتى حدثت نفسها بأن تزهق حياتها أسفاً عليه.

فلما أيقنت بنبوة رسول الله، وأصغت إلى البيان الإلهي يهون من شأن الدنيا ويتحدث عن قصة الرحلة الإنسانية من المبدأ إلى المنتهى، بدأت تنظر إلى الدنيا من خلال قلبها لامن خلال نفسها على ضوء البيانات الإلهية القائلة: ﴿لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ، مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادِ﴾ [آل عمران: ٣/١٩٦-١٩٧]، والقائلة: ﴿إِنَّما هَذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ﴾ [غافر: ٤٠/٣٩]، والقائلة: ﴿قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [النساء: ٤/٧٧]، والقائلة: ﴿اعْلَمُوا أَنَّما الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكاثُرٌ فِي الأَمْوالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفّارَ (أي الزراع) نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٌ وَما الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاّ مَتاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٥٧/٢٠] بدأت تنظر إلى حاضر عمرها على ضوء المستقبل الذي هي آيلة إليه، طبق ما قد أنبأ به بيان الصادق المصدوق جل جلاله. فاتقلب بها الحال عندئذ إلى نقيض ما كانت عليه وتجاوزت مرحلة السكر النفسي إلى اليقظة العقلية، فأخذت ترى من المكونات، أي الدنيا، باطن عبرتها على حدّ تعبير ابن عطاء الله. وأقبلت تحت سلطان هذه اليقظة العقلية إلى أربعة أبناء لها هم كل ما

تملكه من نشب الدنيا، فزجّت بهم في ضرام القادسية، بعد أن جمعتهم فأوصتهم قائلة:

((يا بَنِيَّ: إنكم أسلمتم لله طائعين، وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله إلا هو، إنكم لبنو رجل واحد وامرأة واحدة، ما خنت أباكم ولافضحت خالكم. أمضوا إلى قتال عدوّكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين)).

وما هو إلا أن جاءها النبأ بمصرعهم جميعاً.. فكيف استقبلت النبأ؟ كيف استقبلت نبأ مصرع أولادها تلك التي ملأت الدنيا نواحاً على أخيها صخر؟

لقد تقبلت القضاء الإلهي صابرة شاكرة، ولم تزد على أن قالت: الحمد لله الذي شرفني بقتلهم جميعاً، وأسأل الله أن يجمعني بهم في مستقر رحمته.

إن هذا الذي آل إليه حال الخنساء والحارث وسائر أصحاب رسول الله، إنما هو مصداق القاعدة التي ذكرتها لك: علق قلبك واهتماماتك بالمستقبل الذي أنت مقبل إليه، يهن الحاضر الذي بين يديك ويضؤل أمام عينيك مهما كان كبيراً.. علق قلبك واهتماماتك بالحاضر الذي أنت فيه، يعظم كل ما تراه من حولك من أعراض الدنيا مهما كان تافهاً وحقيراً.

إن أصحاب رسول الله ومن جاء على أثرهم من السلف الصالح، لم تهن الدنيا أمامهم ولم يستخفوا بمتعها وزخارفها، بسهولة وبدون أي جهد.. وإنما هانت بكل مافيها أمامهم عندما علقوا آمالهم وركزوا طموحاتهم على مابعد الموت.

من الذي يدرك معنى كلام رسول الله ﷺ: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ولبست فأبليت وتصدقت فأبقيت»[١] أقول: من الذي يدرك معنى هذا الكلام ويستيقنه إلا من ألقى بأحلامه وطموحاته إلى المستقبل، بل إلى الغاية التي لابدّ أن ينتهي إليها من ذلك المستقبل؟ ولقد كان هذا شأن سلف هذه الأمة رضوان الله عليهم، فأما من حبس نفسه وأحلامه في دائرة الحاضر الذي هو فيه فذاك يصدق عليه قول رسول الله ﷺ: «لو كان لابن آدم وادٍ من مال لابتغى إليه ثانياً، ولو كان له واديان لابتغى إليه ثالثاً، ولايملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب»[٢].

وأعود فأذكّرك بأن ماكان من الدنيا مطية لبلوغ مرضاة الله، تستعمله بهذا القصد، وتبتغي به الاعتماد عليه لتنفيذ أوامر الله وإقامة شرعه، ليس من الدنيا، بل هو من ملحقات الدين وتوابعه، إذ ما لايتم الواجب إلاّ به فهو واجب، وما لايتم المندوب إلاّ به فهو مندوب، والوسائل المشروعة لها حكم المقاصد.

فكل من أطايب الطعام، والبس فاره الثياب، واتخذ لنفسك ولأهلك الدار الواسعة، دون تكلف لمفقود ولا شرود إلى محرم، واجعل قصدك من ذلك كله تعبيد طريق سيرك إلى الله وتيسير السبيل إلى النهوض بأمره، واهنأ بخطاب ربك القائل: ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً﴾ [النساء: ٤/٤].

(١) رواه مسلم من حديث عبد الله بن الشخير وأبي هريرة.

(٢) رواه الشيخان وأحمد والترمذي من حديث أنس وابن عباس، ورواه البخاري أيضاً من حديث ابن الزبير.

ولكن لاتحمل من ذلك أثقالاً على ظهرك، تقطعك عن بلوغ الغاية بدلاً من أن توصلك إليها، وتعاني الأتعاب الجسيمة من حملها بدلاً من التمتع بها.. واذكر أن مآلك بعد طول المعاناة بحملها أن تضعها أرضاً وترحل إلى الله حاملاً تبعاتها مثقلاً بذيولها وعقابيلها. لا أنت بها في دنياك تمتعت، ولا من أثقالها وأكدارها تخلصت!..

ياعجباً لرجل استأجر داراً من صاحبها إلى عشرة أعوام، وله على مقربة منها خربة تحتاج إلى بناء، فلما صار الرجل إلى هذه الدار المستأجرة أُخِذَ بزينتها وأثاثها ومزاياها، فحبس نفسه وحصر اهتمامه في حاضر تلك السنوات العشر، وركن إلى تلك الدار المستأجرة لاهياً بها ناسياً المستقبل الذي يشده إلى داره الخربة ليصلح من شأنها ويتمم نقصها ويوفر لها الفرش والأثاث.. ومضت السنوات العشر ساهياً لاهياً ناسياً المستقبل الذي هو آيل إليه، حاصراً فكره وأحلامه في حاضر ذلك المستودع الموقوت الذي هو فيه. ولم يوقظه من ذلك إلاّ شبح مالك الدار مقبلاً إليه يطلب منه الإخلاء ومغادرة الدار!.. هنالك صحا إلى المستقبل الذي هجم عليه هجوم الصاعقة على غير ميعاد وتذكر داره الخربة، ونظر إليها تلوح له على البعد قائلة: آسفة جداً، فإنني كما ترى لا أصلح لك!..

ألم يكن أولى بهذا الرجل أن يجعل من سنوات مكثه في الدار المستأجرة فرصة ينفقها لإصلاح داره، يعود إليها بين الحين والآخر بتجديد البناء وإتمام النقائص وتجميلها بالفرش والأثاث، يتمتع خلال تلك السنوات بالدار التي هو فيها، ويشدّ آماله وأحلامه خلالها إلى تهييء مستقره الذي هو آيل إليه. حتى إذا مضت السنوات العشر،

وجاء صاحب الدار يطلب داره، قال له هذا: حباً وكرامة، ثم انطلق منها فرحاً مبتهجاً إلى داره التي تنتظره مبنية مؤثثة مجملة، تقول له بلسان الحال: مرحباً بك وأهلاً، كل مرفق من مرافقي مهيأ لاستقبالك وإسعادك.

تلك هي قصة رحلة الإنسان في فجاج هذه الحياة، رحلة من مستودع الدنيا إلى مستقر الآخرة، فانظر أي الرجلين تكون. وما إخال أن في الناس عاقلاً يؤثر أن يكون في مثل حمق الرجل الأول، يلهو بحاضره لتحرقه الندامة في مستقبله.

* * *

الحكمة الرابعة والثمانون

((إن أردت أن يكون لك عز لايفنى، فلاتستعزن بعز يفنى))

العزة هي الترفع عن المهانة وعن الذل للآخرين، ومن ثم فهي تختلف عن التكبر الذي هو التسامي على الآخرين.

والعزة من الخصال المحمودة، في حين أن التكبر من الخصال المذمومة.

والإنسان مفطور على الاعتزاز، غير أنه مفطور على الضعف أيضاً. قال الله عز وجل: ﴿وَخُلِقَ الإِنْسانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٤/٢٨].

ومن هنا احتاج الإنسان، ليمارس عزته، إلى ما يعينه على ذلك، وبتعبير آخر: إلى حصن يقيه الوقوع في آفات الذل والمهانة للآخرين.

ضعفه يعرضه للذل والمهانة، وفطرته تشدّه إلى الاعتزاز، ولابدّ له في ذلك من عون.

فبماذا ينبغي أن يستعز الإنسان، ليتقي الوقوع في مزالق المهانة والذل للآخرين؟

في دنيا الناس أسباب كثيرة، تبدو كأنها أماكن وقاية تحمي الإنسان من الذل وتوفر له العزة والكرامة. كالمال والجاه والرئاسة والاحتماء بأصحاب المكانة والنفوذ، وكالتمتع بالمنعة والقوة المادية، إلى آخر ما تعلم من الأسباب الاجتماعية المعروفة التي يتخذها الناس دريئة ضد التعرض للذّل والهوان للآخرين أو أمام الآخرين.

ولكن هل هذه الأسباب الاجتماعية تحمي الإنسان فعلاً من التعرض لآفات الذل، وتبقيه آمناً في حصن عزته وكرامته؟

للجواب عن هذا السؤال، يجب أن نتذكر بعض الحقائق العلمية التي هي مستند عقيدة التوحيد في حياة كل مسلم. ألا وهو ظاهرة السببية في الكون. فلقد سبق أن عرفنا في دراستنا العلمية لهذه الظاهرة، أن الكون يعجّ بما نسميه عللاً وأسباباً، بل ما من شيء ينعدم أو يوجد أو يتحرك أو يتطور، إلا ومن ورائه سبب يدعو إلى ذلك.. ولقد عرفنا، فيما درسناه من هذه المسألة أنك عندما تنظر إلى السطح الظاهري لدنيا المكونات، تجده يفور ويغلي بالأسباب والمسببات التي لاتحصى، فإذا تجاوزت الظاهر إلى شيء من العمق، تجد أن تلك الأسباب بدأت تتناقص، فإذا تجاوزت الظاهر إلى مزيد من العمق رأيتها أكثر تناقصاً، وإذا أتيح لك بما تملكه من الحصيلة العلمية أن تغوص في مزيد من العمق، متتبعاً علاقة ما بين الأسباب والمسببات، رأيت الأسباب تقلّ، ثم لاتزال تقل، كما تقلّ أغصان الشجرة كلما تجاوزت رؤوسها هابطاً إلى الأدنى فالأدنى منها، إلى أن توصلك حقائق العلم إلى الجذع الواحد الذي تفرعت عنه الأسباب كلها، إلى مسبّب تلك الأسباب ألا وهو الله عز وجل.

بين يدي هذه الحقيقة العلمية التي لامجال في هذا المقام للخوض فيها بأكثر من هذا البيان الموجز، يتجلى معنى كلام ابن عطاء الله.

إنه يقول: إذا كان لابدّ لك، لمماسة عزتك الفطرية، من عون أو مستند، يقيك ضعفك ويبقيك آمناً في حصن عزتك، فإياك والاستناد إلى أغصان الأسباب التي لاقيمة لها ولافاعلية ذاتيةً فيها، فلسوف تتقطع بك تلك الأغصان وتوقعك من الاعتماد عليها أرضاً. بل اعتمد على الجذع الذي تفرعت منه تلك الأغصان، اعتمد في العمل على استمرار عزتك، على مسبب الأسباب كلها، ألا وهو الله عز وجل.

وبيان هذا بشيء من التفصيل أن نقول: إن الله فطر الإنسان على كل من الضعف والعزة معاً. فهو ضعيف في ذاته، مشدود إلى العزة بمشاعره ورغباته، ومن ثم فإن عزته لاتتحقق إلا بمستند وعون، أي إنه بحاجة إلى من يتولاه فيحميه من عقابيل ضعفه ويبقيه في حصن كرامته وعزته.

فمن هو وليّه الذي يحقق له هذه الحماية؟

كل الأغيار من دون الله عز وجل، لاشأن لهم ولاقيمة، بل ليس لهم وجود ذاتي قط. إذ هو الموجد لهم ابتداء واستمراراً، وهو المتصرف بهم والباعث لقدراتهم وحركاتهم، إذن فالاعتماد على هذه الأغيار أياً كانت، حمق، وتورط في مهلكة.

فالذي يبتغي الاعتزاز بالمال إذ يجمعه وينميه، إنما يعتمد من ذلك على ما يشبه الاعتماد على كثيب رمل متنقل. والذي ينسج لنفسه، ابتغاء تحصين عزته، دائرة من الرئاسة والمكانة، يحمي نفسه من ذلك

فيما يشبه بيت العنكبوت. والذي يشحن جسمه بالقوة ويدعم قوته الجسمية بالسلاح والعتاد، موقناً أنه قد ضمن لنفسه بذلك عزة راسخة لاتزول، أشبه بمن يجعل من الظلّ المتنقل حرزاً دائماً له.

كل هذه الأعراض التي تبدو وسائل وأسباباً، جنود بيد الله يصرّفها كما يشاء ويسخرها لما يريد. إن هي إلاّ أشباح لاحول لها ولاقوة، بل لاوجود لها إن انقطع عنها المدد ا لإلهي.

إذن فالملاذ والملجأ هو الله وحده. إذ هو الخالق وهو الفعال وهو المسخر مايشاء لما يشاء.. ويتمثل هذا المعنى كله، مجتمعاً، في كلمة ((وليّ)) من مثل قول الله تعالى: ﴿ما لَكَ مِنَ اللَّـهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا واقٍ﴾ [الرعد: ١٣/٣٧] وقوله تعالى: ﴿وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ٢/١٠٧].

فإذا تجاوزته إلى الأغيار ، أياً كانت، وقعت في ظلمات الأوهام، وتخبطت بين أمواج الآمال الخائبة، وإن بدت لك ذات بوارق في أول الأمر.

وانظر إلى حقيقة ولاية الله وحده للإنسان، وبطلان كل ما عداه مما يرى فيه الناس عوناً أو مستنداً أو فاعلاً، كيف يتجليان في قول الله عز وجل: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ٣٩/٣٦]. ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكافٍ عَبْدَهُ﴾: تعبير جامع دقيق عن ولاية الله وحمايته ورعايته للإنسان الذي هو عبدٌ له دون سواه.. ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾: تعبير جامع ودقيق عن بطلان سائر الأوهام الأخرى التي قد يتراءى للناس فيها معنى الحماية أو القوة والتأثير. عبّر

عنها البيان الإلهي بكلمة ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ الشاملة لكل ما عدا الله، والمنبه عن معنى الصغار والدون فيه.

وكيف يكون الإنسان عبداً لواحد لاثاني له، ثم يكون للإنسان ولي ونصير من دونه؟!.. كيف يستقيم ذلك في ميزان المنطق والعلم؟!..

* * *

وبعد، فما هي ثمرة هذه الحقيقة التي فرغنا الآن من بيانها من الجانب النظري والعلمي؟ ما الواقع السلوكي الذي يجب أن نلتزمه على ضوء معرفتها واليقين بها؟

يتلخص الجواب فيما يلي: تلمَّسْ لنفسك - إذ تبحث عن مستقرّ ثابت لعزتك - عن مستند لايتهاوى، ولاتركن من ذلك إلى ما هو موجود اليوم ومفقود غداً.

لعلك ممن أكرمهم الله ببسطة من المال ففاض في دارك منه الكثير. فركنت في البحث عن مستقر لعزتك إلى هذا الغنى الذي تتمتع به!.. فاعلم أن المال الذي أرسله الله إليك يوشك أن يذهب كما جاء، جاء بحكم وقضاء منه، ويذهب كله أو جلّه غداً بحكم وقضاء منه، وعندئذ تبقى عزتك نهباً، للحاقدين والشامتين، في العراء، يتسابقون إلى تمزيقها ثم إلى النيل منك بكل ما يستطيعون.

أو لعلك ممن يتمتعون بمركز اجتماعي أو قيادة أو رئاسة، فاتخذت من هذا العارض الذي أتيح لك، تربة غرست فيها بين الناس عزتك

وكرامتك. فاعلم أن الذي ساق إليك هذا المركز أو الرياسة، يوشك أن يسترده منك. ولسوف يصبح الناس عندئذ من حولك ما بين مشفق وشامت، ولن تكون رحمة المشفق بك أقل إيلاماً من قهقهة الشامتين عليك.

أو لعلك ممن أوتوا بسطة من الجسم ومزيداً من القدرة والقوة، فأضفت إلى ذلك من العتاد والآلة، ماجعلك توقن بأن أحداً لن يستطيع مسّاً بكرامتك ولاجرحاً لعزتك، فاعلم أن هذه القوة المخزونة في كيانك ليست إلا وديعة استودعت لديك، ويوشك أن يستردّها مالكها منك في أي ساعة أو لحظة، وإذا أنت خائر القوى مفكك الأوصال. ولن تقع أنظار الناس منك، عندئذ، إلا على كتلة من المهانة والضعف والذل.

أو لعلك ترى ما ميزك الله به عن الآخرين، من حدة الزكاء، وعمق المعرفة واتساع الدراية، فحسبت أنك قد أوتيت من ذلك حصناً يحفظ لك عزتك ويبقيها في نجوة من كل ما قد يتهددها من الآفات والأخطار!.. فاذكر أن الله قد أخرجك إلى الدنيا غافلاً لاتفهم، جاهلاً لاتعلم، ثم إنه ركَّب في كيانك العقل، وأورثك ماشاء من العلم.. واعلم أن الإله الذي متعك بذلك يوشك أن يزجك من حياتك التي تعيشها في أرذل العمر، وإذا بك تعاني من ذلّ النسيان وآفة الجهل المطبق، ويصدق عليك عندئذ قول الله عز وجل: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ [النحل: ١٦/٧٠].

وانظر إلى المجتمع من حولـك، تجـده مليئـاً بـرؤوس كـانت شـامخة بالعزة في الأمس، قد تهاوت في أودية الذل والمهانة اليوم، بعضهم مـن جراء فقر بعد غنى، وبعضهم مـن جـراء تجـرد عـن الرئاسـة والمكانـة، وبعضهم من جراء ضعف بعد قوة، وبعضهم من جراء جهالـة وذهـول بعد معرفة وعلم.

فكـان شـأنهم في ذلـك جميعـاً، كمـن تعلـق بأغصـان مـن شـجرة، معتمداً عليها بكامل ثقله، فما هو إلا أن تكسرت الأغصان، وتهـاوى المتعلق بها، ثم ارتطم بالأرض، ولو أنهم تأملوا وتدبروا، فتعلقـوا منهـا بالجذع لرأوا فيه ملاذهم الدائم، وأمنهم المستتب.

وإنما أعني هنا بالجذع - ولله المثل الأعلى - خـالق القـوى والقـدر الإله الواحد الذي نحن جميعاً عبيده.

فمن اعتصم بالله بجدّ وصدق، وجعل من عبوديته للـه حـرزاً دائمـاً له، بقي محصناً وسط هالة من العزة لا انقضاء لهـا ولاتحـول لـه عنهـا. مهما تقلبت به الأحوال وأقبلت إليه أو تراجعت عنه الأسباب.

ولعلك تقول: فكلنا عبيد لله، وكلنا ندين لـه بهـذه العبوديـة ونقـرّ بها، فهل تكفي هذه الدينونة التـي هـي جـامع مشـترك بـين المسـلمين جميعـاً، لتصبـح حـرزاً واقيـاً لعـزة الإنسـان المسـلم، لاتتحـول عنـه، ولاينفصل عنها؟..

والجواب أن الجامع المشـترك في هـذا بين المسـلمين جميعـاً إنمـا هـو الشعور بالانتماء، وهو يشبه تماماً شعور المـرء بانتمائـه إلى قبيلـة مـا أو إلى قوم من الأقوام. وهذا القـدر لايصلـح فاسـداً ولايقـوم إعوجاجـاً،

ولايدني العبد إلى ربه شروى نقير.. بل أغلب الظن أن معنى عبودية الإنسان لله، إن بقي محصوراً في الشعور بالانتماء، فلسوف يتطاير الشعور بذلك من ذاكرته عندما يحين الموت ويدعو الداعي إلى الرحيل.

وإنما المراد بهذه الدينونة أن يصطبغ صاحبها ببذل العبودية لله في كل تقلباته وأحواله. فيتصرف تجاه ربه تصرف المملوك ملكية تامة مع مالكه، ويعلم بيقين أن بيده علوه وهبوطه وخيره وشره وسعادته وشقاءه.

فإن استغنى، لم يجد في الغنى مبعث عزة له، وإن افتقر لم يجد في الفقر ما يتهدده بأي مهانة أو ذل.

وإن سمت به الظروف إلى رئاسة أو قيادة، لم يجد في ذلك عامل عز في حياته وبين أقرانه، وإن جرد من رئاسته وحكمه لم يجد في ذلك ما قد ينقله من حال إلى حال.

وإن رأى أن العافية تزدهر في كيانه وأن القوة والمضاء مِلْءَ إهابه، لم يزحزحه ذلك شروى نقير عن شعوره بأنه عبد ذليل في قبضة الله عز وجل، ومن ثم فإن الأمر لايختلف لديه لو رأى أن عافيته غاضت وأن قوته غابت.

فتلك هي حقيقة دينونة العبد لربه عز وجل.

هي حال يصطبغ بها نتيجة استغراقه عقلياً ووجدانياً في معاني وحدانية الله عز وجل.

وصاحب هذه الحال عزيز بالله دائماً، أياً كانت الحال التي هو فيها. له في قلوب الناس رهبة، وله في أعينهم مهابة، إذ إن عزته ليست آتية من رُقَع الأعراض الدنيوية، وإنما هي منحة من التجليات الإلهية، الصادرة ممن قلوب العباد بين إصبعين من أصابعه، يقلبها كيف يشاء.

والشأن في صاحب هذه الحال، أن لايقيم لأعراض الدنيا وزناً لافي إقبالها ولا في إدبارها، لأنه أدرك بل رأى معين العز في حياته، فهيهات أن يتيه عنه إلى الجداول والسواقي.

وانظر، كم تتمثل هذه الحالة، وتبدو جلية، في شخص عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إبان خلافته.. لقد جاءته الخلافة وهو يعبّ من مشاعر عبوديته لله أقداحاً إثر أقداح، مما جعله أسير هذه العبودية والخاضع خضوعاً تاماً لسلطانها.

وفي عهد خلافته اندلقت إليه الدنيا من كل صوب، وجاءته سلسلة الانتصارات والفتوحات تتوالى، ودانت له حضارتا الفرس والرومان، فما هو الأثر الذي تركته تلك العوارض الدينوية في نفسه، وماهي العزة التي تسربت إلى شعوره من جراء تلك العوامل والأسباب؟

لم يكن لذلك كله أي أثر، ولم يتسرب إلى شعوره من جرائها أيٌّ من دواعي الاعتزاز. ذلك لأن فكره ووجدانه ومشاعره، كل ذلك كان مليئاً بمعنى عبوديته ومملوكيته وذله لله، فلم يكن في شيء من ذلك كله متسع لمزاحم.

يتجلى لك ذلك من قوله لأبي عبيده يوم استقبله هذا على مشارف الشام وعاتبه أن لم يغير من مظهره بما يتناسب مع استقباله لأباطرة

الشام. قال له عمر: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فمهما طلبنا العز بغير ما أعزنا الله به، أذلنا الله.

ومعنى كلامه هذا: إننا اعتززنا بالله فأعزّنا، دون أن تكون لنا بسطة واسعة من المال والرزق، ودون أن نتمتع بأي قوة أو عتاد، ودون أن تكون لنا قدم راسخة في الحضارة أو الثقافة والعلم.. ثم إن الله أكرمنا بذلك كله في أعقاب إعزازه لنا.

فلو أخذنا نتباهى أمام أباطرة الشام أو غيرهم بأي من هذه المظاهر التي لم نملكها إلا بفضل من الله الذي هو مصدر إعزازنا، إذن فذلك يعني أننا نقول لهم: إن هذه المظاهر هي مستند عزنا ومصدر قوتنا وتغلبنا.

وإنه لكذب شنيع ولؤم بالغ منا عندئذ، في حق مولانا الذي هو وحده مصدر عزتنا وقوتنا وغلبتنا. ولسوف يكلنا الله عندئذ إلى هذه المظاهر التي نتباهى بها ونلوِّح لهم بها، ثم يتخلّى عنا، وعندئذ لن تغني عنا هذه المظاهر شيئاً، ولسوف نعود إلى أسوأ مما كنا عليه.

* * *

ألاليت أن العرب المسلمين اليوم يدركون هذا المعنى الذي ينطق به كلمات عمر، فلربما أيقظهم ذلك إلى لؤم تبرّمهم بالإسلام الذي كان مصدر عزهم، وتطلّعهم إلى ما يسمونه الحداثة آناً، والإسلام المتطور المتبدل آناً آخر، واللحاق بما عليه المجتمعات الأخرى آناً ثالثاً..

ولربما أدركوا عندئذ لماذا يزدادون اليوم تفرقاً بعد أن وحدهم الإسلام، ولماذا يزدادون فقراً بعد أن أغناهم الإسلام، ولماذا يزدادون ضعفاً بعد أن قواهم الإسلام، ولماذا يزدادون صَغاراً في أعين الآخرين، بعد أن أعزّهم الإسلام وملأ أفئدة الآخرين هيبة لهم ورهبة منهم.

إنه الله عز وجل القائل في محكم تبيانه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٣/٢٦].

* * *

الحكمة الخامسة والثمانون

((الطيّ الحقيقي أن تُطوى مسافة الدنيا عنك، حتى ترى الآخرة أقرب إليك منها))

يولع بعض المريدين برواية الخوارق، على أنها كرامات، عن شيوخهم، دليلاً على ولايتهم وعظيم قربهم من الله عز وجل. ومن أكثر ما قد يرددونه عنهم من ذلك اختزال المسافات تحت أقدامهم، والطيّ الذي يختصر لهم حواجز ما بين البلدان المتباعدة في دقائق أو لحظات. فيقال مثلاً: إن فلاناً من الشيوخ قد طويت له مسافة ما بين بغداد ومكة المكرمة، فقطعها مشياً في دقائق أو ساعات.

وكثيراً ما يسوق الحب كثيراً من المريدين إلى مبالغات، وربما إلى أكاذيب من هذا الباب ينسبونها إلى شيوخهم، وربما لعبت العصبية دوراً كبيراً في هذا الأمر. ولعلك إن تتبعت حال مريدي الشيوخ في هذا العصر، وأصغيت إلى ما يقولونه في حق شيوخهم، وقفت على الكثير والكثير من هذه المبالغات والروايات التي يختلقونها عنهم، وبوسعك أن تلاحظ أثر العصبية في ذلك، فهذا الذي تراه من حال

كثير من المريدين مع أشياخهم اليوم، كان موجوداً، بشكل متفاوت، قلّ أو كثر، في العهود السابقة أيضاً.

وليس الحديث هنا متجهاً إلى معالجة هذه الظاهرة، والتحذير من تعصب المريدين لشيوخهم تعصباً يحملهم على اختلاق وقائع لا أصل لها ونسج كرامات وخوارق ينسبونها إليهم دون أن يكون لها أصل.

وإنما مراد ابن عطاء الله رحمه الله تعالى أن ينبه إلى أن الكرامة الحقيقية لا تكمن في ظهور خوارق تثير الدهشة والعجب، كطيّ المسافات الطويلة في دقائق أو لحظات، فإن الله قد يحقق أسباب هذا الطي لكثير من مخلوقاته، كالطيور وبعض الحيوانات والجان. فلا يكون ذلك دليلاً على صلاح ولا ولاية ولا مزيد قرب من الله، لتلك المخلوقات، بل قد يسخر الله لعباده من مخلوقاته في عصر ما، لسرعة اجتياز المسافات الشاسعة، ما لم يسخره لهم في عصور أخرى. فلا يكون ذلك دليلاً على أن الناس الذين سخرت لهم تلك المخلوقات أو الأدوات خير ممن لم يُسخَّر لهم شيء منها.

إنما الكرامة الحقيقة التي هي عنوان قرب صاحبها من الله عز وجل، أن تكون بين العبد ولقاء ربه، بالموت، آماد طويلة فيما تقدّره النفس وتحكم به الآمال، إذ يكون في ريعان شبابه ومقتبل عمره، أمانيّه مزدهرة ورغائبه كثيرة ومهتاجة، وفرصة العمر أمامه ممتدة وطويلة، ولكنه يرمي ببصيرته إلى ما وراء ذلك كله، فتتعلق منه الآمال والأحلام بالنعم والمتع المخبأة له عند الله، ويعيش منها مع اليوم الذي يأمل أن يرى نفسه فيه واحداً ممن يقول لهم الله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً

بِما أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيّامِ الْخالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٩٦/٢٤] فتضؤل في ضرام شوقه إلى تلك الحياة الآخرة، وما أعدّه الله فيها لعباده مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، مسافة ما بينه وبين الموت، وتتحول السنوات في حسابه إلى دقائق أو ساعات، إذ تكون آماله منصرفة عنها وتكون نفسه عازفة عنها، لشدة اهتمامه بما وراءها، فتصبح الآخرة عندئذ أقرب إليه من الدنيا، إذ تكون هذه غائبة عن أفكاره وآماله، وتكون الآخرة هي الماثلة أمام بصيرته وهي متعلق رغائبه وأحلامه.

وهكذا تطوى سنوات الدنيا مهما طالت أمام بصيرة من قد تعلق قلبه بالله عز وجل حباً له ومهابة وخوفاً منه. إذ لم تعد له فيها آمال منتظرة ولا رغائب هامة، وإذا هو أمام المصير الذي ينتظره وإن كان لايزال في حساب الزمن بعيداً عنه.

فهذه هي الكرامة العظمى التي تبرهن على حسن حال صاحبها مع ربه وعلى شدة صلاحه وقربه من الله، لا طيّ المسافات بين مكة أو المدينة أو بين داره وأي مكان آخر.. ولا يبخس شيئاً من مكانة صاحب هذه الكرامة الحقيقية ألاّ تطوى له الأرض وألاّ تجري على يديه الخوارق.

وقد وضعتك من هذا أمام حال الحارث بن مالك الأنصاري، في شرح الحكمة الثانية والخمسين، يوم قال له رسول الله ﷺ: «كيف أصبحت يا حارثة؟» فقال: أصبحت مؤمناً حقاً. فقال له رسول الله ﷺ: «انظر ما تقول، فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك؟» قال حارثة: عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري وكأني

أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها. فقال له رسول الله ﷺ: ((يا حارث عرفت فالزم)). وفي رواية: ((عبد نور الله قلبه))(١).

لقد أكرم الله الحارث بالطي الذي يتحدث عنه ابن عطاء الله، وشهد له بذلك رسول الله إذ قال له: ((عرفت فالزم))، أو: عبد نور الله قلبه، وما ضره أنه عاش حياته كلها دون أن تطوى له الأرض وتختصر له المسافات.

* * *

ثم إن طيّ المسافات المكانية بين المدن المتباعدة أو القارّات، يتحقق بوسائل شتى، من أبرزها وأهمها الكشف عن السبل العلمية وتسخيرها لهذه الغاية، وهو يتأتى من المؤمن والفاسق والجاحد.

أما أن تطوى مسافة الدنيا مما بينك وبين يوم قدومك على الله، بالمعنى الذي أوضحته لك، فلا مدخل في ذلك للعلوم والتقنيات والمسخَّرات الدنيوية المختلفة، وهيهات أن يساعدك شيء من ذلك كله في تحقيق هذا الأمر.

إنما الذي يساعدك في تحقيق هذا الطي، بعد الإيمان بالله واليقين بوحدانيته وصفات كماله، أن تستزيد من محبتك لله عز وجل بالسبل التي نبه إليها كتاب الله عز وجل، وأكدها رسول الله ﷺ، ومارسها الربانيون من عباد الله عز وجل. ألا وهو الإكثار من ذكره سبحانه

(١) ارجع إلى هذا الحديث وانظر تخريجه في الجزء الثاني من هذا الكتاب ص٢٥٦.

وتعالى وربط النعم دائماً بالمنعم، وقد مرّ بيان ذلك في أكثر من مناسبة عند شرح بعض الحكم السابقة.

إنما الجديد الآن أن أبين لك أثر الاستزادة من محبة الله تعالى، في انطواء حواجز الدنيا مما بينك وبين الله عز وجل، مهما امتدت هذه الحواجز، ومهما كانت حافلة بالمغريات وأسباب المتع والأهواء:

وأقول لك باختصار: إن الذي يجذب الإنسان إلى شيء ما على سبيل الركون إليه والاستئناس به إنما هو الحب. فلولا حبك للدرهم والدينار، والمزارع والقصور، ومتع الليالي والأيام، لما توجهت منك الأفكار ولا الرغبة إليها، ولما تعلقت آمالك بها. ولكن الله زين أمام ناظريك ونفسك هذه المظاهر والمتع، كما أعلن في محكم تبيانه، فركنت أنت إلى زينتها وأسلمت نفسك لألقها وإغراءاتها، فتحول الركون إليها والإعجاب بها إلى تعلق وحب. فكانت النتيجة أن غدت حياتك مصدر آمال وأحلام تحدو بك للوصول إلى أكبر قدر منها. والشأن عندئذ أن يستطيل صاحب هذه الأحلام أمد حياته، ولو بالتفاؤل والخيال، ما أتيح له ذلك، كي يركن من آماله تلك إلى الجسور التي توصله إلى تلك المبتغيات والمشتهيات.

ولابدّ عندئذ أن يتحول عمرك الذي تتمتع به (بالأمل والخيال) إلى آماد بعيدة متطاولة، مهما كان في حقيقته وفي علم الله وقضائه قصيراً، فيتطاول من جرّاء ذلك القصيرُ من الحياة الدنيوية التي تتمتع بها، ويتّسع – على الرغم من ضآلته – بالتخيل والوهم. وينطوي المستمر

والباقي من الحياة الآخرة الجاثمة في انتظارك، ويضؤل ويتباعد في خيالك ووهمك على الرغم من عظمه وأهميته وشدة قربه منك.

وهكذا فإن الحب من شأنه أن يقرّب البعيد ويبعّد القريب ويحقّر العظيم ويعظم الحقير، والوهم وحده هو الذي يلعب دوره الكبير في ذلك.

وإذا عرفت هذا، كان بوسعك أن تعلم بأن سبيل تحررك من هذا الوهم، أن تتجه بحبك إلى من هو أهل له، وهو الذي يعينك حبه على أن ترى الأمور على حقيقتها، دون أن يتمكن الوهم من التلاعب بك أو التلبيس عليك.

فمن هو ذاك الذي يوصلك حبه إلى حقائق الأشياء، ويحررك من الوقوع في تيه الأخيلة والأوهام؟ ليس من ريب في أنه الله عز وجل، الذي هو خالق الحقائق كلها، والذي هو مصدر النعم جميعها.

إن الدنيا التي تعلق آمالك بها، وتستطيل عمرك ابتغاء قطف ثمارها، إنما هي في قبضة الله وتحت سلطانه، يعطيك منها ما يشاء ويمتّعك منها بما يريد، ثم إنك راحل عنها ومفارق لنعيمها، ومقبل إلى الخلود الذي لا انقضاء له، فما تعلقك بما لا بقاء له، وما انصرافك عما لا انفكاك لك عنه؟!..

غير أن هذا الذي أقوله لك هو منطق الدراية والعقل. وهو لا يكفي دافعاً لك إلى قصر الأمل، ومعيناً لك في طيّ مسافة ما بينك وبين لقاء الله عز وجل. ذلك لأن الذي يحملك على مدّ حبال آمالك وأخيلة أحلامك إلى السنوات البعيدة التي تتصور أنها ستحمل إليك عرائس

أحلامك، إنما هو الحب.. حب المتع واللذائذ التي تتعلق بها وتتشوق إليها. والحب، وإن كان معتمداً على الأوهام، لا يقوى منطق العقل وحده على إخماده أو التغلب عليه. إنما الذي يمكن أن يخمده أو يتغلب عليه حب آخر أقوى منه، يحتّل مكانه من القلب، ولن يكون هذا الحب البديل إلا حب الله عز وجل.

ولكن كيف السبيل إلى تنمية محبة الله تعالى بحيث يتغلب حبه على حب ما سواه؟ أي كيف السبيل إلى أن يكون المسلم نموذجاً للمؤمنين الذين قال الله عنهم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾ بعد قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ...﴾ [البقرة: ٢/١٦٥].

لعلك تذكر أنني أجبت عن هذا السؤال بتفصيل في أكثر من مناسبة في شرح بعض الحكم السالفة[1].

* * *

والآن... بوسعك أن تتأكد مما قد قاله ابن عطاء الله.

ما القيمة الدينية التي تقربك إلى الله، في أن تملك قدرة خارقة تقرب إليك المسافات البعيدة، إذا كانت أهواء الدنيا وزخارفها مهيمنة عليك تاركةً بينك وبين الدار الآخرة حواجز ومسافات طويلة؟!..

(١) انظر ما قد قلته في شرح الحكمة الثامنة والأربعين الصفحة ٢٠٧ من الجزء الثاني. وانظر إلى ماقلته في الحكمة الحادية والستين في الصفحة ٣٤٨ من الجزء الثاني، وانظر إلى ما قلته في الموضوع ذاته في الصفحة ٤٧٤ من الجزء الثاني.

وما الذي فاتك من القيم الدينية ومقومات القرب من الله لأن المسافات لم تُطْوَ تحت قدميك، إن استطعت أن تمتلخ أهواء الدنيا وزخارفها من قلبك، ثم تطويها وتزيحها من طريقك الذي تتجه به إلى الله، وإذا أنت، بالشعور والبصيرة، في عرصات القيامة، واقف بين يدي الله؟

ثم أيهما أقعد في معنى الكرامة ودلائل القرب من الله؟

أما الأمر الأول، فهو في هذا العصر، ليس أكثر من دعاوٍ تتّخذ رأس مال لمكاسب دنيوية ومغانم حِرَفيه، تحت عناوين وشعارات دينية.

وأما الأمر الثاني، فحديث نظري ومنهاج كلامي، لا تجد له أي تطبيق على الساحة العملية، وإن كان في مجتمعاتنا الإسلامية من يأخذون أنفسهم بهذا المنهاج، ويعيدون في واقعهم الشعوري والسلوكي سيرة أمثال الحارث بن مالك الأنصاري، فأغلب الظن أنك لن تعثر عليهم، إذ إنهم يعيشون مغمورين بعيدين عن أضواء الشهرة وعن مجال الدعاوي والتبجحات، إنهم يظلّون صغاراً في أنفسهم بقدر ما هم كبار عند الله.

والذين يبحثون عن العناوين الكبيرة لن يجدوا أمامهم إلا الفريق الأول.. فابذل ما في وسعك للتعرف على هذا الفريق الثاني الذي طوى رجاله مسافة الدنيا مما بينهم وبين الله عز وجل، فعاشوا غائبين عن الدنيا وهم في فجاجها، واقفين بين يدي الله قبل أن تحين ساعة رحيلهم إليه.

الحكمة السادسة والثمانون

((العطاء من الخلق حرمان، والمنع من الله إحسان))

من المعلوم أن الله أقامنا في عالم الأسباب، أي جعل لكل شيء مما يقضي به الله ويخلقه أو يعدمه سبباً، فلا يرد إليك عطاء من الله إلا من خلال سبب، ولاينقطع عنك رفد أو عطاء إلا من خلال سبب.

فما الفرق إذن بين العطاء الذي يكون من الخلق، والعطاء الذي يكون من الله؟ والسؤال ذاته يرد عن المنع أيضاً.

العطاء من الخلق هو ذاك الذي يأتي بعد استشراف نفس أو بطريق غير شرعي، والعطاء من الله هو ذاك الذي يأتي دون استشراف نفس، وبطريق مشروع، على أن يعلم الآخذ أن المعطي هو الله.

وأما المنع، فالشأن فيه لكي يسمى منعاً، أن يكون بعد محاولة مخفقة للحصول على الممنوع، إذ الشيء الذي لم تبحث عنه لتناله لا يسمى فقدك له منعاً. وكل ما قصرت طاقة الإنسان عن الحصول عليه بعد السعي والمحاولة، إنما يكون المانع للحصول عليه قضاء الله وحكمه عز وجل.

وهذا يعني أن التفريق بين العطاء من الله ومن عباده تفريق اعتباري، إذا مما لاريب فيه أن العطاء في حقيقته لا يكون إلا من الله تعالى، والناس كلهم، وفي كل الأحوال، ليسوا إلا أسباباً ظاهرية وجعلية له.

فكل ما قد يناله الإنسان بطرق ملتوية غير مشروعة، أو بطمع واستشراف نفس، فهو يعتبر من أعطيات العباد، إذ الآخذ إنما أخذه على أنه كذلك، وإلاّ لما أهان نفسه لمخلوق مثله واستشرف لنيل هذا الذي سعى إليه، ولما رغب عن السبيل المشروعة التي رسمها له الله إلى السبل الملتوية الأخرى التي نهى عنها.

وكل ما يناله الإنسان بالوسائل المشروعة، دون طمع ولا استشراف نفس، يعدّ من عطاء الله عز وجل، وهو مظهر لمننه وإكرامه.

وحصيلة هذا التقسيم الاعتباري أن المعطي والمانع دائماً هو الله عز وجل، ولكن هذا التقسيم ناظر إلى أن كل ما قد يناله الإنسان من أعطيات بطرق غير مشروعة، فهو إنما يأخذه بذلك من غير الله عز وجل أي بدون إذن أو رضى منه، وإلى أن كل ما قد يناله من أعطيات بالطرق التي شرعها الله عز وجل، ودون استشراف نفس، فهو إنما يأخذه من الله عز وجل أي بإذن ورضا منه، أما المنع الذي قد يُمنى به الإنسان فهو دائماً من الله عز وجل كما سبق أن أوضحت.

* * *

والآن، وبعد أن عرفنا الفرق بين ما سماه ابن عطاء الله: عطاء من الخلق، ومنعاً من الله، نتساءل:

كيف يكون العطاء من الخلق حرماناً، ويكون المنع من الله عطاء؟

وإليك الجواب:

إن الإنسان إذا تكالبت نفسه على المال وعلى الدنيا بأشكالها، واستشرفت أهواؤه ورغائبه إليها، فإن الشأن عندئذ أن يطرق إليها سائر الأبواب، وأن يبحث عنها في مختلف السبل، لا يفرق بين جائز منها ومحرم، وعندئذ قد يحصل على المال الذي يبتغيه ولكنه يُحْرَمُ بركته.

ومعنى ((يُحْرَمُ بركته)) أنه بدلاً من يثمر لصاحبه الهناء والخير، يجرّ إليه آفات متنوعة من الشر، كأن يبعث في نفسه ألواناً من الضيق والهموم، وأن تنفتح في داره أبواب من النفقات لا عهد له بها، تستنفد كلّ أو جلّ ما جمع، وأن تبعث له أمواله أو دنياه التي حصّل عليها مشكلات عويصة ومعقدة كان بعيداً عنها. وبالجملة تصبح أمواله أو الأعطيات التي حصّل عليها أعباء ثقيلة على كيانه ونفسه، بدلاً مما كان يرجوه: أن تكون أسباباً لخيره وسعادته.

واعلم أن بركة كل شيء إنما هي سرّه الذي يعطيه معنى وجوده.. فبركة الورد، العبقُ المنبعث من داخله؛ وبركة الشمس الحياة أو الطاقة التي تسري منها إلى سائر الأشياء؛ وبركة المطر التفاعل الذي يتم بينه وبين التربة والنواة؛ وبركة النبات وثمارِه، القيمةُ الغذائية المبثوثة في داخلها؛ وبركة اللقاء في الحياة الزوجية، الحب الساري بين قلبي

الزوجين؛ وبركة المال، ما قد يحمله إلى صاحبه من معاني الخير والسعادة.. إلخ.

وإذا خلت أشياء الكون من أسرارها، أي من بركتها، فإن الكون كله يغدو كالمدينة المسحورة، ليس فيه إلا أشباح ومظاهر وأشكال جاثمة لا معنى فيها.

ومهما حاولت أن تحيل أشياء الكون ومظاهره إلى ما يسميه بعضهم بالطبيعة، فإنك لا تستطيع أن تحيل أسراره إلاّ إلى الله الذي بيده ملكوت كل شيء، ذاك الذي أعطى كل شيء خلقه وشكله، ثم أودع فيه من لدنه سرّه الذي يحدد جدواه ووظيفته. وصدق الله القائل، إذ يصف ذاته العلية فيما قد أبدع ونظم ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ، الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ٨٧/١-٣] أي الذي أعطى كل شيء مظهره الذي أبدعه فيه، ثم هداه إلى المهمة التي خلق لأدائها، عن طريق السرّ الذي أودعه فيه، وصدّق الله القائل عن ذاته العلية وما قد أودعه في جوهر التربة وباطن الأرض من أسرار ﴿وَبارَكَ فِيها وَقَدَّرَ فِيها أَقْواتَها فِي أَرْبَعَةِ أَيّامٍ سَواءً لِلسّائِلِين﴾ [فصلت: ٤٠/١٠].

وإنما حديثنا في هذا الصدد عن المال وما في حكمه من مظاهر الدنيا وزخارفها، فليست العبرة منه بالشكل أو المظهر الذي يبدو فيه، وإنما العبرة بالبركة المودعة فيه، أي بما يحمله لصاحبه من أسرار السعادة وطمأنينة النفس ومتعة الخاطر.

فإذا جاءك المال من الله، أي بطرقه الشرعية، موقناً بأن المال مال الله وبأن العطاء عطاؤه، كان ذلك بريد خير لك وأداة إسعاد لقلبك وأمن وسرور لنفسك، فكانت بركته موفورة وحظك منه كبيراً.

وإذا جاءك المال من الأغيار، أي بالسبل المتعرجة الخلفية المحرمة، ناسياً أن الله هو مصدر كل رزق وعطاء، معلقاً آمالك بالآخرين، فإنه لن يكون إلا بريد شرٍّ لك، ستحمل منه أعباء مرهقة بدلاً من أن يخفف عنك أعباء الحاجة والرغبات، وسينالك منه الهم الذي لا تدري مصدره، ولن يتلبث لديك إلا ريثما يمرّ بك ليغيب عنك، وبذلك تزول بركته وينأى عنك حظه.

وتأمل في هذه الحقيقة كم هي جلية في النصيحة التي نصح بها رسول الله ﷺ حكيماً بن حزام، في الحديث الذي يقول فيه: سألت رسول الله فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال لي: ((يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بحقه بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى))[1].

وإذا تأملت في حال هذا الصنف من الناس، أي الذين يلهثون وراء المال، ويسعون إلى تلقفه أينما لاح لهم ومهما كان سبيلهم إليه، تجد مصداق هذا الذي يقوله رسول الله، ويثبته ابن عطاء الله في حكمته هذه. تتأمل في حالهم فتجدهم فقراء في غناهم، محرومين من أبسط ما

---

(١) رواه الشيخان، وأحمد، والترمذي، والنسائي من حديث حكيم بن حزام، وفي رواية: ((.. فمن أخذه بسخاوة نفس)) بدلاً من ((..بحقه)).

ينبغي أن يفيده المال صاحبه، وهو طمأنينة النفس وهدوء البال ورغد العيش، فهل يكون للحرمان معنى غير هذا.

والأنكى من ذلك أن صاحب هذا البلاء لا تنهضه نفسه إلى التخلّص منه والتحرر من أخطبوط مصائبه، بل تزداد جموحاً به إلى مخاضة البلاء ذاته!.. فهو كالذي يعاني من عادية الجرب، لا يَفِرّ من بلاء الحك لجسمه إلاّ إلى مزيد منه، أو كالذي يشرب ماء ملحاً على ظمأ، ما يكاد يشرب منه الكأس حتى يزداد ظمأ!..

وعن هذا الفريق من الناس يقول رسول الله ﷺ: ((لو كان لابن آدم واد من مال، لا بتغى إليه ثانياً، ولو كان له واديان لا بتغى إليه ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب))[1].

ولاتسل عن الغصص التي يتجرعها أحدهم، عندما يفاجئه الموت، وهو لاهث وراء المال وذيوله، يفرّ مما يناله من عذابه إليه، ويداوي البلاء الذي يناله منه، بالداء ذاته!.. إنه الحبيب الوحيد الذي قضى حياته كلها ليسعد به، فلم يعقبْه منه إلا النكد والشقاء، وها هو ذا ينفض يديه منه، ويفارقه مكرهاً إلى غير رجعة!.. في تقلبات عمره لم ينل منه إلا الهموم والأنكاد، وها هو ذا إذ يفارقه اليوم لايجد أمامه من بديل سوى الغصص الخانقة التي يتجرعها!..

* * *

---

(١) رواه الشيخان، وأحمد، والترمذي من حديث أنس. ورواه الشيخان من حديث ابن عباس أيضاً، والبخاري من حديث ابن الزبير، ورواه أحمد بألفاظ قريبة من حديث جابر.

فتلك هي عاقبة العطاء من غير الله.

ولكن كيف يكون المنع من الله إحساناً؟.. لقد علمت مما ذكرته في أول شرحي لهذه الحكمة أن كل ما قصرت طاقة الإنسان عن الحصول عليه، بعد السعي والمحاولة، إنما يكون المانع من الحصول عليه قضاء الله وحكمه. والمراد بالإنسان هنا المسلم الملتزم بأوامر الله وشرعه.

تُرى، فيم كانت عاقبة السعي والمحاولة من هذا الإنسان المنع الذي قضى الله به؟..

من الثابت يقيناً أن الله لا يريد بعباده المؤمنين به والملتزمين بأوامره إلا الخير، كيف لا وقد ألزم الله ذاته العلية بإسعاد كل من عمل صالحاً بعد الإيمان به، فقال: ((من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن، فلنحيينّه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون)).

ولكن مقياس الخير والشر في حياة الإنسان، لايتمثل فيما قد تهواه نفسه وتتجه إليه رغائبه، فكثيراً ما تتجه رغائب الإنسان إلى ما فيه حتفه دون أن يعلم. وإنما مقياس ذلك كامن في علم الله عز وجل ولطفه. وصدق الله القائل: ﴿..وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/٢١٦].

إذن، فإن سعيت سعيك إلى خطوة مالية عن طريق تجارة أو صناعة أو نحو ذلك، فعدت من سعيك مخفقاً دون أن تنال ما قد كنت ترغب فيه وتسعى إليه، وكنت ممن يلتزم بأوامر الله وشرعه، فاعلم أن هذا

الذي تراه منعاً هو العطاء والإكرام ذاته. ولن تحتاج لمعرفة ذلك إلاّ إلى النظر لما سيأتي به المستقبل.

تمهل.. ثم انظر، تجد أن ما قد كتبه الله لك مما لم تكن تريده، هو العطاء ذاته، جاء مغلفاً بغلاف المنع والحرمان، وأنّ ما كنت تحلم به من العطاء الذي كنت تنتظره وتتمناه، لو تحقق على النحو الذي كنت تريد، لجرّ إليك ذيولاً من المصائب والآلام.

إننا جميعاً لو عدنا بالذاكرة إلى أحداث جرت على غير ما كنا نريد في ماضي حياتنا، وما أعقبها من نتائج، لوجدنا مصداق هذا الذي يقرره ابن عطاء الله أخذاً من الحقيقة التي يقررها بيان الله أكثر من مرة.

كنتَ مدعواً إلى أن تداهن، وتماري، وتستذل لأناس من أمثالك أو ممن هم فوقك في الرتبة، لتنال من وراء ذلك خطوة تكسبك مغنماً مالياً أو مكانة باسقة، ولكنك جنّبت نفسك تلك المهانة والذلّ، فحُرمت تلك الخطوة ومنعت من نيل ذلك المغنم؛ إنه في ظاهر الأمر وصورته الحالية منع، وهو منع صادر من الله، إذ الذي دعاك إلى أن تجنب نفسك تلك المهانة وحذرك من المداهنة والمماراة إنما هو الله عز وجل، إذن فالمنع الذي منيتَ به على أعقابه إنما هو من الله عز وجل.. ولكنه منع في الظاهر والحالة الحاضرة فقط.. أما النتائج المتحققة فيما بعد، فلسوف تكون كلها لصالحك.

وهذا مثال أفترضه لسائر الأحوال والأمور المشابهة.. إن أي منع آت من الله عز وجل، أي في سبيل مرضاته والتقرب إليه، لابدّ أن

يحمل في طيه ألواناً من العطاء، أو الإحسان كما يقول ابن عطاء الله. ولكن ظهور هذه الحقيقة يحتاج إلى ترقب وصبر.

* * *

والذي يرمي إليه ابن عطاء الله من هذه الحكمة، أن يزداد المؤمن ثقة بالله عز وجل، إذ يتعامل معه، أي إذ يأتمر بأوامره وينتهي عن نواهيه، وأن لا ينظر إلى إقبال الدنيا إليه وإدبارها عنه، من خلال الظاهر الذي يراه لدى النظرة العجلى في بادئ الأمر، بل عليه أن يتعقب النتائج الآتية من بعد، وأن لا يعلق المؤمن آماله إلا بالله، فلا يطرق باب رزق أو منفعة إلا وهو متقيد في ذلك بأوامر الله وتعاليمه، مترفع عن المساومات التي من شأنها أن تشرد بصاحبها عن الانضباط بأحكام الشرع، أو تخضعه لمنن الآخرين وترفعاتهم.

ولا ينقاد لهذه النصيحة إلا من هيمنت رقابة الله عليه، وعلم أن الناس كلهم ليسوا إلا جنوداً مسخرين لتنفيذ قضاء الله وأمره، فالمعطي دائماً هو الله، والمانع هو الله، ومنعه هو العطاء ذاته.

روي أن أحد الصالحين أعطى صاحبه هدية، وقال له: إنني لم أعطها لك، فأخذها صاحبه قائلاً: وأنا لم آخذها منك.

اللهم غيّبنا عن الأغيار بمراقبتنا الدائمة لك، وأنهضنا معهم بما قد كلفتنا به من التعاون لإقامة المجتمع الإنساني الذي يرضيك.

* * *

الحكمة السابعة والثمانون

((جلّ ربنا أن يعامله العبد نقداً، فيجازيه نسيئة))

ذكر ابن عطاء الله في الحكمة التاسعة والستين كلاماً يناقض في الظاهر كلامه هنا. فقد قال هناك: ((إنما جعل الدار الآخرة محلاً لجزاء عباده المؤمنين، لأن هذه الدار لا تتّسع لما يريد أن يعطيهم، ولأنه أجلّ أقدارهم عن أن يجازيهم في دار لا بقاء فيها)) أما هنا، فيؤكد ابن عطاء الله أن الله تعالى أجلّ وأكرم من أن يؤخر جزاء عمل قام به العبد في ميقاته اليوم، إلى أجلٍ آتٍ من بعد!..

ولكي تعلم أن ليس بين الحكمتين تناقض ولا تخالف، أذكرك بما قد قلته في فاتحة شرح تلك الحكمة السابقة، فقد قلت لك ما خلاصته أن الفائدة التي ينالها العامل من رب العمل على عمله تسمى أجراً آناً، وجزاء آناً آخر، وبين الكلمتين فرق. أما الأجر فهو ما قد التزم به رب العمل تجاه العامل على عمله. وأما الجزاء فيشمل سائر الأعطيات التي قد يستفيدها العامل مقابل عمله فهو يشمل ما قد تم الالتزام به مع العامل، وما لم يتم الالتزام به، من الزوائد التي قد ينالها على عمله.

فالذي قضى الله أن يؤخر حصول عباده العاملين عليه، هو الأجر، أي ذاك الذي يتم التعاقد عليه عادة بين العامل ورب العمل. وهو وإن كان لايسري على ما ادخره الله لعباده الصالحين يوم القيامة، لأنه التزام من طرف واحد وهو الله عز وجل، إلاّ أنه يدخل في معنى الأجر على سبيل المشاكلة.. فقد ادّخر أجورهم التي التزم لهم بها إلى يوم القيامة، فقال عز وجل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥/٣] وهو ما قد عناه ابن عطاء الله في الحكمة السابقة التي يقول فيها: ((إنما جعل الدار الآخرة محلاً لجزاء عباده المؤمنين..)).

أمّا ما قد عناه في هذه الحكمة فهو الجزاء الذي هو أعم من الأجر كما قد علمت، وهو الذي يؤكد ابن عطاء الله تعجيله للعاملين في دار الدنيا.

وإذ قد علمت الفرق بين كلمتي الأجر والجزاء، وعلمت أن المدّخر للعبد إلى يوم القيامة مقابل أعماله الصالحة إنما هو الأجر المخصص، وأن المعجّل له عليها هو الجزاء العام، فلعلّه كان من الأنسب أن يعبر ابن عطاء رحمه الله هناك بكلمة الأجر، فيقول: ((إنما جعل الدار الآخرة محلاً لأجر عباده المؤمنين..)) مقابل تعبيره هنا بكلمة الجزاء، وبذلك يتم الانسجام بين ما يعنيه ابن عطاء الله من هاتين الحكمتين، ويزول وهم التعارض بينهما[1].

* * *

---

(١) انظر الصفحة ٤٢١ و٤٢٢ من الجزء الثاني من هذا الكتاب.

بعد هذه المقدمة، نقف عند هذه الحكمة لنتبين معناها بشكل إجمالي ثم نبحث عن مصداقها على أرض الواقع.

يقول ابن عطاء الله: إن الله أكرم وأرحم بعباده من أن يراهم وهم يؤدون حقوقه وينفذون أوامره في مواقيتها المحددة، لا يتأخرون ولا يتراخون في القيام بها على وجهها المطلوب، ثم يؤخر لهم نتائجها وثمراتها. إنه قد ألزم ذاته العلية أن يكرمهم بثمرات أعمالهم نقداً كما أنهم يعاملونه بأداء حقوقه وواجباته التي في أعناقهم نقداً.

هذه هي خلاصة معنى هذه الحكمة، فما هو مصداقها في مجال الواقع المرئي؟ إليك منها، هذه النماذج:

❁ إن طمأنينة القلب ثمرة من أجلّ ثمار ذكر الله عز وجل، وذكر الله هو الروح السارية في العبادات كلها، وقد قضى الله لطفاً وإحساناً أن تكون هذه الثمرة، أي طمأنينة القلب، متحققة يانعة على أعقاب الاستقامة على ذكر الله، بل قضى بأن تكون مصاحبة له. وقد ألزم ربنا عز وجل ذاته العلية بتحقيق هذه الثمرة نقداً لا نسيئة في قوله سبحانه: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ١٣/٢٨] ولعلك تعلم أهمية طمأنينة القلب في حياة الإنسان، إنها مصدر عافيته وسرّ راحته وترياق سعادته.

❁ وإن ما يعبر عنه القرآن بالأمن، من أجلّ النتائج التي تنبثق عن صدق الإيمان بالله عز وجل، وهي تأتي مصاحبة له دون أي تأخر، يعلم هذا كل من أنعم الله عليه بنعمة الإيمان به، وأنت تعلم أن مرادنا بالإيمان هنا ذاك الذي عبر عنه بيان الله بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ

يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢/٦] وليس المراد هذا الإيمان التقليدي الرخيص الذي ينعت الناس اليوم به جزافاً.

❁ والحياة الطيبة كلمة جامعة تستوعب سائر مقومات السعادة الإنسانية، وقد جعلها الله ثمرة عاجلة للعمل الصالح المتوج بالإيمان بالله سبحانه. فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧/١٦] وانظر كيف فرّق البيان الإلهي بين الثمرة العاجلة التي هي الحياة الطيبة في دار الدنيا، وما سمّاه الأجر الذي ادّخره لعباده الصالحين إلى يوم القيامة. فأوضح أن من وفق للأعمال الصالحة بعد إيمانه بالله تعالى، سينال كلا المكرمتين، أما أولاهما فثمرة عاجلة، وأما الثانية فأجر مدّخر له يناله يوم القيامة.

❁ نعمة الاستخلاف في الأرض هي الترجمة الجامعة لنعمة القوة والغنى والعلم والعزة، ومنها يتكون نسيج الحضارة المثلى، وقد وعد الله بهذه المكرمة المتميزة أولئك الذين آمنوا إيماناً صادقاً بالله، ثم سلكوا السبيل الذي شرعه الله لهم وأمرهم به والذي يتلخص في النهوض بالأعمال الصالحة، وعدهم بهذه المكرمة في دار الدنيا، وقضى بأن تكون ثمرة عاجلة للالتزام بالعمل الصالح الذي يراد به وجه الله عز وجل، فقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَما اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا

يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾ [النور: ٥٥/٢٤] وانظر إلى نعمة الأمن كيف جعلها الله مقترنة بنعمة الاستخلاف في الأرض. ولعلك تعلم أن لا قيمة للثانية بدون الأولى، ولا للأولى بدون الثانية.

❁ نعمة النصر بعد الخذلان على الأعداء، مكرمة وعد الله بها عباده الصالحين في مثل قوله عز وجل: ﴿وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧/٣٠]، وقوله: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠/٢٢] وهذه المكرمة تتجلّى في حال الجماعة المسلمة المتمسكة بصدق وإخلاص بأوامر الله عز وجل والمبتعدة عن نواهيه، وقد صدّقها وشهد عليها التاريخ القاصي والداني للمسلمين.

❁ ألزم الله ذاته العلية أن يكرم المتصدق بصدقة ما، ابتغاء مرضاته، بأضعاف ما قد تصدق به من مال. فقال: ﴿مَنْ ذا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً...﴾ [البقرة: ٢٤٥/٢] يعلم هذا عن بينة وتجربة كل من تقرب إلى الله بصدقة على محتاج يبتغي بها وجه الله عز وجل.

والصياغة القرآنية في هذه الآية نصّ على أن التعويض المضاعف من الله على الصدقة عاجلة في دار الدنيا، وليست آجلة يوم القيامة. ألا ترى إلى فاء التعقيب في قوله تعالى: فيضاعفَهُ، إنها أداة معبرة عن الجزاء العاجل الذي يناله المتصدق. وكأن البيان الإلهي - وقد جعل من المتصدق بماله مقرضاً لله عز وجل - يؤكد لهذا الذي يقرض مولاه الغني الكريم، أن منته على الله تعالى لن تطول، إذ سرعان ما يعيد الله إليه المال الذي أقرضه إياه مقروناً بأضعافه.

نعم، ربما تراخى زمن الوفاء من الله عز وجل للعبد، ولا يكون ذلك إلاّ لحكمة، وهي أن يتجلّى صدق الصادق وإخلاصه له فيما أقدم عليه. إذ رب رجل متمرس بفنون التجارة، يتفنن في اتخاذ الوسائل للتجارة بماله، يسمع قول الله تعالى: ﴿مَنْ ذا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً﴾ ويرى مصداق هذا الكلام في حال المتصدقين، فتدعوه حوافزه التجارية ومطامعه المالية إلى أن يتصدق هو الآخر، لا لشيء، إلا طمعاً بأن يتضاعف من وراء ذلك دخله ويزداد ماله، ومن المعلوم أن الله لا يقبل صدقة مثل هذا التاجر الذي يسخر أوامر الله لرغائبه ومطامعه، غير مبال بمرضاته.. وكيف يقبلها وهو القائل: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصابَها وابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢/٢٦٥].

فإذا تراخى الوفاء لمثل هذا الطامع بالمال، التائه عن سبيل مرضاة الله، فلسوف يثور ويتمرد، ولربما يتهم وعد الله بالخلف، ويتجلّى عندئذ سوء قصده وغياب الإخلاص لله تعالى عن صدقته.. فتلك هي الحكمة، من تأخير الوفاء لبعض الوقت، في بعض الحالات، وصدق الله القائل: ﴿أَحَسِبَ النّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ، وَلَقَدْ فَتَنّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/٢-٣].

ولا تفهمن من كلام الله تعالى في هذه الآية، أنه عز وجل لا يعلم طوية عباده وما تنطوي عليه قلوبهم حتى يفتنهم ويمتحنهم، فالآية

بمعزل عن هذا المعنى، والله عز وجل يعلم ما هو كائن وما سيكون، ولكن معنى الآية: إن الله لا يحاسب أحداً من عباده بمقتضى علمه الغيبي بما سيكون عليه حاله في المستقبل، بل لابدّ أن يبتليه ويمتحنه بما يحيل علمه الغيبي به إلى واقع وسلوك يشهد بصدق علمه الغيبي في حقه، ومن ثم يحاسبه على واقعه هذا الذي جاء شاهداً على علمه الغيبي بحاله.

❁ إن «صنائع المعروف» كلمة تصدق على كل عمل مبرور يعود منه المؤمن بفائدة إلى عباد الله تعالى، صنائع المعروف هذه ليست داخلة في صنف دون صنف من العبادات، وليست لها سمة نوع دون نوع من المبرات، إنها كل ما يعود إلى عباد الله بفائدة وخير مما يدخل في مقاصد الشارع عز وجل.

فإذا تقرب المؤمن إلى الله بواحدة من هذه الصنائع، قاصداً بها بلوغ مرضاته فإن الله عز وجل يجعل له منها وقاية تحميه من المصائب والآفات، وصدق رسول الله القائل: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء، والصدقة الخفية تطفئ غضب الرب»[١].

فهذه الأعطيات والمكرمات، هي بعض الثمرات العاجلة التي يقرنها الله تعالى بطاعات عباده وقرباتهم، التي يؤدونها لوجهه بصدق وإخلاص.

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط من حديث أم سلمة، ورواه بدون «والصدقة الخفية..» الحاكم في المستدرك من حديث أنس.

وأعود فأذكرك بأن هذه المكرمات العاجلة، أجزية إضافية، لا علاقة لها بالأجر العظيم الذي ادخره الله للصالحين من عباده إلى يوم القيامة، والذي إليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ [آل عمران: ٣/١٨٥].

* * *

بقي أن تعلم أن الله غني عن عباده، وعن الدين الذي اختاره لهم وألزمهم به، فلا يعود إليه من التزامهم به شيء. ولكن الله علم أنه هو السبيل إلى صلاحهم وهو اللحمة التي تجمع على السعادة شملهم، وهو المنهل الذي يروي ظمأ أرواحهم، فأكرمهم به واختاره لهم، وقال لهم منعماً ومتفضلاً «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً» ونبههم إلى أن حياتهم المثلى متوقفة على الانقياد لهذا الدين، فقال لهم: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ..﴾ [الأنفال: ٨/٢٤].

فتجلت مظاهر الخير الذي في تضاعيفه، والثمار الشخصية والاجتماعية التي جاءت على أعقاب التمسك بهديه، وكأنها جزاء من الله على صدق الانضباط به... والحقيقة التي ينبغي أن لا تخفى على أحد هي أن الجزاء الأوفى يتمثل في الدين ذاته، أكرم الله به عباده فضلاً منه وإحساناً، دون سابقة استحقاق من الإنسان لذلك، بل بسابق فضل من الله عز وجل عليهم، وذلك كما نقول: إن فضل الله لا يكمن في أن أَشْبَعَكَ بالطعام الذي دعاك إلى تناوله، وإنما فضله

السابغ يتمثل في الطعام ذاته الذي أوجده لك وجعله متسقاً مع حاجاتك العضوية، وأودع فيه متعة مذاقك، وغذاء جسمك.

أقول لك هذا كي لا تتوهم أن الله جعل من الإسلام الذي كلفنا به عبئاً نحمل منه آصاراً وأثقالاً، وجعل من نتائجه وثمراته الخيّرة والمفيدة جزاء يمتعنا ويسعدنا به مقابل ما نتحمله من تلك الآصار والأثقال. معاذ الله!. ليس لله أي مصلحة أو فائدة، في أن يحمّلنا من الإسلام جهوداً شاقة نلقى بها الضيق والعنت، ثم يرضينا ويخفف عنا من وقع تلك الجهود بالأجزية والأعطيات التي حدثتك عن نماذج منها، لماذا يتعبنا بتحمل هذا الجهد، ثم يرضينا ويريحنا بجزاء من الأعطيات على ذلك؟!.

إن الإسلام، في عقائده ومبادئه وأحكامه، ليس عبئاً نتحمله لقاء أجر.. ولكنه بحدّ ذاته مفتاح السعادة، وموئل الأمان، وكنز المصالح الإنسانية على اختلافها. أي فهو من حيث هو أجر وجزاء يكرم الله به عباده دون مقابل.

وليس في الإسلام من الشدّة أو الثقل على النفس، إلا مثل تلك الشدة التي يتوهمها الجائع المقبل على الطعام، إذ يضطر إلى تحضير طعامه، ثم بذل الجهد الذي لابدّ منه لمضغه وتحريك فكيه واستساغته ثم ابتلاعه!.. فلئن كان تناول الطعام عبئاً يحملنا الله منه جهوداً مضنية، ثم يؤجرنا على ذلك، بالتغذية والقوة والعافية، فإن الإسلام أيضاً عبء يحملنا الله منه جهوداً مضنية، ولكنه يؤجرنا على ذلك، بالمكرمات والأعطيات التي حدثتك عن نماذج منها.

وصفوة القول أن الإسلام نعمة وأي نعمة شرفنا الله بها، ثم إن نتائجه وآثاره العاجلة في الدنيا، هي الأخرى نعمة، بل نعم عظيمة ورائعة شتى، ثم إن ما ادخره الله لنا على هذا الشرف الذي متعنا به من أجر، كما سمّاه، هو أجلّ النعم وأبقاها.

فاعجب لسلسلة من الآلاء والنعم، يتفضل الله بها كلها على عباده، ثم يجعل اللاحق منها أجراً وجزاء للسابق عليها!.. والكريم هذا شأنه يطعم ضيفانه من أطيب الطعام، ثم يعطي كلاً منهم أجراً وافراً على تجشمه أتعاب تناوله للطعام!..

هذا هو الإسلام، وهذه هي آثاره العاجلة، وتلك هي أجوره الآجلة.. وذلك هو شأن ربنا الكريم الودود.

* * *

الحكمة الثامنة والثمانون

((كفى من جزائه إياك على الطاعة أن رضيك لها أهلاً))

مما لاريب فيه أن الله عز وجل ألزم ذاته العلية، بأن يثيب الطائعين وأن يكرمهم بالأجر الذي ادخره لهم إلى يوم القيامة. هذا بالإضافة إلى الأعطيات والأجزية التي يعجلها لهم على ذلك في دار الدنيا، على ما قد تم بيانه في الحكمة السابقة.

إن في الناس من قد يتوهم أن هذا الذي ألزم الله ذاته العلية به، تجاه عباده، أجر حقيقي على بابه، يستحقه الإنسان كما يستحق أي عامل أجر العمل الذي ينهض به، على رب العمل الذي تعاقد معه على العمل الذي ينجزه مقابل الأجر الذي التزم له به.

فيمضي في القيام بالطاعات التي أمره الله بها، كما يمضي العامل في إنجاز العمل الذي التزم به لرب العمل، منتظراً الأجر الذي سيناله باستحقاق، من الله عز وجل، كما ينتظره العاملُ الذي ينبغي أن ينال أجره باستحقاق لدى إنجازه العمل.

ومصدر هذا التوهم كلمة ((الأجر)) أو ((الأجور)) الواردة في كتاب الله والتي جاءت على سبيل المشاكلة في مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ...﴾ [آل عمران: ١٨٥/٣] وقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧/١٦].

غير أن على العبد الذي آمن إيماناً حقيقياً صادقاً بالله ورسله، أن يتحرر من هذا الوهم، وأن يعلم أنه لا يوجد بين العبد وربه عقد عمل أو استئجار كالذي يكون بين شخصين أحدهما عامل والآخر مستأجر أو رب عمل، وإنما الموجود هنا آمرٌ ومأمور. الآمر هو الإله المالك، والمأمور هو العبد المملوك. ومن المعلوم أن على المملوك أن ينجز العمل الذي طُلِبَ منه، لأنه مملوك للآمر، لا لأنه سيتقاضى على عمله له جعالة أو أجراً.

فإن قلت: ولكن الله ألزم ذاته العلية بأجر يعطيه للعاملين يوم القيامة، فالجواب أن الله ألزم ذاته العلية بما قد ألزم ذاته به، تفضلاً منه وإحساناً، لا توفية لحق لهم عليه أو تسديداً لذمة تلاحقه للدائنين.

وما إخالك جاهلاً لهذه الحقيقة، وأنت الذي تخاطب الله في كل صلاة واصفاً له بأنه رب العالمين.. مالك يوم الدين مذعناً بالعبودية والعبادة له.

فإذا تلطف بك إلهك الذي أنت مملوكه وعبده، وعاملك بمثل ما يعامل الناس بعضهم بعضاً إذ يبرئ المدين ذمته للدائن بإعطائه حقه، ويحرر المستأجر نفسه من حقوق الأجير فيوفيه أجره، فوعدك - لطفاً منه وإحساناً - أن يقيم ذاته العلية منك مقام المدين، ويقيمك منه

مقام الدائن، فيعطيك الأجر الذي تستحقه عليه، ويوفيك بذلك ما استقر لك من حق عليه -: أفتقابل لطفه هذا بأن تجعل من نفسك العامل الدائن حقاً، تسعى إلى استيفاء حقك منه، وكأنها ذمة لك عليه، أو أجرة مستقرة لك في حوزته؟

وقد علمت مما قلته لك في الحكمة التي قبل هذه، أن ثمرات هذا الدين ونتائجه مردّها وخيرها إلى الإنسان ذاته، والله هو المتفضل عليه بها، فكيف يصح أن يطالب الإنسان ربه بأجر على نعمة هو، أي ربه، المتفضل بها عليه؟! كيف يصح أن يمن الإنسان على ربه أن قبل تفضل مولاه عليه، ناسياً أن المنة إنما هي لله عليه؟!..

ولقد زل أناس فوقعوا في متاهة الحمق، إذ راحوا يحاولون أن يسجلوا لهم على الله فضلاً في إسلامهم، فقال عنهم الله عز وجل لرسوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧/٤٩].

فمن هنا يقول ابن عطاء الله، لمن يرى أنه يستحق على طاعاته التي يؤديها لله، أجراً: إنه جل جلاله عندما شرّفك بنعمة الإسلام، وقبلك وافداً إليه بطاعاتك، أعطاك من المنة والفضل أكثر مما تستحق.. إنه لم يقبلك في عداد المؤمنين بذاته العلية، والقائمين بتعليماته السنية، إلا لأنه أحبك. أفتطلب منه أجراً على حبه لك؟!.

والأدب الذي تحمله إلينا هذه الحكمة في طياتها، هو أن المطلوب من العبد الذي آمن بالله وهدي إلى صراطه ووفقه الله لاتباع أوامره، أن يعلم أن المنة لله عليه في الإيمان الذي يتمتع به، وفي السلوك الذي

وفق إليه، فهو المطالب بالشكر وتقديم الأجر لمولاه على ذلك، وإنما الأجر الذي بوسعه أن يقدمه له، الشكر الصادق لله أن هداه للإيمان به وأن عرّفه على ذاته العلية.

لقد متعك الله بنعمة الماء البارد على ظمأ، وبنعمة الطعام اللذيذ الطيب على جوع، وبنعمة العافية تسري في كيانك، أفتطالب الله عز وجل بأجر على أن متعك بهذه النعم؟.. ألا، فلتعلم أن نعمة الإسلام الذي تعرفت من خلاله على خالقك ومولاك عز وجل، أجلّ من تلك النعم كلها!..

إذن فأشعر نفسك بالوقوع تحت أعباء لا حدّ لها من منن الله عليك، إذ أحبك فعرّفك على ذاته العلية، واصطفاك فسلكت في طريق الوصول إليه، وبصّرك بما يضمن لك سعادة العاجلة والعقبى، وأدّ حقوق هذه المنن شكراً دائماً لله عز وجل.

فإذا أصغيت إلى ما قد وعد الله به عباده الصالحين من الجنة التي فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، والتي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ورأيت أنه جل جلاله يعدهم بها أجراً على ما كانوا يعملون، فاسأل الله أن يكرمك بذلك النعيم، وألحف بالمسألة والدعاء، ولكن لا على أنه أجرٌ لك عليه أو حق تستحق الحصول عليه، بل على أنه فضل من الله فوق فضل، ومنة تضاف إلى منة.. واعلم أنه جل جلاله إنما سمى هذا الذي وعد به عباده الصالحين أجراً، لطفاً بهم وتحبباً إليهم، فالكلمة هنا من باب المشاكلة ليس إلاّ، كالمشاكلة التي تراها في كلمة «يقرض» من قول

الله تعالى: ﴿مَنْ ذا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢/٢٤٥] وقد مرّ بيان ذلك مفصلاً في الحكمة السابقة.

فإذا أردت أن تعلم مزيداً من الأدلة على هذا الذي أقوله لك، فانظر في الآيات التي يتحدث الله فيها عن النخبة الصالحة من عباده الملتزمين بأوامره والخاضعين لأحكامه، وتأمل كيف يصفهم بالخوف الدائم منه والوجل الذي ينتابهم من اليوم الذي سيصيرون فيه إليه ويقفون بين يديه، من مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ راجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/٦٠] وقوله عز وجل: ﴿يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ١٦/٥٠].

ففيمَ الخوف لو أنهم كانوا يرون أنهم قد قدموا من أعمالهم الصالحة ما يستحقون به الأجر الذي قيّضه الله لهم، وفيم يفعلون ما يؤمرون، ثم يخافون ربهم مع ذلك؟.. إن الذي ينتظر المثوبة والعطاء الرباني يوم القيامة على أنه أجر يناله على طاعاته وقرباته، بمقتضى ما وعد الله به، لن تجد المخاوف سبيلاً إلى قلبه، لأنه موقن بالأجر الذي سيناله، ما دام أنه أدى الواجبات التي طلبت منه وابتعد عن المحرمات التي نهى عنها.

ولكن ها أنت ترى كيف يصفهم ربنا عز وجل، بالخوف من الله على الرغم من أنهم يؤتون ما آتوا من القربات والواجبات، وعلى الرغم من أنهم يفعلون ما يؤمرون.

فما السبب؟.. السبب ما قلته لك من أنهم يوقنون أن المنة لله عز وجل عليهم في الإيمان الذي يتمتعون به، وفي السلوك الذي قد وفقوا

إليه، فهم المطالبون بالشكر لله تعالى على هذا الذي امتن به عليهم، فكيف يطالبونه مع ذلك أو ينظرون منه أجراً على ما امتن هو عليهم به؟!.. فإذا غاب الأجر عن أحلامهم وآمالهم في ضرام الشعور بعظيم فضل الله عليهم بما أكرمهم به من نعمة الإيمان به والهداية إلى طريق الرشد، لابدّ أن تواجههم المخاوف من جراء تقصيرهم في الشكر الذي يناسب هذا الفضل، إذ إن أحدهم مهما أجهد نفسه في القربات وأداء الواجبات، لن يرى أنه وفّى معشار حق الله عليه فيما قد تفضل عليه به. ومن ثم فإن هاجس الخوف من الله بسبب تقصيره لا يكاد يبارحه، وهذا هو السبب في أن الشأن في هؤلاء الصالحين البررة من عباد الله تعالى أن يكثروا من الاستغفار لاسيما في الأوقات الفاضلة كالأسحار.

إن استغفار الله تعالى هو ملاذ الخائفين منه، وهو عزاء المكروبين من تقصيرهم وسوء حالهم.. ولو كان في الصالحين من عباد الله عز وجل من يحق له (لانتظاره الأجر على ما يستحقه من قربات) أن يأمن عاقبته وأن يجانبه الخوف ولا يشغل وقته بطلب المغفرة من الله، لكان أولاهم بذلك رسول الله ﷺ. ولكن ها هو ذا أكثرهم استغفاراً، أليس هو القائل: ((إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة))[1].

* * *

(١) رواه مسلم وأحمد، وقد مرّ تخريجه.

وصفوة القول، أنك إن علمت نفسك عبداً مملوكاً لله، لا حول لك ولا قوة إلا به، فلن تجد نفسك، من أحوالك وتقلباتك كلها، في وضع يجعلك تنتظر العطاء من الله على أنه أجر تستحقه على جهد بذلته أو عمل حققته بل تنتظر عطاءه استجداء، وتتعرض لمثوبته تفضلاً منه وإحساناً.

أما إن غابت هذه الحقيقة عن شعورك، وتصورت نفسك ذا حول وقوة وطول، تعاقدت مع الله على تنفيذ رغائبه بما تملكه من حولك وقوتك مقابل أجر تتقاضاه، فأنت إذن تائه عن هويتك، ضائع عن ذاتك، مغرور بعطاء ربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك، في أي صورة ما شاء ربك. ويوشك أن يوقظك الموت عما قريب إلى هويتك الحقيقية عبداً مملوكاً لله، لا حول ولا قوة، ولا حركة ولا سكنة إلاّ به.

* * *

الحكمة التاسعة والثمانون

((كفى العاملين جزاء ما هو فاتحه على قلوبهم في طاعته، وما هو مورده عليهم من وجود مؤانسته))

مما هو ثابت ومعلوم أن القربات التي ينهض بها المسلم على وجهها، مبعث لطمأنينة النفس وراحة القلب وزوال مشاعر الكآبة والضيق، وأساس ذلك أن العبد إذا أقبل إلى الله يؤدي ما قد كلفه به من طاعات أياً كان نوعها، أقبل الله إليه بالرحمة واللطف، وتجلّى عليه بالود والإيناس. فيشعر عندئذ بلذة قلبية بالغة للطاعة التي هو مقبل عليها، ويرى فيها متعة نفسه وغذاء روحه، وقد كان رسول الله ﷺ يعبر عن شعوره هذا، بقوله لبلال، وهو يدعوه إلى الأذان للصلاة: ((أرحنا بها يا بلال)) وهو المعنى المراد بـ((طمأنينة القلب)) في قوله عز وجل: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ والطاعات كلها فيها قدر مشترك من ذكر الله تعالى.

وقد كان من دأب السلف الصالح، إذا انتاب أحدهم ضيق أو ناله كرب أو اهتاج به عامل من عوامل الغضب، أن يفزع إلى الصلاة، فما

هو إلا أن يزايله الضيق، وينجاب عنه الكرب، وتبرد سورة الغضب بين جوانحه.

وإن أردت أن تزداد يقيناً بهذه الحقيقة فانظر إلى حال هؤلاء الكثرة من الناس المقبلين إلى الله بعد طول شرود وضلال، وسلهم ينبئوك عن ألوان الضيق والكآبة والضجر التي كانت تأخذ بمجامع نفوسهم إذ كانوا يتطوحون في ظلمات جاهليتهم، ويحدثوك عن فرحة قلوبهم وانشراح صدورهم والأنس الذي يسري في نفوسهم، بعد أن عرفوا ربهم واصطلحوا معه وأخذوا ينعشون نفوسهم ويريحون قلوبهم ومشاعرهم بغذاء القربات والطاعات.

وإن أردت أن تستزيد من الأدلة الناطقة بهذا الذي أقوله لك، فتأمل في حال الغربيين الذين كانوا إلى الأمس القريب تائهين شاردين في بيداء الضياع والضلال عن الذات، ومن ثم في بيداء الضلال عن مولاهم الأوحد جل جلاله، ثم اجتباهم الله إليه فخرجوا عن تيه الضياع ليعثروا على هوياتهم عبيداً مملوكين لله، وليعلموا أنهم ليسوا يتامى أو غرباء في جنبات الكون، بل إنهم مكلوءون بولاية الله لهم ولطفه بهم وشرف انتسابهم إليه.. تأمل في حال هؤلاء تجد أن أكثرهم كانوا يعانون من آفات نفسية ومشكلات اجتماعية وأمراض خلقية، وربما كان الوقوع في أسر المخدرات من أبسطها. فلما أشرقت شمس الهداية الربانية على نفوسهم المستوحشة المظلمة، وذاقوا لذة معرفة الله، وتجلّى عليهم جل جلاله بمعنى من معاني قوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٧] سرعان ما

تحرروا من آفاتهم النفسية وخرجوا من أسر مشكلاتهم الاجتماعية وعوفوا من أمراضهم الخلقية، تتأمل في حال الواحد منهم، وهو يتفيأ ظلال سعادته بمعرفة الله وإقباله إليه، فلا تشك في أنه قد خلق خلقاً جديداً، وأن إنساناً آخر قد نشر من داخل كيانه.

رأيت واحداً من هؤلاء الناس في بروكسيل، قبل سنوات، وقد حدثتك عن خبره خلال شرحي للحكمة الستين من الجزء الثاني من هذا الكتاب، وخلاصة خبره أنه ممن استعبدته المخدرات فوقع في براثنها، ثم استسلم مقهوراً لسلطانها، ففقد وظيفته اللامعة وكان طياراً على الخطوط البلجيكية، ثم شاء الله أن تتفتح أمامه نافذة على الإسلام، فتعرف عليه، ثم أصغى إلى الكثير من كلام الله وآسر خطابه في محكم تبيانه، فسرى إلى نفسه من ذلك أنس كان أحوج ما يكون إليه، أنس قاوم وحشة ما تراكم عليه من بؤس أيامه ولياليه، حتى بدّدها، فاعتنق الإسلام وأخلص في التمسك به، وما إن خطا إلى الله خطوة حتى أقبل الله إليه يغمره بفيض إحسانه وعظيم مننه وإكرامه، تحرر من أسر المخدر، وصحا إلى ذاته وكيانه، وعادت إليه شخصيته التي ظل تائهاً عنها، وأعيدت إليه وظيفته التي كان قد حجب عنها، ولما رأيته في المركز الإسلامي في بروكسل، كان قد جاء ليخبر مدير المركز آنذاك الشيخ محمد العلويني حفظه الله بأنه يملك أرضاً في إحدى ضواحي بروكسل وأنه قرر أن ينشئ مسجداً ومعهداً للعلوم الشرعية عليها.

* * *

إذن فالمسلم ينال، من خلال التزامه بتعاليم إسلامه، علاج مشكلاته ودواء أمراضه، وأنس فؤاده، وراحة نفسه.

فمن ذا الذي يستحق الأجر على ذلك كله، الإله الرحمن الحكيم الذي متع الإنسان بهذه النعمة، أم الإنسان الذي يتمتع بها وينال ما قد ذكرت من خيراتها وثمراتها؟

هل في العقلاء من يقول: بل الإنسان هو الذي يستحق الأجر على ما يتمتع به من هذه النعم كلها يطالب به المنعم الذي تفضل بها عليه؟!..

هل من مقتضى المنطق أن يقول هذا الرجل البلجيكي لربه: لقد أنجزت وصاياك وتعليماتك التي أسعدتني بعد شقاء وأنقذتني من الهلاك، فأعطني الأجر الذي أستحقه على هذا الإنجاز؟!..

إن كلاً من العقل والمنطق يقول بحكم البداهة التي لا يمكن أن تغيب عن بال أحد، هذا الذي يقوله ابن عطاء الله: «كفى العاملين جزاء ما هو فاتحه على قلوبهم في طاعته، وما هو مورده عليهم من وجود مؤانسته». وأساس ذلك كله أن الله عز وجل إنما ارتضى الإسلام معتقداً ومسلكاً لعباده لأنه، دون غيره، ضمانة سعادتهم وعلاج مشكلاتهم، فهو لم يهدهم إليه ولم يأمرهم به لمنفعة تعود من جرّاء ذلك منهم (والعياذ بالله) إليه، أو لضرر يتفاداه عن نفسه بواسطة التزامهم به. كيف وإن من أسمائه سبحانه وتعالى «الغني» وهو القائل: ﴿يا أَيُّها النّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥/٣٥].

وتأمل في التعريف الذي التقت عليه العلماء للدين الحق، يتضح لك هذا الأساس الذي ألفت نظرك إليه إنه فيما اتفقوا عليه «شرع إلهي لذوي العقول السليمة، يهديهم إلى ما فيه صلاحهم في عاجل أمرهم وآجله».

وانظر إلى القرآن كيف ينبه الإنسان إلى أن تمام النعمة الربانية التي أنعمها عليه إنما يتمثل في الدين الذي شرفه به وعرّفه عليه وأوصاه باتباعه. وذلك في قوله عز وجل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾ [المائدة: ٥/٣] وهل كان الدين قمّة النعم التي أسداها الله إلى الإنسان، إلاّ لأنه المصباح الذي لابدّ منه لتلمس طريق سعادته في فجاج الحياة؟

ثم انظر إلى أثر هذا الدين، بدءاً من عقائده، ومروراً بشرائعه، وانتهاء إلى آدابه، في حياة الناس الذين أقبلوا إليه واعتصموا به، كيف وحّدهم بعد تفرق وشقاق، وكيف أغناهم بعد فقر، وكيف سما بهم إلى المعارف والعلوم بعد الجهالة والضياع، وكيف أمدّهم بالقوة وأسبابها بعد الضعف والهوان. وبوسعك أن تجد الأمة العربية أبرز نموذج لذلك.

والقرآن يفيض بالآيات التي يمن الله فيها على عباده المسلمين، بالثمار والمنجزات الحضارية التي حققها لهم من خلال إسلامهم، كقوله عز وجل: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ٣/١٠٣]، وكقوله: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ﴾ [القصص:

٥/٢٨]، وكقوله عز وجل: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النّاسُ فَآواكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦/٨].

أفيليق إذن بالإنسان الذي غمره الله بهذه النعم كلها بفضل الإسلام الذي دلّه عليه وأوصاه به، أن يقول لله، إن بلسان الحال أو المقال: ها أنا ذا قد نفذت نصيحتك والتزمت بتعاليم دينك الذي أورثني سائر هذه النعم، فأعطني الأجر الذي أستحقه على ذلك؟!.. أي أعطني الأجر الذي أستحقه على هذه النعم التي أسبغتها عليّ بفضل الإسلام الذي أرشدتني إليه؟!..

أي عاقل، سوى المجانين، يقول هذا الكلام؟

* * *

غير أن الشبهة التي تظل تطوف ببعض الأذهان، عند عرض هذه الحقيقة وبيانها، ما قد ألزم الله ذاته العلية به من «الأجر» الذي ادخره لعباده الذين آمنوا بالله وعملوا الصالحات والتزموا بشرائع الإسلام وهديه، في مثل قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ إِنّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٣٠/١٨] وقوله: ﴿.. وَإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥/٣] حتى استقر في أذهان كثير من الناس أن لهم أجراً يستحقونه من الله تعالى لقاء انقيادهم بتعاليم الإسلام وأحكامه، وحتى غدا الدافع الأول، وربما الأوحد، إلى تمسكهم به تعلقهم بالأجر الذي حدثهم الله عنه ووعدهم به.

وأحسب أنا قد استوفينا الجواب عن هذه الشبهة في أكثر من مناسبة مرت، ولعلك قد علمت مما ذكرته لك، أن المثوبة التي ادخرها الله للصالحين من عباده، هي فيما قد سماها الله به «أجر وجزاء» ولكنها في الحقيقة وواقع الأمر فضل ومنة وإكرام.

ومن أوضح الأدلة على ذلك أن الله عز وجل يصف عباده الصالحين الملتزمين بأوامره والمبتعدين عن نواهيه بالخوف الدائم منه، فيقول عنهم مثلاً: ﴿يَخافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ١٦/٥٠]، ويقول أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ راجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/٦٠].

فما الموجب لخوفهم من الله مع التزامهم بأوامره وابتعادهم عن نواهيه ووقوفهم عند حدوده، وعلمهم بأنهم قد استحقوا على ذلك أجورهم المدّخرة لهم عند الله عز وجل؟ ولو كان «الأجر» الذي يعدهم الله به أجراً حقيقياً على بابه، لما كان لخوفهم من الله، بعد أداء كل ما طُلِبَ منهم أي معنى.

ثم إنك لا تكاد تقف على عِدَةٍ يعد الله بها عباده الصالحين المستقيمين على أوامره، إلا وتجد الوعد بالمغفرة في مقدمتها ألا ترى إلى قوله عز وجل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ [الفتح: ٤٨/٢٩] وقوله تعالى: ﴿إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ٣٦/١١] وقوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ

يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨/٥٧].

فإذا كان الأجر الذي يعد الله به عباده الصالحين، أجراً حقيقياً على بابه، يستحقونه لقاء استقامتهم على أوامره وأحكامه، عز وجل، فما وجه المغفرة التي يعدهم بها؟ وهل تكون المغفرة إلا للجانحين أو التائهين والمقصرين؟ وهؤلاء الذين يعدهم بالمغفرة، ليسوا جانحين ولا مقصرين، بل هم - كما يصفهم الله عز وجل - مؤمنون صالحون متقون.

لا وجه لما سيتفضل الله عليهم بالمغفرة، إلاّ الإلماح إلى أن جهودهم التي ينفقونها في القربات والطاعات والانضباط بشرائعه عز وجل، إنما تعود جدواها إليهم، فالمنة فيها لله عليهم، شأنها كشأن سائر النعم الكثيرة التي لا حصر لها، والتي تفد من الله إليهم. فإذا أكرمهم، علاوة على ذلك، يوم القيامة بما سماه «الأجر» الذي ادّخره لهم لذلك اليوم، فإنما هو تعبير عن مغفرة الله لهم، وتجاوزه عن تقصيرهم في أداء حقوقه عليهم، وفي مقدمتها توفيقه لهم في النهوض بالتعليمات التي أرشدهم إليها، على الوجه المطلوب، وما جنوه من ثمار الخير والسعادة من وراء التزامهم بها. وإنما جاء التعبير عن ذلك كله بالأجر على سبيل المشاكلة ليس إلا، تفضلاً منه عز وجل وتحبباً وإكراماً.

ودعني أختم لك بيان المعنى الذي ينبه إليه ابن عطاء الله، بهذا المثال، ولله المثل الأعلى:

أرأيت إلى ملك ذي سلطان واسع وبسطة كبيرة من القوة والمال والرزق، دعا إلى رحابه وديوان ملكه رجلاً يعاني من ألوان الفقر والضعف والهوان، فأكرمه ونعمه ووجه إليه من الوظائف ما رفع عنه ضره وحول فقره إلى غنى وضعفه إلى قوة، أفيعقل أن يقبل هذا الرجل إلى الملك الذي انتشله من فاقته وعدمه وضعفه إلى صعيد السعادة بكل مقوماتها فيسأله الأجر على استجابته له عندما دعاه إلى رحابه وشرّفه بالوظيفة التي أغدقت عليه أنواع النعم وحصنته ضدّ كل سوء؟!.. وهب أن الملك بالغ في إكرامه وزاد من لطفه، فأمدّه بجائزة مالية اصطنع لها تسمية ومناسبة تليقان بكرمه ولطفه، وأعطاه إياها على أنه الأجر الذي يستحقه لقاء استجابته لهذا الذي دعاه إليه ونصحه به، أفينتهي به الغباء إلى أن تسكره كلمة «الأجر» هذه، فيتيه عن نفسه وعن تفضل الملك عليه بما دعاه إليه ونصحه به، فيحسب أنه، حقّاً، يستحق بهذا الذي سعد به بواسطة الملك، أجراً يتقاضاه منه عليه؟

تلك هي قصة العبد مع ربه.. وما أظن أن غباءً يمكن أن ينتهي بك، إلى أن تحسب لنفسك على الله أجراً فيما تفضل عليك به من نعمة التعريف على ذاته، ثم الدعوة إلى رحابه، وتوفيقك إلى ما يسعدك في عاجل أمرك وآجله.

* * *

الحكمة التسعون

((من عبده لشيء يرجوه منه، أو ليدفع بطاعته ورود العقوبة عنه، فما قام بحق أوصافه))

الضمير المضاف إليه في كلمة ((أوصافه)) فيه نوع من الاستخدام، فهو صالح للعود إلى الشخص الذي هذا شأنه، وصالح للعود إلى ذات الله عز وجل دلّ عليه الضمير في قوله ((عبده)).

ذلك لأن الذي يعبد الله بدافع من أطماعه فيما يرجوه منه، أو بدافع الوقاية مما هو خائف منه، لم يؤدّ حق صفته الشخصية، وهي عبوديته ومملوكيته لله، ولم يؤدّ حق صفات الله تعالى، ومن أبرزها وأهميتها ألوهية الله ومالكيته لكل شيء.

إذا تبين هذا فلنبدأ شرحنا لهذه الحكمة بمقدمة تمهّد لتفهم المعنى الذي ينبهنا إليه ابن عطاء الله فيها:

من المعلوم أن المؤمن بالله عز وجل مطالب بأن يجمع بين كل من محبة الله والمخافة منه. أما محبة الله فالدليل على ضرورتها قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ

وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥/٢] وقوله تعالى: ﴿يا أَيُّهـا الَّذِيـنَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤/٥] وأما الخوف منه، فالدليل على ضرورته قول الله تعالى: ﴿وَخافُونِ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥/٣] وقوله تعالى: ﴿وَإِيّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠/٢].

ومن المعلوم أيضاً أن اجتماع الحب والخوف في القلب، في علاقاتنا الإنسانية، لشخص واحد، يكاد يكون مستحيلاً. بل المألوف والواقع أنك إن أحببت زيداً من الناس فلن تخافه، وإن خفته فلن تحبه.

وسبب ذلك أن مردّ كل من الحب والخوف، في علاقات الناس بعضهم مع بعض، إلى محبة الإنسان لذاته. فالذي يحب شخصاً من الناس إنما يحبه لخير يناله منه أو للذة يشعر بها لدى ركونه إليه وقربه منه. وهذا يعني أن هذا المحب إنما يحب نفسه، ولكن من خلال الشخص الذي يستفيد بالقرب منه أو يلتذ بالركون إليه، ولولا هذه العوارض التي وافقت هوى في نفسه ومصلحة لشخصه لما شعر بشيء من الحب لمن ظهرت لديه هذه العوارض.

وهذا يعني أن الذي يشعر بما يناقض رغائبه وفوائده لدى زيد من الناس، فلن يحبه، لأن العوارض التي من شأنها أن تجذبه إليه غير موجودة، فإذا وجدت لديه نقائضها فلابد أن يتسبب عن ذلك الخوف منه، بدلاً من الحب له.

فمن هنا لا يكاد يجتمع في قلب واحد في وقت واحد حب وخوف لشخص واحد، إذ إن أسباب كل من الحب والخوف متناقضة، فلابد

أن تكون المسببات عنهما متناقضة أيضاً. غير أن هذا لا ينطبق على علاقة الأبوين بأولادهما والعكس، وسأحدثك عن سبب ذلك بعد قليل.

وبعبارة أخرى نقول: إن مشاعر الحب والخوف ما بين الناس، إنما تأتي من هذا الذي يسمى «رد الفعل الشرطي» وبيانه أن الرغائب والمتع محبوبة لنا دائماً، فإذا اقترنت بشخص منا لمدة من الزمن، فإن عدوى الحب تسري منها إلى الشخص الذي اقترنت به، كما أن الشرور وأسبابها مكروهة لنا دائماً، فإذا اقترنت هي الأخرى بشخص ما لمدة من الزمن، فإن عدوى الكراهية تسري منها إلى الشخص الذي اقترنت به. ولما كانت المتع والآلام متناقضة تستعصي على الاجتماع والتلاقي في مناط واحد، فقد استلزم ذلك أن تكون محبة المتع وكراهية الآلام متناقضين أيضاً لايجتمعان في مناط، أي شخص، واحد.

غير أن الذات الإلهية لاينطبق عليها هذا المعنى الذي تراه في علاقات الناس بعضهم مع بعض، وبعبارة أدق: يجب أن لا ينطبق عليها هذا المعنى الذي نتعامل على أساسه نحن البشر في علاقة ما بيننا.

إن الذي عرف معنى ألوهية الله له ومعنى عبوديته التامة لله، لا يمكن أن يجعل محبته له ومخافته منه تابعتين لما قد تمليه عليه مشاعر اللذائذ والآلام. فلاجرم أنا لانتحدث هنا عمن لم يعرف ألوهية الله ولم يدرك معنى عبوديته له، ولسنا معنيين بشأنه في هذا المقام.

إن خالقية الله للإنسان، ونسبة الروح السارية في كيانه إلى الله، وانتساب الإنسان إلى مولاه بنسب المملوكية المطلقة، كل ذلك يجعل

من الإنسان كائناً مفطوراً على البحث عنه والحنين إليه والحب له، بقطع النظر عما قد يشعر به من آمال وآلام.

إن هذا الشعور الذي قد نعبر عنه بالحنين أو الشوق أو الحب، والمتجه من العبد إلى ربه عز وجل، ليس آتياً من عوارض البحث عن الملذات، ولا من عوارض الخوف من الآلام، ولكنه آت من تعلق المملوك بمالكه وتعلق المخلوق بخالقه، وعندما يكون التعلق ذاتياً لا شأن له بالعوارض المرغوبة أو المرهوبة، فإنه يغدو مناخاً صالحاً ومهيأ لكل من الحب والخوف معاً.

إن الله عز وجل ينبغي أن يكون محبوباً لذاته ومرهوباً لذاته أيضاً، إذا إن ألوهيته عز وجل تستلزم ذلك. وعبودية الإنسان له تستلزم هي أيضاً ذلك.

فإن صعب عليك فهم هذه الحقيقة، فتأمل في علاقة الأبوين بأولادهما وفي علاقة الأولاد بالأبوين. إن بوسعك أن تعلم أن الولد مشدود بكل من الحب والخوف إلى أبويه في آن واحد، إنه حتى ولو كان يتلقى منه الآلام التي تخالف مُتَعه، يحبّه، وهو حتى لو لم يتلق منه إلا المتع والرغائب، يخافه ويرهبه. إنه قبل أن يدرك فرق ما بين المتع المبهجة والآلام المضنية، إذ هو طفل صغير، يسكن إلى صوت أمه ويستأنس به ويستوحش لغيابه عنه، بالقدر الذي يرهبه ويخافه أيضاً.

وإنما سبب ذلك صلة ما بين الأبوة والبنوة من أسرار تسمو على البيان والشرح، وأهون بهذه الصلة وأسرارها إن قارنتها بصلة ما بين

العبد وربه، والمخلوق وخالقه، وصلة ما بين الروح الإنسانية وبارئها والملأ الأعلى الذي أهبطت منه.

وانظر، تجد صلة ما بين المولى جل جلاله، وأصحاب رسول الله ﷺ والسلف الصالح، قائمة على هذا المعنى الذي ذكرته لك. حب يتسامى على المنافع والأغراض لله عز وجل، ويصمد أمام سائر المصائب والابتلاءات، لأنه متجه إلى الله لا لشيء إلاّ لأنه الله. من أجل ذلك كان معاذ بن جبل رضي الله عنه، يقول وهو يعاني من برحاء موته: أي رب اخنقني خنقاتك، فوعزتك إنك لتعلم أن قلبي يحبك!.. ومن أجل ذلك بقي عمران بن حصين ثلاثين عاماً وقد أثبته المرض العضال على سرير من خوص النخل، دون أن تفارق البسمة شفتيه، ولما رأى أخاه العلاء - وقد جاء يعوده - يبكي، قال له: ما يبكيك؟ قال: هذه الحال التي أنت فيها. فقال له عمران: لاتبك فإن أحبه إلى الله أحبه إليّ.

وهل يصبر على ما صبر عليه أصحاب رسول الله من ألوان الشدائد والعذاب والمحن، من كان مبعث حبه لله طمعاً في مغنم، أو فراراً من مغرم؟.

* * *

لعل هذه المقدمة تضعك أمام المعنى الذي يرمي إليه ابن عطاء الله من هذه الحكمة، بل تضعك أيضاً أمام الدليل عليه.

فإنك إذا علمت أن الله يستحق الحب لذاته هو، لا لفائدة تصل منه إلى المحب، وأنه ينبغي أن يخاف منه لذاته هو، لا اتقاء ضرر قد يصل منه، علمت أن توجه العبد إليه بالعبادة يجب أن يكون أيضاً لذاته لا لأي عارض آخر.

إذن، فمن عبده للحصول على فائدة يرجوها منه، أو تخلصاً من عقوبة يخشى، إن لم يعبده، أن تنزل به، فهو لم يؤد شيئاً مما ترتب عليه من حقوق أوصاف ربوبية الله عز وجل. بل إنه إنما يعبد في الحقيقة ذاته، من حيث يبحث عن سبيل ما للحصول على رغائبه وللتخلص من مخاوفه.

فإن قلت: فهب أنه عبد الله لمقصدين اثنين: لذاته هو، ولكي ينال رغائبه ويتقي مخاوفه، قلت هو إذن متورط في معنى من معاني الشرك، ومن ثم فهو داخل في عموم ما قد حذر الله منه، في قوله عز وجل: ﴿فَمَنْ كانَ يَرْجُو لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف: ١١٠/١٨] وقوله تعالى: ﴿وَما أُمِرُوا إِلاّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥/٩٨].

وربما استشكل بعضهم هذا الذي قلته لك عن فرق ما بين محبة العبد لربه ومحبة الإنسان لإنسان مثله، وما بنيت عليه من هذا الذي يقرره ابن عطاء الله، فيقول: أليس على الإنسان أن يحب الله لما يكرمه به من نعم ويرّد عنه من مصائب ونقم؟ ألم يقل رسول الله ﷺ، فيما رواه الترمذي والحاكم: «أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه، وأحبوني لحب الله إياي»؟

والجواب أن العامل الأول لمحبة العبد ربه، هو ألوهية الله وربوبيته للعبد، أي فحتى لو لم يصل إليك شيء من نعم الله ومنحه، ولم يرد عنك شيئاً من المصائب والآلام، فإن عبوديتك لله تستوجب حبك له ومخافتك منه، ولاتنس أن المخافة هنا معناها الرهبة، ثم إن النعم الكثيرة التي تفد إليك منه عز وجل تستوجب مزيداً من الحب، كما أن ما قد تتوقعه من العقاب والبلاء بسبب تقصيرك في تنفيذ أوامره والابتعاد عن نواهيه، تستوجب مزيداً من الخوف. فحبك لمولاك وخالقك على كل حال لا يمنع من أن تحبه أيضاً لأنه المنعم المتفضل عليك، ومهابتك له على كل حال لا تمنعك من أن تهابه وتخافه لأنه شديد العقاب، ولأنه إذا أخذ، أخذ أخْذَ عزيز مقتدر. بل إن عوارض منحه وإكرامه واحتمالات عقابه وعذابه، من شأنهما أن تزيدك حباً له، وخوفاً منه.

غير أن المهم الذي يجب أن لا يغيب عنك، هو أن تجعل عبادتك له أداء لحق ربوبيته عليك، بقطع النظر عن آمالك في رحمته ومخاوفك من سطوته. بحيث توطن نفسك أن تظل على عهدك معه والتزامك بأداء حق ربوبيته عليك، سواء أعطاك أو منعك، ونعّمك أو ابتلاك، وهذا ما يقصد إليه ابن عطاء الله في حكمته هذه.

وإذا تبيّن لك هذا، فلن تستشكل قول رسول الله ﷺ لعائشة ولبلال، وقد سأله كل منهما عن السبب في كل هذا الذي يرهق به نفسه من العبادة وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر: ((أفلا أكون عبداً شكوراً)).

لأنك قد علمت الآن أن شكر العبد ربه على نعمه، جزء لا يتجزأ من حق الربوبية عليه، ولا تنسَ أن مجرد خلق الله إياك عبداً له، وجذبك إليه بولايته عليك، وتشريفه لك بمخاطبتك، وتعريفه لك على ذاته العلية، هي النعم الجليلة الكبرى التي لا ترقى إلى مستواها عوارض النعم الأخرى كلها مهما جلّت أو كثرت.

بقي أنك قد تسأل: فمن أين أخذ ابن عطاء الله قراره هذا في هذه الحكمة؟

والجواب أن ابن عطاء الله أخذ قراره هذا من صريح كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، كما هو شأنه في سائر حكمه الأخرى. ألم تقرأ قول الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتنةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ٢٢/١١].

والآية صريحة في الدلالة على المعنى الذي كنا بصدد بيانه وشرحه الآن، بأبلغ عبارة وأسمى بيان. فالذي يعبد الله طمعاً في نعمه واتقاء للمصائب التي قد يبتليه بها، إنما يوطن نفسه على أن يعبده في حالة دون أخرى، وبشروط يمليها على ربه، لأنه إن علم أن عباداته له لن تحقق له أطماعه ولن تقيه من مخاوفه، فلسوف يتقاصر عن القيام بتلك العبادات ويتحول عنها إلى الانقياد لرغائبه وأهوائه، ولاريب أنه يخسر عندئذ دنياه وآخرته. إذ إنه في دنياه لم يتمتع برغد من العيش، وفي آخرته لن تكون له أي حظوة مع عباد الله الصالحين.

* * *

الحكمة الحادية و التسعون

((متى أعطاك أشهدك برّه، ومتى منعك أشهدك قهره، فهو في كل ذلك متعرف إليك ومقبل بوجوه لطفه عليك))

هما حالتان، لابدّ للعبد أن يتقلب في واحدة منهما، وقد يتقلب فيهما معاً في وقت واحد: إحداهما العطاء، والثانية المنع فيما يبدو.

أما العطاء فهو توارد النعم الظاهرة من الله تعالى إلى العبد، من عافية، ومال، ومسكن، وطمأنينة بال وغير ذلك من النعم الظاهرة التي تفد إلينا من الله عز وجل.

وأما المنع فهو المصائب والابتلاءات التي يتعرض لها العبد، ما بين حين وآخر، من فقر ومرض وشدة بعد الرخاء وخوف من عدو بعد الطمأنينة والأمن.

إذا تبيّن لك معنى كل من هاتين الحالتين، فإن من اليسير أن نفهم ما يقوله ابن عطاء الله، من أنه عز وجل عندما يعطيك، يشهدك من خلال ذلك برّه، وأنه عندما يمنعك يشهدك من خلال ذلك قهره.

ولكن كيف نفهم قوله: فهو في كل ذلك متعرف إليك ومقبل بوجوه لطفه عليك؟!.. كيف يكون منعه للنعم التي كان يرسلها إليك استمراراً للطفه بك إذ كان يرسلها إليك ويمتعك بها؟ كيف يكون العطاء والحرمان - وهما نقيضان - مثمرين لنتيجة واحدة وهي اللطف والإكرام؟

يتضح لك الجواب عن هذا السؤال، من خلال حقيقتين ينبغي لكل مسلم أن يكون على بينة منهما:

أما الحقيقة الأولى فتتلخص في أن الإنسان عبد لله بواقعه الاضطراري مؤمناً كان أو جاحداً وملحداً، إذن فمن الخير له أن يمارس عبوديته لله بسلوكه الاختياري، ليتحقق التناسق في حياته بين هويته الاضطرارية وسلوكه الاختياري، إن هذا التنسيق بين الواقع والسلوك في حياته يكسبه السعادة التامة، في حين أن أي تشاكس بينهما لا بدّ أن يكون مصدراً لنكد وشقاء، إن عاجلاً أو آجلاً.

إذا تبيّن هذا، فإن من جليل لطف الله بالعبد أن يكرمه في حياته بالمناخ الذي ييسر له ممارسة عبوديته لله عز وجل بسلوكه الاختياري كما هو عبد له بواقعه الاضطراري.

وتتلخص ممارسة العبودية السلوكية لله عز وجل، في أن يكون شاكراً له في حالة الرخاء، صابراً ابتغاء وجهه في حالة الضراء. وإذا دققت في أنواع الطاعات والقربات التي شرعها الله وأمر عباده بها، فهي كلها لا تعدو أن تكون ترجمان شكر على نعمه أو صبر على ابتلاءاته وشدائده... وأذكرك هنا بما سبق أن أوضحته لك من أن شكر الله ليس كلمة يرددها اللسان، كما يظن كثير من الناس، وإنما هو تسخير العبد نعم الله التي أوفدها إليه للمهمة التي خلق من أجلها.

ولكن كيف يتأتى للعبد أن يترجم عبوديته السلوكية لله تعالى بكل من الشكر والصبر؟

سبيل ذلك أن يتوافر في حياته التي يتقلب فيها أسباب كل من الشكر والصبر، بأن يكرمه الله آناً بأسباب المتعة ومظاهر الرخاء، وبأن يبتليه آناً بالمصائب ومظاهر الشدة واللأواء، فذلك هو المناخ الذي لابدّ منه لكي يتسنى للإنسان أن يمارس عبوديته السلوكية (أي الاختيارية) لله عز وجل.

وانظر إلى هذا المعنى الذي أقوله لك، كم هو جليّ وظاهر في قوله عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١/٣٥]، وفي قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ٣/١٨٦].

وإذ قد علمت أن ممارسة الإنسان عبوديته السلوكية لله عز وجل هي مفتاح سعادته العاجلة والآجلة، فلابدّ أن تعلم إذن أن المناخ الذي يهيئه الله تعالى في حياته ليتسنى له أن يمارس من خلال التعامل مع وقائعه وأحداثه عبوديته السلوكية هذه، من أجلّ مظاهر لطفه به، وقد علمت أن هذا المناخ الصالح الذي لابدّ منه، حياة تتمازج فيها مظاهر الشدة والرخاء، وتتجاور فيها المصائب والنعم.

وإلا، فقل لي: كيف يتأتى للإنسان أن يعبر عن عبوديته لله بالصبر (وهو شطر العبودية السلوكية لله) إن كانت حياته التي يتقلب فيها فياضة بألوان النعيم الصافي من شوائب الشدائد والآلام؟

وقد ذم الله تعالى في محكم تبيانه أولئك الذين يعبدون الله على حالة دون أخرى، يعبدونه (فيما يزعمون) في حالة الرخاء، فإذا غاب الرخاء وظهرت لهم في مكانه الشدة، نسوا الله ونسوا، أو تناسوا عبوديتهم له، ونال منهم السخط والضجر، فقال عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ٢٢/١١].

إذن فممارسة الإنسان عبوديته لِلَّه هي مفتاح سعادته في الدنيا والآخرة، ولا تتحقق ممارستها إلا في كلا حالتي السراء والضراء يتقلب فيهما الإنسان، شاكراً عند السراء وصابراً على الضراء.

تلك هي الحقيقة الأولى التي تشكل أحد الجوابين أو الشطر الأول من الجواب.

أما الشطر الثاني منه فيتلخص في أنه ما من مصيبة أو شدة يبتلي الله أياً من عباده المؤمنين بها، إلا وتكون إما كفارة له عن معصية ارتكبها أو تنبيهاً له من غفلة استرسل فيها. أو إلجاء له إلى طرق باب الرحمة الإلهية والإقبال إلى الله بالتضرع والدعاء، بعد طول نسيان له وإعراض عنه. فهي في معالجة ما قد يبتلى به الإنسان من ذلك كله، أشبه ما يكون بأنجع دواء يعالج به أخطر الأمراض التي تهدد الجسم بالهلاك. فهي وإن كانت مصائب أو شدائد في ظاهرها، إلا أنها نعم وألطاف إلهية في حقيقة الأمر وباطنه، وهي المعنية بالنعم الباطنة في قول الله عز وجل: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرَةً وَباطِنَةً﴾ [لقمان: ٣١/٢٠].

ولو عدت فتأملت في حالك أو في حال كثير من الناس، لرأيت أن إقبال أحدنا إلى الله بعد طول إعراض، وأن توبته من الأوزار بعد طول انغماس فيها، وأن شعوره بلذة الدعاء ونشوة التضرع على أعتاب الله بعد الكثير والعجيب من قسوة الفؤاد، كل ذلك يأتي ثمرة شدّة انتابته أو مصيبة طافت به، أو كآبة هيمنت على نفسه، فكان اصطلاحه مع الله أثراً من آثار ذلك.

أفتقول إذن عن هذه الشدة التي يسميها ابن عطاء الله في كلمة جامعة «منعاً» إنها مصيبة تبعث على الضجر والتأفف والعتب على الله، أم تقول: بل إنها ألطاف ربانية خفية، جاءت مخبوءة في تلافيف ما قد يبدو أنه منع أو مصيبة؟

ولعلي حدثتك خلال شرح بعض الحكم السابقة، عن رجل ابتلاه الله في السنوات الأخيرة من حياته بشلل جزئي في جسمه، فكان من آثار ذلك المرض الذي ابتلاه الله به أن تحول إلى إنسان ربّاني النزعة والشعور، مقبل إلى الله بلذة ونشوة لم يعرف طعمها من قبل، يفيض قلبه بحب لله ملك عليه أحاسيسه وأهواءه، ولم يكن على شيء من تلك الحال من قبل.. ولما زاره والدي رحمه الله يعوده ويدعو له بالشفاء، قال له: أشهدك يا سيدي أن شفائي الذي تدعو لي به إن كان مجيئه سبباً لغياب هذه الحال عني، فأنا لا أطلب هذا الشفاء ولست بحاجة إليه.

* * *

فيا أخي القارئ: كن على ثقة تامة ببالغ رحمة الله وعظيم لطفه، في كل ما يعامل به عباده المؤمنين، وفي كل ما يفد إليهم منه، ولا تبعثن المصائب التي تراها منحطة في حياة الأفراد أو الجماعات منهم أي ريبة بحكمة الله ولطفه في نفسك.

واعلم أن قاهرية الله لعباده باب من أهم أبواب إيمانهم به وتعرفهم عليه، فلولا قهره لما صحا المغترون بالقوة التي منحهم الله إياها إلى ذل عبوديتهم له، وإلى أنهم إنما يتحركون في قبضته ويستمدون قدراتهم من فيضه وسلطانه.

بقي أن في الناس من يقول: ولكن أين هي العدالة الإلهية في حياة إنسان قضى الله عليه بعاهة العمى أو الصمم أو الحرمان من عضو أو الابتلاء بمرض عضال لا خلاص منه، دون جريمة أو جريرة ارتكبها؟

والجواب يتلخص فيما يقوله العلماء الربانيون: في كل جلال جمال.

وإليك موجزاً لتفصيل هذا الملخص أو لمعنى هذه الكلمة: إن مصدر هذا الاستشكال يتمثل فيما يتخيله بعض الناس، إذ يرى أحدهم واحداً من هؤلاء المعوقين، من أنهم يعانون من كآبة وكرب في نفوسهم، وأن ضيقاً ينتابهم مما هم فيه يحرمهم مما يشعر به الآخرون من متع الحياة ولذائذها.

ولاريب أن الحكم بناء على هذا التخيل حكم فضولي، لا ينهض على أي برهان. فظواهر الناس لم تكن يوماً ما عنواناً دالاً على ما بواطنهم. رب رجل تنظر إليه فتجده فارهاً في ملبسه ومظهره، يتقلب في ألوان من المتع والنعم، ولو اخترقت ظاهره إلى ما يختزنه من المشاعر في باطنه، لأشفقت عليه من الأسى الذي يعاني منه والكآبة التي

تعتصر قلبه. ورب رجل تنظر إليه فتجده يعاني في الظاهر من فقر مدقع أو من مرض قد انحطّ في بدنه أو عاهة دائمة في جسده، فلا تشك في أنه يعاني من كرب خانق داخل نفسه للحال التي هو فيها، ولكنك لو اخترقت ظاهره إلى ما قد انطوى عليه فؤاده، لرأيت أن الفرحة تغمر مشاعره وأن الرضا يعمر قلبه.

وكم رأينا شواهد على هذا الواقع في حياة هذين الفريقين.

إن الذي نستخلص من ذلك أن السعادة والشقاء لا يتمثلان في أسبابهما المادية المرئية حسب ما قد يخيل إلينا، ولكنهما يتمثلان في الحالة القلبية والشعور المهيمن على النفس، وإنما يأتي ذلك من تجليات الله تعالى على فؤاد الإنسان ومشاعره، فهو الذي يشرح الصدر بما يشاء وكيفما يشاء، وهو الذي يجعله ضيقاً حرجاً بما يشاء وكيفما يشاء. ولاعلاقة للظواهر المادية بما في دخائل النفس، إلا عندما يشاء الله ذلك، فيسخر ما يشاء من الظواهر لما يشاء.

إن جلّ الذين ينتحرون في أوربا وأمريكا ليسوا من المعوقين ولا من المنكوبين ولا من الذين أضناهم المرض أو الفقر، ولكنهم من أكثر الناس ترفاً وتقلباً في ألوان النعيم.

إذن، فكم هو فضولي ذاك الذي يتخيل ما لايعلم، ويفترض ما لا دليل له عليه، ثم يجعل من جهالته المتخبطة دليل احتجاج واعتراض على الله عز وجل.

* * *

الحكمة الثانية و التسعون

((إنما يؤلمك المنع لعدم فهمك عن الله فيه))

هذه الحكمة تتمة للتي قبلها. وقد عرفت من قبلُ، معنى كل من العطاء والمنع.

وليس المراد بالألم هنا الألم الجسمي مما قد يصيبه من الأوجاع والأسقام، وإنما المراد به الألم النفسي، إذ الجسم يتألم مما من شأنه أن يبعث ألماً فيه، سواء فهم صاحبه الحكمة من المنع أو لم يفهم، وسواء فهم عن الله (على حدّ تعبير ابن عطاء الله) أم لم يفهم.

ولكن ما المراد بقوله: لعدم فهمك عن الله فيه؟

لقد علمت في شرحنا للحكمة السابقة أن ألطاف الله لا تنقطع عن عباده لا في حالة السراء ولا الضراء. إن ابن عطاء الله يضيف هنا فيقول: ونظراً إلى أنك لا تتبين هذه الألطاف في حالة الضراء، أي لدى نزول المصائب، فإنها تؤلمك وتضيق ذرعاً بها، ولو تبينتها وفهمت أسبابها وآثارها لما تألمت نفسك منها وإن نال منك الوجع الجسمي بسببها.

ولقد حدثتك في شرح الحكمة التي قبل هـذه عـن بعـض الأسـباب والآثار، وها أنا أضيف إليها الآن ما قد يتمـم فهمنـا عـن اللـه في أمـر المصائب والابتلاءات التي يعبر عنها ابن عطاء الله بالمنع.

أولاً: متى تتجلى قيمة النعم التي يكـرم اللـه بهـا عبـاده، مـن عافيـة ورزق وأمن وسكن ورغد عيش؟

إنما تتجلى قيمتها للإنسان بظهور نقائضها وآثار حرمـان أصحابهـا منها، ولو أن نعمة دامت دون انقطـاع لذابـت قيمتهـا شـيئاً فشـيئاً في نفوس الذين يتمتعون بها، إذ إن قيمـة الشـيء، أي شـيء، لا تبـدو إلا لدى مقارنة وجوده بفقده، فذاك هو الذي يحدد قيمته ويبرز أهميته.

إذن يجب أن يوضع الناس من النعم التي يتمتعون بها أمام نقائضها، كي لا يغفلوا عن قيمتها فيعرفوا فضل الله عليهم في إكرامه لهم بها.

وإنما يتم ذلك بأن يسلب عنهم هذه النعم بين الحين والآخر، ريثمـا يستيقظون من غفلة النسيان لها، ويتلهفون للبحث عنها.

فهل أنت في شك من أن هذا منهج تربوي يفيـض بـاللطف الإلهـي بالعبد، ويحميه من جريرة الاستهتار والطغيان؟

ثانياً: علمت مما ذكرته لـك في شـرح حكمـة سـلفت، أن اللـه عـز وجل قضى أن تكون حياتنا الدنيـا هـذه ممـراً إلى مقـر، وأن لا يسـتقر للإنسان أياً كان عيش فيها، وأن تكون الدار الآخرة هي المقر الذي لا تحوّل عنه.. ترى كيف تكون حالك لو فاجأك داعي الرحيل عن الدنيا إلى المقرّ الذي ينتظرك، وأنت تتقلـب منهـا في ألـوان مـن النعـم والمتـع

الصافية عن الآلام والشوائب مما جعلك من طول التنعم بها تتعشقها ولا تملك فطاماً عنها؟

إن مما لاريب فيه أن الآلام التي ستأخذ بمجامع نفسك وتسيطر على كل كيانك، أبلغ وأقسى من آلام المصائب والابتلاءات الجزئية التي يعوّدك الله عليها متفرقة، آتية وذاهبة، خلال أيام حياتك، كي لا تأسى على الدنيا وأيامك فيها إذا حانت ساعة رحيلك عنها، ولكي ترحل عنها آنذاك وأنت متلهف على ما أنت مقبل عليه وصائر إليه، بدلاً من أن تتمزق مشاعرك تعلقاً بما أنت مفارق له.

إذن فقد كان من عظيم لطف الله بك أن جعل من امتزاج العطاء بالمنع في حياتك الدنيا هذه ما يتناسب وطبيعتها المرحلية العابرة.. إنها استراحة على طريق رحلتك إلى الدار الآخرة، فلا تتوقع منها أكثر مما ينبغي أن يتوفر في أي استراحة على أي طريق إلى غاية.

ثالثاً: لقد علمت أن هوية الإنسان أياً كان، تتلخص في كونه عبداً لله عز وجل. ومما لا ريب فيه أن من خُلق عبداً لله عز وجل في واقعه وكينونته الاضطرارية، يجب أن يمارس عبوديته لله في سلوكه الاختياري، وإنما هي الحكمة من خلق الله الإنسان، وصدق الله القائل: ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥١/٦٥].

ولا تتجلى عبودية الإنسان لله في شيء أجلى من افتقاره إليه، فهو مادة عبوديته السلوكية لله وأساس تبتله وتذلله بين يديه.

ولاشك أن الإنسان فقير إلى الله في كل أحواله، سواء أقبلت النعم إليه أم أدبرت عنه، إذ إنه لايملك من أمر نفسه شيئاً، وصد الله القائل:

﴿يا أَيُّها النّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥/٣٥].

ولكن هيهات أن يشعر بشيء من فقره فضلاً عن أن تسوقه مشاعر الفقر إلى الاستجداء من الله ومدّ يد الحاجة والافتقار إليه، مَنْ كانت حياته كلها فياضة بالنعم والرغائب التامة ورغد العيش.

إذ الشعور بالفقر أو الحاجة، لا يأتي بالافتراض وعن طريق التخيل والوهم، وإنما يأتي مع ظهور الحاجة فعلاً، ولا تظهر الحاجة أو الافتقار، إلا عند وقوع الخطر ومداهمة الابتلاء. فإن لم تتحقق الحاجة فعلاً بسبب مصيبة ألمت في الجسم أو في المال أو في الأمن وطمأنينة العيش، فلن يجد هذا المكتفي والمتقلب في رغائبه وآماله ما يدعوه للتوجه إلى الله بأي تضرع أو دعاء. ولا يتحقق جوهر العبادة إلا بالدعاء، ألا ترى إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠/٤٠] بعد قوله: ﴿وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾؟ فقد جعل الاستكبار عن الدعاء استكباراً عن العبادة، وذلك يعني أن الدعاء هو العبادة كما قال رسول الله ﷺ.

فإذا ابتلى الإنسان بين الحين والآخر بشيء من المصائب المتنوعة، فإن الشأن فيه، حتى عندما يعافى منها، أن يقبل إلى الله بالدعاء والشكر، يشكره أن صرفها عنه وعافاه منها، ويدعوه أن يديم عليه عافيته ولا يبتليه بها أو بمثلها مرة أخرى.

ولا يتأتى شيء من هذا كله، لمن عاش حياته كلها بعيداً عن سائر الابتلاءات والمنغصات، متقلباً في كل ما يروق له من الملذات.

وقد كان ولا يزال في الناس من يقول: فهب أن الذي يعيش حياته كلها بعيداً عن المنغصات متقلباً في متع الدنيا ولذائذها، ينسى بذلك ضرورة الإقبال إلى الله بالدعاء والرجاء كما تقول، فهل من سوء أو ضرر ينال بذلك الخالق الذي تفضل فأنعم عليه بذلك كله؟

والجواب بالإضافة إلى ما قد ذكرته لك في حكمة سابقة أن الله غني عن عباده، كما هو معلوم بداهة، والعبادات التي أمرهم الله بها ليس مردها إلى نفع يناله أو ضرّ يحيد عنه، وإنما الأمر يعود جدواه إلى العباد أنفسهم.

إن القزم الذي يصرّ على أن يلبس ثياب المردة الطوال، لا يسيء بذلك إلى الذين يرونه فيشمئزون من عمله ومظهره، وإنما يسيء بذلك إلى نفسه، إذ جنح إلى سلوك يتناقض مع حاله التي هو عليها. والذي يقبل إليه فينصحه أن يرتدي من الثياب ما يتلاءم مع حجمه وقصره، لا يبتغي بذلك نفعاً لنفسه، وإنما هي الرحمة منه بحال ذلك الأحمق الذي أثار بحمقه سخرية الناس عليه.

إن الناس كلهم عبيد مملوكون لله تعالى إذن ينبغي أن يضعوا عبوديتهم له موضع التنفيذ في حياتهم السلوكية وأن ينسجموا مع هوياتهم، حتى لا يكونوا كالقزم الذي نسي حجمه فأصرّ على أن يرتدي ثياب المردة الطوال. هذا بالإضافة إلى أن الناس لا يصلحهم ولا يسعدهم في علاقة ما بينهم إلا ذلك. فإن هم تناسوا هوياتهم جنحوا إلى الاستكبار والطغيان، وعندئذ لابدّ أن يسود فيهم الهرج والمرج، وأن يغدو كل منهم سبباً لشقاء الآخر.

فسبحان من جعل من عبودية الإنسان له، إن هو عرفها ومارسها، سرّ سعادته الفردية والاجتماعية في الدنيا، وسرّ سعادته في العقبى. وسبحان من جعل من عبودية الإنسان لذاته العلية، أشرف ما يمكن أن ينعت به، وألذّ ما يمكن أن ينتشي به.

ألا ترى إلى سيدنا رسول الله ﷺ، كيف كانت حاله، ذلاً وصغاراً لله عز وجل يوم دخل مكة فاتحاً من أعلى قمم النصر، ألا ترى إلى كلماته التي افتتح بها خطابه للمشركين آنذاك، كلمات عبّر بها - منتشياً - عن ذل عبوديته لله قال: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده. لم يقل: نصر نبيه أو رسوله أو محمداً، وإنما اختار التعبير بأشرف أسمائه عبداً لله عز وجل.

انظر إلى هذا الذي تعلق قلبه بفتاة من الناس مثله، كيف يلذّ له أن يُنْسَبَ إليها، باسم العبودية لها، وكيف يعبر عن لذته هذه قائلاً:

يا قوم قلبي عند زهراء يعرفها السامع والرائي

لا تدعني إلا بيا عبدها فإنها أعزّ أسمائي

فكم ينبغي أن تكون لذة العبد الحقيقي لمولاه ومالكه الحقيقي، عندما يخاطبه مولاه هذا باسمه عبداً له، وعندما يجد نفسه داخلاً في زمرة من يخاطبهم بقوله: ﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣/٣٩]، ألا رحم الله من قال:

ومما زادني شرفاً وتيهاً وكدت بأخمصي أطأ الثريا

دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صيّرت أحمد لي نبيا

فلنردد جميعاً معه نشيد العبودية لله، ولنعرف عظيم فضل الله علينا إذ شرّفنا وأسعدنا بهذه النسبة إليه، ولندعُ للآخرين أن يصحو إلى هذه الحقيقة كصحوتنا، وأن يذيقهم الله هم أيضاً من كؤوس نشوتنا. فإنما مصيبتهم الحرمان، ومن حرم من معرفة الهوية والذات، زجّه التيه في أوخم الضلالات، وهؤلاء الناس أحوج إلى الرحمة بهم والدعاء لهم، من الحاجة إلى الخصام معهم أو التقريع لهم.

* * *

الحكمة الثالثة و التسعون

((ربّما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول، وربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول))

ليس كل طاعة سبيلاً إلى مثوبة الله ورضوانه، وليس كل معصية سبيلاً إلى سخط الله وعقابه، إنما العبرة بالحال التي يكون عليها الطائع والقصد الذي يكون في نفسه عند طاعته، وبالحال التي يكون عليها العاصي والشعور الساري في كيانه أثناء معصيته.

وتفصيل القول في هذا الأمر أن كلاً من الطاعة والمعصية له مظهر وشكل، وله سرّ أو معنى به يكتسب جوهره وذاتيته، وليست العبرة فيما يتقرب به الإنسان إلى الله من الطاعات بصورها وأشكالها، وإنما العبرة بحقائقها وأسرارها.

إن الذي ينهض بواجب الدعوة إلى الله، أو يذهب حاجاً إلى بيت الله الحرام، أو يلازم المساجد لحضور الجماعات ومجالس الذكر والعلم، أو يقوم بمهمة التسليك والإرشاد، أو ينهض بما يشبه ذلك من القربات، مسخراً ذلك لمصلحة ما من مصالحه الدنيوية، لا يؤدي في الحقيقة طاعة أمر بها الله، وإنما يؤدي صورة الطاعة وشكلها، والله

عز وجل لم يطالب عباده بأداء أشكال الطاعات وصورها، وإنما طالبهم بحقائقها فأنى يتحقق لهم من الله القبول بها؟ وإذا أدى المسلم من الطاعة شكلها وأهمل النهوض بحقيقتها، فقد تحول عمله بذلك إلى معصية، وحسبك من المعصية تزييف الطاعة ثم تقديمها إلى الله على أنها طاعة حقيقية.

كذلك القول في المعصية، فعلى الرغم من أن شكل المعصية لا ينفك عن جوهرها، إلاّ أن الحال التي يتلبس بها العاصي عند إقدامه على المعصية ذات تأثير كبير على العاصي، فهي قد تحجبه عن الله، وتقطع عنه الأمل في رحمته، وذلك عندما يقدم على المعصية استهانة بشرعة الله وأمره، أو استكباراً على الله وحكمه، وقد تفتح له باب الوصول إلى الله تعالى، على حدّ تعبير ابن عطاء الله، وذلك عندما ينجرف إلى المعصية بدافع من تغلب أهوائه وسلطان غرائزه عليه، ثم تستيقظ بين جوانحه مشاعر إيمانه بالله، وتهتاج في نفسه فطرة عبوديته لله، فتثور، من ذلك، في قلبه عاصفة من الندامة والأسى، ممزوجة بالخوف والخجل من الله، مما أقدم عليه، ولعله يقول بلسان حاله أو مقاله:

تعست ليلة عصيتك فيها كيف لم أستح وأنت الرقيب

فيقوده ذلك كله إلى حيث الأمل بمغفرة الله وصفحه، يكثر من الالتجاء إلى الله والتذلل على أعتاب جوده ورحمته، يسأله الصفح عما أقدم عليه والرحمة بضعفه، وربما اختار لذلك أفضل الأوقات كالأسحار والهزيع الأخير من الليالي، يدعوه فيلحف في الدعاء، ويسجد فيطل في السجود، خائفاً من مقت الله وآملاً برحمته.

فما الذي قاده إلى ذلك كله؟ إنه المعصية التي تورط فيها، وبعبارة أدق: إنه الحال التي كان متلبساً بها أثناء معصيته، مما قد وصفته لك قبل قليل.

ولكن فما هي قيمة المصير الذي قادته تلك المعصية إليه؟ إنها القيمة التي ينبغي أن تعرفها لجوهر عبودية الإنسان لله، وجوهر العبودية لله هو روح العبادات وسرّ قبول الله لها.

ولعلك لا تعلم الفرق بين العبادة والعبودية. فاعلم إذن، أن العبادة هي الوظائف البدنية التي كلف الله عباده بها، من صلاة وصيام وحج وغيرها من العبادات. أما العبودية فهي الذل الذي يهيمن على كيان الإنسان ومشاعره لخالقه، فيقوده إلى تعظيمه ومهابته وإلى الالتجاء الدائم إليه بالاستغفار والدعاء والرجاء، ومن ثم فهو لايدين بالولاء والتعظيم لأي كائن غيره.

وعلاقة ما بين العبادة والعبودية أن العبادة وعاء العبودية، ومن ثم فإن قيمة العبادة تكمن في القدر الذي تنطوي عليه من معنى العبودية. ذلك لأن الذي يقرب العبد إلى الله تحققه بمعنى العبودية له، وإنما شرعت العبادات وسيلة إلى ذلك.

فما ظنك بمن قاده التورط في المعصية إلى محراب العبودية لله يمارس جوهرها بملء كيانه وكل مشاعره؟ وما ظنك بالله الرحمن الرحيم، غفار الذنوب وستار العيوب، عندما يقبل مثل هذا العاصي ملتجئاً إليه مترامياً على أعتاب جوده، متحسراً، نادماً، تائباً، يسأله الصفح والغفران؟ ما من ريب في أن عبوديته لله عز وجل تكون خير شفيع

له، بل تكون أيضاً سبيل اصطلاح مع الله، وطريق وصول إليه، كما قال ابن عطاء الله، ويصدق عندئذ أن نقول: وربما قضى عليك بالذنب فكان سبب الوصول.

لعلك تقول: فمن أين استقى ابن عطاء الله هذه الحكمة؟ وما مستندها من القرآن أو السنة؟

والجواب أن هذا مقرر في كتاب الله وفي سنة رسوله ﷺ. أما القرآن، فحسبك منه قول الله تعالى: ﴿وَما أُمِرُوا إلاّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٩٨/٥] وقوله تعالى وهو يصف المتقين: ﴿وَالَّذِينَ إذا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنوبَ إلاّ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣/١٣٥].

فقد قرر القرآن أن لا قيمة للعبادة إن لم تتحقق جذوة الإخلاص لله وحده فيها، وأن لا قيمة للمعصية ولا تخدش في صاحبها صفة التقوى إذا ساقته إلى ذل العبودية لله فالندامة والتوبة وملازمة باب الاسترحام من الله عز وجل.

ومن أوضح الآيات القرآنية دلالة على هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿إلاّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [الفرقان: ٢٥/٧٠] والاستثناء في الآية مما دلت عليه ((مَنْ)) في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثاماً ، يُضاعَفْ لَهُ الْعَذابُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهاناً﴾ [الفرقان: ٢٥/٦٨-٦٩]. فعمل التوبة في محور الأوزار، وأثر الأعمال الصالحة في تكفيرها واستحقاق الأجر عليها واضح ومعلوم.

ولكن ما الذي يقلب السيئات التي ارتكبها العاصي أيام شروده وضلاله، إلى حسنات؟ وكيف تحولت السيئة التي كانت مناطاً للعقاب إلى حسنة أصبحت مناطاً للثواب؟!.. وأنت تعلم أن هذا الذي يؤكده بيان الله تعالى مستقل عن أثر التوبة في محو العقاب، وعن أثر الأعمال الصالحة فيما تسجله لصاحبها من المثوبة والأجر.

إن الذي يقلب السيئات إلى حسنات، هو ما قد قلته لك: أي ما تتركه السيئات بالنسبة إلى حال بعض الناس من مشاعر الندم والأسى والتذلل على أعتاب الرحمة الإلهية والتضرع في محراب العبودية لله أن يقبل الله منه توبته وأن ينتشله من أوحال معاصيه وأودية ضياعه، ويثبته على النهج الذي أمر عباده به، والذي عزم على اتباعه.. فما من ريب أن هذه النتيجة التي جاءت على أعقاب المعصية، هي الغاية القصوى التي ترمي إليها سائر الطاعات والعبادات، ومن ثم فإن نتيجة هذه المعصية تحيل المعصية في عاقبتها إلى طاعة، وإن كانت في شكلها وصورتها لا تزال معصية بل ربما كبيرة من الكبائر، فهذا هو معنى قول الله عز وجل: ﴿فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾[الفرقان: ٢٥/٧٠] وهو ذاته المعنى الذي يقرره ابن عطاء الله في هذه الحكمة.

* * *

وأما السنة فحسبك منها قول رسول الله ﷺ في نهاية الحديث الذي أوله: ((إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه..)) إلى أن قال: ((فوالذي نفسي بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها،

وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها))[1] فما الذي يجعل عمل العامل بعمل أهل الجنة مهدراً وضائعاً، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣/٢] وقال: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ [آل عمران: ١٩٥/٣].

إن الذي أهدره أنه كان شكلاً لعمل أهل الجنة ولم يكن جوهَرَ ما قد أمر به الله عز وجل.

وما الذي أهدر قيمة المعاصي التي كان يعمل بها، وهي المراد بعمل أهل النار، حتى لم تعد حائلاً دون دخول صاحبها الجنة؟

إن الذي أهدرها وأذاب خطورتها، أنها لم تصدر عن استخفاف بها أو استكبار على سلطان الله وحكمه، وإنما صدرت بعد صراع تغلبت فيه نوازع الأهواء والغريزة، فأعقبت غصة من الندامة ساقته إلى محراب العبودية لله لائذاً متذللاً، تائباً، فكانت مشاعر العبودية في نفس هذا العاصي شفيعاً له، بل كانت طريق وصوله إلى الله.

لا أدل على ذلك من كلمة ((فيما يبدو)) التي وردت في رواية مسلم لهذا الحديث، بعد قوله ﷺ: ((إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة..)) ثم بعد قوله ﷺ: ((وأن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار)).

* * *

---

(١) رواه الشيخان

وربما وسوس إليك الشيطان، أن من الخير لك إذن أن تتجه إلى ارتكاب بعض المعاصي التي تهفو إليها نفسك، لتنفذ من بابها إلى حيث الوصول إلى الله عز وجل!...

فإياك أن تركن إلى هذا الوسواس الذي لا شأن له بما قد تضمنه كلام الله ورسوله، ولا بما يقصد إليه ابن عطاء الله. فإن الذي يضع مثل هذه الخطة التي تتضمن التوجه إلى ارتكاب المعصية، ثم التوجه إلى الله معلناً له عن ندمه وألمه وتوبته، أبعد ما يكون عن الصدق في دعواه هذه.

إن الذي يندم حقاً على ما فرط منه من المعاصي، لايمكن أن يبرر لنفسه ارتكابها، بحجة أنه بعد أن يفرغ منها، سيحمل نفسه على الندامة على فعلها، ويستسلم لآلام التورط فيها، ثم يقبل إلى الله يسأله أن يجعل له من ندمه وآلامه كفارة لها، وسبباً في أن يبدل الله له بعقابها حسنات!.. ذلك لأن الندامة على الشيء ليست مما يمكن أن يُخَطَّطَ له سلفاً.

ولكنّ هذا يكون في حال إنسان عزم على الاستجابة لأوامر الله والابتعاد عن نواهيه، ثم زجت به الظروف في وضع هيجّ عليه غرائزه وألّب عليه أهواءه وقام من ذلك صراع بينه وبين نفسه، ثم إن نفسه تغلبت عليه فزجت به فيما قد حرمه الله عز وجل، وهو غير عازم على ذلك ولا مخطط له. فهذا هو الذي يمكن، إذا اقترفت المعصية ثم تجاوزها أن تثور بين جوانحه مشاعر الآلام والندم والخجل من الله تعالى لما قد بدر منه، ومن ثم فهو الذي يمكن أن يقبل فيلوذ بباب الله

تائباً متذللاً متبتلاً، ثم أن يذوق نشوة العبودية لمولاه عز وجل فيصطلح معه ثم لا يحيد عنه، وعندئذ يصدق أن يقال: استحالت الصهباء المحرمة إلى شراب طاهر عذب.

وكم في الربانيين من عباد الله، من اصطلحوا معه من خلال هذا الباب، زجتهم المعاصي في الندامة، ثم الألم، فالالتجاء إلى محراب العبودية لله، تبتلاً ودعاء واستغفاراً، فلبى الله نداءهم واستجاب دعاءهم واجتباهم إليه، ولعلك تعلم أن من أبرزهم الفضيل بن عياض، وبشراً الحافي، وعبد الله بن المبارك.

والمهم أن تعلم أن أياً منهم لم يخطط لنهاية إقباله إلى الله واصطلاحه معه، مقدمة أو مرحلة من اقتحام ظلمات العصيان يمهد بها لتلك النهاية المشرقة. ولو أنه قصد إلى ذلك، لبقي واختنق في تلك الظلمات، ولما أسعفه الحظ ببلوغ تلك النهاية المشرقة.

وحصيلة القول أن الحاجز الذي يبعد العبد عن ربه هو الاستكبار، ولو كان نسيجه الطاعات والعبادات، والجسر الذي يوصل العبد إلى ربه ويقربه منه هو العبودية الضارعة له، ولو كان نسيجها الذنوب والعصيان.

ويرحم الله سيدي الشيخ أحمد الرفاعي إذ قال: نظرت إلى الطرق الموصلة إلى الله بمختلف القربات، فوجدتها كلها مزدحمة، ونظرت إلى طريق العبودية[1] والتبتل لله عز وجل، فرأيته خالياً لا يجوب فيه أحد.

---

(١) سبق أن أوضحت لك الفرق بين العبادة والعبودية، فكن على ذكر من ذلك.

هل علمت السبب؟

السبب أن سائر القربات الظاهرة، تكمن للنفس فيها حظوظ، وما أيسر أن تسخّر لأنواع شتى من الرغائب والأهواء والمصالح الدنيوية. أما طريق الانكسار والتذلل والضراعة على أعتاب الله، فليس للنفس فيه أي حظ، وليس بينه وبين أيّ من الرغائب والأهواء والمصالح الدنيوية تناغم أو انسجام.

* * *

الحكمة الرابعة و التسعون

((معصية أورثت ذلاً وانكساراً، خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً))

هذه الحكمة تأتي كالتعليل للتي قبلها. فعندما قال لك: قد يُفْتَح لك باب إلى الطاعة دون أن يكرمك الله بقبولها منك، وقد يقضي الله عليك بالذنب، فيكون ذلك الذنب سبباً لبلوغ مرضاته، لابدّ أن تسأل فتقول:

كيف تكون الطاعة عاملاً في إقصاء صاحبها عن الله، وتكون المعصية عاملاً في إيصال صاحبها إلى مرضاة الله؟ ولماذا؟

ويأتي الجواب من خلال هذه الحكمة قائلاً: لأن المعصية التي تورث صاحبها ذلاً وانكساراً بين يدي الله، خير من الطاعة التي تورث صاحبها التباهي والاستكبار.

وربما استعظم هذا الكلام بعض الجاهلين، على الرغم مما ذكرته لك في شرح الحكمة السابقة، من الدليل المبسوط في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، على أن من الطاعات ما يُحْجَبُ عنها القبول، ومن

المعاصي ما يكون سبباً في الوصول، فيقول: كيف يتأتى للمسلم أن يفضل المعصية أياً كانت على الطاعة أياً كانت؟ وهل في الناس من يجهل أن هذا الكلام من شأنه أن يستهين الناس بالمعصية وأن ييسروا لأنفسهم طريقاً إليها؟

وإليك الجواب عن هذا الوهم مفصلاً:

إن المقارنة هنا، إنما هي بين معصية ساقت صاحبها إلى التذلل والانكسار لله عز وجل، وطاعة أورثت صاحبها التباهي والاستكبار.

ومما لاشك فيه أن الطاعة التي تورث صاحبها التباهي والاستكبار بها، ليست طاعة إلا من حيث المظهر والشكل، أما من حيث الحقيقة فهي معصية مقنّعة بصورة طاعة. ألم يقل الله عز وجل: ﴿إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧/٥] ألم يقل عن المعجبين والمستكبرين بعباداتهم وطاعاتهم ﴿وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦/١٢].

إذن فالمقارنة في هذه الحكمة إنما هي بين معصية ومعصية، بين معصية ساقت صاحبها إلى محراب العبودية لله، وزجت به في نيران الندم، ومعصية تمثلت في إعجاب بالطاعة وزهو بالنفس واستكبار على الآخرين. دعك من الصورة التي تجلت فيها والغطاء الذي تقنعت به.

فأي المعصيتين يمكن أن تنطوي على ما قد يكفرها، ويكون شفيعاً لصاحبها.

هل في المسلمين من يجهل أن المعصية الأولى هي التي تنطوي على ذلك كله؟

ولأضعك من هذا الذي أوضحه لك أمام الحقيقة التالية:

زيد من الناس ارتكب معصية في جنب الله عز وجل. سُجل عنيه بسببها في صحائفه عشر سيئات مثلاً. ثم إن المعصية التي ارتكبها ساقته إلى التوبة والندامة وملازمة الدعاء بضراعة وانكسار أن يصفح الله عنه ويتقبل توبته، أما التوبة فقد محت سيئاته العشرة التي سجلت عليه، وأما إقباله على الله تعالى بالتضرع والدعاء والاستغفار وملازمته لمحراب العبودية لله عز وجل، فمصدر ثرٌّ لحسنات كثيرة دون انقطاع.

فهذه معصية دون ريب، ولكنها لّما جرّت صاحبها إلى ذيول من الطاعات والتوبة وذل العبودية لله، ذاب وقع تلك المعصية في ضرام التوجه إلى الله والاصطلاح الصادق معه. وناله - علاوة على ذلك - من الأجر والمثوبة ما لا يعلم قدره إلا الله.

* * *

ثم اعلم أن للطاعات والقربات المتنوعة التي شرعها الله وأمر بها، ثمرة واحدة لا ثانية لها، وهي سرّ قبول الله لها وإثابته عليها، ألا وهي ثمرة الافتقار إلى الله والتوجه إليه بذل العبودية والضراعة والانكسار.

بل المطلوب من الإنسان أن يكون في كل أحواله وتقلباته مستشعراً حقيقة الافتقار إلى الله، متصفاً بذل العبودية لله، ملتصقاً بأعتاب جوده وكرمه، وما شرعت العبادات والطاعات إلا لتكون تذكرة لهذا المطلوب، وترسيخاً لمشاعر العبودية لله والافتقار إليه، في نفس الإنسان.

وللابتلاءات التي يأخذ الله بها عباده، حِكَمٌ وفوائد شتى، ولكن من أهمها أن تلجئه إلى ذل العبودية لله وأن توقظه إلى حقيقة فقره إلى الله، وأن تردعه عن الاغترار بما يخيل إليه من أنه يملك العافية التي يتمتع بها والمال الذي يقلبه ويتقلب في خيراته، والسلطة التي يتسامى على الناس بها، والقوة التي يتوعدهم ويهددهم بفنونها.

وكلمة «الابتلاءات» وإن كانت في الظاهر خاصة بالمصائب الجسدية والمادية والشدائد الدنيوية، ولكنها في الحقيقة تعم المصائب الدينية أيضاً المتمثلة في المعاصي التي قد يتورط المسلم فيها وتزل به القدم إليها، بل هي، فيما تحمله من معنى البلاء والمصيبة أخطر من المصائب الدنيوية المتنوعة.

أي فحكمة الله عز وجل في إخضاع عباده للابتلاءات بمضمونها العام، تشمل أنواع المعاصي التي يتعرض لارتكابها المسلمون أياً كانوا، حاشا الرسل والأنبياء. إن من أهم وأبرز الحِكَم الإلهية التي تكمن وراء ذلك، أن لايغتر الصالح بصلاحه، ولا المستقيم باستقامته، ولا المتعبّد بعباداته وأوراده. وأن لا يستسلم أحدٌ من هؤلاء لما قد تخيل إليه نفسه من أنه قد استطاع أن يملأ صحائفه عند الله حسنات ومبرات، وأن أحداً لا يستطيع أن يتسامى عليه في صلاحه وتقواه.

ولا تنس أن الاستكبار الذي ينبثق من مشاعر الزهو بالصلاح والاستقامة والتقوى، أخطر في باب الأوزار التي تحجب صاحبها عن الله من الاستكبار الذي ينبثق عن مشاعر الزهو بالمزايا والنعم الدنيوية المتنوعة.

فكما أن الله عز وجل لطف بعباده، فجعل من الابتلاءات والشدائد الدنيوية التي يبتلي بها عباده بين الحين والآخر، زواجر وكوابح لهم عن الطغيان والاستكبار بما يكرمهم ويمتّعهم به من النعم والمتع الدنيوية، فقد ضاعف من لطفه بهم فجعل من المعاصي والذنوب التي يبتليهم بها بين الحين والآخر، زواجر وكوابح لهم أيضاً عن الطغيان والاستكبار على الآخرين بما قد أكرمهم به من نعمة الإيمان به والاستسلام لحكمه والاستقامة على أوامره، وأن لا يُدِلّوا على الله بما وفقهم إليه وأعانهم عليه.

وقد أجمل البيان الإلهي هذه الحقيقة الهامة التي يأخذ الله عباده بها، بقوله عز وجل: ﴿وَخُلِقَ الإِنْسانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٢٤/٤] فهو ضعف عام في كل شيء.. ضعف يتمثل في عجزه عن أن يردّ عن نفسه عوارض الأمراض والعاهات، والفقر والاضطرابات، وفي عجزه عن أن يردّ عن نفسه أسباب الزلل والأوزار والانحرافات. ويعبّر عن المعنى ذاته قول الله تعالى بأسلوب آخر: ﴿يا أَيُّها النّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ والمراد الفقر العام في كل شيء.

ونبه إلى ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «كل بني آدم خطاء»[1].

فانظر كيف يربي الله عز وجل عباده، وتأمل في الوسائل التي يأخذهم بها، كل ذلك، من أجل أن لا يشرد الإنسان - بعد إيمانه بالله - عن هويته عبداً ذليلاً مملوكاً لله عز وجل، وأن يكون في كل تقلباته الدينية والدنيوية، مصطبغاً بحقائق هذه العبودية شعوراً وقناعة

(١) تتمته: وخير الخطائين التوابون.

وسلوكاً. فلا تبطره الطاعات والقربات التي يوفقه الله إليها، ولا النعم الدنيوية التي يكرمه الله بها، بحيث ينسيه هويته الحقيقية عبداً فقيراً مملوكاً لله عز وجل.

إذن فالمعاصي على اختلافها، عندما تصدر عن عبد مؤمن بالله عز وجل، كثيراً ما تكون أجراساً تقرع أحاسيسه الغافلة أو المتبلدة، لتوقظه إلى الخطر الذي تورط فيه، ولتنبهه إلى ضرورة الفرار من ذنبه إلى الله يتذلل له وينكسر على أعتابه ويسأله متضرعاً أن يتوب عليه، أو لتوقظه من سكرة إعجابه بنفسه إنساناً صالحاً متميزاً بالطاعات والقربات، مترفعاً عن الذنوب والزلات، فيتعرف من نفسه على إنسان متورط بالأوزار، ضعيف أمام سلطان الغرائز والأهواء، وعندئذ يتقاصر عن الرتبة التي تمطى بنفسه متكلفاً إليها، ويعلم أنه عبد فقير يحتاج إلى حماية الله ولطفه، وإلى أن يستره ويصفح عنه، فيقبل إلى الله وقد جعل من ديدنه أن يستغفره من ذنبه وأن يلحف في المسألة والرجاء أن يصفح عنه، ولا يفضحه على رؤوس الأشهاد، لا في دنياه ولا في آخرته.. ولم يكن قبل ذلك يشعر بأي حاجة إلى شيء من هذا التبتل والرجاء، ولم يكن يفكر بالبحث عن أي سبيل إليه.

فهل يساورك بعد هذا أي شك في صحة، بل في دقة هذا الذي يقوله لك ابن عطاء الله: «معصية أورثت ذلاً وانكساراً، خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً»؟..

صدق ابن عطاء الله.. وصدق من قال: إن أنين العاصي ألماً من معصيته أحب إلى الله من تسبيح المرائي العجب بتسبيحه.

ثم إن في معرفة هذه الحقيقة فائدة تربوية مثلى، لابدّ أن يأخذ المسلم نفسه بها، ألا وهي الأدب مع عباد الله جميعاً، والجنوح إلى حسن الظن بهم جهد الاستطاعة.

ووجه ذلك أن سوء الظن بشخصٍ من الناس وما قد يتبعه من إيذاء له أو استخفاف واستهانة به، يغلب أن يكون مصدره معصية تلبّس بها ذلك الشخص أو فسوقاً عرف به، ولسنا هنا بصدد ما قد يكون مصدره مجرد أحقاد مستكنة في النفس.

غير إنك إذا علمت معنى كلام ابن عطاء الله، وأصغيت إلى البيان الذي ذكرته لك. فلسوف تفرض أن تكون معصية هذا العاصي مثار ندامة وألم وعاملاً في التجائه إلى الله بطلب المغفرة والصفح، والمأمول في هذه الحال، أن يبدل الله بسيئته التي ارتكبها حسنات. ثم إن أحدنا يرى من حالة العصاة ظواهرهم، ولا يتبيّن شيئاً من بواطنهم وخفي مشاعرهم، فما الذي يدرينا بأن الله عز وجل لن يجعل من خفي مشاعرهم شفيعاً لظاهر انحرافاتهم وآثامهم. إننا نرى منهم ظاهر المعصية، ولكنا لا نرى منهم باطن الندامة والانكسار. فلماذا نسيء الظن بهم بموجب الظاهر الذي تبدّى لنا منهم، ولا نحسن الظن بهم تقديراً للباطن الذي لا نتبينه والذي من شأنه أن يمحو عصيانهم ويصلح أحوالهم؟

ثم لماذا نحاسب الناس على معاصيهم الظاهرة التي نتتبّعها فيهم، ولا نحاسب أنفسنا على معصية سوء الظن بهم؟ وهذه المعصية الثانية التي نتلبس في حقهم بها كثيراً ما تكون أشنع وأسوء عند الله من معاصيهم التي نزدريهم وننتقصهم بسببها.

ياعجباً لأحدنا، يتقلب في ألوان من الآثام والموبقات، دون أن ينتقص ذاته ويوبّخ نفسه بسببها، لأن الله أكرمه بكنف ستره، فصرف أبصار الناس عن آثامه التي تلبس بها؛ وبدلاً من أن يبكي على معاصيه ويحمد الله على الستر الذي أسدله عليه، ينشغل بتتبع عورات الآخرين، والتقاط ما يمكن أن يعثر عليه من نقائصهم وآثامهم، ليجلجل بها وليتسامى عليهم بحديثه عنها!..

ألا فلنعلم أن سوء الظن بالعصاة، كثيراً ما يكون أبغض إلى الله من عصيان أولئك العصاة.. ولاريب أن تجاهل هذه الحقيقة التي أوضحتها لك بتفصيل لا مزيد عليه، من أوضح الأدلة على أن الحامل على ذلك إنما هو الاستجابة لرعونات النفس والرغبة في إشفاء الغليل.

ولاحظ أنني إنما أحذرك من إساءة الظن، لا من الأمر بالمعروف ولا من النهي عن المنكر. فإن بين الأمرين تباعداً كبيراً، ولكل منهما شأنه وحكمه.

إن النهي عن المنكر مطلوب، بشروطه، كلما رؤي واقعاً، وكلما تلبس به متلبس، كائناً من كان. وإن الأمر بالمعروف مطلوب بشروطه، كلما غاب وتُرك أياً كان التارك له. وذلك تنفيذاً لقول الله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٣/١٠٤].

ولكن النهي عن المنكر لا يستلزم الاستهانة أو الازدراء بالشخص المتلبس به، كما لا يستلزم إساءة الظن به، وتصنيفه في قائمة من قد سخط الله عليهم.. إن النهي عن المنكر وظيفة أقامك الله عليها، فهو

ليس أكثر من إنجاز لواجب أناطه الله بعنقك، أما رأيك في شخصه وقرارك في حقه، فإن الواجب الذي أمرك الله به هو أن تفرض توبته عن المعصية عما قريب والتجاءه إلى الله بطلب الصفح عنه، وتحوّله بذلك إلى إنسان رباني ملتزم بأوامر الله واقف عند حدوده، ولعله يصبح عندئذ خيراً وأقرب إلى الله منك. والدنيا كانت ولا تزال مليئة بمن تحولوا بين عشية وضحاها، من أدنى دركات العصيان إلى أعلى مراتب الالتزام والعرفان. كما أنها مليئة بمن تحولوا من أعلى درجات الالتزام والاستقامة، في الظاهر، إلى أدنى دركات الشرود والعصيان.

ومن أخلص دينه لله، أدرك هذه الحقيقة وتعامل معها، وقام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله على أساسها، وعاش حياته كلها يحسن الظن بمصير سائر عباد الله، ويسيء الظن بنفسه، ومن ثم فإن هذا الإنسان لن يكون إلا متأدباً مع كل من دان بقرار العبودية لله.

اللهم إنا نسألك بذل عبوديتنا لك وبعظيم افتقارنا إليك، أن تجعلنا بمحضِ مَنِّكَ وفضلك منهم، وأن لا تحجبنا عن عيوبنا الكثيرة بفضول التتبع لعثرات الآخرين وعيوبهم.

* * *

الحكمة الخامسة و التسعون

((نعمتان ما خرج موجود عنهما، ولابدّ لكل مكوّن منهما، نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد. أنعم عليك أولاً بالإيجاد، وثانياً بتوالى الإمداد))

لعلّ المراد بالموجود هنا الإنسان، إذ الكلام في هذه الحكم كلها إنما هو عنه، من حيث التعريف بهويته وبيان وظيفته، والتربية التي يأخذ الله بها عباده اليوم، والجزاء الذي أعدّه لهم في الغد القريب.

إذن فلا يدخل في عموم كلمة ((موجود)) الجمادات والحيوانات العجماوات، ونحوهما مما عدا الإنسان، اللهم إلا إن لاحظنا أن سائر الموجودات الأخرى من غير الإنسان، نعمة له هو، تدور على خدمته ورعايته، فالكلمة عندئذ تشمل الموجودات كلها، ويكون المعنى حينئذ أن إيجاد الله للمكونات نعمة للإنسان.

إذا تبين هذا، فإن ما يقصد إليه ابن عطاء الله في هذه الحكمة، هو أن سائر النعم التي يتمتع بها الإنسان، تتفرع - على اختلافها - من نعمتين اثنتين، هما أساس سائر النعم الأخرى.

النعمة الأولى، نعمة إيجاد الله الإنسان وخلقه له من العدم، والثانية نعمة مدّ الله الإنسان بأسباب استمرار الوجود، وحمايته مما قد يتهددها.

وإذا تأملت، وجدت أن سائر النعم الأخرى، وهي كثيرة ومتنوعة، تتفرع وتتكاثر من هاتين النعمتين الأساسيتين.

ولكن ربّ سائل يقول: فما الدليل على أن أصل وجود الإنسان من العدم نعمة له؟ بل ربما صيغ السؤال من قبل كثير من الناس بعبارة تنبئ عن نقيض ما يقرره ابن عطاء الله، يقول مثلاً: لماذا خلق الله الإنسان؟

والجواب أن وجود الإنسان منفكاً عن العوارض التي تتعلق به، لا يستبين فيه معنى من معاني النعمة ولا النقمة أو المصيبة. إذ الوجود وعاء لما قد يصادفه ويحلّ فيه. فهذا الذي يحلّ فيه هو الذي يضع في جوهر الوجود معنى النعمة أو نقيضها. وما نقوله في هذا عن جوهر الوجود هو ذاته الذي نقوله عن العدم أيضاً.

ولكن ابن عطاء الله يجعل من إيجاد الله الإنسان نعمة مستقلة بحد ذاتها فكيف ذلك؟

والجواب أن الحكمة الربانية التي استتبعت إيجاد الإنسان، هي التي أضفت عليه معنى النعمة، وجعلت من إيجاد الله له مكرمة له وأي مكرمة.

وما من إنسان علم هذه الحكمة، إلا واعتز بإيجاد الله له، وأيقن بالنعمة الكبرى المنطوية في وجوده.

أما الذين يتبرمون بوجودهم، ويسألون مستفهمين أو مستنكرين عن السبب أو الحكمة من إيجاد الله لهم، فهم في أحسن أحوالهم لا يفهمون شيئاً عن الحكمة التي تكمن وراء إيجاد الله لهذه الخليقة، والتي سأحدثك عنها. وربما كان أكثرهم ممن لا يؤمن بالله، ومن ثم فهم ممن يستوحشون من وجودهم الذي لا يعلمون مصدر انبثاقه، ولا يتبينون شيئاً من عواقبه ومصيره، لاسيما إن كانوا ممن طافت بهم المحن، وحلّت بهم المصائب، ولم يتح لهم أن يحققوا لأنفسهم الأحلام التي كانوا يسعون إلى تحقيقها.

من الواضح أن هذا الفريق من الناس، لن يدركوا أي نعمة تكمن في وجودهم من حيث هو، ومن ثم فلن يصدقوا هذا الذي يقرره ابن عطاء الله. وكيف يصدقون أن وجودهم نعمة، وهم يضيقون ذرعاً به، ويستوحشون منه، وتتوالى عليهم منه النكبات تلو النكبات. بل كيف يصدقون أنه نعمة، وإن الكثير منهم يطرق أبواب التخلص منه عن طريق الانتحار!..

وأكثر هؤلاء الناس، لا يؤمنون بالله، وإن جاء سؤالهم بصيغة: لماذا خلق الله الإنسان!.. إن سؤالهم هذا ليس صادراً عن رغبة في معرفة حكمة لا يعرفونها، من وراء إيجاد الله الإنسان، وإنما هو صادر عن لون من الجدل في وجود الله وألوهيته، وكثيراً ما يأتي جدال الملحد، بأسلوب من هذا القبيل.

ولكن فلنعد إلى ما قلناه، من أن الحكمة الربانية التي استتبعت إيجاد الإنسان هي التي أضفت على وجوده معنى النعمة. سيقول قائل: ما هي هذه الحكمة؟

والجواب أن الحكمة التي استتبعت إيجاد الله الإنسان، هي اختيار الله له خليفة في الأرض. ألم يقل عز وجل للملائكة: ﴿إِنِّي جاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٢/٣٠].

ودعني أبدأ فأحذرك من أن تفهم من كلمة الخلافة هذه، المعنى المتبادر الذي يفهمه الناس منها عندما يخلف بعضهم بعضاً في بعض المهام أو الوظائف المنوطة بهم، ولعلك تعلم أن في الباحثين اليوم من لم يعرف من معنى ((الخلافة)) إلا هذا المعنى المتداول فيما بين الناس، فأنكروا، بسبب ذلك، خلافة الإنسان عن الله في الأرض، إذ لا يصح أن يكون الإنسان خليفة عن الله بهذا المعنى، وتأولوا الآية، ففسروا الخليفة بصفة الاستخلاف في الوجود ما بين جيل سابق من الناس وجيل لاحق، وهكذا...

غير أن هذا المعنى الثاني لا يعبَّر عنه بالخليفة، في اللغة، وإنما يعبر عنه بالخلَف، بفتح اللام إن كان صالحاً، وبسكون اللام إن كان فاسداً. قال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَواتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾ [مريم: ١٩/٥٩].

أما ((الخليفة)) فهو من يخلف غيره في مهمة أو وظيفة ينهض بها. ومن هذا القبيل قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٢/٣٠]، وقوله تعالى: ﴿يا داوُودُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾ [ص: ٣٨/٢٦].

فما المهمة أو الوظيفة التي أوجد الله الإنسان ليستخلفه في النهوض بها؟

إنها تتلخص في تنفيذ مبادئ العدالة الإلهية وما تقتضيه الحكمة الربانية فيما بين الناس في الأرض. وقد كان الله قادراً على أن يحقق هذه المبادئ في حياتهم وفي علاقة ما بينهم بالغريزة الحتمية ودون اختيار أو قرار منهم، كما قضى ذلك في عالم الحيوانات والبهائم. ولكنه عز وجل شاء أن يضع فيما بينهم موازين العدالة وشرائع الحكم وسبل الحكمة، وأن يبصِّرهم بها ويعرّفهم على أهميتها، وأن يهبهم قدرة التصرف بالاختيار كما يشاؤون، ثم أمرهم بأن يوجهوا اختياراتهم -باسمه - إلى تنفيذ شرائعه فيما بينهم، وإلى أن يتبعوا حكمته في تسخيرهم المكونات التي من حولهم والتي أخضعها لسلطانهم.

فهم، إذن، إن استجابوا لهذا الذي طلبه منهم، فباسمه يتصرفون، ولأحكامه ينفذون، وهم في هذا الذي يقومون به إنما يكونون مظهراً لعدالة الله وحكمته ورحمته في كل ما يقضي به. فهذا هو مضمون عقد الخلافة التي شرّف الله بها الإنسان، والتي أعلن عنها لملائكته.

وانظر، كم هو جليّ هذا العقد، في هذه الآيات البينات من كلام الله عز وجل: ﴿وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزانَ ، أَلاّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ ، وَالأَرْضَ وَضَعَها لِلأَنامِ﴾ [الرحمن: ٥٥/٧-١٠].

إذن فقد غدا إيجاد الله الإنسان نعمة له وأيّ نعمة. إذ الوسيلة التي لابدّ منها، والتي لابديل عنها، تأخذ حكم غايتها. ألا ترى إلى الدراهم كيف نعدّها نعمة من أجلّ النعم، مع أن النعمة الحقيقية ما

هي أداة له ووسيلة إليه من المبتغيات التي تتوقف عليها حياة الإنسان. فكذلك الوجود الإنساني الذي هو الوسيلة التي لابدّ منها لشرف الاستخلاف عن الله، في إبراز عدالته وتنفيذ حكمه.

فهذه إذن هي النعمة الأولى التي يقع تحت منّتها كل موجود من البشر.

فإن رأيت من لا يشعر بهذه النعمة ويتبرّم بوجوده، فذاك لأنه هو المعرض عن النعمة التي سيقت إليه من خلال إيجاد الله له، كما يعرض من أكرمه الله بنعمة الرزق عن استعمال فيما هو محتاج إليه.

شرّفه الله بنعمة الاستخلاف من خلال إيجاده، فأعرض عن إلهه الموجد له، وأعرض على التبصر بمعنى وجوده وأهمية رحلته في فجاج الحياة، وعاقبة أمره بعد الموت، فوقع من جراء هذه الجهالة التي حكم بها على نفسه، في تيهٍ من الغموض زجّه في ظلام من الوحشة، حتى عادت نعمة الوجود عبئاً عليه، لاسيما إن فوجئ بنقيض ما كان يرنو إليه ويحلم به من آمال السعادة والمتعة، وربما دفعه ذلك إلى التخلص من حياته بأي وسيلة من وسائل الانتحار، وهي كثيرة ورائجة في مجتمعات الغرب. فهذا هو الذي يتبرم بوجوده، ويظل يسأل سؤال المستنكر المهتاج على القيم وموجدها: لماذا خلقه الله، بل لماذا خلق المكونات، بما فيها الإنسان.

والحوار مع هؤلاء الناس يجب أن يبدأ بغرس دلائل الإيمان بوجود الله عز وجل في عقولهم، ثم الانتقال بهم إلى النتائج المتفرعة عن هذا الإيمان.

ولكن هل تشكل جهالة هؤلاء الناس، وما قد أورثته من عقد، بل أمراض، في نفوسهم، على هذه الحقيقة التي يذكرنا بها ابن عطاء الله، وهي أن نعمة الإيجاد هي أولى وكبرى النعم التي امتن الله بها على الأسرة الإنسانية جمعاء، بقطع النظر عن حال من جهلها أو تجاهلها فلم يسعد ولم يتمتع بها؟

أعتقد أنك لن ترى في ذلك ما قد يشكل على هذه الحقيقة، لاسيما بعد أن أوضحت لك علاقة وجود الإنسان باستخلاف الله في الأرض، وبعد أن بيّنت لك المعنى المراد هنا بالاستخلاف.

* * *

أما النعمة الثانية فهي ما عبّر عنه ابن عطاء الله بنعمة الإمداد.

والإمداد، أجمع كلمة تستوعب سائر ما يتوقف عليه استمرار الوجود الإنساني، بدءاً بالأرض التي جعلها الله مقراً للإنسان، ومستودعاً لكل أنواع الخيرات التي يحتاج إليها، والهواء المحيط به بما يتضمنه من الغازات التي لابدّ له منها، والأرزاق التي يرسلها الله له من سمائه ويفجرها له من أرضه، والتي يكرمه بها من خلال الأنعام التي يسخر له لحومها وما في ضروعها، ومروراً بالأفلاك التي يستخدمها لتنظيم حياته، كي تقسم له وحدة الزمن المتلاطم الذي لا حدود له، إلى أعوام، ثم إلى فصول من العام، ثم إلى أشهر تتعاقب بحسبان، ثم إلى ظلام ليل وضياء نهار، ثم تزداد رعاية له وخدمة لوجوده المعاشي، فتأخذ من الليل لحساب النهار، وتأخذ من النهار

لحساب الليل كلما اقتضى الأمر هذا وذاك، ووقوفاً أمام الأجهزة الدقيقة والعجيبة التي تعمل داخل جسمه، من فرقه إلى قدمه، لتمدّه بمقومات استمرار الحياة، وتحميه من عوارض الأخطار والآفات، ولتطرد من كيانه السموم والفضلات، وانتهاء عند السرّ العجيب الذي يتعقبه ويلازمه في كل أحواله وتقلباته ليردّ عنه ما يفيض به الهواء والأجواء التي من حوله، من الفيروسات والميكروبات والجراثيم التي تحمل إليه ما لا حصر له من الأمراض والأوبئة والأدواء، ولكنها تصطدم منه ثم ترتدّ عنه، بهذا السرّ الذي لم يعلم إلى الآن أحدٌ من الأطباء أو العلماء شيئاً من كنهه، فعبروا عنه بما يزيده في أفكار الباحثين وعقولهم غموضاً، وذلك عندما لم يعثروا له إلاّ على اسم واحد، هو: المناعة. ولو أن الإله الذي تفضل على عباده فأمدّهم بهذه «المناعة» جرّدهم عنها إذن لهلكوا بين عشية وضحاها، بين ماضغي هذه الجيوش الجرارة من الهوامِّ والجراثيم المتنوعة التي لا سلطان لأي من القوى والحيل البشرية عليها!... ألا ترى إلى آخر أمراض الحضارة الحديثة «فقد المناعة» كيف يفتك بالملايين من أصحاب الأجسام الصحيحة والعافية الوفيرة، دون أن يقوى على إيقاف هذا الفتك وتراجعه أي دواء.

على أن نعمة الإيجاد لا تتحقق ثم تنقضي في لحظة انبثاق الشيء من العدم، بل إن عمل الإيجاد يظل مستمراً في تعلقه بذلك الشيء. فإيجاد الله الأشياء عمل مستمر ما بقيت موجودة وبتعبير أدق: ما أراد الله لها الوجود، بحيث إن انقطع مدد الإيجاد عنها، عادت هباء وانقلبت إلى ما كانت عليه من العدم.

ألا ترى إلى قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٤١/٣٥] وإلى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥/٣٠] وأنت تعلم أن فعل المضارع: يمسك.. ويقوم... يدل على الاستمرار والتجدد. فبيان الله عز وجل صريح في حمايته للسماوات والأرض من الزوال بعد الوجود، شأن دائم يتجدد لحظة فلحظة، هذا إن صح أن اللحظة أصغر وحدة زمنية متصورة، بحيث لو تخلّى الله عنها عادت باطلاً ووهماً لا وجود له.

بل إن هذه الحقيقة التي أحدّثك عنها، من مستلزمات اسم الله ((القيوم)) إذ إن معناه: القائم بأمر كل شيء إيجاداً ورعاية، فلو استقل الموجود بذاته بعد لحظة الإيجاد له، لما كان لقيومية الله عليه أي معنى[1].

* * *

يتحصل من هذا الذي يقول ابن عطاء الله أن كل ما يصل إلى الإنسان من الله نعمة أكرمه عز وجل بها، إذ إن ما يصل من الله إليه لا يخلو عن أن يكون إيجاداً له أو إمداداً وتغذية لوجوده، وكل ما لا يحصى من نعم الله وآلائه ليس إلا فروعاً من هاتين النعمتين.

فنعمة الإسلام وما يتضمنه من المصالح العاجلة والآجلة للإنسان فرع عن نعمة الاستخلاف التي هي سرّ نعمة الإيجاد، والنعم الدنيوية

---

(١) انظر تفصيل هذا البحث في كتاب (السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي) لمؤلف هذا الكتاب، ص١٧٦ فمابعد.

التي لا حصر لها ليست إلا فروعاً وأغصاناً لنعمة الإمداد، وهكذا فإن الإنسان محاط ببحر متلاطم الأمواج من نعم الله عليه بدءاً من إيجاده فإمداده.

لعلك تقول: ولكن نعم الإمداد تتعرض في بعض الأحيان للزوال أو النقص، يتجلّى ذلك في مرض بعد العافية، وفي فقر بعد غنى، وفي خوف بعد الأمن، وفي ضعف بعد القوة.. إلخ.

وأذكر أنني أجبتك عن هذا الاستشكال أكثر من مرة، ومن ثم فلست أرى ما يحوجك إلى التكرار والإعادة، ولكني أذكرك بما ينبغي أن لا يغيب عن بالك، وهو أن على الإنسان الذي آمن بالمنعم، أن يعلم قيمة هذه النعم وأن يشكر المنعم عليها. غير أن من المستحيل عقلاً أن يعلم أحدنا قيمة النعمة إلا من خلال مقارنتها بنقيضها، أي فمجرد الحديث عن نقيض ما تتمتع به لا يبصرك بشيء من قيمة ما تتمتع به. إننا جميعاً نعلم أننا لو لم نعلم معنى الظلام من خلال وجودنا وتقلبنا فيه، لما أدركنا معنى الضياء ولما استوعبنا معنى النعمة فيه. وهل بوسعك أن تعرّف الغنى إلا بأنه نقيض الفقر، وأن تعرف الصحة إلا بأنها نقيض المرض، وأن تعرّف الأمن إلا بأنه نقيض الخوف. ولكن هب أنك لم تعرف أياً من نقائض هذه الأشياء لأنك لم تعان منها، إذن فأنت لن تعرف معنى النعم التي تتقلب فيها وتتمتع بها، ومن ثم فلن تدرك قيمتها، فما الذي يدعوك إذن إلى شكر الله عليها؟..

كما أذكرك بأنك لن تمزج شكر الله على نعمه، مع الدعاء الضارع بأن يديمها عليك ولا يحرمك منها، إلا إن كنت على خوف من أن تسلب منك وتبتلى بنقائضها، ولن تكون على خوف من ذلك إلا أن سبقت لك تجربة بزوال نعمة ابتلاك الله بنقيضها. فعندئذ تفترض، إن عادت النعمة إليك، غيابها ثانية وتتخوف من أن يعود فيبتليك الله بنقيضها، فتلحف عندئذ في الدعاء أن لا يقطع عنك رفده، وأن يديم فضله ونعمه عليك. وهذا هو واجب كل منا تجاه مولاه وخالقه عز وجل: يشكره على نعمه الظاهرة والباطنة التي لا تحصى، ويدعوه منكسراً متضرعاً أن يديمها عليه ولا يبتليه بنقائضها.

وإذا دققت في حصيلة ما انتهينا إليه، أيقنت أن كل ما يفد إليك من الله، ليس إلا نعمة، ثم إما أن تكون نعمة ظاهرة أو نعمة باطنة مخبوءة بما يخيَّل إليك أنه مصيبة أو نقمة. ذلك لأن كل ما يصل إليك من الله عز وجل إما أن يكون متفرعاً من نعمة الإيجاد، أو متفرعاً من نعمة الإمداد، ولا ثالث لهما. إذن فأنت تتفيأ دائماً من الله ظلال نعمه، وهي إما ظلال لشجرة الإيجاد أو ظلال لشجرة الإمداد.

وليس بينك وبين أن تستيقن هذه الحقيقة، سوى أن تزداد يقيناً بحكمة الله ورحمته، وسبيل ذلك أن تكثر من ذكر الله وأن تتبّع آلاءه ونعمه. وقد مرّ بك الحديث عن أهمية ذكر الله ومراقبته وأثرهما في حسن ظنك بالله عز وجل في أكثر من مناسبة.

*　*　*

الحكمة السادسة و التسعون

((فاقتك لك ذاتية، وورود الأسباب مذكرات لك بما خفي عليك منها، والفاقة الذاتية لا ترفعها العوارض))

الفاقة عامة أنواع الفقر وأشده، وهي صفة ملازمة للإنسان، بل هي صفة ذاتية فيه. فما الدليل على ذلك؟

الدليل عليها ما ذكره ابن عطاء الله في الحكمة السابقة: كان الإنسان وهماً في طوايا العدم، وصدق الله القائل: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ [الإنسان: ١/٦٧] ثم إن الله عز وجل انتشله من ظلمات العدم إلى ضياء الوجود. لم يكن له خيار في وجوده، ولا في شيء من أمور ذاته، إذ لم يكن يملك ذاته ومن ثم فلم يكن يملك شيئاً من عوارض وجوده.

برز إلى الوجود بإيجاد الله إياه، عارياً إلا من فقره، تائهاً إلا عن ذلّه، جاهلاً إلاّ بضعفه. ومن ثم فقد كانت فاقته ذاتية فيه، أي ملازمة لكينونته، لا صفة طارئة عليه بسبب عارض.

وانظر إلى التعبير القرآني، كم هو دقيق في الدلالة على هذا المعنى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٢٨/٤] أي

إنه نشأ من العدم ضعيفاً، قبل أن تصادفه الأعراض الطارئة. ومثله في الدلالة ذاتها قوله عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ [الروم: ٣٠/٥٤].

ويترتب على ذلك أن الأسباب العارضة التي تأتي لصالحه، قد تردّ عنه آثار ضعفه وتحميه من نتائجه، ولكنها لن تحيل ضعفه الذاتي إلى قوة، ولن تحرره من فاقته التي هي جزء من كينونته.

ثم إني قلت لك إن المراد بالفاقة هنا عامة أنواع الفقر وأشدّه.

إذن فهي ليست فاقة في شيء دون شيء، بل هي فاقة في كل ما قد يحتاج إليه الإنسان ويطمع فيه. إنه فقير في الممتلكات التي يحتاج إليها، لأنه مملوك، فكيف يكون مالكاً، وهو فقير في العافية التي يتمتع بها أو يبحث عنها، وهو فقير في المدارك التي يسعى إلى معرفتها، وهو فقير في القوة التي يحصن نفسه بها، وهو فقير فيما يعزم عليه، من النهوض بأوامر الله والابتعاد عن نواهيه.

ومعنى ذلك أنه لو وكل إلى نفسه، في تحقيق هذه الرغائب، فإنه لن يستطيع الحصول على شيء منها. لأنه عندما يعود إلى نفسه ليعتمد عليها في تحقيق هذه الرغائب، لا يجد من نفسه إلا كتلة ضعف، منها تكونت ذاتيته، وفيها يتقلب حاله.

غير أن الذي يمدّه بعوارض القوة، فيما بعد، إنما هو خالقه الذي خلقه من ضعف، فهو الذي يمدّه بما نسميه الممتلكات مجازاً، وهو الذي يمدّه بالعافية والصحة وهو الذي يمدّه بالقوة وأسبابها، وهو الذي يلهمه المعارف والعلوم، وهو الذي يعينه على الاستجابة لما قد أمره به والابتعاد عما نهاه عنه.

ولكن فما معنى قوله: ((وورود الأسباب مذكرات لك بما خفي عليك منها))؟

ألخّص لك المعنى بما يلي: من المعلوم أن الأسباب دائماً عارضة، إذ هي مقدمات بين يدي مسبَّباتها. وإذا كانت المسببات، على اختلافها، مسبوقة بالعدم، فأسبابها كذلك، إذ لو كانت قديمة غير حادثة لكانت مسبَّباتها كذلك. أي إن طروء النتائج ووجودها بعد أن كانت معدومة، دليل قاطع على طروء أسبابها وعلى أنها وجدت بعد أن كانت معدومة؛ كل ما في الأمر، أن المقدمات والأسباب تسبق النتائج والمسببات في الوجود. وانظر كيف جاء التعبير القرآني عن هذا بكلمتي ((ثم)) و((جعل)) في قوله تعالى: ﴿..ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً﴾ [الروم: ٣٠/٥٤].

فإذا رأيت ورود أسباب القوة بعد الضعف إليك، أو ورود أسباب الغنى بعد الفقر إليك، أو ورود أسباب المعرفة بعد الجهل إليك، أو ورود أسباب التوفيق بعد الخذلان إليك، فلسوف تذكرك هذه الأسباب الطارئة بذاتيتك السابقة قبل طروء هذه الأسباب، من الضعف والفقر والجهل والخذلان. فذلك هو الأصل الذي بدأت منه، وتلك هي هويتك قبل طروء العوارض الخارجية إليها: وهي ذاتها هويتك اليوم. وصدق الله القائل: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٦/٧٨].

بل إن الإنسان، حتى بعد أن جهزه الله بأسباب القوة والقدرة، يظلّ أضعف من سائر الحيوانات الأخرى، وإن كان الموهوم والمظنون خلاف ذلك.

أرأيت إلى النملة التي نضرب المثل بضعفها، إنها تحمل ما قد يزيد على ثلاثة أضعاف وزنها، وتسوقها إلى داخل مخبئها، دون أن تستعين لذلك بواسطة نقل، فهل يستطيع الإنسان أن يحمل ما يساوي وزنه دون وساطة حمل؟..

أرأيت إلى الطير، إنه يبني عشه كأحسن ما يكون نسقاً وإحكاماً دون أن يعتمد في ذلك على معونة أي من الأجهزة والأدوات؛ أفيستطيع الإنسان أن يفعل ذلك؟

أرأيت إلى النحل، إنه يبني بيوته السداسية ذات الأضلاع المتساوية والزوايا الدقيقة ذات الدرجات الواحدة المتطابقة، دون الاستعانة بأي من الأدوات والأجهزة الهندسية، أفيستطيع أقدر المهندسين أن يملك سبيلاً ذاتياً إلى ذلك؟..

أرأيت إلى العنكبوت والشبكة التي ينسجها بخيوط لزجة متينة لا تدري كيف استحدثها، ولاتدري كيف نسقها وساوى بين أطوالها ثم شدّها بعوارض من أطرافها، ثم جعل منها بيتاً لنفسه ومصيدة لعيشه بآن واحد، أفيملك الإنسان أن ينسج مثل هذه الشبكة أو البيت على الرغم من أنه كما قال الله: ﴿أَوْهَنَ الْبُيُوتِ﴾، دون الاستعانة بأي من الأدوات التي اعتاد أن يستعين دائماً بها؟

إن الإنسان لا يستطيع أن يبني لنفسه داراً أو يصنع شيئاً إلا بعد أن يغرق نفسه داخل جيش من الأدوات والأجهزة والمتكآت، يستعين بها ويعتمد عليها، فهل من دليل على ضعفك وفاقتك أيها الإنسان أقوى مما تدّل عليه هذه الأجهزة والأسباب؟

* * *

إذا علمنا هذا، فما النتيجة التي ينبغي أن نصير إليها؟

إن النتيجة التي ينبغي أن نصير إليها، هي أن نجزم بأن عوارض الأسباب لا تستطيع أن تغير من جوهر الذات. وإذ قد ثبت أن الإنسان كتلة فاقة وضعف في جوهره وذاته، فإن ما قد يمدّه الله به من أسباب القوة والعافية والغنى والعلم والأمن والعزة، لا يغيّر من كينونته الذاتية شيئاً.

وآية ذلك أن هذه الأسباب كما تجد سبيلها إليك آناً، فإنها تجد سبيل انصرافها عنك آناً آخر. وذلك هو شأن كل ما هو عارض من العوامل والأسباب.

إذن فاعلم أنك حتى لو جمعت ثروات الدنيا كلها، فأنت فقير؛ واعلم أنك حتى لو أوتيت قوة أقوى العتاة فأنت ضعيف، واعلم أنك حتى لو أوتيت علوم الأولين والآخرين، فأنت جاهل؛ واعلم أنك حتى لو تربعت على عرش العزة، فأنت ذليل.

ذلك لأنك لا تزال فقيراً بين يدي من أغناك، وضعيفاً بين يدي من أقدرك، وذليلاً بين يدي من أعزّك، وجاهلاً بين يدي من علّمك، أي

إنك محتاج إليه في ذلك كله، في كل لحظة من لحظات حياتك. وهل الفاقة إلا ذلك؟

غير أن من شأن الإنسان إذا متعه الله بما يسعى إليه من رغائبه وأهوائه، ثم لم يسلبه شيئاً من ذلك، أن ينسى فاقته الملازمة لذاته، وأن يغترّ بعوارض المنح التي يمتعه الله بها، فتحلّ هذه الطوارئ العارضة من نفسه وتفكيره محل هويته الأساسية الثابتة، فيورثه ذلك الاستكبار والطغيان.

وقد قالوا إن فرعون الذي أرسل الله إليه سيدنا موسى بقي أكثر من ثلاثين عاماً لا تطوف به أذية ولا يدنو منه خطر ولا يشعر بألم في جسمه، فتوهم من ذلك أنه المالك لأمر نفسه وأنه الغني بذاته، فأطغاه ذلك وحمله على ادعاء الربوبية، ولو أنه عانى خلال تلك المدة من مرض في جسمه أو شعر بضعف في كيانه أو خطر يهدد حياته، لاستيقظ إلى معرفة ذاته، ولأقصر عن دعواه وطغيانه.

على أن الإنسان يملك من الدلائل الناطقة بفاقته وفقره، ما يغنيه عن قوارع الآلام والأمراض والأخطار، لو رجع إليها وتأمل فيها. فكل ما قد يمتعه الله به من مظاهر القوة والعافية والعلم والغنى، لا يتجلّى إلا بين عهدين من أشدّ حالات الفاقة والضعف، العهد الأول مرحلة طفولته الأولى، إذ يكون محروماً من تلك المتع كلها. العهد الثاني مرحلة الشيخوخة، إذ يرتدّ إلى مثل ضعفه الأول في كل شيء. فمن ذا الذي يغترّ، مهما كان غبياً أو مغفلاً، بعوارض من مظاهر القوة والعلم والغنى والعافية، تقوم بين بداية ونهاية من العجز والفاقة التامة؟

والعجب ممن يرى هذه السنة الإلهية في ذاته، وفي كل من حوله، ويقرأ أو يسمع بيان الله لها في قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ﴾ [الروم: ٥٤/٣٠] ثم يظل مع ذلك مأخوذاً بعوارض النعم التي يمتعه الله بها إلى حين!..

ومع ذلك فإن من بالغ ألطاف الله بعباده أنه يأخذهم بين الحين والآخر بشيء من الابتلاءات في الجسد أو المال أو الأمن أو نحو ذلك، بل ربما ترك كُلاً من النفس والشيطان يتغلب على كثير ممن دأبهم الاستقامة على أوامر الشرع وأحكامه، ويقحمهم في بعض المنهيات والآثام، كي لايسترسلوا مع عوارض الإكرام والإنعام ومبهجات القوة والاستقامة، بحيث تنسيهم فقرهم الكلي الذي درجوا منه، والذي سيصيرون إليه.

ومظهر اللطف الإلهي في ذلك، أن القوي إذا علم أن قوته عارية عارضة، وأن المستقيم على أوامر الله إذا علم أن استقامته إنما هي بفضل الله عليه وحمايته له، فإن كُلاً منهما لا يرى في ذلك لنفسه فضلاً، بل يعلم موقناً أن الفضل في ذلك لمولاه إذ أكرمه بالرعاية وأقدره على الاستقامة. ولابدّ أن يقوده هذا العلم إلى شكره على ذلك، وإلى الالتجاء الدائم إليه، راجياً أن يديم عليه إكرامه بالرعاية والاستقامة، وتلك هي العبودية التي يجب على كل مسلم أن يتلمسها في سائر طاعاته وعباداته وجميع تقلباته.

ولما كان السبيل إلى ذلك، بالنسبة لأكثر الناس، أن يعود بهم الله عز وجل بين الحين والآخر، إلى فاقتهم الذاتية الأولى، عن طريق ألوان من الشدائد ومظاهر من الضعف تأخذهم ثم تردّهم، فقد كان من سنته في عباده هذا الذي قرره في محكم تبيانه إذ قال: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥/٢١] وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ﴾ [البقرة: ١٥٥/٢].

إذن، فتعال نحرص على أن لاننسى فاقتنا في غمار عوارض النعم التي يمتعنا الله بها، وأن نتعامل مع الله على أساسها، دونما حاجة إلى ما قد يذكرنا بها من قوارع المصائب والآلام.

فإنا إذا علمنا أننا فقراء إلى الله مهما أكرمنا بمظاهر الغنى، وأننا أذلّاء على بابه مهما سما بنا في مراقي العز، وأننا ضعفاء على أعتابه مهما متعنا بحصن قوته، واتخذنا من علمنا بذلك رداء عبودية ننقاد بموجبها إلى الله في تعاملنا وسلوكنا، فأغلب الظن أنه سيديم علينا عوارض أعطياته وإكرامه، وسيعرفنا على المزيد من نعمه بدوامها، ولن يبتلينا بفقدها.

وكم يطربني، ويلذّ لي، مظهر إنسان آتاه الله الملك، ومتعه ببسطة من العلم والجسم والقوة والمال، وأقامه في هالة من الهيبة والسلطان، وأنظر إليه وهو مغمور بهذه النعم كلها، فأجده منكّس الرأس، منكسر القلب، واجف العينين، خاشعاً متذللاً لسلطان الله وحكمه، غير آبه ولا شاعر بين يدي عبوديته لله، بكل تلك العوارض التي متعه الله بها.

أقول لك يا أخي القارئ بحق: لا أعلم في الدنيا لوحة تطربني وتنعشني وتلذّ لي، كلوحة تحمل في داخلها هذه الصورة، عندما لا تكون ريشة لفنّان، بل حقيقة في حياة إنسان.

ولعل هذه اللوحة لا تبدو في بهائها وورونقها وعظيم تأثيرها، في تاريخ الإنسانية كلها، كما قد تجلت في شخص رسول الله ﷺ يوم دخل مكة فاتحاً، من أعلى قمم النصر، ممتعاً بكل مظاهر القوة والمنعة والهيبة والتوفيق، ولكنه لم يُرَ في ساعة من حياته أكثر منه في تلك الساعة تذللاً وانكساراً وصغاراً لمولاه الواحد الأحد الأجلّ، كان مطأطئ الرأس، يكاد عثنونه يمسّ واسطة رحله من شدة ما قوّس ظهره تذللاً ومهابة لربه عز وجل، وهو يترنم بتلاوة آيات من سورة الفتح.

وذلك هو شأن الربانيين يا أخي القارئ - جعلني الله وإياك منهم - كلما زادهم الله من عوارض نعمه، قوة ومجداً وغنى، ازدادوا رجوعاً إلى أصل فاقتهم، عبودية وتذللاً وانكساراً لله عز وجل. ولئن لم يُعِدْهم إلى أصلهم ذاك، علمُهم بهوياتهم وواقع افتقارهم الدائم إلى الله، فلا بدّ أن ينبههم إلى ذلك الأصل وأن يعيدهم إليه، علمهم بعظيم فضل الله عليهم، وبأنهم مثقلون، في كل ما يتمتعون به، تحت منن لاحدّ لها من كرم الله ونعمه. إذ العافية ليست إلا منه، والرزق الوفير ورغد العيش ليس إلا منه، والقوة والأمن والطمأنينة، كل ذلك ليس إلا منه. والإله المتفضل الذي أعطى عبده كل ذلك بالأمس، قد يسلبه منه غداً، فإذا هو ضعيف ذليل فقير مهين.

فهل لك، بعد أن تعلم هذه الحقيقة التي لا تغيب عن بال عاقل، أن تنسى، في غمار فضل الله عليك، فاقتك وعجزك؟

هل يمكن للعصا التي تتوكأ عليها لسدّ عجزك، أن تنسيك حاجتك إليها وتوهمك قدرة ذاتية في كيانك وقدمك؟!..

اللهم لا تجعل من نعمك التي تغدقها علينا سَكَراً، ينسينا فاقتنا بين يديك وعظيم افتقارنا إليك وذلّ عبوديتنا الضارعة لك. إنك أرحم من سؤل وأكرم من أعطى.

* * *

الحكمة السابعة و التسعون

((خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجود فاقتك، وترد فيه إلى وجود ذلّتك))

هذه الحكمة ذيل ونتيجة للحكمة التي قبلها، كما ترى. إذ يقول ابن عطاء الله من خلال حكمته هذه: إذا علمت أن فاقتك ذاتية، وورود الأسباب مذكرات لك بما خفي عليك منها، فلتعلم، إذن، أن خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجود فاقتك، وتردّ فيه إلى وجود ذلّتك.

غير أن المصيبة الكبرى التي يُبتلى بها كثير من الناس، أن أحدهم ما يكاد يشبّ عن الطوق، وتتوالى إليه المنح الربانية من العافية والقوة، والعلم، والغنى وأسباب الرغد ومظاهره، حتى ينسى أصله الذي نشأ منه، وضعفه الذي خلق فيه، ويسكر بعوارض هذه النعم التي تتناقض في الظاهر مع صفات الفقر والفاقة والضعف، فلا تخطر هذه الصفات منه على بال، ولا يرى في ذاته وهويته، كلما رجع إلى نفسه إلا هذه العوارض.

تلك هي مصيبة التائهين عن الله، وذلك هو سبب احتجابهم عنه وجحودهم به. إن مردّه إلى هذا السكر النفسي، وليس إلى أيّ شبهة عقلية أو علمية كما قد يتوهم أو يوهم بعض الناس.

ولو أنهم صَحَوْا إلى هوياتهم الحقيقية، وأدركوا أن كل ما يتمتعون به من عوارض العافية والقوة والأمن والغنى، إنما هو سحائب وافدة تمرّ بما تحمل إليهم من مقومات المتعة وأسباب السعادة، ويوشك أن تتجاوزهم وتغيب عنهم، فيعودوا إلى مثل ما كانوا عليه من الفاقة والعجز، إذن لعلموا أنهم عبيد أذلاء مملوكون لله في كل أحوالهم وتقلباتهم، ولما حجبهم عنه أي شيء.

ولكن نعمة العافية والمال من شأنها أن تبطر، وأن تنسي صاحبها أصله. ومن هنا، فقد كان من أجلّ نعم الله الباطنة، ما يبتلي به عباده بين الحين والآخر من مصائب الفقر والأوجاع والأمراض ونحوها، مما قد مرّ بيانه وبيان الحكمة منه. وقد نص البيان الإلهي على هذه الحكمة، إذ قال جل جلاله عن فرعون وملئه: ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/٤٨] أي حجبنا عنهم النعم التي أبطرتهم وأنستهم حقائق ضعفهم، وابتليناهم بنقائضها، لكي يرجعوا عن استكبارهم وينتبهوا من غيهم.

لعلك تقول: ولكنهم لم ينزلوا عن عروش استكبارهم، وظلوا عاكفين على غيهم.

والجواب أنهم عادوا عن غيهم وهبطوا عن قمم استكبارهم، أثناء تحكم المصائب بهم، ألا ترى إلى قوله جل جلاله: ﴿وَلَمّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٤/٧] ولكنهم عادوا إلى عتوّهم واستكبارهم بعد أن استجاب الله لرجائهم وكشف عنهم الرجز، وأعاد إليهم ما كانوا يتمتعون به من النعم التي كانت سبب طغيانهم. ألا ترى إلى قوله: ﴿فَلَمّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٥/٧].

وإذا استحكم السكر بأصحابه إلى هذا الحد، فتطامنوا عند المصيبة، ثم عادوا إلى عتوّهم عند الرخاء، فإن من عادة رب العالمين أنه يمدّهم عندئذ بالمزيد من الرفاهية وأسباب القوة ورغد العيش، إلى حين، ثم إنه يأخذهم بالهلاك، أخذ عزيز مقتدر، ألا ترى إلى ما فعل بقارون، وبفرعون، وبالعتاة الذين أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين، فاستكبروا، وقالوا: من أشدّ منا قوة؟

والمهم أن أعود فأؤكد لك أن الإلحاد ليس قراراً عقلياً يتخذه الملحدون بعد نظر وتفكير، ولكنه حالة نفسية، بل هو مرض نفسي، يعتري صاحبه من جراء الطغيان الذي يسري في كيانه، إذ يرى عوارض النعم الإلهية من قوة وعافية وغنى وعلم وأمن، تجوب مجتمعة في شخصه، وصدق ربنا القائل في محكم تبيانه: ﴿وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾ [النمل: ١٤/٢٧].

* * *

وإذ قد علمت هذه الحقيقة الآن، فلن ترتاب في هذا الذي يقوله لك ابن عطاء الله: ((خير أوقاتك، وقت تشهد فيه وجود فاقتك وتردّ فيه إلى وجود ذلتك)).

ذلك لأن خير أوقاتك، الوقت الذي تكون فيه قريباً من الله، أي كثير الذكر والمراقبة له، وإنما يكون ذلك عندما تشهد فاقتك وعجزك وتدرك أنك لا تملك من أمر نفسك شيئاً.

وأسوأ أوقاتك، الوقت الذي تكون فيه بعيداً عن الله، أي غافلاً معرضاً عنه، وإنما يكون ذلك عندما تغيب عنك فاقتك، وتعيش مع أوهام غناك وقدرتك وإمكاناتك.

إنك عندما تخترق مظاهر الإكرام الإلهي لك، وتتجاوز مظاهر غناك، وعافيتك وقوتك، ثم تقف أمام مرآة ذاتك، وتتأمل، فإذا هي – أي ذاتك – كتلة فاقة وضعف لا تملك من أمر نفسها شيئاً، وأنها معرضة في كل لحظة لسائر أنواع المصائب والرزايا والآلام والأسقام، ستتجه رأساً، بكل مشاعرك إلى من بيده تدبير أمرك، إلى من هو القادر على كشف الضر عنك، وعلى أن يحميك من كل سوء، وهو الله عز وجل، تسأله أن يديم نعمه عليك ولا يسلبها عنك، إن كنت تتمتع بها، وتسأله أن يكشف عنك الضر ويرفع عنك البلاء ويكرمك بالعطاء والرخاء، إن كنت مبتلى بشيء من الشدائد والضراء.

فأنت إذن – بفضل رؤيتك لفاقتك – مع الله في كلا حالي الشدّة والرخاء، أنت مع الله أولاً بالذكر والمراقبة له، ثم إنك معه بالدعاء والرجاء والالتجاء إليه. وتلك هي حقيقة العبودية لله، وهل في أحوال

الإنسان وتقلباته ما هو أقدس وأمتع من ساعة مثوله بين يدي الله متبتلاً متذللاً يجأر إليه بشكوى عجزه وضعفه، ويسترحمه لفقره وسوء حاله؟!.. ولا يكون ذلك إلا عندما يشهد فاقته وافتقاره إلى الله عز وجل.

ثم إن هذا الشهود هو الذي يبث روح العبودية في أعمال العبادة، وفي مقدمتها الصلاة. بهذا الشهود يستشعر العبد ذل خطابه الممتع لله إذ يقول له في صلاته: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، بعد آيات الثناء عليه في فاتحة الكتاب. ثم يستشعر المزيد من متعة هذا الذل إذ يسجد له مسبحاً ومعظماً ومسترحماً، يقول له: اللهم سجد لك سمعي وبصري ومخّي وعظمي وما استقل به قدمي، وبهذا الشهود يتغلب على عوامل الشرود والغفلة عن الله في صلاته، وعلى الخواطر الدنيوية التي قد تهجم عليه ليسترسل معها وتصرفه عن اليقظة إلى مخاطبة مولاه.

بهذا الشهود، شهود العبد لفاقته وافتقاره إلى مولاه، يلذّ له القيام والوقوف بين يدي الله في الأسحار، وينتشي بعرض شكواه عليه واسترحامه لضعفه ومسكنته، يطيل السجود في هدأة الليل ويناجيه منكسراً باكياً، يستنزل صفحه عن ذنوبه التي ساقه إليها ضعفه، ويستدفع الأخطار والمصائب التي يراها تطوف به أو تدنو منه، ويسترحمه مستشفعاً بعجزه وفاقته وضعفه.

وعد، فتأمل في أدعية سيّد المفتقرين إلى الله، سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم، تجدْ فيها حرارة الفاقة والانكسار، ومظهر

التذلل على أعتاب الله. اُنظر إلى دعائه يوم عودته من الطائف «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، إلى من تكلني، إلى عدو يتجهمني أم إلى قريب ملّكته أمري، إن لم تكن ساخطاً عليّ فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السماوات والأرض، وأشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن تُحِلَّ علي غضبك أو تُنزل عليَّ سخطك، ولك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلاّ بك»[(١)].

وانظر إلى مظهر الفاقة والعجز والانكسار والمسكنة، مجتمعة في دعائه هذا: «اللهم إنك تسمع كلامي وترى مكاني، وتعلم سري وعلانيتي، لا يخفى عليك شيء من أمري. وأنا البائس الفقير المستغيث المستجير الوجل المشفق المقرّ المعترف بذنبه. أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، من خضعت لك رقبته، وفاضت لك عبرته، وذلّ لك جسمه، ورغم لك أنفه. اللهم لا تجعلني بدعائك شقياً، وكن بي رؤوفاً رحيماً، يا خير المسؤولين ويا خير المعطين»[(٢)].

وانظر إلى سائر أدعية المصطفى ﷺ، تجدها كلها مغموسة بمشاعر الفاقة والمسكنة والعجز، وهو الذي رفعه الله مكاناً علياً وأثنى عليه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤/٨٦] ووعده بأن يعطيه ما يرضيه فقال له: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٥/٩٣].

(١) رواه ابن إسحاق والطبراني من حديث عبد الله بن جعفر.

(٢) رواه الطبراني من حديث عبد الله بن عباس.

ونحن!!.. ألا ترى كم نحن مثقلون بأسر الفاقة بكل أنواعها، وكم نحن مرهقون تحت أعباء التقصير في جنب الله والخوض فيما قد نهى عنه من المعاصي والأوزار. فإذا كانت مشاعر العبودية في كيان رسول الله ﷺ – وقد ميزه الله بما حدثتك عنه – تجعله ينتشي بمثل هذه المناجاة لربه، فإنّ مشاعر العبودية لله في كيان كلّ منّا، ينبغي أن تزجّه في حالة من السكر إذ يعرض فاقته ومسكنته من خلال مناجاته لربه.

وإنه لسكر من اللذة عجيب!.. سكر لا يعرفه المدمنون على خمورهم، ولا المغرمون بأهوائهم وحظوظهم، وإنما يعرفه العبد الذي ذاق ذلّ عبوديته، إذ يقف بين يدي مولاه الأحد وقد ذاق لذة فضله وإحسانه.

ثم إن هذا الشهود، هو معين حب العبد لربه، يرحل إلى بابه العالي، حاملاً إليه مسكنته وفاقته وضعفه، يسأله ويسترحمه ويستجديه، فما يلبث أن يجد برد الرحمة بين جوانحه، وبوادر الاستجابة في حياته، وقبل أن يطول انتظاره تفد إليه النعم من الله تترى، يكشف عنه ضره، ويصلح له حاله، ويغفر له ذنبه، ويسمعه حديث لطفه وقرار تفضله وصفحه: ﴿هَلْ جَزاءُ الإِحْسانِ إِلاّ الإِحْسانُ﴾ [الرحمن: ٥٥/٦٠] فلا يكون شيء في هذه الحال أحب إلى هذا العبد من ربه، ربه الذي سمع شكواه، فأنقذه من بلواه، وشرح له صدره ويسّر له أمره وأعطاه سؤله، وغفر له ذنبه، فسبحان من تحبب إلى عباده بذل عبوديتهم له وعظيم افتقارهم إليه.

أما الآن، فدعني أبرهن لك على أن أسوأ أوقاتك، هو الوقت الذي تغيب فيه عن فاقتك، وتعيش فيه مع وهم أنك الغني القوي المالك لأمر نفسك:

أولاً: إن هذا الوهم إذا تحكم، يشكل حجاباً يحجبك عن ربك عز وجل، فإنّ وهم الاستغناء بالذات يثير لدى صاحبه مشاعر الطغيان. وصدق ربنا القائل: ﴿إِنَّ الإِنْسانَ لَيَطْغَى ، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٩٦/٦-٧] وبين الطغيان ومشاعر العبودية لله تناقض حاد. فمن طغى بأوهام استغنائه غابت عنه مشاعر عبوديته لله. ويصدق هذا على من قال الله عنهم: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ٥٩/١٩].

ثانياً: إن الذي يعيش مع أوهام استغنائه بذاته، تائهاً عن شهود فاقته، تغيب روح العبودية عن مظاهر عبادته، فهو حتى إن صلّى وصام وحج وتلا القرآن وبسط يديه للدعاء، تغدو عباداته هذه شكلاً لا مضمون فيه، ومظهراً من أقوال وأفعال لا معنى لها ولا روح فيها.

يركع ويسجد، ويتلو الفاتحة، ويعدّ الركعات التي ينبغي أن يصليها، دون أن يستيقظ قلبه لحديث لسانه، هو في حركاته الجسدية يصلي، ولكنه في مشاعره وخواطره الفكرية، يدير شؤون دنياه، ويرتب الخطط اللازمة لتحقيق مصالحه، كذلكم حجه ودعاؤه وقراءاته، هذا إن كان لا يزال مشدوداً بسائق العادة والعرف إلى ممارسة تلك التقاليد التي غابت عنها معاني العبادة.

وهذه الأعمال التي هي في أصلها طاعات وعبادات، تصبح على الأغلب بالنسبة إليه أعباء يثّاقل لدى النهوض إليها. إلا أن تروضه

العادة والاستمرار، فيخف عليه من ذلك عبئها، وينقاد إليها على أنها ضريبة لابدّ منها لإسلامه. أما ما ينبغي أن يسري في نفسه من مشاعر العبودية لله، مما قد وصفته لك من حال من عاش يشهد وجود فاقته وافتقاره الدائم إلى الله، فمفقود بل مجهول أيضاً.

وبالجملة، ففرق ما بين ذاك الذي تسوقه مشاعر افتقاره وفاقته إلى الوقوف بين يدي الله للصلاة ونحوها، وهذا الذي تسوقه إليها العادة والعرف، كفرق ما بين قول رسول الله: ((أرحنا بها يا بلال))[1] وقول أحدهم اليوم ((أرحنا منها..)) ذاك تكون قرة عينه في الصلاة، لأنه يجد فيها سلواه وأنس فؤاده وفرصة مناجاته لربه. وهذا ينفصل بها عن قرة عينه التي هي ما يتوهم أنه مستغن به، من عافيته وقوته وماله ودنياه.

ثالثاً: هذا المستغني بأوهامه، يكون، على الأغلب، محروماً من شعور المحبة لله عز وجل، وإنها لأشدّ المصائب بعد مصيبة الكفر بالله.

ذلك لأن محبة العبد لربه تتحقق من وراء عاملين اثنين:

أحدهما تنامي شعور الإنسان بعبوديته لله عز وجل. إنّ يقين الإنسان بأنه منسوب إلى الله بذلّ العبودية له، يستلزم يقينه بأن مولاه الذي يرعى حياته ومصالحه ويدبر شؤونه هو الله سبحانه. ومن ثم فهو يعلم أنه مدين لمولاه هذا بكل النعم التي تفد إليه والرعاية التي تطوف به، وأنه وحده المتفضل عليه بحمايته من المصائب والآفات

---

(١) حديث ((أرحنا يا بلال)) رواه الدارقطني في العلل من حديث بلال، ولأبي داود نحوه بإسناد صحيح.

وحفظه من سائر الشدائد والمكروهات، فمن هنا كانت معرفة الإنسان لهويته عبداً مملوكاً لله عز وجل، أحد مصدري محبة الإنسان لله تعالى.

ثانيهما: وجوه الإحسان التي يتلقاها الإنسان من ربه، بقطع النظر عن التنبه إلى واقع عبودية ومملوكيته لله. إن من القواعد التي لا خلاف فيها، قولهم: «جبلت النفوس على حب من أحسن إليها» أي أياً كان المحسن، وأياً كان المحسن إليه. ومما لاريب فيه أنه ليس في الكون محسن بالمعنى الحقيقي إلا محسن واحد لا ثاني له، ألا وهو الله سبحانه وتعالى. فإذا علم الإنسان أن الروافد التي يتلقاها منذ ولادته إلى مماته إنما تفد إليه من عند الله تعالى، فلا بدّ إذن أن يصبح قلبه وعاء لحب هذا المحسن، أياً كان، أي بقطع النظر عن كونه إلهاً له وقيوماً عليه.

فإذا عاش الإنسان سجين أوهامه بأنه مستغن بذاته، وأنه المالك لأمر نفسه، وأن رغد عيشه إنما يأتي ثمرة جهوده الشخصية، أو ثمرة ما قد يسمونه الطبيعة، فإن معين هذا الحب ينضب من قلبه، وحتى لو آمن بالله إيماناً تقليدياً شأن كثير من الناس اليوم، فإنّ إيمانه الشكلي هذا لن يرقى به إلى سعادة حب العبد لربه عز وجل. ولسوف تصبح أوهامه التي يركن إليها سجناً يورثه الوحشة والشقاء.

رابعاً: إن المحجوب عن شهود فاقته وافتقاره، يعيش محروماً من لذة مناجاة ربه بالابتهال والثناء والتضرع والدعاء، إذ إن السبب الذي يدفع الإنسان إلى ذلك إنما هو شعوره بفقره وشدة احتياجه إلى الله، فإن رأى أن الله يحقق له رغباته ويعطيه احتياجاته، ناجاه بالشكر

والثناء، وإن رأى أنها غير محققة وأنه يعاني من وطأة احتياجاته وفاقته، ناجاه بالتضرع والرجاء والدعاء.

فأما الذي يخيل إليه أنه مكفيٌّ بالاعتماد على نفسه والتعامل مع ما يسميه الطبيعة، فلن يجد ما يدعوه إلى ثناء ولا دعاء، ومن ثم فلن يتوجه إلى الله بأي مناجاة أو ذكر له.

فهذه أدلة أربعة تنطق بأن المحجوب عن فاقته وافتقاره إلى الله، مقضي عليه بالشقاء، وعاقبته اليقظة إلى فاقةٍ لا انفكاك له عنها، ولا ملاذ له منها؛ وتنطق بأن أسعد الناس هو الذي يتقلب في ذل مناجاته لمولاه مثنياً وشاكراً في حالة الرخاء، وداعياً ومستجدياً في حالة البأساء.

* * *

لعلك تسأل الآن: فما العلاج الذي يجعلني أشهد دائماً وجود فاقتي ويبعدني عن وهم استغنائي واستقلالي بأمر نفسي؟

وأقول لك في الجواب: إن كان إيمانك بألوهية الله وقيوميته وحده، لم يوقظك بعد إلى فاقتك وعجزك، وإن كان خطاب الله القائل: ﴿يا أَيُّها النّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥/٣٥] والقائل: ﴿وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاّ إِيّاهُ فَلَمّا نَجّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكانَ الإِنْسانُ كَفُوراً ، أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً ، أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ

فَيُغْرِقَكُمْ بِما كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعاً﴾ [الإسراء: ١٧/٦٧-٦٩]، والقائل: ﴿أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذا هِيَ تَمُورُ ، أَمْ أَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ٦٧/١٦-١٧] أقول: إن كان خطاب الله هذا لم يحرِّرْك بعدُ من وهم استقلالك واستغنائك، فأنصحك بأن تكثر من زيارة المشافي، ومن الاطلاع على المرضى والأحوال التي يمرون بها. ستجد فيهم من كانوا أشدّ بأساً وأوفر قوة منك، ولكن قضاء الله جرّدهم من بأسهم وعافيتهم وأحال كلاً منهم إلى كتلة ذلّ وصغار. تأمل في ذبول أشكالهم وضمور أجسادهم، وأصغ إلى الأنين الذي يتعالى من صدر كل منهم، وسائل نفسك: من الذي قهر هؤلاء فجردهم عما كانوا يتمتعون به من العافية والقوة والنضارة، وزجهم في هذه الآلام وابتلاهم بهذه الأمراض. ثم سل من شئت منهم عن قيمة كنوز الدنيا كلها، أمام العافية التي سلبت منه، يقل لك هات العافية وردّها إليّ وخذ في مقابل ذلك كل ما أملكه من الكنوز والمدخرات!.. مُرَّ بعيِّنات من المرضى إن لم تستطع أن تمرّ بهم جميعاً، وتأمل في أحوالهم وأنواع الأمراض التي تسربت إليهم، وسائل نفسك: أموقن أنت أنك لن تفتح عينيك صباح غدٍ قريب لتجد نفسك متمدداً على سرير من أسرّة هذا المشفى أو غيره وإن الأوجاع تنوشك، وإن مرضاً عضالاً قد تسرب إلى جسدك، وتبحث عن استغنائك بالعافية التي تملكها والقوة التي تتمتع بها. فلا تجد في مكانهما إلا المرض والضعف!.. ألا تسأل نفسك، وأنت معافى الآن: من الذي يملك أن يفعل بك ذلك؟ ومن الذي حرم هؤلاء جميعاً من

نعمة عافيتهم وقوتهم ونضارتهم، وزجَّهم في عالمٍ من هذه الأسقام والآلام والذبول والضعف؟ أليس هو الله الذي خلقك من ضعف، ثم جعل لك من بعد الضعف القوة؟ إنه هو الذي أعلمك أنه سيعيدك من بعد القوة إلى الضعف، وها أنت ترى دلائل ذلك ومصداقه أمام عينيك.

فإن كانت زيارة المشافي لا تكفي لترقيق قلبك، وإزالة غشاوة أوهام الاستغناء والاستقلال الذاتي عن عيني بصيرتك، فأضف إلى ذلك إذن زيارة القبور، وتأمل في حال الجنائز وهي تُحْمَل إلى الحفرة التي تنتظرها.. تأمل في حال من هو متمدد داخل النعش، لعلها فتاة كانت مثال النضارة والجمال بين أترابها، كانت لها عينان تأسر القلوب وقامة ميساء تسكر العقول، فما لها لم تحتفظ بما تملكه من ذلك كله؟ مالها اليوم وقد استحالت في هذا النعش إلى شبح مرعب؟ أين غاب منها سحر تلك العينين؟ ومن الذي استلّ منها تلك النضارة وذلك الجمال، وأبدل بهما هذا الهيكل العظمي المخيف؟ أو لعل الذي في داخل النعش قائد عظيم، كان ذا شوكة نافذة وسطوة قاهرة، وإرادة لا تُردّ وأحكام لا تقاوَم.. ما له اليوم هامد ساكن في لفافة أكفانه؟ ما له قد فقد شوكته النافذة وسطوته القاهرة، وإرادته الحاكمة؟ وفيم تخلى عن ذلك كله، أو تخلّى ذلك كله عنه؟ واستسلم ساكناً مهيناً لهؤلاء الذين يحملونه من رفاهية الدنيا وألق النعيم، إلى حفرة في باطن الأرض؟ تأمل في هذا كله ثم سائل نفسك: أمطمئن أنت إلى أنك محصّن في غناك الذاتي واستقلالك الشخصي، ضدّ هذا المصير الذي آل إليه من كان أوسع منك غنى، وأشدّ منك قوة وأرسخ

سلطاناً، أليس في ضعف المولود إذ يخرج من بطن أمه، ثم في ضعف المصير إذ يدفن داخل تربته، ثم في أفانين المصائب والأوجاع التي تأخذه وتَرُدُّه خلال العمر الذي قدِّر له بين يومي ولادته ومماته، ما يضع العاقل وجهاً لوجه أمام فاقته؟

أليس في قصة الإنسان هذه، ما يجعله موقناً بأنه إنما يتحرك في قبضة الله، وبأن وجوده بالله، ومصيره إلى الله؟ فما الذي يملكه الإنسان إذن حتى يستغني بنفسه عمن هو في قبضته، ووجودُهُ منه ومصيره إليه؟

هذا هو العلاج الذي من شأنه أن يجعلك تشهد دائماً وجود فاقتك فإن لم يُفِدْكَ هذا العلاج، فاعلم أنك ممن قال الله عنهم: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهارُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْماءُ وَإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢/٧٤].

* * *

الحكمة الثامنة و التسعون

((متى أوحشك من خلقه، فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به))

مقتضى هذا الذي يقوله ابن عطاء الله، أنه لا يمكن أن يجتمع الأنس بالناس مع الأنس بالله في حالة واحدة قط. كما لا يمكن أن تجتمع الوحشة من الناس مع الوحشة من الله في حالة واحدة قط. إنهما كالكفتين إن رجحت إحداهما طاشت الأخرى.

وهذا الذي يقتضيه كلام ابن عطاء الله صحيح. ذلك لأن سبب الوحشة من الناس، هو ذاته سبب الأنس بالله، وسبب الأنس بالناس هو ذاته سبب الوحشة من الله.

وقبل أن أخوض بك في شرح هذه الحكمة، ينبغي أن ألفت نظرك إلى أن المراد بكلمة ((خلقه)) عوامّ الناس بسائر فئاتهم وأخلاطهم.. فلا جرم أن الاستئناس بالنخبة الصالحة من الناس، لا يدخل في عموم هذا الحكم.

ثم إن الشأن بالنسبة لأكثر الناس، هو الاستئناس بأمثالهم، بأبناء جلدتهم، أي بأمثالهم من الناس، وسبب ذلك أن الإنسان مفطور على

الشعور بما هو محتاج إليه من مقومات عيشه وأسباب رزقه، وطمأنينة نفسه، وتوفير سكنه المادي من دار يسكنها، وسكنه النفسي من زوجة يركن إليها.

وتحقيق هذه الاحتياجات يتطلب التعرف على الآخرين، والاستعانة بهم، كل حسب ما يستطيع وحسب ما هو مؤهل له، ومن شأن ذلك أن يمدّ جسور المآنسة فيما بينهم.

وأقول هنا: ليس في أمر التعارف والتلاقي والتعاون، أي إشكال. وكيف تكون الفطرة الإنسانية مبعث إشكال في الدين؟ بل كيف تكون التعاليم والأوامر الإلهية مبعث إشكال فيه؟ ألم يقل الله عز وجل: ﴿يا أَيُّها النّاسُ إِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا..﴾ [الحجرات: ٤٩/١٣] ألم يقل: ﴿وَتَعاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوانِ﴾ [المائدة: ٥/٢]، ألم يقل رسول الله ﷺ: ((إن أقربكم مني مجلساً يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقاً، الموطؤون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون))[١].

ولكن هل يلزم من أمر التعارف والتعاون والتآلف بين المسلمين، أن يستأنس المسلم بالناس من أمثاله، الاستئناس الذي يبعثه على الوحشة من ربه عز وجل؟..

لا.. ليس بين الأمرين أيّ تلازم.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير من حديث جابر. بسند ضعيف، ويقويه ما رواه أحمد والطبراني من حديث سهل بن سعد والحاكم من حديث أبي هريرة بسند صحيح مرفوعاً ((المؤمن إِلْفٌ مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف)).

إن المسلم الحق، حتى وهو في غمرة التعارف والتعاون والتآلف مع إخوانه، إنما يكون أنسه بالله، وإليك بيان ذلك.

إن المسلم الصادق في إسلامه، هو ذاك الذي صفا فكره من رؤية الأسباب الكونية الكثيرة المتناثرة، فلم يعد يرى إلاّ مسببها وهو الله عز وجل. أي إنه لا يقيم لها وزناً، إذ يعلم أن الفاعلية فيها جميعاً مهما كثرت وتنوعت، إنما هي لله. وقد أوضحت لك الدليل العلمي على ذلك مفصلاً في شرح بعض الحكم التي مرّت، وأكدت لك أنه لا يوجد ما يسمى بالقوة المودعة فيما نسميه أسباباً، إذ إن الله لا يحتاج إلى أن يوسط لأفعاله الكونية تلك التي يسمونها القوة المودعة، وأين هي القوة المودعة مستقلة عن فاعلية الله وسلطانه، حتى يعمد إليها فيستعين بها، فيودعها في الأشياء لتصبح أسباباً مؤثرة وقوى فاعلة؟ لو كانت هذه القوة ذات وجود ذاتي، إذن لكانت شريكاً مع الله، بل لكانت هي الفاعلة والمؤثرة من دون الله.

إذن فالمؤمن مهما تعامل مع هذه التي نسميها أسباباً، في غدوه ورواحه وعلاقاته مع الناس، فإنه لا يبصر فيها إلا يد الله، هي التي تحرك وتوجه وتخلق النتائج وتوصل إلى الغايات.

ولعلك تسأل: ففيم يتعامل معها إذن؟ ولماذا يمدّ جسور العلاقات أو التعاون بينه وبين الآخرين؟ وهل التآلف إلاّ ثمرة التعارف فالتعاون في عالم البحث عن الأسباب؟

والجواب أن ذلك كله إنما يتم انقياداً منه لأمر الله وتنفيذاً لشرعه: أمر بالتعارف فالتعاون، إذن يجب تنفيذ ما أمر، قضى بالتعامل مع ما

نسميه أسباباً، والتوسط بها إلى بلوغ الغايات والأهداف، إذن يجب الخضوع لهذا الذي قضى به.

فالمؤمن إذن في تعامله مع الأسباب، سواء تمثلت في أشخاص يستعين بهم، أو في أشياء أخرى، إنما يتعامل في الحقيقة مع الله عز وجل، بل إنه يمارس بذلك أعلى درجات العبادة والعبودية لله.

ودونك، فانظر إلى تراجم الربانيّين من العلماء الصالحين، لاسيما أولئك الذين يتحدث عنهم ويترجم لهم الإمام القشيري في رسالته، تجد كلاً منهم مرتبطاً بحرفة، من أرض يفلحها، أو صنعة يمارسها، أو دكان يلازمها، ومن ثم فإن علاقته بالناس قائمة، وجسور التعاون معهم ممتدّة. ولكنك لو وقفت على ترجمة حال كلٍ منهم لرأيته في الصورة يتقلب ويتعامل مع الأشباح، وفي الحقيقة العقلية والقلبية، يتعامل مع قيوم السماوات والأرض. وكل أمله ومبتغاه أن ينال رضوانه وإكرامه، فهو فانٍ عما سوى الله وإن كنت تراه يتعامل مع هذا السِوَى، وهو باقٍ مع الله منصرف إليه وإن كنت تراه في الصورة منصرفاً عنه إلى عالم الأسباب. وقد سبق أن قلت لك إنهم رووا أن رجلاً من هؤلاء الصالحين أعطى هدية أو صدقة لفقير من الناس، وقال له: إنني لا أعطيها لك أنت، فقال له الآخذ: وأنا لا آخذها منك أنت.

فانظر إلى صورة التعامل، تجدها بين شخصين بكل ما تجرّه من ذيول التعاون والألفة. وانظر إلى الواقع الخفي من وراء الصورة، تجد كلاً منهما غائباً عنها، ماثلاً في تعامله أمام الله، خاضعاً في ذلك لسلطان العبودية لله.

فهؤلاء الذين أحدثك عنهم، بمن يستأنسون، إذ يتقلبون ويتعاملون مع دنيا الصور والأشباح، وعقولهم وألبابهم ومشاعرهم منصرفة إلى الإله القيوم الذي يحركها ويديرها ويسخرها لما يشاء؟ أفيأنسون بالأدوات والأشباح، أم يأنسون بمن يكرمهم ويدبر أمرهم ويرعاهم من خلالها؟

إنهم - بدون ريب - إنما يأنسون بمن تنبض قلوبهم بذكره، وتنصرف مشاعرهم إلى مراقبته، ولا يرون إلا رحمته وحكمته في كل ما يلوح لهم من مظاهر المكونات وعلاقات الناس بعضهم ببعض.

إذن فهم مستوحشون من الناس، حتى وإن كانوا يتعاملون معهم، غائبون عنهم حتى وإن امتدّت جسور الألفة فيما بينهم، إذ إن تعاملهم معهم لله، والألفة السارية فيما بينهم، إنما هي تقرب منهم إلى الله.

فإن رأيتهم في المجالس التي تضمهم، وقد شاعت فيما بينهم مظاهر الأنس، وهيمن عليهم السرور، فهو الأنس والسرور بالله الذي اجتمعوا عليه، وتداعوا للقاء في سبيل مرضاته.

والدليل على ذلك أنك تنظر، فتجد مجالسهم فياضة بما يقرب إلى الله، من التناصح والتذاكر فيما يقرب إلى الله، ويزيد أفئدتهم حباً له ومخافة منه، ولو بدرت بادرة سوء في مجلس منها، بأن وقع فيه منكر، أو شاعت فيه الغفلة عن الله، فإن أنسهم يتحول إلى وحشة وسرورهم ينقلب إلى كدر.

ولا تنس أنني إنما أحدثك عن النخبة التي حدثتك عنها ووصفت لك حالها.

إذن، فلا تنافي بين تعامل المسلمين وتعاونهم بعضهم مع بعض، وسريان روح الألفة فيما بينهم من جانب، واستئناسهم، في الوقت ذاته بالله وحده، ووحشتهم مما عداه، أي مما يشغلهم عن الله، أو ممن زجتهم الأهواء وشواغل الدنيا في تيه عن ذكر الله، من جانب آخر.

وهذا كله يلخصه قول رسول الله ﷺ: «الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلاّ ذكر الله وما والاه، وعالماً أو متعلماً»[١].

* * *

أما الآن، فإليك صورة حال الذين استأنسوا بالدنيا لذاتها، ممثلة في مظهر العلاقات التي تسري بينهم وبين الناس، ابتغاء البحث عن مزيد من المغانم الدنيوية المتنوعة، أو الركون إلى عالم الأسباب المختلفة، ناسين أن عالم الأسباب هذا صور لا حقيقة لها، ومظاهر لا تنطوي على أي مضمون، وذاهلين عن أن مصدر المغانم وموئل الرزق كله إنما هو الله عز وجل.

فهؤلاء - ويبدو أنهم أكثر الناس - لا بدّ أن يزجهم واقعهم التائه هذا في حال من الوحشة من الله.

ومعنى وقوعهم في هذه الوحشة، أنهم إذا تلاقوا، كانت أحاديثهم التي يستمتعون بها، تلك التي تتعلق بالتجارة وشؤونها، إن كانوا

---

(١) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة، والطبراني في الأوسط عن ابن مسعود ورواه البزار عنه بلفظ قريب. ورواه أبو نعيم في الحلية عن جابر بلفظ ((الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان منها لله عز وجل)) والمعنى واحد، وأسانيده صحيحه.

يمارسون التجارة، أو التي تتعلق بالصناعات إن كان عملهم فيها، أو التي تتعلق بشؤون الدنيا عموماً، كمشكلات العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، وتنافس الفئات والجماعات على المغانم والمراكز، إلى ما قد يستتبع ذلك من الذيول، وإنك لتنظر، فتجد أن الخوض في هذه القضايا الدنيوية المختلفة، يستهويهم ويشدّهم ثم لا يكاد يردّهم إلى أي اهتمام آخر.

فإذا تسرّب إليهم من حاول أن يذكرهم بالله، وبتفاهة الدنيا والمصير الذي يتربص بهم، مقترحاً استبقاء حصة في أسمارهم ولقاءاتهم للتعرف على الوظائف الدينية التي خلقهم الله لأجلها، تجافوا عن الاستجابة لهذه المحاولة، كلٌ بأسلوبه الذي يراه وبالطريقة التي يألفها، ثم عادوا فيما بينهم إلى ما يخوضون فيه.

ولو عاد هذا الدخيل إليهم فكرر عليهم اقتراحه وتذكرته، قد لا يترددون في إظهار التأفف من ثقل ظله عليهم، وفي نصحه بأن لا يتدخل في شؤونهم، وفي أحسن الأحوال يستعملون فنون اللباقة في صرفه عنهم وتيئيسه من هذا الذي يتأمل منهم.

فهل تكون الوحشة من الله بأكثر من هذا؟..

ولقد كنت يوماً ما هذا الدخيل، إذ وجهت كلمة نصح إلى الطبقة الأولى من تجار دمشق، أولئك الذين أغدق الله عليهم المزيد من نعمة المال والثراء، دعوتهم فيها إلى أن يعيدوا سيرة من قبلهم من تجار هذه البلدة وأعيانها، إذ كانوا تجاراً في أسواقهم في النهار، وطلاب علم في الأمسيات وطرفي النهار، وذكرتهم بالكثير من حلقات الموعظة والعلم

والذكر التي تفيض بها هذه البلدة، دون أن يكون لهم أي حظ منها، بل وجود فيها. وانتهزت فرصة هذه التذكرة أكثر من مرة، فلم أجد لتذكرتي هذه ثمرة إلا التأفف، ولم أسمع تعليقاً عليها إلا العتاب والنقد.

* * *

ألا إن الاستئناس بالدنيا وأسبابها، لن يكون إلاّ الوجه الآخر لحقيقة الاستيحاش من حديث الآخرة وما يذكر بالله وحقوق الله على الإنسان.

وإن الوحشة من الدنيا وأهلها لن تكون إلا الوجه الآخر لحقيقة الأنس بالآخرة وكل ما يذكّر بالله عز وجل.

ذلك لأن من أحب شيئاً أنس به وركن إليه، ومن ثم فهو يكره كل ما يكدر عليه أنسه، ويستوحش منه.

فانظر ما الذي يشغلك حبه... إن كان الذي يشغلك حبه هو الله عز وجل، فمن المستحيل أن تأنس بما يشغلك عنه. ولن يشغلك عنه إلا الدنيا وسماسرتها، وحتى عندما تتعامل وتتعاون معهم، فإنك لن تكون في سرّك ودخيلة أمرك إلا مع الله، كما قد أوضحت لك.. وإن كان الذي يشغلك حبه هو الدنيا بأي من معانيها المتنوعة الكثيرة، فمن المستحيل أن تأنس بما يشغلك عنها، وإنما يشغلك عنها حديث الآخرة وذكر الله عز وجل، وحتى عندما يشغل محب الدنيا جسمه وأعضاءه بصور العبادات، فإن سرّه لن يكون منصرفاً إلاّ إلى حبيبة قلبه وهي الدنيا.

والسؤال الذي أختم به شرح هذه الحكمة دون جواب، هو:

ماذا أقول غداً لله، إن كنت واحداً ممن شُغل عن الله بنعمه واستوحش من ذكر الله الذي هو صائر إليه، بأنسه بالدنيا التي هي مفارق لها، عندما يسألني: ما غرّك بربك الكريم حتى اجتويته واستوحشت من ذكره والانشغال بأداء حقه، وهو الذي خلقك فسواك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركبك؟ أكان جزائي على تكريمي لك، وتسخيري الدنيا كلها لأمنك وعيشك وراحتك أن تستأنس بالفاني وتتعشقه، وأن تستوحش من إلهك الباقي وتتناساه؟.

* * *

الحكمة التاسعة و التسعون

((متى أطلق لسانك بالطلب فاعلم أنه يريد أن يعطيك))

المعرض عن الدعاء والطلب من الله، إنما يكون إعراضه لأحد سببين:

أحدهما: جحوده بالله وإنكاره لوجوده، ومن ثم إنكاره لعبوديته لله.

ثانيهما: استغناؤه عن الله مع إيمانه به، إذ يكون معتداً بالنعم التي يتمتع بها ناسياً أن الله هو الذي أكرمه بها، بعيداً عن الابتلاءات والمصائب التي توقظه إلى فقره.

فأما السبب الأول فالحديث عنه غير وارد في هذه الحكم كما تعلم.

وأما السبب الثاني فيزول بيقظة الإنسان إلى فاقته وفقره، وقد علمت، مما ذكرته لك في شرح حكمة سبقت، السبيل الذي يوقظ الإنسان إلى شهود فاقته ويبصّره بأنه لا يملك من أمر نفسه شيئاً.

والذي يضيفه ابن عطاء الله هنا إلى ما سبق بيانه، هو أن المسلم إذا تحرر من أوهام غناه أو استغنائه، وأدرك أنه فقير في كل أحواله وتحركاته إلى عناية الله ولطفه وحمايته وعطائه، سواء أكان محاطاً بالمتع

والنعم، أو مبتلى بالشدائد والمصائب، اتجه إلى الله بالمسألة والدعاء وانطلق لسانه بالرجاء والاستجداء.

فليعلم عندئذ أن الله لم يحرره من أوهام غناه وقوته، ويوقظه إلى حقيقة فقره ومسكنته، إلا ليتجه بفقره ومسكنته إلى مولاه الغنيّ الأوحد، وليطلق لسانه بالرجاء والدعاء، ليرى كريم استجابة الله له، وواسع رحمته به.

لعلك تقول: كم من طالب لايستجيب الله طلبه، وقد سبق بيان ذلك في شرح بعض الحكم السابقة، فكيف يصدق هذا التلازم الذي يقرره ابن عطاء الله هنا بين الطلب والعطاء؟

والجواب أن مراد ابن عطاء ا لله هنا بإطلاق الله لسان العبد بالدعاء، تحرير الله له من أوهام استقلاله بنفسه واستغنائه بماله وعافيته وقدراته، وتنبيهه إلى أنه ضعيف فقير لا يملك من أمر نفسه شيئاً لا في حالة الشدة ولا في حالة الرخاء. فإن العبد إذا صحا إلى هذه الحقيقة في كيانه، استيقظت فطرة عبوديته لله عز وجل بين جوانحه، وتنامت مشاعر مملوكيته لله في نفسه، ولابدّ أن يحمله ذلك على أن يصطلح مع الله فيصلح ما قد فسد من أمره، ويتدارك ما قد فرّط في جنب الله وأهمل من حقوقه، فيتوب ويؤوب إليه، ويطرق من ثم بابه بالمسألة والدعاء. وفي هذه الحال لابدّ أن تتحقق الاستجابة. كيف لا، وقد وعد الله بالاستجابة، لمن أقبل إليه هذا الإقبال، ودعاه بسائق من هذا الشعور، وتلك هي الحال التي يقرر ابن عطاء الله التلازم فيها بين الطلب والعطاء.

وآية هذه الحال، أو علامتها الفارقة، أن يتجه العبد إلى الله بالمسألة والدعاء، وهو في أحسن حالات الرخاء، عافية ورزقاً وأمناً وقوة، موقناً فقره، مستشعراً مسكنته وحاجته إلى الله عز وجل، جازماً بأنه سبحانه وتعالى، إن شاء، سلب منه هذه النعم كلها، وتركه في أحلك ظروف الشدة والبلاء، فهذا هو الطلب المنبئ عن عبودية الطالب لله بشعوره الفطري وسلوكه الاختياري وهو المعنيّ بقول ابن عطاء الله ((متى أطلق لسانك بالطلب..)).

أما الذي يكون في حالة الرخاء، فيركن إليها، مستغنياً بها، حتى إذا مسّه الضرّ في بعض شؤونه، وألمّ النقص ببعض ما يتشهاه، اتجه إلى الله يطلب منه أن يرفع عنه الضر الذي أصابه، وأن يزيل النقص الذي عكّر عليه هواه ومزاجه، فهذا وأمثاله خارجون عن دائرة المعنى الذي يذكره ابن عطاء الله.. إن الذي يطلق ألسنة هؤلاء الناس بالدعاء إنما هو رعونات أنفسهم، لا لطف بارئهم عز وجل. لا أدلّ على ذلك من أنّ أحدهم إذا رأى أن حاجته قد زالت وأن رغبته قد تحققت، أقلع عن الدعاء، وأعرض عن المسألة والرجاء، وعاد يركن إلى شعوره بالأمن والاستغناء.

إن الذي لا يتعرف على الله ولا يلجأ إليه في الرخاء، لن يصدق في الالتجاء إليه عند الشدة، إذ الصدق في التجاء العبد إلى ربه يقتضي دوام ذلك منه دون انقطاع. فأما إن تذكر حاجته إليه في الشدائد والخطوب، ونسي ذلك في ساعات الأمن والرخاء، فهو عبد سوء، يطوف حول ذاته، ويحاول أن يسخر كرم الله وفضله لتحقيق

مشتهياته وأهوائه. فإذا تحققت، ونال مطلوبه، نسي خالقه ومعبوده!.. ولم يُلْزِم الله ذاته العلية أن يستجيب لمطالب أصحاب هذه الرعونات، ألم يقل المصطفى ﷺ في الحديث الذي يرويه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: ((...تعرّف على الله في الرخاء، يعرفك في الشدة))؟

إذن، حديث ابن عطاء الله في هذه الحكمة، لا يتناول هذا الفريق من الطالبين، فلا يلتبسنّ عليك حال بحال.

إن كلامه هنا تتمة لقوله في الحكمة التي قبلها: ((متى أوحشك من خلقه، فاعلم أنه يريد أن يفتح لك باب الأنس به))، ولقوله في الحكمة التي قبلها ((خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجود فاقتك وتُردُّ فيه إلى وجود ذلتك)).

تحقق بهذا الذي قاله ابن عطاء الله، والذي سبق شرحه وبيانه، وانظر كيف ينطقك الله عندئذ بالطلب من ذاته العلية، ثم انظر كيف يعطيك الله سؤلك ويكرمك باستجابة دعائك.

إذ إن الذي ينطق في تلك الحال على لسانك، إنما هو عبوديتك الضارعة لله، ومسكنتك الذاتية على أعتاب الله، لا غرض عابر تذكرت حاجتك إليه، أو شهوة جامحة ألجأتك إلى استجدائها منه.

ومن العجيب المؤسف أن أحدنا، وهو رشيد كبير، يحتاج، كثيراً ما، إلى أن يتخذ من تصرف الأطفال عظة ودرساً له!..

إنك لتنظر إلى الطفل يحمله والده مشرفاً به على وادٍ سحيق، فيتشبث الطفل بأبيه، ويزداد التصاقاً به، ويبعث إليه من عينيه نظرات

الاستعطاف أن لا يتركه، وأن يظلّ حاملاً لـه ممسكاً بـه!.. يريـه مـن نفسه كل هذا الافتقار، والضعف الذي يحوجه إلى حمايتـه لـه، مـع أنـه يرى نفسه محمولاً بيديه، ملتصقاً بصدره، مكلوءاً بعنايته!...

ذلك لأنه يعلم ضعفه الذاتي وافتقاره الدائم إلى رعاية أبيه له، حتى وهو محصّن في كنفه، محاط باهتمامه.

يا عجباً، أيكون هذا الطفل الصغير أتم رشداً من واحدٍ مـن أمثالنـا الذين بلغوا مبلغ الأبوة لهذا الطفل؟!..

لماذا لا ندرك نحن أيضاً افتقارنا (ونحن في أوج الحماية والرعاية) إلى مولانا الذي إن تخلى عنا لحظة واحدة، سقطنا مـن عليـاء السـعادة إلى أحط دركات الشقاء، كما يدرك هذا الطفل (وهو محـاط بـذراع أبيـه ملتصق بصدره) أن والده إن تخلّى عنه لحظة واحـدة، سـقط في وهـدة الوادي السحيق؟

لماذا لا ندرك هذه الحقيقة، كما يدركها هـو، لنظـلّ نسـترحم ربنـا ونستدرّ المزيد من إحسانه ولطفه، بنظراتنا المنكسرة، ودعائنا الواجف، أن لايتخلّى عنا، وأن لا يبدل رخاءنا شدّة، كما هو شأن هـذا الطفـل مع أبيه؟

اللهم متعنا بمثل الفطرة التي يتمتع بها هذا الطفـل، ولا تُقْصها عنـا بسوء فعالنا وقبائح خصالنا، كي يظل التجاؤنـا إليـك في الرخـاء كمـا هو في البلاء.

*   *   *

الحكمة الموفيه تمام المئة

((العارف لا يزول اضطراره، ولا يكون مع غير الله قراره))

سبق أن أوضحت لك معنى ((العارف)) فيما اصطلح عليه العلماء الربانيون، وقلت: ((إنه من بلغ من توحيده لله، وثقته بالله، وتوكله على الله، وتفويضه إلى الله، درجة تفنى فيها إراداته وتنطوي فيما يريده الله، وتذوب أمامه الأسباب تحت سلطان الله، وتغيب فيها المشهودات الكونية في وهج من شهود الله))[1].

فهذا العارف لا تتلون حياته بلوني الرخاء والشدة، كشأن أكثر الناس، يمرّون بعهد من الرخاء، فلا يشعرون بأي اضطرار يسوقهم إلى الالتجاء إلى الله والتبتل بين يديه، ويمرون قبل ذلك أو بعده بعهد من الشدة، تزجهم في حالة من الاضطرار ومن ثم يلجؤون في ذل ومسكنة إلى الله.

أقول: إن العارف لا يعرف هذا التنوع أو التلون في حياته. إنه يرى نفسه دائماً ذلك المضطر الذي قال الله عنه: ﴿أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ﴾ [النمل: ٢٧/٦٢].

---

(١) انظر الصفحة ٤٧١ من الجزء الثاني من هذا الكتاب.

فكيف ذلك؟ وكيف يتلاشى الرخاء في حياته، حتى يرى نفسه دائماً في حالة الشدة والاضطرار؟

قلت لك: إن الأسباب الكونية تضمحل أمام العارف ثم تزداد اضمحلالاً، إلى أن تذوب وتغيب ولايبقى أمامه وفي شهوده إلا المسبب الواحد الفعال، وهو الله عز وجل. إذن فرخاؤه من الله، وابتلاءاته من الله، وهو في كلا الحالتين يتحرك في قبضة الله.

ونتيجة ذلك، أنه يعلم، بل يرى أن ما نعدّه أسباباً مادية للرخاء والشدائد لا تحرره عن سلطان الله، ولا تشكل أي فاعلية مع الله، ولا حتى من دون الله.

إذن فهو إنما يتقلب في قبضة الله ويخضع لسلطان الله، ومن ثم فهو لايدري ما الذي سيأتي به الغد، بل لا يدري ما الذي يصنع الله به بعد لحظات، إنه يعيش دائماً مع قول الله تعالى: ﴿وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩/٤٦]، سواء فيما يتعلق بموته وحياته، ورزقه ومعيشته، وأمنه وطمأنينته، ومدى انقياده لأوامر ربه، ومدى توفيق الله له في ذلك.

وهذا هو المعنى الشمولي العام لكلمة ((الفقراء)) في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها النّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥/٣٥] ويقابله المعنى الشمولي العام لكلمة ((الغني)) في قوله: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

إذن فالعارف لا يأمن مكر الله في لحظة من حياته، إنه يخشى من أن يتيه عن صراط الله بعد نعمة الانقياد إليه، ويخشى من أن يبتليه الله

بغاشية جهل بما يقربه إلى الله بعد أن متعه بالنور الذي بصّره به، ويخشى من أن يبتلى بقسوة في قلبه فترتدّ عنه النفحات وتبتعد عنه التجليات، ولعله دائماً يذكر في قلق وخوف قول الله عز وجل: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٨/٢٤].

والعارف لا يأمن أن تتحول الأمطار التي تهمي من السماء إلى حصباء، ولا يأمن أن تتحول ينابيع الأرض إلى براكين، وأن يتحول استقرارها إلى زلازل هادرة، وأفواه فاغرة بالابتلاع والخسف.. إنه لا يأمن أن يحصل كل ذلك في لحظة واحدة من خلال أمر صادر من الله عز وجل، لا يزيد مضمونه على معنى كلمة ((كن)).

ولعله يخشى أن يتم ذلك أو شيء منه بسبب ذنب يرى أنه صدر منه، أو بسبب تصرّف يرى أنه قد أخلّ بالأدب مع الله فيه.

هذا بقطع النظر عن أنه يعلم أنه فقير في غناه، ضعيف في قوته، سقيم في عافيته. إذ هو يعلم أن ذلك كله عارية مردودة، وأنه لا يملك من ذلك كله شيئاً.

إذن، فالعارف يعيش في كل تقلباته وأحواله مرحلة الاضطرار. ومن ثم فهو دائم الالتجاء إلى الله، مستمر في دعائه وشكواه وانكساره، لأن مشاعر فقره وضعفه لا تفارقه، سواء أكان في حالة شدة أو رخاء.

ولكنّ هم العارف لا يكون منصرفاً إلى خوفه من أن يبتلى بفقر بعد غنى أو بمرض بعد عافية، كما لا يكون منصرفاً إلى طلب العافية إن

كان مريضاً أو الغنى إن كان فقيراً، فقد علمت أن العارف هو من فنيت إرادته وانطوت فيما يريده الله.

وإنما يكون جلّ همّه الخوف من أن تَشْرُد به نفسه إلى ما يسخط الله، أو أن يقصر في شيء من حقوق الله عليه، أو أن يطلع الله منه على خاطرة يسيء بها الأدب مع الله، أو أن يرفع عنه ستراً أسدله الله عليه فيفتضح أمره وينكشف للناس ما كان مخبوءاً - فيما يعتقده - من سوء حاله.

فهو من جراء ذلك - لا من أجل حظوظ الدنيا - دائم الأحزان، دائم الالتجاء إلى الله، يلازم محراب التبتل والانكسار له عز وجل، فمن أجل ذلك لا يزول اضطراره ولا تبارحه همومه، وكيف يزايله الهم وتغيب عنه مشاعر الاضطرار، وهو في كل أحواله وتقلباته يردد في نفسه أو بلسانه قول الله تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥/٣]؟!

ولعله يلاحظ أنه عز وجل لم يقل: ((وخافوني إن كنتم عاصين)) وإنما قال: ((.. إن كنتم مؤمنين)) إذن فحق على كل مؤمن أن يخاف الله. أياً كان ومهما كانت درجة استقامته ووقوفه عند حدود الله.

وإنما يكون الخوف في هذه الحالة من عدم معرفة العاقبة، وعدم التنبه إلى دقائق الأدب مع الله، ومن أن يعتمد الطائع على طاعته والمتعبد على عباداته، والمجاهد على جهاده، والعالم على علومه.. إلخ فتتحول طاعاته وأعماله عندئذ إلى حجاب يقصيه عن مغفرة الله وعفوه، ومن

ثم إلى سبب لهلاكه، وقد ذكرت لك أكثر من مرة حديث رسول الله ﷺ: «لن يدخل أحدَكم الجنة عملُه..».

فهذه كلها منزلقات في طريق العباد والسالكين إلى الله، وهي أهم ما يبعث مشاعر الخوف والاضطرار في أفئدة العارفين. ولذا فإن أكثر حالهم هو التضرع على أعتاب الله، والبكاء من خشية الله، والإلحاح في الدعاء بتثبيت الله لهم وبأن لا يكشف عنهم ستره وأن لا يكلهم إلى أنفسهم. وقد رووا أن سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني رؤي ملتصقاً بالملتزم من الكعبة يدعو الله قائلاً: «اللهم إن كان في قضائك أن لا تستر قبائحي عن الناس يوم القيامة، فاحشرني أعمى، كي لا أفتضح بين الخلائق الذين يحسنون الظن بي اليوم».

* * *

أما الصفة الثانية التي يذكرها ابن عطاء الله في هذه الحكمة للعارف، فهي ما تضمنه قوله «ولا يكون مع غير الله قراره».

قلنا إن من صفات العارف أن الأسباب تنمحي أمامه، من رؤيته دائماً للمسبب، وتغيب المشهودات الكونية عنه، في وهج من شهوده للمكون، وهو الله عز وجل.

فمع من يكون قراره إذن؟

ليس أمامه من يطمئن إليه، أو يأنس به، أو يعتمد عليه، أو يرجوه، أو يخاف منه، إلا الله الذي غابت الأسباب الكونية كلها عن ناظره وفكره، منطوية في شهوده عز وجل.

إذن فقراره، كيفما تحرك وأنّى توجه وفي أي الأحوال تقلب، إنما يكون مع الله.

ولكن ما المراد بالقرار؟ وكيف يكون قراره مع الله عز وجل؟

المراد بالقرار هنا، منتهى الآمال، والغاية القصوى من وراء الوسائل والأسباب، والنهاية التي تلقى عندها عصا التسيار.

إنه في حياة العارفين شيء واحد لا ثاني له ولا ذيول معه، إنه الله عز وجل.

إن قلت له: ما الذي تريده من هذه الحياة؟ أجابك: أريد ما يريده الله!.. وإن قلت له: ما الذي ينعشك ويسعدك من الدنيا؟ أجابك: رضا الله!.. وإن قلت له: ما النعيم الذي تطمح إليه يوم القيامة؟ أجابك: رؤية الله!.. وإن قلت له: ما الذي يخيفك من هذا الكون كله؟ أجابك: سخط الله!.. وإن قلت له: من هو محبوبك الذي يملك عليك قلبك؟ أجابك: محبوبي الله.

فذلك هو معنى القرار، وهذه هي كيفية قرار العارفين مع الله.

وهذا هو السرّ في أن العارف لا يشعر بوقع الضيم كيفما تقلب، ولا تنوشه البأساء مهما اتجهت سهامها نحوه. ذلك لأن مظاهر الأسباب انطوت أمامه، بل فنيت في أحكام الله ومراداته، فهو لا يستقبل من دنيا الأسباب والأحداث إلا ما يعبّر له عن إرادة الله وحكمه، وقد علمت أن مراده مطوي في مراد الله عز وجل.

بقي أنك قد تسأل: فما القصد من الحديث عن هـذه الطبقة العليا من عباد الله الربانيين، وذكر أحوالهم، وبيان أوصافهم، مع ما هو معلوم من أننا أعجز من أن نقتفي أثرهم ونلحق بهم؟

والجواب: أن الطريق الموصل إلى تلك الدرجة الباسقة، لايزال مفتوحاً وميسراً أمامنا جميعاً، مهما طال أو بعد مداه، ويرحم الله ابن الوردي إذ يقول في لاميته:

لا تقل قد ذهبت أيامه كل من سار على الدرب وصل

ثم إن المسلم لن يتنبّه إلى تقصيره في جنب الله وتفريطه في أداء حقوق الله عليه، إلا عندما يقف على مناقب هؤلاء الصالحين ويتبين أحوالهم، وعظيم جهادهم وجهودهم في سبيل مرضاة الله عز وجل. فعندئذ يعود إلى نفسه فيرى عظيم تقصيره وشدة تفريطه في القيام بما يجب عليه من حقوق لله عز وجل. ومن شأن ذلك أن يكون حافزاً له في تدارك تقصيره وإصلاح شأنه.

إن أحدنا إن لم يعش بفكره وذاكرته مع النخبة الممتازة من عباد الله عز وجل، كالصحابة وتابعيهم. ومن سار على نهجهم وبلغ شأوهم من هؤلاء العارفين، قد يخيل إليه أنه بلغ المدى الذي يجب أن ينتهي إليه في التزامه بأوامر الله وأداء حقوق عبوديته لله. وأكثرنا يعاني من بلاء هذا الغرور.

وإنما العلاج أن نقارن بين ما نحن عليه من الغفلات والانغماس في حمأة المنسيات والملهيات، وما كان عليه ذلك السلف الصالح من الغفلة بالله عن الدنيا، ومن الإعراض عن الملهيات والشهوات بمراقبة

الله وتلمّس مرضاته، هذا إلى جانب شيء آخر، هو من الأهمية بمكان. وهو أن الحديث عن شأن هذه النخبة من العلماء الربانيين الذين عاشوا مع الله، وسخروا دنياهم كلها لله، حتى صفت نفوسهم عن الشوائب، وغدت قلوبهم أوعية لذكر الله، حباً وخوفاً وتعظيماً، سبب من أهم أسباب محبتك لهم، وأغلب الظن أن حبك للصالحين سيلحقك بهم حتى وإن لم تكن منهم، وأن الله سيجعل منه شفيعاً لتقصيرك يوم القيامة. وهكذا فإن حب الصالحين من أقرب الطرق الموصلة إلى مرضاة الله، ولن يتحقق هذا الحب إلا بالإصغاء إلى تراجمهم والوقوف على مناقبهم، وأحوالهم وعزائم عباداتهم وعجيب انشغالهم بالله عن كل ما سواه.

وكم بين من يتقرب إلى الله بحبهم وتوقيرهم، وبين من يرضي غرور نفسه بنقدهم وانتقاصهم، من فرق كبير.

فابذل كل ما تملك من جهد أن تكون ممن أسعدهم الله بحبهم وتوقيرهم، وحاذر أن تكون ممن أشقاهم الله، إضافة إلى سوء حالهم، بنقدهم وانتقاصهم.

* * *

الحكمة الأولى بعد المئة

((أنار الظواهر بأنوار آثاره، وأنار السرائر بأنوار أوصافه، لأجل ذلك أفلت أنوار الظواهر، ولم تأفل أنوار القلوب ولذلك قيل:

إن شمس النهار تغرب بالليـــ ـل وشمس القلوب ليست تغيب))

المراد بآثاره جل جلاله، مخلوقاته التي تشع عليها أنواره، كالشمس والقمر، وأنواع الضياء التي يستضيء بها الناس.

وإنما سميت آثاراً له، لأنها دالة عليه، موجبة لوجوده، ورحم الله من قال:

وفي كل شيء له آية تدلّ على أنه واحد

أما أوصافه سبحانه وتعالى، فالمراد بها أوصاف كماله، وهي معروفة، كرحمته، وإحسانه، وحكمته، وجماله، وعلمه، وقدرته.

وقد سبق أن حدثتك عن النور ومعناه، والفرق بين النور والضياء، في الجزء الأول من هذا الكتاب، فعد إلى تفصيل ذلك إن شئت[1].

---

(١) انظر ما ذكرته مطولاً في شرح الحكمة الرابعة عشرة، في الصفحة ١٩٧ من الجزء الأول من هذا الكتاب.

غير أني أذكّرك هنا بما قلته لك من الفرق بين كلمتي النور والضياء. وهو أنك تقول عن الشيء منير إذا كان الضوء ينعكس إليه من جرم أو من جهة أخرى، وتقول عنه مضيء إذا كان الضوء ينبثق من داخله، فالغرفة مثلاً منيرة، والقمر منير، أما الشمس فمضيئة، كذلك النار والمصباح.

والمراد بالظواهر كل ما يبدو لك من المكوّنات التي تعيش فيما بينها وتتعامل معها، كالناس، والدور، والأسواق، والأمتعة ونحوها.. والمراد بالسرائر الأرواح والعقول والأفئدة، وما قد يستكن في النفوس من المشاعر والتوجهات والأحوال.

فما معنى هذه الحكمة إذن، بعد أن علمت المراد بالكلمات التي وردت فيها؟

معناها: أن الله أنار ظواهر الأكوار، بطائفة من الآثار التي عكس عليها شيئاً من نوره، كالشمس والقمر، والمصابيح التي تشع ، والنيران التي تضيء. فغمرت أنوار هذه الآثار، المكونات التي يعيش فيها الإنسان والتي كان الإنسان ولا يزال جزءاً منها، فانتظمت بذلك علاقة ما بين الإنسان وما يحتاج إليه من أشياء الكون، ودارت حركة التعاون في حياة الناس بعضهم مع بعض على نسق سليم.

ولما كانت هذه الآثار التي استنارت بنور الله عز وجل، مخلوقات كونية كغيرها، فقد كان محكوماً عليها بالفناء، كما هو شأن سائر المخلوقات، بل كان محكوماً عليها بالتحول والاضمحلال.

فالشمس تشرق على جزء من جنبات الأرض بنور ساطع آت من قبل الله عز وجل، إلى حين، ثم ما تلبث أن تغيب عن ذلك الجزء، وإذا هو مغمور في الظلام، كذلك القول بالنسبة للأجزاء الأخرى التي تصل أشعتها إليها، ما تلبث أن تغيب وتتقلص عنها. كذلك القمر الذي يسطع بنوره متزايداً ثم ما يلبث أن يقل ويدق، إلى أن يخبو ويعود ظلاماً، كذلكم وقود النار تتقد ثم تنطفئ.

فأنوار الظواهر تأفل وتغيب، بزوال أو انمحاق ما انعكست عليه؛ وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أن الظواهر الكونية كلها مطبوعة بطابع الزوال والفناء. فالوقوف عندها، والتعلق بها، والاعتماد عليها، من الوهم الذي يجب على العاقل أن يحذر من الاغترار به.

وفي هذا الكلام تذكير واضح بضرورة التأسي بموقف أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام، إذ تجاوز الأجرام الكونية التي علم أنها آيلة إلى الأفول والزوال، دون أن يغتر بالأنوار الساطعة عليها.

والقانون العلمي الذي يجب أن يعتمد في هذا، هو أن كلاً من التحول والتغيّر من مستلزمات الحدوث، والحادث يستلزم الفناء لا محالة، فما من شيء ثبت حدوثه، أي ثبت وجوده بعد أن كان معدوماً، إلا ومآله إلى الزوال والفناء، والمعبود بالحق أبعد ما يكون عن صفة الزوال أو الفناء.

أما الأنوار التي قد تكون ساطعة عليها، فقد علمت أنها ليست منبثقة منها، وإنما أشرقت عليها من لدن من هي صادرة منه، ألا وهو الله عز وجل.

فهذا هو معنى الجزء الأول من الحكمة.

أما الجزء الثاني منها، فيتلخص معناه في أن الله عز وجل، جعل الأرواح والأفئدة والعقول مهبطاً لتجليات رحمته وإكرامه وإنعامه وحبه، فإذا استنارت العقول بالهداية والرشد، فبنور من تلك التجليات الإلهية تستنير، وإذا استنارت الأفئدة بالخشية والحب لله عز وجل فبنور من تلك التجليات أيضاً تستنير، وإذا اتقدت الأرواح بلظى الحنين إلى الله عز وجل، فبنور من تلك التجليات أيضاً تتشوق وتحنّ.

والأرواح، كما قد علمت، باقية، وإدراكات العقل، وعواطف القلب، ليست شيئاً أكثر من الأرواح ذاتها.

فالروح التي هي سر من أسرار الله عز وجل، إذ تسري في خلايا الجسم يتكون فيه الإحساس، وإذ تشرق على الدماغ وحجيراته يتكون فيه الإدراك، وإذ تشرق على عضلة القلب يتكون فيه الوجدان، أي العواطف الدافعة والرادعة والممجدة. وإنما يتم هذا الإشراق بنور رباني أشرق على هذه الأسرار المتمثلة في إدراكات العقل وعواطف القلب، بل أشرق على سرّ هذه الأسرار ألا وهو الروح.

ونظراً إلى أن مصدر هذا النور إنما هو صفات الله عز وجل، كالحب والرحمة والإنعام والإكرام، وهي صفات باقية لا زوال لها، وليس مصدرها الآثار المخلوقة كالشمس والقمر ونحوهما، فقد كان الشأن فيما انعكس منها إلى الأرواح، ومن ثم إلى الأفئدة والعقول، أن تظلّ باقية وأن لا يلحقها أفول ولا ذبول..

هذا إلى أن ما يشرق عليه هذا النور، وهو الأرواح، ومن ثم الأفئدة والعقول، هي الأخرى باقية، وليست معرضة للزوال، كما قد أوضحت لك، من قبل. وقد علمت أن إدراكات العقول، وعواطف الأفئدة ليست أكثر من وظائف تؤديها الروح في كيان الإنسان.

*   *   *

ولكن، فما المعنى الذي يرمي إليه ابن عطاء الله من هذا الكلام؟

إنه يقول لك: تمتع بما تراه عيناك وتشعر به حواسك من أنوار الظواهر الكونية، على أن لا تركن إليها ركون المخلد، بل استفد منها استفادة من يتجاوزها إلى غايته ومبتغاه.

لقد غمر الله المكونات التي سخرها لك بنور من نوره، كي ترى فيه أسباب نعيمك ورغد عيشك، وكي يتسنى لك القيام بما أمرك به إذ قال: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١/١١] وإذ قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥/٧٦].

ولكن احذر أن تقبل إلى هذا الذي سخره الله لك إقبال المتعلق به والمتهافت عليه. فإن ذلك كله منتهٍ إلى فناء وزوال، وستتقلص عندئذ هذه الأنوار التي كانت تغمره، وتغيب محتجبة عنك، فإنها ما هبطت منعكسة إليه من علياء الربوبية إلا ليمتعك الله به إلى حين.

ولكن أقبل إلى كل هذا الذي سخره الله لك إقبال المستخدم ومارسه ممارسة الصانع الماهر لأدوات صنعته. ووجه همك كله إلى

إصلاح سرك وبناء كيانك الداخلي، فهو الذي سيظل رفيق رحلتك إلى النهاية، بل إلى حيث الخلود.

وقد علمت أن سرّك هو روحك التي تبث في جسمك الإحساس، وتبث في دماغك الوعي والإدراك، وتبث في قلبك الوجدان.

وغداً عندما يتفتت الجسم ويذوي في طوايا التراب، يبقى سرّك هذا بكل ما قد انطوى عليه من مدركات ومعتقدات، ومن عواطف المحبة والمهابة والتعظيم، ممثّلاً لذاتك مظهراً لكيانك طوال الحياة البرزخية التي تفصل ما بين حياتك الدنيا هذه، والحياة الآخرة التي أنت مقبل ومنته إليها.

فعرِّض إذن سرّك، اليوم، لأنوار من نفحات الصفات الربانية، عرِّضْه لرحمة الله، ولإحسانه، وللطفه، ولعفوه، وإنعامه. فإن هذا السرّ لن يؤول إلى زوال كما هو شأن المخلوقات الظاهرة التي لابدّ أن يكون مآلها إلى ذبول فانمحاق.

ولكن دعني ألفت نظرك إلى ما هو معروف عند العلماء الربانيين الذين دأبهم رعاية الباطن بعد الظاهر، والاهتمام بالتخلص مما سماه الله باطن الإثم.

إنهم يتحدثون، في هذا المجال، عما يسمونه السرّ، وسرّ السر.

أما السرّ فهو القلب، لا من حيث هو عضلة مادية يعرفها الأطباء، ويدرسون وظائفها وأحوالها، بل من حيث هو مكمن ووعاء لأنواع الوجدان، وكذلكم العقل والإدراك.

وأما سرّ السر فهو الروح التي تبث في القلب وظائفه الوجدانية، وتبث في الدماغ وظائفه الفكرية، وفي خلايا الجسد ونسيجه وظائفه المتمثلة في الشعور والإحساس.

وإنما قيل عن العقل والقلب سر، وعن الروح سرّ السر، لأن كلاً من العقل والقلب على الرغم من خفاء حقيقته، عرضة لاطلاع الإنسان عليه بشكل أو بقدرٍ مّا في حالات نادرة وبشروط خاصة، أما الروح التي هي معين أسرار العقل والقلب، فلا مطمع لأحد في معرفتها أو في أيّ من دخائلها وشأنها. وصدق الله القائل: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ١٧/٨٥][١].

ولكن كيف يتم تعريض الروح لأنوار الصفات الإلهية؟

يتم ذلك بأن توجه وظيفتها المتمثلة في بث الوعي والإدراك في الدماغ، إلى معرفة مالك هذه الروح، وإدراك وحدانيته، وما يتصف به من صفات الكمال، وأنه قيوم السماوات والأرض، والمالك لكل شيء والمتصرف بكل شيء، وبأن توجه وظيفتها المتمثلة في بث العواطف في القلب، إلى محبة الله دون غيره، وإلى تعظيمه هو دون سواه.

وسبيل الوصول إلى معرفة الله، إعمال العقل والفكر، أما سبيل محبته وتعظيمه فالإكثار من ذكره، وقد حدثتك في الجزء الثاني مطولاً عن الطريقة المثلى لذكر الله وعن آدابه[٢].

---

(١) انظر ما قاله الإمام القشيري عن ((السرّ)) ومعناه وما يتعلق به، في رسالته المعروفة

(٢) ارجع إلى الصفحة ١٩٦ من الجزء الثاني من هذا الكتاب، وما بعدها.

واعلم أن الروح الإنسانية ليست منفكة عن أنوار الصفات الربانيـة، كيف لا، وهي منسوبة إلى اللـه، وهابطـة مـن لدنـه إلى الجسـد الـذي أسكنت فيه، ولكنها حجبت عن أنوار تلك الصفات، من جراء تراكم الآثام، وتزايد الغفلات، وامتداد غاشية الشهوات والأهواء على النفـس التي تشكل حاجزاً بين الروح وتجليات الصفات الربانية.

ودور الإكثار من مراقبة الله وذكره، أن ينبـه الإنسـان إلى عبوديتـه ومملوكيته لله عز وجل، فيوقظه ذلك مـن غفلاتـه، ويبعـث في شعوره كراهية ما قد تلبس به من الآثام، والندامة والألم من ذلك. ولا بـدّ أن يقوده ذلك إلى كثرة التضرع والدعاء والتذلل والرجاء، فتنقشع عندئـذ تلك السحب الداكنة التي كانت تحجـب الـروح عـن بارئهـا، وتحـول دون وصول أنوار الرحمة والحب والإحسان إليها.

وعندئـذ تستنير السـرائر، أي القلـب، والعقـل، والـروح، بـأنوار الرحمات والألطاف والنعم الإلهية، ويتوج ذلـك بـالحب، حـب الـرب لعبده، دون أن يعقبه أي ذبول أو أفول.

ومن نتائج ذلك، أن القلـب يصبـح مـرآة لا يتجلـى عليهـا إلا نـور المحبة الإلهية، وعندئـذ يتحقـق فيـه معنـى قولـه عـز وجـل: ﴿يُحِبُّهُـمْ وَيُحِبُّونَـهُ﴾ [المائدة: ٥/٥٤] وأن العقـل لا يـرى فيمـا يتأملـه مـن سـطور الكون، إلا مظاهر تدبير الكون ودلائل وحدانيته وقيوميته[١].

(١) عد إن شئت إلى ما ذكرته في شرح الحكمة السادسة عشرة، الصفحة ٢٢١ من الجزء الأول من هـذا الكتاب، لتقف على مزيد من شرح هذه الحكمة.

فهذه هي أنوار الله المتجهة من خلال صفاته إلى السرائر، وهي باقية دائمة.

وتلك هي أنوار الله أيضاً المتجهة من آثاره ومخلوقاته الظاهرة، لتنير جنبات الكون إلى حين، وهي آفلة زائلة.

* * *

الحكمة الثانية بعد المئة

((ليخفف ألم البلاء عنك، علمك بأنه سبحانه هو المبلي لك. فالذي واجهتك منه الأقدار، هو الذي عودك حسن الاختيار))

ليس فيما يعزي به المسلم نفسه، تجاه المصائب التي قد يبتلى بها، عزاء أفضل وأقوى من الثقة بحكمة الله ورحمته.

ولا تعظم المصيبة في نفس المبتَلَى بها، إلا لأحد سببين: أحدهما جحوده بوجود الله الذي بيده كل شيء. ثانيهما غياب ثقته بحكمة الله ورحمته ولطفه، ولا شأن لنا في شرح هذه الحكمة بمن كان يتطوح في تيه من الجحود بالله، إذن فلنقف عند السبب الثاني، وهو غياب الثقة بحكمة الله ورحمته من نفس الشخص المبتلى بالمصائب.

فكيف السبيل إلى إيجاد هذه الثقة، وغرسها في طوايا النفس؟

إن المفروض في المؤمن بالله إيماناً حقيقياً، أن تأتي ثقته بحكمة الله ورحمته، تابعة بل مستلزمة لإيمانه. إذ لايتأتى للمؤمن أن يجمع في يقينه بين إيمانه الصادق بالله، والشك في حكمته وبالغ رحمته.

ولكن هذه الثقة قد تتعرض للذبول أو النقصان، من جراء ضعف الإيمان، والإيمان يقوى ويضعف، كما هو معلوم في بحوث العقيدة،

وقد تتعرض لذلك، من جراء رعونات النفس، وتعلقها الشديد بأهوائها ومبتغياتها، وقد قالوا: إن صاحب الحاجة أرعن، لا يروم إلا قضاءها، أي لا يرى أمامه إلا مبررات تحقيقها. إذ هو يقبل إليها بدافع من تعلقه النفسي بها، ولا يتأمل فيها بدافع من مساءلة عقله عنها.

وإنما العلاج في هذه الحالة أن يعود إلى إيمانه بالله فيغذي جذوره بمزيد من الطاعات والعبادات، ثم يتأمل في تدبير الله وأوامره التكوينية وكيف تدور كلها على رعاية مصالح الإنسان، وخدمة شؤونه، ويتأمل في بنيانه الجسمي من الفرق إلى القدم، وكيف يحرك الله وينظم دخائل أجهزته الكثيرة المعقدة كلها، على النحو الذي يحقق له حياة آمنة، وعافية تامة، وقدرة كاملة على النهوض بسائر وظائفه العضوية، وممارسة رغائبه ومتعه الجسدية.

ولنشرح هذه الحقيقة بشيء من التفصيل:

أوامر الله التكوينية، هي النظام الكوني الذي أفرغ الله مخلوقاته جميعاً فيه، بالخلق والإبداع أولاً، وبما أقامها الله فيه من الوظائف والمهام ثانياً. وقد جاء التعبير عنها بأبلغ بيان، فيما قاله الله على لسان سيدنا موسى لفرعون، وقد سأله هذا الثاني عن أخص وأبرز صفات ربه: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٢٠/٥٠].

فانظر إلى هذه المكونات التي من حولك، بدءاً من الكواكب والأفلاك وحركتها ودورانها، إلى الرياح السارية في جوّ السماء، وما تفعله من إثارة السحب وبسطها وتكثيفها ونقلها إلى حيث ينبغي أن تنقل إليه، لتبعث في الأرض أسباب الرزق، ولتحقق شروط استمرارية

الحياة للإنسان!... إلى الأرض وشكلها وصفاتها، وما قد أودع في داخلها من ذخر، وما يتفجر في ظاهرها من رزق وخير، وما تتميز به من قوة تجذب إليها من فوقها في حنوّ ورفق!.. إلى الدورة الدائرية الدائمة للمياه، إذ تبدأ فتهطل من السماء، ثم تجري أنهاراً في جنبات الأرض، ثم تسلك سبيلها خلال عروق طاهرة مطهرة إلى تجاويف الأرض، ثم تعود لتتفجر ينابيع ثرة بين الصخور الشمّ، وفي سفوح الجبال، وبين متناول الناس!.. إلى الزهور والورود والنباتات والأشجار التي يفيض بها وجه الأرض، فتكون متعة للأبصار، ورائحة زكية عبقة للأنوف، وطعاماً لذيذاً ممتعاً للأفواه، وعافية سارية في الأبدان، ومتاعاً ورزقاً للأنعام!.. إلى أنواع الدواب والأنعام التي ذلت وخضعت لخدمة الإنسان، فاستعملت قوتها، التي قد تعلو في بعضها على قوة السباع، في خدمته والسعي لمصالحه، بدلاً من أن تستعملها في الكيد له والقضاء عليه!..

إلى الزمن الذي قسمت وحدته الشاملة التي لا حدود لها، بفعل تناسق ما بين الشمس والقمر والأرض من نظام مستتبّ دائب، إلى سنوات، فأشهر، فليل ونهار، ليعلم الإنسان حساب الزمن الذي يمرّ به، ولا يقع منه في يمّ متلاطم وتيه لا حدود ولا جوانب له.. إلى أنواع الأطعمة والفواكه الموسمية التي تصنّع في مصنع هذا النظام الكوني، ثم يقدّم كل منها إلى الإنسان في فصله المناسب لحاجة جسمه وتطلّع نفسه!.. إلى آخر ما لا يحصى من مظاهر خدمة هذه المكونات للإنسان، والتطواف الدائب حوله بالرعاية والحماية وتحقيق كل ما يعرفه وما لا يعرفه من مقوّمات عيشه الآمن الرغيد.

فمن هو ذاك الذي أدار الكون كله على هذه الرعاية الدائبة العجيبة لهذا المخلوق الذي هو الإنسان؟.. هل يساورك الشك في أنه الله الذي هو لا غيره مالك هذا الكون كله؟.. ألم تقرأ سورة النحل من القرآن مرّة؟.. ألم تقرأ آيات التسخير.. تسخير الله أصناف المكونات لخدمة الإنسان ورعاية مصالحه؟ .

إله يرعاك هذه الرعاية ويسخر لك جنده من أصناف المكونات لرعاية حياتك وتحقيق مصالحك، ولضمانة رغد عيشك، أيساورك شك إذن، في أنه لطيف بك محسن إليك، بل محب وودود لك، وفي أنه لايريد بك إلاّ خيراً، ولا يسيّرك إلاّ في الطريق الذي يسعدك ويرضيك؟

فإن أردت المزيد من الأدلة الناطقة بكل ذلك، فعد إلى طبيب متخصص في التشريح، وسله عن الألطاف الإلهية العجيبة السارية في كيانك، من فرقك إلى قدمك، سله عن نعمة الإبصار وكيف سخر الله لها جنداً من الأجهزة والأنظمة والأوردة والأنسجة الدقيقة ما بين فتحة عينيك ومؤخرة دماغك!.. سله عن الطبلة الصماخية ووظيفتها والمكان الذي حصنها الله فيه والحماية التي أحاطها بها، ونسق ما بينها وبين أعصابك السارية في كيانك!.. سله عن لسانك ووظيفة الذبذبات المنبسطة على سطحه والأوردة السارية منها إلى مكمن الإحساس من دماغك، وأماكن البريد فيه والمتخصص كل منها لطَعْم، تنقله في غير خلط ولا تمازج إلى محطات الشعور من كيانك!.. سله عن لطف الله بك في عملية المضغ والابتلاع، سله عن عظيم رحمة الله

بك وحمايته لك فيما ينهض بـه جهـاز الهضـم مـن الوظـائف العجيبـة الدائبة، لتحويل الأطعمة التي تتناولها إلى عافيـة في الجسـم ونضـارة في الوجه وقوة في الأعضاء، سله عن القلب والوظيفة القدسية التـي أقامـه الله عليهـا في تسـيير الـدورة الدمويـة وكيـف يضـخّ في كـل يـوم مـن حياتك حوالي ٧٠٠٠ ليـتر مـن الـدم ليجـول في عروقـه السـارية مـن بدنك، وهي حصيلة الألتار الثلاثة التي تتمتع بهـا في جسـدك، ولكـن القلب يضخها، ثـم يعـاود ضخهـا مـن جديـد، ويكـرر هـذه الوظيفـة ٢٥٠٠ في كل يوم، لتتمتع من حيث لا تدري بمقومات حياتك الآمنة على خير وجه!.. سله عن دماغك حيث النقطة المركزيـة التـي تحـوي قيادة الجسم في كـل مـا ينهـض بـه مـن تحركـات، ووظـائف عضويـة متنوعـة. واعلـم أنـك لـو أردت أن تواصـل السـؤال، وأراد الطبيـب المتخصص أن يواصل الجواب، وأتيح له أن يعلـم علمـاً في كـل ذلـك، لأنفقت معه ولأنفق معك السنوات، وهو يحدثك عن مظـاهر إحسـان الله إليك ولطفه بك، في تركيبة جسمك ودخائل أجهزتك.

فإن أعوزك بعد هذا كله أن تعلم المزيـد مـن الدلائـل البـاهرة علـى عظيم رحمة الله لك وحفاوته بك، فتأمل في الرحمة التي أودعها الله في قلب أمك ثم في قلب أبيك لك!.. ولعلك تعلم أن الله أودع في قلـب أمك من الحنو عليك والرحمة بك، ما يحملها علـى أن تضحـي بحياتهـا في سبيلك[1] فهل تشـك في أن هـذه الرحمـة التـي ترعـاك بهـا وتسـهر عليك بدافع منها، إنما هي رحمة الله، أودعها هو (إن جـاز التعبـير) في

(١) يجمع علماء التربية وعلم النفس على أن عاطفـة الأمومـة أقـوى لـدى الأم، مـن عاطفـة الإبقـاء على الذات.

فؤادها لك؟ ألا تعلم أن الرحمات التي يتراحم بها الناس، بل البهائم أيضاً، إنما هي جزء من عظيم رحمة الله بهم؟

* * *

والآن، أفلا تغرس هذه الحقائق التي لم أذكر لك إلا نماذج منها، في نفسك الثقة التامة بمولاك هذا؟.. الثقة التامة بأنه لا يريد بعباده إلا خيراً، ولا يقضي إلا بما يعود إليهم بسعادة العاجلة والآخرة؟

ثم أليس من شأن هذه الثقة، أن تملأ فؤادك حباً لمولاك الذي هذا نموذج صغير من رحمته بك وحبه لك، وإحسانه إليك؟..

إن هذه الحقيقة التي ذكرتك بها، من شأنها أن تملأ كيانك ثقة برحمة الله ولطفه، ومن شأن هذه الثقة أن تزيدك حباً له عز وجل.

فإذا واجهتك منه أقدار ابتلاء بمصيبة، كمرض بعد عافية، أو فقر بعد غنى، أو اضطراب بعد أمن، أو نحو ذلك، فلن تشك في أنها، وإن بدت أنها مصائب في الظاهر، إلا أنها نعم في حقيقة الأمر وباطنه. لأنك تعلم أن إلهك الذي غمرك بالنعم التي لا تحصى وسخر لك أرضه وسماءه وكواكبه، لن تواجهك أقداره إلا بما يصلح شأنك، فإما أن يكون غذاء يمتعك، أو دواء يطببك.

ولو أطلعك الله على غيبه لأدركت هذه الحقيقة، ولكنه قضى لحكمة باهرة أن يخفي عنك ما لا يدخل في شأنك ولا يتعلق بمهامّك ووظائفك، ونبّهك إلى هذا إذ قال: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ

خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/٢١٦].

ورب قضاء واجهتك منه مصيبة فيما بدا لك، في أول الأمر، ثم إن العاقبة أطلعتك منه على نعمة اغتبطت بها وحمدت الله عليها.

ولست أعلم في المصائب مصيبة أكبر جسامة من مصيبة الموت. ولكنك إن تأملت في حقيقته وعاقبته ومدى ضرورته، علمت أنه نعمة خفية مقنعة بمظهر المصيبة، وإنما سماه الله في محكم تبيانه مصيبة مجاراة لمشاعرنا، ومسايرة لمقتضى كراهيتنا له. أليس هو الجسر الذي لابدّ منه إلى رغد من العيش لا حدّ ولا نهاية له؟.. أليس هو المنفذ إلى لقاء الله الذي يفترض أن يكون قد طال اشتياقك إليه، بعد طول مناجاتك له وتضرعك على أعتابه من وراء حجاب، وهل من ريب في أن هذا المنفذ أو الجسر الذي لا بدّ منه للوصول إلى هذه السعادة نعمة وأي نعمة، وإن جاءت مخبوءة بستار المنغصات والآلام؟

ولست أتحدث هنا عمن أعرض عن الله وعلاقته به، واتخذ من هواه إلهاً له، فأفرغ بذلك في وعاء الموت معنى المصيبة وحقيقتها. فإنما هو الذي جعل من النعمة نقمة وحول الموت إلى كارثة الكوارث في حق نفسه.

وإنما أتحدث عمن آمن بالله ووضع عبوديته له في حياته السلوكية موضع التنفيذ..

فإذا كان الموت الذي هو أكبر المصائب، فيما نراه مصيبة، نعمة في واقعه الحقيقي، فإن ما دونه من الابتلاءات التي نحسبها مصائب أولى بأن نعلم وجه النعمة فيها، وإن كانت خفية، ممزوجة بآلام ومنغصات.

* * *

أما الآن، فألفت نظرك إلى وجه الدقة في كلام ابن عطاء الله، إذ قال: ليخفف ألم البلاء عنك.. ولم يقل: ليزيلَ أو ليمحوَ ألم البلاء عنك.

إن كل هذا الذي تم بيانه الآن، لايتعارض مع ما يشعر به الجسم بل النفس أيضاً من الألم عند نزول البلاء أو المصيبة.

إن الإنسان مهما وثق بأن كل ما يفد إليه من عند الله متفق مع الحكمة، يحمل إليه عاقبة الخير والرشد، ومهما تفاعل شعوره ويقينه بأن كل ما يأتي من المحبوب محبوب، فإن الجسد لا بدّ أن يظل خاضعاً لقوانينه، يتألم مما يؤلم، ويلتذ بما هو ممتع، كذلكم النفس تضيق بالكرب وأسبابه، وتنتعش بالمبهجات وأسبابها.

إذن فلا مطمع لغياب الألم عن الجسد، مما اقتضت سنة الله أن يتألم منه، مهما تحقق الرضا عن الله به، ومهما توافرت الثقة في النفس بحكمة الله ورحمته في كل ما يقضي به.

ولكنَّ لكل ذلك دوراً كبيراً في تخفيف الألم، وتيسير سبيل الصبر عليه، إذ ثمة فرق كبير بين حال من يعاني من ألم لا يعلم له مصدراً ولا سبباً، وحال من يعاني من ألم يعلم أنه نتيجة عمل جراحي عاقبته

العافية والشفاء، بل إنك لترى هذا الثاني، يتأوه من ألمه ويشكر في الوقت ذاته طبيبه الذي تسبب له بذلك الألم.

وقد جاء تعبير البيان الإلهي دقيقاً في الدلالة على هذا المعنى، وذلك في قوله عز وجل لرسوله: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٥٢/٤٨] إن قوله عز وجل: ﴿...فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا﴾ قرار قطعي جازم بأن الله لايريد برسوله إلا خيراً، وبأنه سيحميه من كل سوء، وهذا يعني أن كل ما يواجهه من قضاء الله فهو له نعمة وخير. ولكنه مع ذلك أمره بالصبر فقال: ﴿..وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ..﴾ كأنه يقول له: ربما جاءتك النعمة مقنعة بشيء من الشدة والابتلاء، فلاتضيقن ذرعاً بها، بل اصبر، وليخفف من ألمها عليك ما ينبغي أن تعلمه من أنها خير لك، لأنك بأعيننا، أي مكلوء بحمايتنا.

وكم هو جميل ودقيق قول العالم الجليل الشيخ أحمد زروق، في شرحه لهذه الحكمة: ((كما عودك الله على ما تحبّ، فاصبر له على ما يحب))[١].

* * *

(١) انظر شرح سيدي الشيخ أحمد زروق لحكم ابن عطاء الله، ص٢٠٤ بتحقيق الدكتور عبد الحليم محمود، والدكتور محمود بن الشريف.

الحكمة الثالثة بعد المئة

((من ظن انفكاك لطفه عن قدره، فذلك لقصور نظره))

قال الإمام الغزالي: اللطيف هو ذاك الذي يعلم دقائق المصالح وغوامضها، ثم يسلك في إيصالها إلى المستصلح سبيل الرفق دون العنف. فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللطف في الإدراك، تمّ معنى اللطف، ولا يتصور كمال ذلك في العلم والفعل إلا لله سبحانه وتعالى[1].

أقول: إن غموض المصالح ودقتها، قد تقتضي السير بها إلى صاحبها في طريق ظاهره الشدة والابتلاء. فإيقاظ الغافل مثلاً إلى ضرورة أخذ الحذر من لصٍّ يتربص به أو عدوّ يتعقبه، قد يستلزم زجّه في بعض الأخطار التي من شأنها أن تنفض عنه غفلته وتدفعه إلى مراقبة ما حوله.

ووجه اللطف في معاملة هذا الغافل، أن هذه الطريقة في حمايته خفية ليست مكشوفة، بل هي أشبه بالإيذاء منها بالحماية والرفق.

---

(١) بهذا عرّف الإمام الغزالي اللطيف واللطف. انظر كتابه (المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى).

ونظراً إلى أن العبرة في الأمر بالعاقبة، لا بظاهره وما يبدو منه، فإن الرعاية إذن، كلما دقّ إلى الإنسان سبيلها وخفي مظهرها، تكون أقعد في معنى اللطف به.

وهذه الرعاية التي تدقّ بل تخفى من حيث الصورة والمظهر، وتتحقق جليلة من حيث الواقع والنتيجة، من أبرز صفات الله عز وجل، التي يعامل بمقتضاها عباده، انظر إلى قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩/٤٢].

فإذا تبين لك معنى اللطف والدقة التي يتميز بها، فاعلم أن اللطف هو المراد وهو الأصل في أقدار الله عز وجل التي قد تتمثل بأنواع من الشدائد والابتلاءات، أي إن الشدائد التي قد يبتلي الله بها عباده، خدم وأدوات لألطافه، وليست هي المرادة لذاتها[١].

فما يتبلى الله عبده بفقر بعد غنى، أو بمرض بعد عافية، أو بشدة بعد رخاء، إلاّ لأن في ذلك علاجاً لآفة انتابته أو لسوء حلّ به.

وما يفاجأ العبد بخلاف ما كان قد تأمله وتعلق به، من مشروع تجاري، أو هدف دراسي، أو عمل صناعي، أو رغبة في زواج، إلا لأن الخير الذي تأمله، غير موجود في شيء من تلك الرغائب التي كان يبتغيها، وإنما هو موجود بذاته أو أفضل منه في البديل الذي اختاره الله له.

ولا شك أن المظهر يحمل إلى صاحبه معنى من معاني الشدة، لعدم اطلاعه على الغيب، ولتخيله الأمر على خلاف حقيقته، ولكن هذا

---

(١) انظر ما قاله الشاطبي في هذا مطولاً، في كتابه الموافقات

المظهر خادع لا عبرة به، وإنما العبرة بالنتائج والثمرات، والنتائج تحمل لصاحبها ما كان يتأمله، أو فوق الذي كان يتأمله، وهذا هو اللطف من الله بعينه.

* * *

بقي أن كلاً منا، من شأنه أن يبحث عن وسيلة يخفف بها عن نفسه وقع المفاجآت التي تأتي على خلاف مراده، والآلام التي تضيق بها النفس عادة، ويستقبل منها الإنسان معنى المصيبة والابتلاء، دون أن يتبيّن فيها حقيقة اللطف الذي ذكرناه.

وهذا ما يعالجه ابن عطاء الله رحمه الله تعالى، في هذه الحكمة والتي قبلها.

إن العلاج هو الثقة بحكمة الله ورحمته ولطفه، وقد حدثتك عن مصدر الثقة والسبيل إليها في شرح الحكمة السابقة، فلا داعي إلى التكرار.

وأضيف هنا إلى ذلك علاجاً آخر، هو التجارب التي يمرّ بها الإنسان. فلو أن أحدنا تأمل في عاقبة الابتلاءات التي تمرّ به، وفي عاقبة المفاجآت التي جاءت على خلاف هواه، لحمد الله عليها مرتين: مرة على نتائجها الخيرّة المفيدة التي جاءت لصالحه، ومرة على أن صرف الله عنه الآمال المزيفة التي كان متعلقاً بها، ولم يتحمل منها إصراً على خلاف ما كان يظن.

وهذا ما نبه إليه ابن عطاء الله في حكمته هذه، بقوله: «...فذلك لقصور نظره».

أي فحتى لو لم تكن ممن يتمتع بإيمان غيبي بحكمة الله ولطفه ورحمته، فإن النتائج التي عودّك الله على رؤيتها من شأنها أن تلفت نظرك، إلى أن مظاهر الأشياء ليست دائماً هي العنوان الدالّ على حقيقتها.

فمن ظل يتعامل مع ظواهر الأشياء، وبوارقها الشكلية، دون أن يتجاوزها إلى العمق والنتائج، فإنما هو ذو نظر قاصر.

*   *   *

ثم إن هذا الذي يقرره ابن عطاء الله، من عدم انفكاك ألطاف الله عن أقداره على اختلافها، إنما هو في حق من عدا المستكبرين والجاحدين من عباده. إذ الحديث في هذه الحِكَم كلها، موجه إلى المؤمنين بالله والذين عافاهم الله من آفة الاستكبار والجحود.

فأما هذا الفريق الثاني، فقد قضت سنة الله فيهم أن يعاملوا بنقيض هذا الذي يقوله ابن عطاء الله، ييسر الله لهم السبيل المعبدة إلى رغائبهم كما يشتهون، ويحقق لهم أحلامهم كما يرغبون، ولكنها ترتدّ إليهم أخيراً بعاقبة مؤلمة، بل مفجعة.

وكتاب الله تعالى يفيض بالآيات التي تعلن عن هذه السنة الربانية، ألا ترى إلى قوله عز وجل: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ ، وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٨٦/٤٤-٤٥] وقوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ١٥/٣].

وإنك لتلاحظ هذه السنة الإلهية بتفصيل أكثر وبيان أشمل في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنّاهُمْ فِي الأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنا السَّماءَ عَلَيْهِمْ مِدْراراً وَجَعَلْنا الأَنْهارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْناهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦/٦].

فإذا علمت، من كل هذا الذي تم بيانه، كيف يعامل مولى العباد عباده في هذه الحياة الدنيا، فلا تأمن مكره إن رأيت النعم تترى متسابقة إليك، وتوجس خيفة من العواقب التي لا علم لك بها؛ ولاتسئ الظن به إن رأيت ابتلاءات أو شدائد تتناوشك أو تطوف بك، واجزم بأنها ألطاف إلهية سيقت إليك مساق العلاج يوضع على الداء.

فإن أنت استقمت في تعاملك مع الله على هذا النهج، فاعلم أنك قد تبصرت الطريق الذي يرقى بك إلى سدّة العباد الربانيين، الذين يعيشون في نعمة ويتقلبون في نعمة، ويرحلون عن الدنيا إلى الله في نعمة..

أجل.. إذن لقد أبصرت، فالزم.

* * *

الحكمة الرابعة بعد المئة

((لا يُخاف عليك أن تلتبس الطرق عليك، وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك))

المراد بالطرق السبل الموصلة إلى مرضاة الله عز وجل.

وهي في أصلها سبيل واحد، لا ثاني له، كما قال الله عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣/٦].

ولكن المراد هنا الطرق الفرعية المتنوعة، والتي عبر عنها ابن عطاء الله في حكمة سبق شرحها، وهي قوله: ((تنوعت أجناس الأعمال، بقدر تنوع واردات الأحوال)).

وقد ذكرت لك نماذج من الأعمال المتنوعة الموصلة إلى الله، على اختلافها إن صفت النية وخلص القصد لله. وأوضحت لك أن على من نظر، فوجد أن الله أقامه في عمل معين منها، فما عليه (بعد القيام بالواجبات الأساسية العامة) إلا أن ينصرف إلى عمله ذاك بالإخلاص له والإتقان فيه. قد يكون ذلك العمل زراعة، وقد يكون تجارة، وقد يكون أجيراً في معمل، وقد يكون طبابة، أو نحو ذلك.

فإذا تبين المعنى المراد بالطرق، فلنتساءل عن المعنى الذي يقصد إليه ابن عطاء الله بقوله: ((لا يُخاف عليك أن تلتبس الطرق عليك)).

يطمئنك ابن عطاء الله، بما ينبهك إليه من أن سبب التباس طرق الخير بغيرها، إنما هو الجهل، على أن خطر الجهل مرفوع، إذ قد جعل الله من الجهل عذراً لصاحبه، يرفع عنه خطر العقاب، فإذا تورط المسلم في محظور، بسبب جهالة كان يعاني منها، فإن إثم ذلك التورط مرفوع عنه، وهو ما عبر عنه رسول الله ﷺ بالخطأ، في قوله: ((رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه))[1].

والمفروض أن الطرق المتنوعة التي ذكرها ابن عطاء الله في حكمته السابقة، التي أشرت إليها وذكّرتك بها، كلها مشروعة ومقبولة إن توفر الإخلاص لله في التوجه إليها، أي فحتى لو لم يملك معرفة بالدليل الشرعي الذي يختار واحداً منها على أساسه، فإن اجتهاده في اختيار ما يرى أنه الخير منها مقبول.

ويسري هذا الذي يقوله ابن عطاء الله، على اللبس الذي قد يقع فيه بعض الناس لسبب ما، في بحثهم عن الحق وسعيهم إلى التعرف عليه، فقد يتنكبون عنه وهم يتطلعون إليه. ويقعون في الباطل وهم يحسبون أنهم قد اهتدوا إلى الحق. وينطبق ذلك على حال الذين يعتنقون عقائد وأدياناً باطلة، عندما يقعون في تيه من الأوهام والتصورات، ولا يجدون من ينجدهم للتبصير بما هو الحق منها، ويحذرهم من الأوهام الباطلة التي تُعرض عليهم مكسوة بكسوة الحق.

(١) رواه بهذا اللفظ الطبراني في الكبير عن ثوبان، وسنده صحيح.

ومهما قلنا إن احتمال عدم وجود دليل يرشد إلى الحق، من كتب منشورة ورجال يُعرفون بالحق ويدعون إليه، وأجهزة إعلام مرئية ومسموعة، بعيد جداً في هذا العصر؛ فإنه على كل حال احتمال ممكن وغير مستحيل، ولا يزال في جنبات أرضنا المعمورة أناس منعزلون - قلوا أو كثروا - عن كل التيارات الفكرية والثقافية، لا يعرفون من الدنيا إلا ما تفور به مجتمعاتهم الضيقة، ومن ثم فلا بدّ أن يركنوا من العلم بحقائق الكون إلى أوهامهم الباطلة التي لابديل أمام أفكارهم عنها.

فهؤلاء وأمثالهم هم الذين قال الله عنهم: ﴿وَما كُنّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٧/١٥] وهم ممن ينطبق عليهم قول ابن عطاء الله «لا يخاف عليك أن تلتبس الطرق عليك».

وحصيلة هذا الكلام، أن الجهل بمعرفة الحق ودلائل تمييزه عن الباطل معذرة مقبولة في معاملة الله مع عباده، حتى ولو أدت الجهالة بصاحبها إلى الكفر الذي هو شر أنواع الباطل. فما بالك بالجهالة التي تؤدي بصاحبها إلى ما دون الكفر من أنواع الجنوح والضلالات المتفاوتة في خطورتها وأهميتها.

هذا إن لم ير الجاهل أمامه سبيلاً يمكن أن يخلصه من جهله إن هو التجأ إليه. فأما من أتيح له أن يتحرر من جهله، وعلم أو ظن أنه ربما كان يعانق باطلاً وهو يظنه الحق، فإن جهله في هذه الحالة لا يكون عذراً له أمام الله عز وجل.

ذلك لأن الجهل سجن، يعذر من ألجئ إلى الوجود فيه، ثم لم يجد سبيلاً للخروج منه، فأما من كانت أبواب الخروج منه مفتحة أمامه، ثم آثر البقاء فيه، فهو بذلك هارب من ضياء الحق وأدلته الساطعة، إلى ظلام سجنه ذاك باختيار ورغبة منه، فأنى يكون له العذر في ذلك[١].

ثم إن هذه المسألة وإن كانت داخلة في عموم ما تدل عليه كلمة «الطرق» إلا أنها غير مشمولة، على ما يبدو، بمقصد ابن عطاء الله من كلامه هذا.

إنه يعني الطرق الاجتهادية المتنوعة التي يراها السالك أمامه، فيجتهد في اختيار ما قد يراه الأفضل أو الأقرب منها، أو المذاهب الاجتهادية التي قد يختلف بعضها عن بعض في أمور اعتقادية أو مسائل فقهية، فينبغي أن تدخل هذه أيضاً في عموم ما تدلّ عليه كلمة «الطرق» إذ ينطبق عليها جميعاً هذا الذي يقرره رحمه الله، في حكمته هذه.

أرأيت إلى الذين تفرقت بهم السبل التربوية في مناهج السلوك إلى تزكية النفس، أو الذين تفرقت بهم السبل في اختيار أفضل الأعمال والخدمات الاجتماعية المقربة إلى الله، أو الذين تفرقت بهم السبل في معرفة ما هو الحق من المسائل الفقهية التي طافت بأدلتها وجوه عدّة من الاحتمالات، أو الذين تفرقت بهم السبل في معرفة الحق الذي يجب اعتقاده في مسائل اجتهادية من أمور المعتقدات، ولم يكن سبب تفرقهم في تلك السبل إلا اللبس في الأدلة، وتشابه الاحتمالات،

---

(١) بوسعك أن تقف على بسط هذا الكلام في كتب العقيدة، وارجع إن شئت إلى ما قاله الإمام الرازي في هذا عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ من تفسيره مفاتح الغيب.

وغياب البرهان القاطع. أيكون في تفرقهم هذا لهذا السبب أي وبال عليهم من الله؟.. وكيف يكون في ذلك وبال عليهم منه، وهو الذي شاء لحكمة، أن يضعهم من تلك المسائل أمام أدلة متشابهة، ونصوص محتملة لأكثر من معنى؟.

لقد أجاب رسول الله ﷺ عن هذا السؤال عندما قال: ((إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر واحد))[1]، وليس لخصوصية كلمة ((الحاكم)) هنا مفهوم مخالف، إذ إن مناط مشروعية الاجتهاد توافر شروطه ووسائله، فإذا توافرت فالحاكم وغيره في حق الاجتهاد سواء.

والمجتهد في كل الأحوال معرّض لأن تشبّه عليه الأدلة بأشباهها، ولأن تلتبس عليه الوقائع أو القرائن والبينات، فيتنكب عن معرفة الحق إلى ما شُبِّه عليه أنه الحق، فإذا صفا منه القصد وخلصت لديه النية لمرضاة الله عز وجل وأخطأ بلوغ الحق الثابت في علم الله، فإنه جهد مبارك من العبادة والانقياد لأمر الله، لن يضيعه الله له، وإن جاء متقاصراً في أجره وثوابه عمن اجتهد فأصاب ولم يتنكب.

إذن فأين تكمن المصيبة التي تفرق الأمّة وتحبط الأجر في هذا الأمر.

إنها تكمن في تحكّم الهوى بنفس الباحث عن الطريق الذي ينبغي أن يختاره في سلوكه إلى الله، أو الباحث عن المعتقد الأسلم أو الأصح، أو الباحث عن الحكم الشرعي الأكثر اتفاقاً مع الأدلة والمصادر المعتمدة.

---

(١) رواه الشيخان وأبو داود والنسائي وابن ماجه.

وكلمة الهوى التي عبّر بها ابن عطاء الله في حكمته هذه، تشمل سائر العوامل النفسية التي تشرد بصاحبها عن اتباع الحق، من عصبية للذات، وجنوح إلى الرغائب والمصالح الدنيوية، واستكبار يمنع من الانقياد للحق والرجوع إليه.

فإذا تغلب الهوى، الذي يشمل هذه الآفات كلها، على نفس الباحث، وقع في هاوية العصيان بدلاً من اكتساب الأجر، واهتاجت من ذلك عوامل الضغائن والأحقاد بينه وبين الآخرين، بدلاً من تنامي مشاعر الأخوة الإسلامية بينه وبينهم.

وانظر إلى فرق ما بين هاتين الحالتين، في أثر الخلافات الاجتهادية التي كانت تشيع بين علماء الصحابة والتابعين، ومن سلكوا مسلكهم واتبعوهم بإحسان، وأثر الخلافات الاجتهادية ذاتها، عندما أخذت تشيع بين من جاء على أعقابهم في مثل هذا العصر.

ذلك الرعيل الأول ما زادتهم اختلافاتهم الاجتهادية، سواء في مسائل العقيدة أو فروع الأحكام السلوكية، إلا ودّاً وتآلفاً وتلاقياً على طريق الخير والرشد. لقد اختلف الصحابة في رؤية رسول الله ربه ليلة عرج به، فقال بعضهم: رآى ربه، وكان في مقدمتهم عبد الله بن عباس، وقال آخرون: بل إنه لم ير ربّه، وكان في مقدمتهم عائشة أم المؤمنين، فلم يزدهم الاختلاف في هذا الأمر إلا وداً وتعاوناً وإخاءاً.

وذهب بعضهم إلى أن الميت يعذب ببكاء أهله عليه، معتمدين في ذلك على قول رسول الله ﷺ: ((إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه)) وذهب آخرون إلى أنه لا يعذب بذلك، معتمدين على قول الله

عز وجل: ﴿وَلا تَـزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْـرَى﴾ [الأنعام: ٦/١٦٤] مرجحـين أن الحديث ضعيف لشذوذه، فما زادهم اختلافهم في ذلك إلاّ تآلفاً وودا.

ولقد سارت علاقة علماء التابعين ومن بعدهم، بعضهم مـع بعـض، على هذا الأساس من الود والتعاون والتآلف، على الرغم من خلافاتهم المذهبيـة الكثيرة في كـل مـن مسـائل العقيـدة[1] والأحكـام الفقهيـة، وحسبك مثالاً على ذلك ما تراه من الـود والتوقـير المتبـادل بـين أئمـة المذاهب الفقهية، أنظر إلى توقير الإمام الشافعي للإمام مـالك، ورحلتـه إليه، وحفظه لموطئه، وتتلمذه عليه، وإعجاب مالك به وشدة حبه لـه، مع ما قد كان بينهما من اختلاف في كثير من المسائل الاجتهادية.

وانظر إلى إعجـاب الشـافعي بفقـه محمـد بـن الحسـن صـاحب أبي حنيفة، وعكوفه على قراءة كتبه مثنياً عليه ومستفيداً منهـا، أليـس هـو القائل: أخذت من محمد بن الحسن وقر بعـير، ليـس عليـه إلا سـماعي منه؟.. وأنت تعلم أن الشافعي ناقش محمداً وخالفه في كثير منها.

وانظر إلى عظيم الحب الساري بين أحمد بن حنبـل والشـافعي، عـد إلى ترجمة أحمد وانظر كم كان يجلّ الشافعي ويقدّره، وهو الـذي قـال لابنته عنه: لضجعة من الشافعي خير من صلاة أبيك كلها.. وانظر كم كان الشافعي حفياً بأحمد مقدراً له، يثبت له الفضل عليه والإمامة لـه، وهو الذي كان يقول عنه:

---

(١) خلافاتهم في مسائل العقيدة كان في المسائل الاجتهاديـة منهـا، فأمـا تلـك التـي تنبني عليهـا حقيقـة الإيمان والإسلام والتجنب عن الفسق، فهـي ليسـت مـن الأمـور الاجتهاديـة ومـن ثـم لا يتـأتى فيهـا الاختلاف بين المسلمين.

قالوا يزورك أحمد وتزوره   قلت الفضائل لا تبارح منزله
إن زارني فبفضله أو زرته   فلفضله، فالفضل في الحالين له

والخلافات المذهبية بينهما في الفقه وبعض اجتهاديات العقيدة معروفة.

وانظر إلى عظيم التقدير المتبادل بين سيدنا محمد الباقر، وابنه سيدنا جعفر الصادق وبقية آل البيت من جانب، وسائر الفقهاء والمحدثين وعلماء التفسير الذين كانوا في عصرهم من جانب آخر. وتأمل كيف كان العلم رحماً بينهم في الرواية والدراية والأخذ والعطاء. بل تأمل في شدة إجلال الصادق للخلفاء الراشدين وفي مقدمتهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه. روى ابن حجر العسقلاني في تهذيب التهذيب أنه كان يقول: ولدني أبو بكر مرتين، ذلك لأن والدته أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر، ولأن أمها أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر. وقد روى عن زهير بن معاوية، قال، قال أبي لجعفر رضي الله عنه: إن لي جاراً يزعم أنك تبرأ من أبي بكر وعمر، فقال جعفر: بَرِئَ الله من جارك، والله إني لأرجو أن ينفعني الله بقرابتي من أبي بكر[١].

هكذا كانت سيرة ذلك الرعيل الأول، اِلتبست عليهم في كثير من الأحيان الطرق الاجتهادية في أمور الدين ومسائله، فاختلفوا في شأنها، واتخذ كل منهم لنفسه الطريق الذي سكنت إليه نفسه بعد اجتهاد

(١) تهذيب التهذيب ١٠٣/٢.

ونظر، ولكن ذلك الالتباس الذي أدى إلى الاختلاف لم يشكل أي خوف أو خطر ديني عليهم، كما قال ابن عطاء الله رحمه الله.

وسبب ارتفاع الخطر وعدم الخوف، أن الهوى لم يكن له أي دور في إثارة شيء من أسباب ذلك الاختلاف. وإنما كان ثمة عامل وحيد لا ثاني له، هو النهوض بالواجب الذي كلفهم الله به، والتقرب فيما كانوا يبذلونه من جهد وما يدور بينهم من نقاش إلى مرضاة الله وحده، فلقد جمعهم هذا القصد على غاية واحدة، وإن ظهر للرائي أنهم مختلفون.

* * *

ولكن انظر الآن إلى أثر هذه الاختلافات ذاتها، عندما أخذت تشيع الأهواء في نفوس من جاء على أعقاب ذلك الرعيل الصالح، في هذا العصر:

ينظر صاحب الرأي الاجتهادي الذي ارتآه، أو الطريقة التي سكن إليها وأعجب بها، على أن ما ارتآه هو وحده الحق، وأن ما دون ذلك هو الباطل. وينظر صاحب الرأي المخالف النظرة ذاتها، فتنقدح من جراء ذلك الخصومات النفسية بدلاً من المناقشات الفكرية، وتحلّ غاية الانتصار على الخصم محلّ غاية الوصول إلى الحق، وتتنامى على أعقاب ذلك مشاعر الضغائن والأحقاد، سارية بين الفريقين أو الفرقاء، ثم إن الأمر ينتهي إلى التبديع أو التفسيق، وفي كثير من الأحيان إلى التكفير.

تأمل في علاقة ما بين مشايخ الطرق، قلّما تجد اثنين منهم على وئام، والشأن الغالب أن يشيع بينهما التنازع وأن تسرع فيما بينهما

الاتهامات، ذلك لأن كُلاً منهم يحسب أن طريقته هي الصالحة، وأن على السالكين أن يتلقوا على يديه وينهجوا منهجه. والواقع هو أن ((الهوى)) الذي عبّر به ابن عطاء الله هو الذي قضى، بعيداً عن العقل الصافي عن الشوائب، بذلك.

ولو ترك كل شيخ، أو مرشد منهم، الحكم فيما اختلفوا فيه، إلى ما يقرره العقل مدعوماً بدلائله الشرعية الصافية، لانتهوا إلى وفاق، وإن تعددت منهم الاجتهادات واختلفت الآراء، كيف لا وكل منهم يعلم أن صاحبه مكلف من قبل الله باتباع ماهداه إليه اجتهاده؟...

وتأمل في حال كثير ممن يتبنون اليوم آراء اجتهادية في فقه الإمام أحمد أو آراء اجتهادية لابن تيمية رحمه الله، أو غيرهما، إن أحدهم ليدافع عنها كما يدافع المسلم عن عقائد إسلامه، ويسفّه مخالفيه كما يسفه المسلم الكافر، أو كما يسفه المسلم المستقيم على أوامر الله الفاسق المتنكب عن صراط الله عز وجل!.. وكأنه لا يعلم أنها احتمالات اجتهادية اختلف فيها مَنْ قبلهم من رجال السلف الصالح، فلم يصنّف طرف منهم، بسببها، في المسلمين الصالحين، والطرف الآخر في الفاسقين المارقين، بل كانوا كلهم، بحكمهم جميعاً، من خيرة عباد الله الصالحين الذين لم يقصروا في البحث عن الحق الذي أمرهم الله بمعرفته ثم التمسك به، في ظل من الأخوة الإسلامية الصادقة والتعاون المخلص للبحث عن الحق.

فما العامل الذي جعل من الساحة الاجتهادية هذه مثابة حب وتآلف وتعاون في حياة ذلك الرعيل من السلف الصالح، ثم جعل من

الساحة الاجتهادية ذاتها حلبة شقاق وصراع وتبادل لتُهم التفسيق والتبديع والتكفير؟.

فرق ما بين الفريقين أن الأول قاده إلى جهوده الاجتهادية في تلك الساحة الإخلاص لوجه الله، فلم يكن التباس الطرق أو الآراء ليشكل أي خوف عليهم وعلى صلة القربى والأخوة الإسلامية فيما بينهم.

أما الفريق الثاني فإنما يقوده إلى جهوده في تلك الساحة ذاتها، أهواء نفسية تتمثل في حب الانتصار للذات، والتعصب للجماعة أو المذهب، وانتجاع المصالح والرغائب الشخصية المتنوعة. فكان الخطر منبثقاً من تلك الأهواء، وكانت هي السبب في تصدع الصف الإسلامي الواحد، وغياب سلطان الأخوة الإسلامية، وتمركز الأحقاد والضغائن، محلّ ذلك من القلوب.

أما الخطر الأكبر، فيتمثل فيما يقوم به اليوم أعداء الإسلام والمسلمين، من توظيف هذه الحال الراهنة، لزج المسلمين في مزيد من التشرذم ثم التهارج فالعدوان..

وهكذا، فقد غدت الاختلافات الاجتهادية، بعد أن أصبح أمرها بيد الأهواء، أسلحة نادرة مفضلة، يتكأ عليها محترفو الغزو الفكري والاستعماري الجديد، في تأليب المسلمين بعضهم على بعض، وإثارة أسباب التناقضات فيما بينهم.

فالله هو المستعان أن يحررنا والمسلمين جميعاً من سلطان الشهوات والأهواء، لنعود إلى سيرة سلفنا الصالح، توحدنا قدسية الغايات، وإن تعددت بنا الطرق والاجتهادات.

الحكمة الخامسة بعد المئة

((سبحان من ستر سرّ الخصوصية بظهور وصف البشرية، وظهر بعظمة الربوبية في إظهار العبودية))

المراد بسرّ الخصوصية ما قد ميز الله به عباده المصطفَيْن والمجتبَيْن، من المعارف والأسرار، ومن تجلياته التي يكرمهم بها، ومن القُرْب الذي يخصهم به.

يقول ابن عطاء الله: جلّ وتنزه عن كل نقيصة إلهنا الذي اقتضت حكمته أن يخفي الأسرار التي يمتع بها من شاء أن يصطفيهم أو يجتبيهم من عباده، والتي تتمثل في حبه لهم، وإكرامه إياهم، بخصوصيات من المعارف والخوارق والنعم، واطلاعهم على أسرار لم تكشف لغيرهم، اقتضت حكمته أن يخفي هذه المزايا التي يمتعهم بها، تحت ستار من أوصاف بشريتهم التي يشتركون فيها مع سائر الناس على اختلاف فئاتهم ومستوياتهم.

تسمع ما يقول الله تعالى عن أولياءه، وعن ثنائه عليهم، وأنهم الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وما يقوله عنهم في الحديث القدسي: ((من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب)) فتتشوق إلى معرفتهم

والاطلاع على مزاياهم، ولا تشك في أنهم صنف متميز عن سائر الناس، بهذا العلو الذي اختصهم الله به، وأنّ هالة من الملائكية تحيط بهم وتشعّ منهم، أينما حلوا أو ارتحلوا.

وربما يتاح لك، بطريقة ما، أن ترى واحداً منهم، وأن تتعرف عليه، وأن تهتدي إلى يقين جازم بأنه من أولياء الله المقربين، فتتأمل حاله، وتبحث فيه عن الخصائص المميزة التي كنت تتخيلها، وعن المظهر الملائكي الذي ينبغي أن يسمو به عن حال عامة الناس، والبشرية التي يتقلبون فيها، فلا تعثر فيه على شيء من هذا الذي تبحث عنه. يأكل كما يأكلون، ويشرب كما يشربون، وتتحكم به نوازع البشرية كلها كما تتحكم بالآخرين، ويتعرض في تعامله مع الناس واحتكاكه بهم، لكل ما قد يتعرضون له، من مشكلات المعيشة وأسبابها، والعلاقات الاجتماعية وذيولها، والأحوال الاقتصادية وهمومها.

فترتدّ تحت سلطان المفاجأة إلى نفسك تسألها: أهذا هو الولي الموصوف بكل ما ذكره القرآن وبيّنه رسول الله من رفيع المزايا وأعاجيب مظاهر القرب من الله؟

إنه واحد من عامة الناس، يخوض في مخاضاتهم، ويتقلب معهم في أحوالهم البشرية وحاجاتهم الغريزية ذاتها، وتأخذه كما تأخذهم هموم العيش والأسرة والأولاد.

ولعله لا يوقظك من ثورة هذا الاستغراب، إلا تذكّرك لقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا ما لِهَذا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْواقِ لَوْلا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾ [الفرقان: ٢٥/٧].

غير أن هذه الآية قد تحملك على أن تسأل أنت أيضاً السؤال ذاتـه، بدافع مـن الاسـتغراب ذاتـه، بـدلاً مـن أن تجـد فيهـا مـا يوحـي إليـك بالتسليم.

ويأتي الجواب من خـلال هـذه الحكمـة: ((سـبحان مـن سـتر سـرّ الخصوصيـة بظهـور وصـف البشـرية)) أي إن خصوصيـة الاجتبـاء أو الاصطفاء من الله عز وجل لمن يشاء من عباده، لا تكون بقـرار معلـن من الله يُعلم به عامة الناس، بـل الحكمـة تقتضي نقيـض ذلـك، إذ إن الخصوصيات من شأنها أن تحاط دائماً بالكتمان.

ثم إن الشأن الغالب في حال أصحاب هذه الخصوصيات، أن تنـاط بهـم وظائف ومهامّ يحمّلهم الله إياها، ولا يتسنى نهوضهـم بهـا إلاّ في نجوة من علم الناس واطلاعهم، وإن الأبدال الذين حدثنـا رسـول اللـه ﷺ عنهم، وعن بعض المهام المنوطة من قبل الله بهم، ليسوا إلا نموذجـاً ممن ميزهم الله بهذه الخصوصيات. وقد مرّت بك طائفة من الأحاديث المتعلقة بهم، ذكرتها لك في الجزء الأول من هذا الكتاب.

هذا إلى جانب حكمة أخرى، هي أنهم قد يمتعون بمعارف وأسـرار تتعلق بغيوب حجبها الله عن العامة من عبـاده، فلـو كُشـفوا وكشـف للناس أمرهم معها، لأصبحوا فتنة لهم، ولذهبوا في تفسير شأنهم معهـا كل مذهب.

وهكـذا فـإن سـلطان الشـريعة الإسـلامية، يجـب أن يكـون مهيمنـاً ونافذاً، في كل الظروف والأحوال، وعلى سائر فئات النـاس. وعندمـا تكون ثمة خصوصيات علوية من الله لبعض من عبـاده المجتبين، فـإن

الحكمة تقتضي أن تختفي تلك الخصوصيات تحت جناح الشريعة الإسلامية وسلطانها، لا أن تختفي الشريعة أو تحيد أمام مظهر تلك الخصوصيات.

وإذا كانت أداة ستر هذه الخصوصية، فيما يقوله ابن عطاء الله، متمثلة في حجاب أو غطاء من عموم صفات البشرية التي ذكرتها لك، فإنها قد تتمثل فيما هو أبلغ من ذلك، فيما يقول لنا رسول الله ﷺ، إنها قد تتمثل في مظهر شخص تنبو عنه أعين الناس، ويشمئزون منه لرثاثة مظهره وسوء حاله. ألم يقل عليه الصلاة والسلام: ((رب أشعث أغبر، ذي طمرين، تنبو عنه أعين الناس، لو أقسم على الله لأبرّه))[١].

بل ربما حُجب صاحب الخصوصية نفسُه عما قد متعه الله به من حقائقها وأسرارها، كي لا يكون ظهور ذلك له فتنة في حق نفسه. وقد قرر العلماء الربانيون أن الله قد يكرم بعض عباده بالولاية، ويرفعه مقاماً عليّاً عنده، دون أن يعلمه بما يتمتع به من تلك الرتبة، لأكثر من حكمة، في مقدمتها ما قد ذكرته لك.

فاعجب بعد هذا ممن يجلجلون بين الناس بدعوى ما يتميزون به من قِبَل الله عز وجل، من خصوصيات المعارف والأسرار العلوية، ورتبة الولاية والدلائل الشاهدة عليها من الخوارق والكرامات التي يؤيدون بها!!..

---

(١) رواه بهذا اللفظ الحاكم في المستدرك وأبو نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة، ورواه بألفاظ قريبة مسلم وأحمد من حديث أبي هريرة أيضاً. ورواه البزار من حديث ابن مسعود بلفظ ((رب ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبرّه)).

الذي نعرفه أن هذه الرتبة من شأنها أن تكون - كما قال ابن عطاء الله - خفيّة عن عامة الناس، بل كثيراً ما تكون خفية حتى عن أصحابها أيضاً. أما فئة من الناس اليوم، فإنهم يعلنون عنها في حق أنفسهم، ويدعون الناس إلى أن يؤمنوا لهم بها، وأن يبايعوهم على أساسها!..

* * *

ثم قال ابن عطاء الله في الشطر الثاني من هذه الحكمة: ((وظهر بعظمة الربوبية في إظهار العبودية)).

أي قضى الله عز وجل بأن تكون عبودية الإنسان لله مرآة لصفات ربوبيته. وقد عرفت فيما مضى الفرق بين العبادة والعبودية، وأن العبادة أعمال يؤديها المسلم مما يتقرب به إلى الله، أما العبودية فحال تنبثق من القلب ويتلبس بها الكيان كله، تتمثل في كل مظاهر الضعف، من الذل والانكسار والافتقار الكلي لله عز وجل.

إننا لنعلم أن الله هو الغني، وإنما يتجلى غناه في افتقار الناس كلهم، بل المخلوقات كلها إليه.. وإننا لنعلم أن الله هو القويّ وإنما تتجلى قوته في الضعف المطلق الذي تتصف سائر المخلوقات به. وإننا لنعلم أن الله هو الصمد، وإنما تتجلى صمديته في احتياج كل الناس بل المخلوقات إليه، وإننا لنعلم أن الله هو وحده المعبود بالحق، وإنما يتجلى ذلك في عبودية الناس كلهم له.

أي إن مصداق صفات الله تعالى تتجلّى في أفعاله، وأفعاله أثمرت وجود مخلوقاته، فكانت مخلوقاته إذن ترجمان صفاته.

هذا بالنسبة لعلاقة ما بين سائر صفات الكمال في ذاته، وسائر ما أبدعه من مخلوقات. أما بالنسبة لخصوص معنى الربوبية في ذاته عز وجل، فالملاحظ هنا علاقتها بعباده الذين شرفهم الله بربوبيته عليهم وولايته لهم.

إن ربوبية الله حقيقة ذاتية قائمة بذاته عز وجل، سواء وجد الإنسان أم لم يوجد، بل سواء وجدت المكونات أم لم توجد.

ولكن وجود الربوبية في ذات الله شيء، وظهور عظمتها للبصائر والأبصار شيء آخر، وإنما المقصود أبصار وبصائر الناس..

وإذا عرفت هذا فلتعلم أن واقع عبودية الإنسان لله هو الذي كشف ما كان خافياً أمامهم من مظاهر ربوبية الله عز وجل.

عندما يعود الإنسان إلى ذاته، ويتأمل في المزايا والقدرات المبثوثة في كيانه، يجد أنه منفعل بها وليس فاعلاً لشيء منها!..

فهو يتحول من الضعف إلى القوة، دون اختيار أو توجه منه إلى ذلك، وهو يستقبل القوة المبثوثة في أعضائه وكيانه، دون أن يكون هو المتسبب لها أو الفاعل أو الموجد لها، وهو يمارس الوعي والتفكير دون أن يخترع لنفسه شيئاً منهما أو أن يملك وجهاً من أوجه التصرف بهما، وهو يختزن المعلومات والصور والأسماء في ذاكرته، دون أن يتخذ لنفسه أي سبيل إلى ذلك.. وغداً، أو بعد حين، يفقد القوة التي استقبلها، ويغيب عنه الوعي الذي كان يتمتع به، وتنمحي من ذاكرته الصور والمعاني والأسماء والمسميات، ليحل محلّها ضباب النسيان، دون أن يملك سبيلاً للمحافظة على شيء منها.

وهكذا، فأنت يا بن آدم لست أكثر من جهاز استقبال، كما قد قلت لك من قبل، تنفعل بما ينعكس عليك، وتفقد كل ما يرتد غائباً عنك.

وأنت تعلم أن جهاز الاستقبال المتمثل في الشاشة المثبتة على عرض الحائط، هو المظهر الذي يجلّي فاعلية جهاز الإرسال ووجوده، وإن كان وجوده الذاتي حقيقة قائمة لاريب فيها، سواء ظهرت عملية الإرسال منه إلى الشاشة المثبتة أمامه أم لا.

إذن فالإنسان، كما علمت، مظهر لحكمة الخالق وتدبيره وما يجريه عليه من أحكام وأقدار، ومن ثم فهو ينفعل بسائر القدرات والملكات والوظائف التي يمتعه الله بها دون أن يملك أي قدرة على أن يفعل شيئاً منها، إنه ليس إذن أكثر من جهاز استقبال. وجهاز الاستقبال هو التعبير العلمي الدقيق عن جهاز الإرسال الذي يرسل إليه سائر الصور ويبعث فيه جميع التحركات.

إنك يا بن آدم شاشة تجلت عليها قدرات الخالق عز وجل وحكمته ولطفه ودقيق إبداعه، وأنت بذلك كله كتلة عبودية لصاحب هذه القدرة والحكمة واللطف والإبداع، سواء أيقن فؤادك وأقر لسانك بذلك أم لا.

لقد تجلت ربوبية الله، بكل ما فيها من صفات الكمال، في واقع عبودية الإنسان له، نطق بذلك حاله، وإن استكبر عن الاعتراف بذلك لسانه، فهذا هو معنى قول ابن عطاء الله في الشطر الثاني من حكمته هذه «وظهر بعظمة الربوبية في إظهار العبودية».

بقي أن تعلم أن عظمة ربوبية الله، هي ملء الكون وضوحاً، ولكن الإنسان قد يتيه عن رؤية آيات هذه العظمة في الكون وآفاقه، ويحجب عن مشاهدتها بأوهام الغرور بذاته، وما ركب فيه من مزايا وصفات، فما الذي يرفع عنه حجب تلك الأوهام؟

إن الذي يرفعها عنه واقع عبوديته لله، وقد وصفتها لك وحدثتك عنها، فهي التي تبهره برؤية ربوبية الله له ونافذ سلطانه عليه. هذا إن تنبه إلى هذا الواقع والتفت إلى الآيات البينات التي تنطق بها عبوديته لله.

فأما إن عصب الاستكبار عينيه وأعمى قلبه، فلن يصحو عن سكرة استكباره إلا عندما تهجم عليه سكرة الموت، وأغلب الظن أن لا جدوى من صحوه آنذاك، وصدق الله القائل: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [السجدة: ٣٢/٢٩].

* * *

الحكمة السادسة بعد المئة

((لا تطالب ربك بتأخر مطلبك، ولكن طالب نفسك بتأخر أدبك))

إذا دعوت ربك تسأله بعض حاجاتك، ثم رأيت أن الاستجابة قد تأخرت، فإياك أن تسيء الظن به بسبب تأخر حصولك على مطلبك، وأن تطالبه مطالبة المعترض أو العاتب بإنجاز ما وعد.

ولكن ارجع إلى نفسك فاتهمها بسبب تأخر تأدبك مع الله عز وجل. ومن الأدب مع الله أن لا تستعجل في استجابته لك، بل من الأدب مع الله، وأنت عبده، أن يكون دعاؤك إعلاناً عن عبوديتك له وافتقارك إليه، بقطع النظر عن استجابته أو عدم استجابته لك.

ولقد سبق أن أوضحت لك الفرق بين الدعاء الذي يأمر الله به عباده، والطلب الذي يتوجه به كثير من الناس إلى مولاهم عز وجل.

وأذكرك بما قلته لك، من أن الدعاء عبادة يؤديها العبد لربه، لا أدل على ذلك من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ

جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾ [غافر: ٤٠/٦٠] بعد قوله ﴿وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وقول النبي ﷺ: ((الدعاء هو العبادة))[١].

فهو فيما يتقرب به العبد إلى الله غاية بحدّ ذاتها، سواء تأمل الداعي استجابة من بعد الدعاء أو لم يتأمل.

أما الطلب فهو توجه القلب إلى المطلوب، ثم التوسط إليه بالوسيلة التي يظن الطالب أنها الوسيلة الأجدى، أي إنَّ توجه الطالب إلى الوسيط الذي يظن أنه سيوصله إلى مطلوبه، إنما هو توجه عارض، اقتضاه تعلقه بالغرض الذي يصرّ على نيله.

إذن فمن أهم آداب الدعاء، بل من أهم أركانه الذاتية، أن يتخذ العبد من الدعاء إذ يتجه به إلى ربه عز وجل، بطاقته الشخصية التي أثبتت عليها هويته، عبداً مملوكاً لله، لا يملك من أمر نفسه شيئاً. وهذا معنى قولنا: إن الدعاء من حيث هو، عبادة بحدّ ذاتها.

وهذا يعني أن العبد إذ يعلن عن هويته، من خلال دعائه، لايجعل هويته هذه مشروطة باستجابة الله له، وكيف تكون الهوية مشروطة؟

فإذا خالف الداعي هذا الأدب الذي يدخل في قوام معنى الدعاء، فإن عليه أن يعلم أن الدعاء لم يتحقق، وأن ما ظنه أو سماه دعاء إنما هو في الحقيقة طلب بالمعنى الذي ذكرته لك.

والله عز وجل وعد عباده باستجابة أدعيتهم، ولم يعدهم باستجابة طلباتهم.

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد، والحاكم في المستدرك، وابن أبي شيبة، كلهم من حديث النعمان بن بشير.

ومن هنا تتضح رعونة من لا يلزم نفسه بمعنى الدعاء وآدابه، ثم يعتب على ربه، على الرغم من ذلك، أنه أخر إنجاز مطلبه!..

فهل دَعَوْتَهُ حتى يحقق لك ما وعد؟

إنك لم تدعه، عبداً يعبر بدعائه عن هويته عبداً فقيراً ضعيفاً، يحتاج إلى مولاه الذي لامولى له سواه، في كل شيء وفي كل الأحوال، ولكنك طلبت منه، بل طالبته بما أنت متعلق به من رغائبك الذاتية، ولولا الرغائب وسلطانها عليك، لما شعرت بما يحوجك إلى طرق بابه ومدّ يد المسألة إليه، وهو، جل جلاله، لم يلزم ذاته العلية بأن ينفذ لك رغائبك التي تكون هي المعرّفة لك عليه.

إذن، ينبغي أن يقال لهذا الطالب، ما يقوله له ابن عطاء الله: لا تطالب ربك بأمر لم يلتزم أن ينجزه لك، فضلاً عن أن تعتب عنيه لتأخير إنجازه، بل طالب نفسك بتصحيح موقفك من ربك ومولاك عز وجل. تحول من حالة الطالب لأمر جاء متعلقاً به، إلى حالة العبد الداعي، المعبر بدعائه عن هويته عبداً ذليلاً مملوكاً لله عز وجل.

والعجب، ممن تذكره رغائبه وحظوظه، بمطالبة الله أن ينجز له مطالبه ورغائبه، ولا تذكره عبوديته لله بمطالبة نفسه بالتزام محراب العبودية، والتحول من حال المطالب لله، إلى حال الداعي المتبتل على أعتاب الله.

* * *

والإشكال الذي قد يخطر في بال أحدنا هو ما يلي:

ولكن الله ألزم ذاته العلية باستجابة الدعاء. وأخبرنا بذلك في قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ومن شأن هذا الالتزام منه عز وجل، أن يُطمع الداعي بالاستجابة، ومن شأن هذا الطمع أن يجعل آمال الداعي متعلقة بالاستجابة، وهذا من شأنه أن يحيل الدعاء، بالنسبة لكثير من الناس إلى مجرد أداة أو سبيل للوصول إلى الرغائب والمبتغيات. وعندئذ يتحول الدعاء، من حيث لا يشعر صاحبه، إلى طلب بالمعنى الذي ذكرت.

والجواب أن طمع العبد باستجابة الله دعاءه، يدخل في معنى حسن ظن العبد بالله عز وجل، وهو أمر مستحسن ومطلوب.

ولكن هذا لا يستدعي أن يتحول الدعاء إلى مجرد أداة أو وسيلة يستعملها الداعي لنيل حاجاته ورغائبه. اللهم إلا إن كان الداعي ضعيف الإيمان بالله، ومن ثم ضعيف الإيمان بعبوديته لله وعظيم افتقاره في كل الأحوال إليه، ولسنا هنا بصدد الحديث عن هذا الصنف من الناس.

إن المؤمن بالله إيماناً حقيقياً، يعلم أنه فقير إلى الله فقراً مطلقاً، في كل الأحوال والتقلبات، إنه يعلم أن افتقاره إليه ذاتي دائم وليس عرضياً لبعض الأسباب، والشأن في المؤمن الذي يعلم هذه الحقيقة من نفسه، أن ينتشي بمشاعر افتقاره إلى الله، وأن يلذّ له التذلل على بابه والتمسكن على أعتابه، فذلك هو شأن صلة الفقير المطلق بالغني المطلق، وإذا كان تمسكن المحب لمحبوبه أو محبوبته من البشر من أمثاله، مبعث نشوة ولذة، فكم تكون هذه النشوة عظيمة، عندما يكون مصدرها تمسكن المخلوق لخالقه والعبد لسيده؟!..

إنني عندما أسمع من يتغنى بقول الشاعر:

لـي لـذة في ذلتـي وخضوعـي وأحب بين يديكِ سفك دموعـي

أحسّ بأن الكلام صحيح وسليم، وأن الشاعر صادق في شعوره، ولكن الخطأ في تحديد الجهة التي هي مصدر هذا الشعور والإحساس، إن الجهة الحقيقية ليست فلانة من النساء، كما ظن الشاعر، وإنما المصدر الحقيقي لتلذذه بالذل والمسكنة له، إنما هو الله عز وجل. ذلك لأنه جل جلاله هو لا غيره الغني المطلق، في مقابل كونه الفقير المطلق إليه، ولأنه جل جلاله القوي المطلق في مقابل كونه الضعيف المطلق بين يديه.

فإذا علمت هذا، أدركت أن الدعاء الذي يتعالى من فم العبد إلى ربه، إنما هو النشيد الذي يعبر به الداعي دائماً عن نشوة افتقاره إلى الله وتمسكنه وتذلله على أعتاب كرمه وجوده.. فافرض أن الله أعطاه، ثم أعطاه، ومتعه بكل ما يريد، إن نشوة افتقاره إليه وتذلله بين يديه ستظل آخذة منه بمجامع النفس والشعور، ومن ثم فلسوف يظل نشيد التجائه إلى الله بالدعاء الواجف مستمراً متواصلاً.

وكيف ينقطع نشيده هذا وافتقاره إليه مستمر، وذلّ عبوديته له مهيمن على كيانه؟

وإذا كان المحب لا يفتأ يخاطب محبوبته قائلاً:

لـي لـذة في ذلتـي وخضوعـي وأحب بين يديكِ سفك دموعـي

فإن الأولى منه بهذا، العبد المملوك تجاه سيده ومالكه الأوحد، أجل.. إنه أولى بأن يمضي العمر كله يناجي ربه، في كل أحواله وتقلباته قائلاً:

لي لذة في ذلتي وخضوعي وأحب بين يديكَ سفك دموعي

فافهم إذن، كم بين الدعاء الذي هو جوهر العبادة، وبين الطلب الذي هو مظهر لرعونات النفس وحاجات الغريزة، من فرق كبير كبير.

وهذا هو قصارى ما يلفت إليه ابن عطاء الله أنظارنا في هذه الحكمة.

* * *

الحكمة السابعة بعد المئة

((متى جعلك في الظاهر ممتثلاً لأمره، ورزقك في الباطن الاستسلام لقهره، فقد أعظم المنة عليك))

ممارسة العبودية لله، تتم على درجتين لا بدّ منهما.

الدرجة الأولى الالتزام بأوامر الله جهد الاستطاعة والانتهاء عن نواهيه. فإن تغلب على العبد الهوى فترك بعض ما قد أمر به، أو ارتكب بعض ما قد نُهي عنه، أسرع فعاد تائباً نادماً مقلعاً عما ارتكب من الأوزار، عائداً إلى ما قصرّ فيه من الطاعات.

والمقصود من هذا أن تعلم أن الامتثال الذي يعنيه ابن عطاء الله، لله في تنفيذ أوامره واجتناب نواهيه، لا يستلزم العصمة من الذنوب، وإنما يستلزم الرجوع إلى الله بالتوبة كلما زلت به القدم ووقع في محرّم.

أما الدرجة الثانية فهي استسلام الإنسان لكل ما قضي به في حقه. والمراد بما قضى به هنا الشدائد والمصائب على اختلافها، أما النعم والخيرات ومظاهر الرخاء، فلا شك أن الإنسان من شأنه أن يرحب بها ويفرح لها، ولا يعبر عن ذلك بالاستسلام.

ولكن ما المراد بالاستسلام؟ إن استسلام العبد المملوك لقهر مولاه المالك له، أمرٌ واقع لا محالة، شاء أم لم يشأ، رضي أم سخط. ومن ثم فإن بوسعنا أن نقرر بأن الناس كلهم على اختلاف معتقداتهم وأديانهم مستسلمون لحكم الله وقهره. فمن هم الذين يعنيهم ابن عطاء الله، إذ يميزهم عن غيرهم بهذا الوصف؟

والجواب أن المراد بالاستسلام هنا الصبر مع الرضا على ما قضى به الله عز وجل. ومن هنا كان الاستسلام حالاً من أحوال الباطن، أي الشعور القلبي. أما الاستسلام القسري الذي يشترك فيه الناس جميعاً، فهو مظهر لضعف الإنسان وعجزه عن ردّ ما قد قضى الله عليه به. وهو ليس أمراً باطنياً، بل هو من أحوال الظاهر.

وتتبين لك من هذا الجواب، دقة كلام ابن عطاء الله عندما فرّق بين الحالين بصفة الظاهر في الأولى، والباطن في الثانية. فقال: «ورزقك في الباطن الاستسلام لقهره» إذ إن الاستسلام القسري حال من أحوال الظاهر الذي يتبدى على الكيان والأعضاء. وليس لصاحبه في ذلك أي فضل.

فهذا هو، باختصار، معنى هذه الحكمة.

* * *

أما الآن، فإن علينا أن نتبين وجه العلاقة اللزومية بين هاتين الدرجتين في ممارسة معنى العبودية لله عز وجل.

إن امتثال المسلم لأوامر الله وانتهاءه عن نواهيه، إذا لم يصاحبه رضاً عن الله في كل ما يقضي به، إنما هو امتثال وانتهاء فيما يبدو فقط، وهو في هذه الحالة لا يخلو من أن يصنّف في إحدى فئتين:

فهو إما أن يكون من المنافقين الذين يجّملون أنفسهم أمام الناس بمظاهر الإسلام (ومظاهره أداء الأوامر التي يدعو إليها والابتعاد عن النواهي التي يحذر منها) وعقولهم لا تتبنّى شيئاً من معتقداته، وقلوبهم لا تنطوي على أي تعظيم لحرماته.

وإما أن يكون ممن قال الله عنهم: ﴿...وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ [الحج: ١١/٢٢] أي يتعرف على الله في حالة الرخاء وحدها، فيؤدي عندئذ أوامره، ويبتعد عن نواهيه، فإذا انتابته شدة في جسمه أو ماله أو فيمن يلوذ به، اهتاجت بين جوانحه مشاعر النقد على الله وتناسى عواطفه التي كانت تدعوه إلى القيام بأوامره أيام الرخاء وتوالي النعم، فهو في أحسن أحواله المتوقعة يثابر على ما تعود عليه من الطاعات بحكم العادة والاستمرار، هذا إن لم يقلع عن التزاماته تلك، احتجاجاً على الله تعالى، فيما قد قضى عليه به.

فسواء أصنفت هذا الإنسان في الفئة الأولى أو في الفئة الثانية؛ إنه على كلا الحالين بعيد عن رضا الله عز وجل.

إن كان من الفئة الأولى صدق عليه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النّارِ﴾ [النساء: ١٤٥/٤].

وإن كان من الفئة الثانية صدق عليه قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ٢٢/١١].

على أن الحوافز المصلحية التي قد تدعو مثل هذا الإنسان إلى التجمل بالطاعات كثيرة ومتنوعة، والجامع المشترك بينها أن الالتزام بالطاعات والعبادات يصبح مع المداومة عليها من العادات التي يألفها الإنسان ويستأنس بها ولا يشعر بأي جهد أو عنت في أدائها. وفي الناس من يتوهمون أن الإسلام ليس أكثر من جملة طقوس إذا مارسها الإنسان وداوم عليها، فقد أدى كل ما يتطلب منه الإسلام، وصدق عليه أنه مسلم، بل مؤمن يستحق مثوبة الله وإكرامه.

إن هذا الصنف من المسلمين، يمنح الإسلام من نفسه ممارسة الطقوس وأداء العبادات من حيث هي وظائف عضوية مجردة، ثم يمنح نفسه كل ما وراء ذلك من دنيا الرغبات والأهواء والملذات، متوهماً أو موهماً نفسه أن حظ الإسلام وحقوقه لا تتجاوز الطقوس وصور العبادات.

ثم إن رضا المسلم بما يقضي عليه الله به مع التجمل بالصبر، دون امتثال لأوامره وابتعاد عن نواهيه، لون من ألوان الزندقة، بل هو في الحقيقة نوع من أخبث أنواع الختل والكذب على الله.

إن التكاليف التي ألزمنا الله بها مما يدخل في صنف الواجبات والمحرمات، ليست إلا صنفاً من أهم ما قد قضى الله على عباده به.

أي فليست الأمراض والأوجاع والفقر وما يشبهها من مصائب المال والجسد، هي وحدها التي تدخل تحت اسم الشدائد التي قضى الله على عباده بها، بل التكاليف التي خاطبنا الله بها هي الأخرى صنف من أصناف تلك الشدائد، ولولا ذلك لما سمّيت بالتكاليف.

إذن فمن صدق في الاستسلام لقهر الله وحكمه، استسلام رضاً وصبر، لا بدّ أن يتبين أثر ذلك في استسلامه لحكم الله عليه بضرورة الامتثال لأوامره والاجتناب عن نواهيه، وإنما يكون استسلامه له، بالتنفيذ وصدق الالتزام.

فمن أعرض عن أوامر الله التزاماً بها، وأوغل في نواهيه ارتكاباً لها، ثم ادعى أنه مستسلم لقهر الله وحكمه، راض عن الله وأمره، فهو كاذب في دعواه بلا ريب. وأول ما يكذبه في ذلك، سلوكه المخالف لحكم الله وأمره.

إن في الناس من يحصر حقائق الإسلام، وسبيل التقرب إلى مرضاة الله، بما يسميه القلب، أو سلامة القصد، أو التمسك بروح الدين والشرع، يقصد بروحهما ما قد تنزل الإسلام لتحقيقه في حياة الناس، من التزامهم بموازين العدالة، ورعاية الحقوق، والتخلق بالأخلاق الفاضلة.

فيزعم الواحد من هؤلاء أنه يتمتع بنية صافية عن الشوائب، وأنه لا يهدر لأحد من الناس حقه، ولا يكذب عليهم ولا يسيء إليهم، إذن فهو متمسك بلباب الإسلام ومتحقق بالمقصود والغاية منه. فما الحاجة بعد ذلك إلى الوسائل المتمثلة في الصلاة والصيام وسائر العبادات؟..

ولعله يقول لك: إن رسول الله قال: ((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)) فمكارم الأخلاق إذن هي الغاية، وكل الأوامر والنواهي التي جاء بها الشرع، وسائل إليها. وإذ قد تحققت بمكارم الأخلاق، فلم تعد ثمة حاجة إلى سلوك السبل الموصلة إليها.

ومنطق الكذب في هذا الكلام واضح.

فإن من أهم ما تقتضيه مكارم الأخلاق، أداء الحقوق إلى أصحابها، ومن أهم الحقوق المترتبة على الإنسان حقوق الله عز وجل. فمن كان يتمتع بمكارم الأخلاق حقاً، لا بدّ أن تقوده هذه المزية إلى أداء الحقوق المترتبة عليه، وفي مقدمتها حقوق الله عز وجل.

ياعجباً لمن يسمع قرار الله القائل: ﴿إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتاباً مَوْقُوتاً﴾ [النساء: ٤/١٠٣] فيعرض عن قراره هذا في استخفاف وفي قدر كبير من اللامبالاة، ثم يصنف نفسه مع ذلك في أصحاب الأخلاق الفاضلة وفي المتمسكين بمكارم الأخلاق!..

كيف يتأتى للعبد المملوك أن يعرض، بل أن يتأبى، على ما يأمره به مولاه المالك له، ثم يصنف نفسه مع ذلك في ذوي الأخلاق الفاضلة؟..

كيف يضيع العبد حقوق سيده ومولاه، ثم يزعم أنه ممن يتمتع بمكارم الأخلاق، لأنه لا يضيّع حقوق الناس من أمثاله؟

* * *

ولكنك قد تسأل: فما وجه هذا الازدواج؟ وكيف يتأتى هذا التناقض: أن يكون الإنسان وفياً لأمثاله من الناس، لا يهدر لهم حقاً، ولا يخونهم في أمر، ثم يكون مضيعاً لحقوق ربه ومولاه، معرضاً عن الوفاء بالتزاماته تجاهه؟!..

وأقول لك في الجواب: ليس في الأمر تناقض أو ازدواج. إن الذي يستهين بحقوق الله عليه، ويتقلب في شؤون دنياه معرضاً عنها، ثم يُظهر لك من نفسه الالتزام بمكارم الأخلاق، والصدق مع الناس، وإعطاء كل ذي حق حقه، إنما يمارس من خلال هذا الذي يُظهره لك، ما يضمن سير مصالحه على خير وجه، والوصول إلى رغائبه من أقصر طريق.

ألا ترى إلى ما يُنعت به اليوم كثير من الغربيين أصحاب المصالح التجارية أو الصناعية المختلفة، من الصدق في المعاملة، ورعاية حقوق الآخرين على خير وجه؟.. إن من السذاجة بمكان أن يظنّ أحدنا أنهم ينزعون إلى ذلك من حبهم الصافي للفضيلة ونعشقهم للأخلاق الإنسانية الكريمة!..

إن من المعلوم لكل متبصّر أنهم إنما يمارسون من خلال ذلك شروطاً لا بدّ منها لترويج بضائعهم، ولإنجاح مشاريعهم، ولمسابقة الآخرين إلى التحكم في أسواق الاستهلاك. إنها في عرف أصحاب البصيرة والخبرة الغربية تسمى «أخلاقاً اقتصادية» وإنهم ليتلقونها منهجاً يتدربون عليه في صدر حياتهم وأعمالهم التجارية أو الاقتصادية.

وإن هذا الذي يصدق على حال الغربيين الذين يضرب المثل بهم، على أَلْسُنِ كثير من الناس، في التمسك بالصدق والأخلاق، هو ذاته الذي يصدق على حال كثير من المسلمين الذين يعيشون بين ظهرانينا، إذ يضيعون حقوق الله عليهم أو يستهينون بها، ثم يواجهك أحدهم قائلاً: إنما العبرة بالقلب، وحسن النية، وأن لا يؤذي الإنسان الآخرين.

إن عليك أن تقول له: إن من كان مضيعاً لحقوق الله عليه، فهو أحرى أن يكون مضيعاً لحقوق الناس. وإن من خلا قلبه عن تعظيم حرمات الله، فهو أحرى أن يكون قلبه خالياً من الاهتمام بالناس وصفاء القصد تجاههم.

فإن جادلك في واقع صدقه معهم، وإحسانه إليهم، فأكد له أن دوافعه إلى ذلك إنما هي حظوظ نفسه، وآماله الكثيرة التي يعلقها على حسن تعامله معهم.

تأمل في حال فئات الناس على اختلافهم، من ساسة، ورجال أعمال، وعشاق مناصب، ممن أهملوا وتناسوا حقوق الله عليهم، وتقلبوا من حياتهم في مخاضة الدنيا وحدها، تجد أنهم جميعاً (إلا أصحاب الرعونة والغباء) يتلاقون على جامع مشترك، هو هذا الذي يسمى اليوم بـ(الدبلوماسية) يقيناً منهم بأنه السُلّم الوحيد المنصوب أمامهم جميعاً لبلوغ أهدافهم وأمانيهم المتنوعة.

والتعبير بالدبلوماسية، هو التعبير الصحيح، الذي يعرّي تصرفات هؤلاء الناس عن كسوة الأخلاق والفضيلة والصدق والأمانة، التي تجمّل بها تلك التصرفات زيفاً وبهتاناً.

ولعلك قد علمت من هذا الذي تم بيانه، أن امتثال أوامر الله الظاهرة، لا تستوجب الاستسلام لسلطان الله وقهره دائماً، إذ قد يكون الدافع إلى الامتثال رياء أو توسطاً به إلى مصلحة ما، أو لإخفاء كفر يستبطنه.

أما الاستسلام الباطني لسلطان الله وقهره، فهو إن كان استسلاماً حقيقياً، لا بدّ أن يستلزم بدوره امتثال أوامر الله الظاهرة.

وعندما تجد من يوهمك أنه مستسلم لأمر الله وحكمه، ثم تنظر وإذا هو متحرر من الالتزام بأوامره والابتعاد عن نواهيه، فاعلم أنه غير صادق فيما يوهمك، إذ الاستسلام الحقيقي لسلطان الله لا يتجزأ.

* * *

وحصيلة ما قلناه أنّ المسلم إذا وجد نفسه موفقاً للقيام بالطاعات والعبادات التي أمره الله بها، ولاجتناب المحرمات التي نهاه عنها، ووجد نفسه راضياً بكل ما قد يبتليه الله به من محن ومصائب، صابراً على شدائدها، فليعلم أن الله قد امتن عليه بما يدل على محبة الله له. وليس في نعم الدنيا كلها ما هو أجل من هذه النعمة.

ولعلك تقول: فكيف يكون صابراً على ما يرضى به؟

والجواب أن الرضا بالشيء لا يتنافى مع ما قد يجده الراضي من الآلام بسببه. ألا ترى إلى المريض كيف يرضى بإجراء العمل الجراحي الذي لا بد له منه مع ما يعلم من تسببه لآلام ومزعجات شتى؟.. وفي هذه الحالة لا بدّ أن يجتمع الرضا مع الصبر.. ينبثق الرضا من قرار العقل وحكمه، وينبثق الصبر من واقع الألم وضروراته.

الحكمة الثامنة بعد المئة

((ليس كل من ثبت تخصيصه كمل تخليصه))

ما المراد بكل من ((التخصيص)) و((التخليص))؟

أما التخصيص فالمراد به أن يختص زيد من الناس عن غيره بمزية تتمثل في خوارق تجري على يده، مما يسمى بالكرامات: يمسك بيده حصاة وإذا هي قد تحولت إلى سكرة أو قطعة حلوى، يضع الجمرة الملتهبة في فمه أو على لسانه دون أن يحترق. يغيب عن الحاضرين فجأة ليظهر في الوقت ذاته في بلدة نائية أو قارة أخرى، إلى آخر ما تعلم من العجائب التي تخترق المعروف والمألوف.

وأما التخليص فالمراد به أن يتخلص الإنسان، بعناية الله وفضله، من أوضار نفسه وتحكّم أهوائه وشهواته به، وأن يسمو بنفسه عن الموبقات والآفات. وتتخلص من الأمراض الباطنة التي سماها الله ((باطن الإثم)).

معنى هذه الحكمة إذن: ليس كل من تراه يُظهر لك الخوارق والأعاجيب، ولياً، بالضرورة، من أولياء الله الذين سمت نفوسهم عن

شوائب الآفات والأمراض الباطنة. بل كثيراً ما تكون الخوارق مظهراً لحرفة تمرّس بها صاحبها حتى أتقنها وبرع بها، أو نتيجة تدجيل يتقنه أصحابه، أو طائفاً من أعمال بعض الشياطين يدعمون به أولياءهم والسائرين وراءهم.

والمقصود من بيان ذلك، أن تعلم أن الكرامة الحقيقية لا تتمثل في الخوارق التي تجري على أيدي بعض الناس. وإنما هي استقامة المسلم على أوامر الله وشرعه، التزاماً بها في الظاهر، ورضاً بما يجري قضاء الله عليه به في الباطن، كما مرّ بيانه في الحكمة السابقة.

قيل لأبي يزيد البسطامي قدس الله روحه: إن فلاناً يمشي على الماء!.. فقال له أبو يزيد: الحوت أعجب منه، إذ هو شأنه. وقيل له: إن فلاناً يطير في الهواء، فقال: الطير أعجب من ذلك، إذ هو حاله. وقيل له: إن فلاناً يمشي إلى مكة ويرجع من يومه. قال له أبو يزيد: إبليس يطوف الأرض كلها في لحظة، ولا يردّ ذلك لعنة الله عنه.

وليس في كلام أبي يزيد هذا ما يدل على أنه ينكر الكرامة التي قد يخصّ بها الله بعض أوليائه، مما يدخل في صنف الخوارق.

وإنما مراده أن الخارقة وحدها ليست دليلاً على الولاية ولا على أي من مظاهر قرب العبد من الله. إذ هي تصدر عن أسباب وعوامل شتى، كما قد ذكرت الآن. ولكن إذا اجتمعت الخارقة مع الاستقامة التامة على أحكام الكتاب والسنة، وصفاء السريرة عن كدورات الأمراض النفسية الكثيرة. فهي عندئذ تكون واحدة من الكرامات التي أثبتها علماء العقيدة للأولياء وسائر عباد الله الصالحين.

ولابن عطاء الله كلام مفصل في هذا المعنى، أورده في كتابه «لطائف المنن» يحسن أن أنقله لك بنصه، يقول:

«والحاصل أن من كان من المعدودين من الأولياء، إن كان من المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله، والقدر خيره وشره، مقيماً لما أوجب الله عليه، تاركاً لما نهاه الله عنه، مستكثراً من طاعاته، فهو من أولياء الله سبحانه وتعالى. وما ظهر عليه من الكرامات التي لم تخالف الشرع، فهي موهبة من الله عز وجل لا يحلّ لمسلم أن ينكرها.

ومن كان بعكس هذه الصفات، فليس من أولياء الله سبحانه، وليست ولايته رحمانية، بل شيطانية، وكراماته من تلبيس الشيطان عليه وعلى الناس.

وليس هذا بغريب ولا مستنكر، فكثير من الناس من يكون مخدوماً بخادم من الجن، أو بأكثر، فيخدمونه في تحصيل ما يشتهيه، وربما كان محرماً من المحرمات. وقد قدّمنا أن المعيار الذي لا يزيغ، والميزان الذي لا يجور، هو ميزان الكتاب والسنة.

فمن كان متبعاً لهما معتمداً عليهما، فكراماته وجميع أحواله رحمانية. ومن لم يتمسك بهما، ولم يقف عند حدودهما، فأحواله شيطانية، فلا نطيل الكلام في هذا المقام.

وقد قدمنا أن المعيار الذي تعرف به صحة ولايته، هو أن يكون عاملاً بكتاب الله سبحانه، وبسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلّم، مؤثراً لهما على كل شيء، مقدماً لهما في إصداره وإيراده، وفي كل شؤونه، فإذا زاغ عنهما زاغت عنه الولاية»[1] .

---

(١) لطائف المنن لابن عطاء الله السكندري ص ٣٤، طبعة دار البشائر بدمشق.

قلت: ومن مستلزمات الاستقامة على أوامر الله في الكتاب والسنة، عدم تنويه صاحب الكرامات بكراماته، وطيّ الحديث عنها. يقول سيدي الإمام الشيخ أحمد الرفاعي في كتابه (البرهان المؤيد):

((اجتهد بهداية الخلق إلى طريق الحق، ولا ترغب في الكرامات وخوارق العادات، فإن الأولياء يستترون من الكرامات، كما تستتر المرأة من الحيض))[1].

فانظر إلى هذا الذي يقوله العلماء الربانيون، من أمثال الجنيد والشيخ أحمد الرفاعي وابن عطاء الله، ثم قارن ذلك بالواقع العجيب الذي تراه أو تسمعه من حال كثير من مشايخ هذا العصر.. رأس مالهم الذي يستعملونه في الدعوة إلى الله، التنويه بكراماتهم وعرض الأعاجيب والخوارق من شؤونهم وأحوالهم. أقل ما يلفتون أنظار المريدين إليه من ذلك، المنامات التي يرون فيها رسول الله ﷺ!.. ثم إن المنافسة تقوم ولا تقعد بين الشيوخ في هذا المجال، فيقوم فيهم من يدعي بأنه قد تجاوز رؤيته ﷺ في الرؤيا، فأصبح يراه يقظة بين الحين والآخر، وربما حدث الناس بالحوار الذي يجري بينه وبينه، وبالأحاديث التي انفرد بروايتها عنه!..

هذا إلى جانب من يرى أن خير وسيلة لإدخال الهداية في قلوب الناس، أن يريهم كيف يمسك الحصى ثم يقلبها في كفه، وإذا هي لوزة أو قطعة سكّر!..

والشأن في هؤلاء إذا تحدثوا في دروسهم ومجالسهم عن مناقب الأولياء والصالحين، أن لا يتحدثوا إلا عما قد بلغهم من الكرامات

(١) البرهان المؤيد: ص١٠٤، طبعة دار المنى دراسة وتحقيق الشيخ عبد العزيز عز الدين السيروان.

والخوارق التي كانت تجري على أيديهم، دون أي تعريج على ما كانوا يتصفون به من الزهد والورع والاستقامة على أوامر الله وهدي نبيه، وتجنب الموبقات، والترفع عن أكل الحرام، وعن الخوض في أعراض الناس!.. وربما بالغوا في نقل ما يطيب لهم من ذكر كراماتهم، دون تثبت فيما ينقلون.

وإنما يطيب لهم ذلك، ليتخذوا منه توطئة وتمهيداً بين يدي الحديث عن كراماتهم هم.

ويركن المريديون المتعصبون لمشايخهم إلى هذا النهج، ويطيب لهم أن يمتدّ فيما بينهم الحديث في هذه الملح والأخبار، فيروج كل منهم لكرامات شيخه عند كل مناسبة وفي كل لقاء.

وهكذا، فإن مقياس صلاح الصالحين، والدليل على ولاية الأولياء في هذا العصر، غدا شيئاً واحداً، هو كثرة الخوارق والأعاجيب التي تجري على أيديهم، ومن شأن ذلك أن لا يتردد المريدون المتعصبون لمشايخهم في أن يختلقوا ما يشاؤون من أنباء الكرامات والخوارق، ينسبونها إلى شيوخهم ويسيرون بالحديث عنها بين أصحابهم.

أما الكرامات التي هي أشق من تلك الخوارق كلها، والتي تتمثل في الاستقامة الدائمة على أوامر الله مأخوذة من كتابه وسنة نبيه، وفي التورع عن الشبهات فضلاً عن تجنب المحرمات، وفي تجنب المال المشبوه فضلاً عن الحرام، وفي حفظ اللسان عن الخوض في الغيبة وأعراض الناس -: فقد أصبح الحديث عنها مهجوراً في أكثر مجالس الناس اليوم، ونسوا أو تناسوا أنها هي، لا غيرها، مقياس صلاح الصالحين، وولاية الأولياء والمقربين.

والسرّ في ذلك، سهولة ادعاء الخوارق، وصعوبة التجمل بصفات الصالحين ومناقب الربانيين.

إن من اليسير عليّ أن أوهم الناس في دروسي ومجالسي، أنني أرى رسول الله ﷺ يقظة أو مناماً، وأن أخبرهم عن أعاجيب جرت بالأمس وقبل الأمس على يدي. ولكن أنى لي أن أوهمهم زهادتي في الدنيا، وهم يرون إقبالي عليها وتعلقي بها؟ أو أن أوهمهم ترفعي عن الشبهات وابتعادي عن المال الحرام، وتجنّبي الغيبة والخوض في أعراض الناس، وهم يرون علاقاتي المالية المتنوعة التي لا أتحرج منها، ويسمعون كلماتي وأحاديثي التي أتناول فيها الناس في غيبتهم بالنقد والتجريح؟

إذن، المهم أن يخلصك الله من آفات نفسك، وليس المهم أن يخصصك ببعض ما لا يتمتع به غيرك. إذا خلّصك من آفات نفسك فقد أحبك. وذلك هو الفوز العظيم، وإذا خصك ببعض الخوارق فقد ابتلاك، وقلّما مرّ أناس من هذا الابتلاء بنجاح.

* * *

الحكمة التاسعة بعد المئة

«لا يستحقر الورد إلاّ جهول. الوارد يوجد في الدار الآخرة، والورد ينطوي بانطواء هذه الدار. وأولى ما يُعتنى به ما لا يخلف وجوده. الورد هو طالبه منك، والوارد أنت تطلبه منه، وأين ما هو طالبه منك مما هو مَطْلَبُك منه؟»

ما الفرق بين الورد والوارد؟

الورد، هو الحصة التي تلزم نفسك بها من الطاعات النافلة، في أوقات معينة. كركعات من النافلة، وكقراءة ما تيسر من القرآن، وكاالالتزام بأذكار الصباح والمساء. فهذه الطاعات إذا ألزمت نفسك بقدر محدد منها في وقت معين من كل يوم هي المعنيّ بالورد.

أما الوارد، فهو ما يرد إلى العبد من ربه عز وجل من لطائف الأسرار ودقيق المعارف، وخوارق العطاء والإكرام.

يقول ابن عطاء الله في أول هذه الحكمة «**لا يستحقر الورد إلا جهول**».

في الناس من يستخف بالأوراد التي يهتم بها السالكون، وأصحاب الطرق. ولعل مصدر الاستخفاف بها، وجود من يستخف بالتصوف

وجملة الأعمال القلبية التي يبتغى منها تطهير النفس من الرعونات والأوضار التي تحجب صاحبها عن الله عز وجل، وتحرمه من لذة الطاعات والعبادات، وقد علمت في أكثر من مناسبة مرت أنه لا خير في إسلام لا يكون له حظ إلا من لسان الإنسان وأعضائه وحركاته الظاهرة، وأن الإسلام لا يكمل إلا بالإيمان الذي مكانه العقل إدراكاً ويقيناً، والقلب حباً وتعظيماً، وأن الإيمان بدوره لا يكمل إلاّ بالإحسان الذي يجعل الإنسان مع الله في تقلباته كلها.

فما الذي يجعل القلب يحيا بالإحسان، ويفيض بالحب والتعظيم للخالق؟

سبيل ذلك بعد أداء الفرائض وتجنب المعاصي، الإكثار من مراقبة الله وذكره، فذلك هو غذاء القلب إذ يسير به صاحبه في الطريق إلى هذه الغاية.

وإذا كان الإكثار من ذكر الله بكل أنواعه مطلوباً، فإن تنظيم القيام به أمر مطلوب أيضاً، ولو لم يكن تنظيمه أمراً حسناً أو مطلوباً لكان نقيضه، وهو الركون فيه إلى الفوضى، هو المطلوب. وحاشا الأمر أن يكون كذلك.

وهل لتنظيم الذكر وما يتبعه وما هو في حكمه من النوافل من معنى، سوى الارتباط بحصص وأنواع منه، في أوقات محدودة؟ على أن كلاً من القرآن والسنة قد نبه الإنسان إلى هذا الانضباط والنظام. ألم ينبه القرآن المسلم إلى أن عليه أن يقبل إلى الله بشيء من الذكر له، إذا أصبح وإذا أمسى، عندما خاطبه قائلاً: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ

تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٧/٢٠٥] وعندما قال: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى ما يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [طه: ٥٠/٣٩].

ألم ينبه القرآن المسلم إلى أن عليه أن يتعهد نفسه بوظيفة من الاستغفار في أوقات السحر، عندما قال: ﴿كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ ، وَبِالأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ٥١/١٧-١٨].

وهل كانت حياة رسول الله ﷺ إلا مظهراً للانضباط بهذا النظام؟ ألم يقرر العلماء أخذاً من سيرة المصطفى ﷺ أن أفضل الأوقات لقراءة القرآن في الليل ما بين المغرب والعشاء، وما بعد منتصف الليل، وأن أفضل الأوقات لقراءته في النهار ما بعد صلاة الصبح[1].

إذن فقد ألزم كل من القرآن والسنة المسلم بورد من نوافل الأذكار والعبادات الأخرى، يضبط به سلوكه في أيامه ولياليه.

ومن هنا فقد كان للصحابة رضوان الله عليهم أورادهم التي كانوا يلزمون أنفسهم بها، وقد ورد في سيرة عمر رضي الله عنه أنه كان إذا شغل عن ورده في ميعاده المحدد له، قضاه بعد ذلك، ولعله كان أيام خلافته.

فمن ذا الذي يستخف بالورد إذن، إلا من يستخف بتعاليم القرآن وهدي النبوة وما كان عليه جلّ الصحابة؟!.. ولا ريب أنه جهول كما قال ابن عطاء الله.

* * *

(١) انظر الأذكار للنووي: ص١٧٦ طبعة دار الفكر دمشق.

ثم قال ابن عطاء الله «الوارد يوجد في الدار الآخرة، والورد ينطوي بانطواء هذه الدار» وقد علمت أن المقصود بالوارد ما يرد إلى العبد من ربّه عز وجل من لطائف الأسرار، ودقيق المعارف، وخوارق العطاء والإكرام.

وإذا تأملت، رأيت أن هذه الواردات كلها من نوع الجزاء الذي يتفضل به الله على عباده، وإنما ميقاته يوم القيامة، فإن عجل للعبد من ذلك شيئاً في دار الدنيا، فتلك خصيصة وفضل من الله يؤتيه من يشاء. في حين أن الورد - وقد علمت معناه - وظيفة أقامك الله عليها، في دار الدنيا، فإذا انتقلت منها إلى رحاب الله، انتهت الوظيفة وانقطع الطلب، وغابت الفرصة.

إذا عرفت هذا، فلماذا تخالف بين ما هو مطلوب منك وما هو جزاء لك؟ أنت اليوم تمرّ بالفصل الأول من الفصول الثلاثة للحياة التي وضعك الله على منهاجها، وهي الحياة الدنيا.. وهذه الحياة هي موسم العمل، موسم الإقبال إلى ما قد كلفت به من قبل الله عز وجل. ويوشك أن ينقضى العمر، فتفوتك فرصة النهوض بما قد كلفك أو أوصاك الله به، ومن ذلك أوراد الليل والنهار، ووظائف الطاعات الموزعة على الأوقات. ومع ذلك فإن الذي يغلب عليك هو الزهد فيها والإعراض عنها.. وقد عرفت أن كثرة من الناس يثّاقلون من الالتزام بالأوراد، وأن فيهم من يستخف بها أو ينكرها.

أما الواردات التي تفد إليك إكراماً وتفضلاً من الله عز وجل. فإنك حتى لو لم تنل حظك منها في دار الدنيا، فإنها مخبأة ومهيأة لك،

وستنال حظك الوافر منها يوم القيامة، إن أنت نهضت اليوم بما هو مطلوب منك من عمل الليل والنهار، ووظائف الطاعات والقربات. ولكنك مع ذلك تستعجل هذا الذي لم يحن ميقاته بعد، وتعرض عن المطلوب الذي يوشك أن ينقضي ميقات أدائه مع انقضاء العمر.

* * *

ثم إن ابن عطاء الله يعقد مقارنة أخرى بين الورد والوارد، فيقول «**الورد هو طالبه منك، والوارد أنت تطلبه منه، وأين ما هو طالبه منك، مما هو مَطْلَبُكَ منه؟!**».

من المعلوم أن خوارق الألطاف والمكرمات الإلهية، والمعارف والإلهامات الغيبية التي تفد إلى القلب، أمنيات يتطلع إليها كثير من السالكين، بل كثير من المسلّكين والمربين. في حين أن حظهم من الأوراد التي حدّثتك عنها وعن أهميتها، ضعيف ولعله مفقود. وقد عرفت أن واردات الألطاف وخوارق المكرمات إنما هي مطاليبك التي تنتظرها وتبتغيها من الله عز وجل. أما وظائف الطاعات مما يدخل في معنى الأوراد، فهي مطاليب الله منك ومتعلقات أوامره لك. فما لك تتكاسل عن القيام بالوظائف المطلوبة منك، وتنشط في انتظار أو طلب ما تبتغيه أنت منه؟!..

ومن الواضح أن ابن عطاء الله ينبه من خلال حكمته هذه إلى الخطأ الذي يقع فيه بعض السالكين، بل بعض المسلّكين والمربين، إذ يتهاونون في الالتزام بالأوراد ووظائف الصباح والمساء، ويجعلون مطمح أبصارهم ومنتهى آمالهم نيل الواردات المتمثلة في الإلهامات

والفتوحات الربانية الوافدة، وخوارق المكرمات الإلهية، ومن ثم فإن علاقة هذه الحكمة بالتي قبلها واضحة ومتصلة.

ولكن هذا الخطأ الذي ينبه إليه ابن عطاء الله لا يخصّ هذه الطبقة من الناس وحدها، بل يشمل مختلف فئات الناس. إذ يغلب على حال كثير منهم أن يتجهوا إلى الله عز وجل بعرض رغباتهم ومتطلباتهم. معرضين عن الكثير من وصاياه ومتطلباته، يسألون الله العافية من الأوجاع والأسقام، والمزيد من الرزق وازدهار آمالهم في التجارة والصناعة، ويسألونه بلوغ آمالهم الدنيوية المختلفة، دون أن يتذكروا متطلباته هو منهم، فيخفوا إلى تنفيذها ويبادروا إلى تحقيقها، كما يطلبون من الله عز وجل تحقيق رغباتهم وآمالهم الخاصة بهم.

ربما قال قائل منهم: إنها مطالب ثقيلة عليهم، وإن نفوسهم تصدّهم عن أدائها والقيام بحقها، وإن الضعف الذي وصف الله الإنسان به يهيمن عليهم ويتحكم بهم.

ويقال لهؤلاء: إذن فالعجز الذي يحول دون وصولكم لأمانيّكم ومشتهياتكم هو ذاته العجز الذي يحول دون نهوضكم بمطالب ربكم. فمالكم تلجؤون إلى الدعاء سبيلاً للوصول إلى مطالبكم، ولا تلجؤون إلى الدعاء أيضاً سبيلاً لتحقيق مطالب ربكم؟!..

ليس غريباً ولا مستهجناً أن يشكو العبد عجزه عن الالتزام بأوامر مولاه عز وجل. فكلنا نشكو من هذا العجز الذاتي، ومن ثم فإننا جميعاً نردد هذه الكلمة القدسية: لا حول ولا قوة إلا بالله.

ولكن الغريب والمستهجن أن يعرف العبد عجزه وتقصيره، ثم لا يلجأ إلى الله يشكو إليه حاله ويسأله أن يبدل ضعفه قوة وأن يقدره على النهوض بأوامره، والابتعاد عن نواهيه.

ومحل الاستهجان في هذا أن صاحب هذا الشأن، لا يعاني من العجز الذي يعتذر به فقط، بل هو يعاني أيضاً من مشكلة أخطر، ألا وهي عدم اهتمامه بالمطالب الإلهية التي يشكو من عجزه عن القيام بها. إذ لو كان مهتماً بها حريصاً عليها نصف اهتمامه بشؤونه ورغائبه الدنيوية، إذن لتوجه إلى الله بالدعاء الواجف المستمر أن يقدره على النهوض بأوامره التي يشكو عجزه عن النهوض بها، تماماً كما يتوجه إليه يدعوه ويلحف في الدعاء أن يحقق له آماله ورغائبه الدنيوية المتنوعة.

يتعلق أحدهم برغبة دنيوية كزواج، أو كالحصول على دار، أو كالنجاح في مشروع تجاري، أو الوصول إلى رتبة أو وظيفة، فيجمع كل ما يقع عليه من صيغ في الدعاء، بلغه أن من دعا بها يستجاب دعاؤه، ويختار للدعاء بها أفضل الأوقات التي بلغه أن الدعاء فيها مستجاب، فيدعو ولا يزال يدعو، دون ملل ولا كلل... وهو لو عاد يتأمل في حاله مع الله، لرأى نفسه مقصراً في أداء الكثير من أوامره متورطاً في كثير من نواهيه، على اختلافها صغيرة كانت أو كبيرة. وهو مع ذلك لا يشعر بما يدفعه إلى أن يسأل الله أن يحرره من تقصيره، وأن يقدره على الالتزام بأوامره والابتعاد عن نواهيه، يطلب من الله أن يوفقه لمطالبه الدنيوية منه، ولا يطلب من الله أن يوفقه لأداء مطالبه الأخروية التي هي حق الله عليه**!!**..

ولعلك تذكر الحكمة التي مرّت بك والتي يقول فيها ابن عطاء الله ((خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك)) ولعلك تذكر ما تم بيانه في شرح تلك الحكمة آنذاك، فإن غاب عنك شيء منه، فارجع إليه لتجد المزيد مما يتعلق بهذا البحث.

وقد كان من دعاء الجنيد البغدادي قوله: ((اللهم اجعل غاية قصدي إليك، ما هو لك، ولا تجعل غاية قصدي إليك ما أطلبه منك)).

على أن هذا لا يعني أن على المؤمن أن لا يسأل الله إلا ما يصلح شؤونه الدينية، ويقدره على تنفيذ أوامره الربانية، دون التفات إلى أمور دنياه. بل المطلوب منه إذا سأل، أن لا يتوجه بمسألته، أياً كانت، إلا إليه.

غير أن الذي لا يليق بمن يعلم أنه عبد لله عز وجل، هو أن يقدم مطالب نفسه ورغباتها، على مطالب ربه وعلى أوامره التي خاطبه بها.. إن اللائق بعبوديته لله أن يضع أوامر مولاه في أعلى سلّم الأولويات، ثم ينتقل بعدها إلى حاجاته ورغباته، فإن لم يكن ممن بلغ هذه الرتبة في استشعار معنى عبوديته لله، فلا أقل من أن يدعو الله أن يوفقه للقيام بما كلفه به وبما قد أحبه له، كما يدعوه أن يوفقه لنيل رغباته وتحقيق حاجاته.

اللهم اجعل نعمك التي نسألك أن تمتعنا بها، سلّماً إلى بلوغ مرضاتك وسبباً من أسباب قربنا إليك ومحبتنا وشكرنا لك، ولا تجعلها إن أكرمتنا بها سبباً لنسياننا لك، وإعراضنا عن أوامرك وهديك.

* * *

الحكمة العاشرة بعد المئة

«ورود الأمداد بحسب الاستعداد، وشروق الأنوار على حسب صفاء الأسرار»

هذه الحكمة تتعلق بالتي قبلها علاقة إتمام وتعليل.

فلما حذر ابن عطاء الله رحمه الله تعالى السالكين وغيرهم، من التطلع إلى الواردات، والاشتغال بذلك عن الأوراد، بين هنا موجب هذا التحذير. بالإضافة إلى ما ذكره آنذاك من أن انشغال العبد بما يطلبه الله منه مقدم على انشغاله بما يطلبه لنفسه من الله، فهو يقول هنا:

إن الواردات التي تتطلع إليها، إنما ترد إليك من الله عندما تكون مستعداً لها، كما أن أنوار هذه الواردات لا تشرق في كيانك ولا تتجلّى على فؤادك، إلا بعد صفاء سريرتك من كدورات الأهواء والأمراض النفسية التي سماها الله باطن الإثم.

وهيهات أن يتحقق لديك الاستعداد، وأن تتمتع بصفاء السريرة من تلك الكدورات، إلا إن أخذت نفسك بالوظائف التي أقامك الله

عليها وكلفك بها، واستقمت على ذلك مدة طويلة، ومنها ملازمة الأوراد التي تتمثل كما قلت لك في وظائف اليوم والليلة من النوافل والمستحبات.

إذن، فأنت إذ تعرض عن هذه الوظائف، وتشغل نفسك بدلاً عنها بالتطلع إلى الواردات التي تلذّ لك، وتبرز لك مكانة عالية بين الأقران، كمن يطمع أن يرقى إلى السطح بدون سلّم، أو كمن يأمل أن يُشفى مما يعاني بدون علاج!..

وهذا إن دلّ على شيء، فإنما يدلّ على أن من كان هذا شأنه، فهو إنما يتطلع إلى الواردات وينتظر ورودها إليه رخيصة ومن أقصر طريق. ليباهي بها الأقران، لا ليتقرب بها إلى مولاه الواحد الديان. فتطلعه إليها ليس إلا شهوة من شهوات النفس وسعياً منه إلى متعة من متع الدنيا.

هذا هو باختصار معنى كلام ابن عطاء الله هذا.

والمعنى الأعم الذي تدلّ عليه هذه الحكمة، هو أن على المسلم أن لا يشغل نفسه بالغايات والنتائج التي ألزم الله ذاته العلية بها، بل عليه أن يصرف همه ووقته إلى الأسباب والوسائل التي كلفه الله بها.

وإن كثيراً من المسلمين اليوم يخالفون هذا النهج، يعرضون عما كلفهم الله به من الوسائل والأسباب، ويطمحون ببصائرهم، وربما بأبصارهم أيضاً، إلى النتائج التي مردّها إلى الله والتي قضى الله أن يخلقها ويحققها لهم عند نهوضهم بما كلفهم الله به من تلك الوسائل والأسباب.

يطمحون إلى إقامة المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية، ويمسون ويصبحون في هذا الهم، ولكنهم عن السبل التي شرعها الله لهم إلى ذلك غافلون ومعرضون .

قيام الدولة الإسلامية بمقوماتها ودعائمها التامة المعروفة، نتيجة أو ثمرة ألزم الله ذاته العلية بتحقيقها وإنضاجها، للملتزمين بأوامره والقائمين على حدوده، والمجتنبين لنواهيه، يخلصون لله في أعمالهم وشؤونهم، ويطهرون أفئدتهم ونفوسهم مما سماه الله باطن الإثم، ويتصافون متحابين متآخين على هذا الطريق، لا تفرقهم الأهواء والأنانيات، ولا يتخاصمون على الحظوظ والامتيازات، ثم يستقيمون صابرين على تنفيذ هذه التعاليم، وعلى صدق الالتزام بها. وقد تكاثروا وتلاقوا متعاونين متحدين على هذا الصراط.. فهؤلاء هم الذين ألزم الله ذاته العلية أن يمنّ عليهم ويستخلفهم في الأرض ويجعلهم أئمة وقادة للمجتمع الإسلامي المنشود.

وانظر.. تجد مصداق ما أقول لك في النهج الذي ألزم به المسلمون من الرعيل الأول أنفسهم، وفي النتائج التي حققها الله على إثر ذلك لهم.

إنهم أصحاب رسول الله، ومن ساروا على نهجهم من بعد، قطعوا علائقهم كلها عن ماضي الجاهلية وضلالاتها وعصبياتها، واتجهوا بسرائرهم وعلانياتهم إلى البحث عن مرضاة الله، في الالتزام بكل ما أمر والانتهاء عن كل ما نهى، وتساموا على الدنيا وحظوظها، وصبروا وصابروا على الشدائد واللأواء، دون أن تخطر منهم آمال

الدولة الإسلامية أو المجتمع الإسلامي (على حدّ التعبير الدارج اليوم) منهم على بال، فضلاً عن أن يعيشوا في همها وأن يتلاقوا على نسج أحلامها وعلى التخطيط لها. تأمل في حال أولئك الذين هجروا الدنيا في سبيل هجرتهم إلى الله، إلى المدينة المنورة، أفكانوا ينامون ويستيقظون على هم إنشاء دولة؟ أفكانوا يخططون لبلوغ قيادات، أو للإمساك بأزمة حكم؟ بوسعك وأنت تتأمل في أحوالهم وشؤونهم وأقوالهم، أن تتأكد بأن شيئاً من ذلك كله لم يكن يطوف في أذهانهم. إنما الذي كان يشغلهم همّ الوصول إلى مرضاة الله عنهم. ولو افترضنا وجود من يسألهم، وهم يفارقون ديارهم وأموالهم، وقد ولّوا وجوههم شطر يثرب: ما الذي أعددتموه لقيام دولة الإسلام واكتساح دول البغي والإشراك، وما الخطط والنظم التي هيأتموها لذلك؟ لأشاحوا بوجوههم، وأعرضوا بأفكارهم عن مضمون هذا السؤال، ولقالوا: إنما خرجنا نلتمس أرضاً نتمكن من أداء حقوق الله علينا فيها، وممارسة عبوديتنا له بما طلبه منا وافترضه علينا، ثم إنه مولانا يفعل بنا ما يشاء.

ولكن فماذا كانت عاقبة ذلك في حياتهم؟

لما عكفوا على تنفيذ أوامر الله، وجاهدوا في سبيل تصفية سرائرهم من كدورات الأهواء، وتلاقت منهم المشاعر على تعظيم حرمات الله، نشأ لديهم الاستعداد للنهوض بأعباء الدولة، وأعانتهم سرائرهم الصافية على تكوين جماعة إسلامية سداها الحب ولحمتها الإخلاص لله. فأكرمهم الله من ذلك بالثمرة التي ألزم ذاته العلية بها، وأورثهم

الملك، وأقام لهم الكيان، واستخلفهم في الأرض حراساً لدين الله أمناء على حكمه وشرعه.

ولو عاشوا (وهم يجلسون إلى رسول الله ويتلقون منه تعاليم دينهم، ويتبعونه إلى حيث اتجه وهاجر) في همّ إقامة دولة الإسلام وكيفية اكتساح الممالك، وبناء ما يسمى اليوم بالمجتمع الإسلامي، لما تحقق لهم من ذلك الهمّ شيء.

لأن مقتضى انشغالهم بذلك الهم أن ينصرفوا عن الواجب الذي حمّلهم الله إياه، ويعرضوا عن الوظائف التي أقامهم الله عليها. كما هو الشأن في حال أكثر الذين لا هَمّ لهم، ولا أمر يشغلهم، إلا الحديث عن آمال الدولة الإسلامية وأحلام المجتمع الإسلامي وضرورة إيجاده. وإنما هو شأن من طمح بعينيه إلى الأوج وأثبت بصره على تلك النهاية، فذهل بذلك عن السبيل الذي ينبغي أن يسلكه لبلوغ ذلك الأوج.

ولا تحسبنّ أنني أهوّن بهذا من شأن الدولة الإسلامية، وأوهم القارئ أن لا حاجة إليها وأن على المسلمين أن لا يصرفوا من أنفسهم أي اهتمام إليها، فلو كان الأمر كذلك، لما وعد الله عباده الصالحين بها، ولما ألزم ذاته بإقامتها على أرضهم وترسيخها في حياتهم. وذلك في مثل قوله عز وجل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَما اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٥/٢٤].

ولكن الذي أعنيه، وألفت إليه النظر في حديثي هذا، هو أن قيام الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي، من النتائج والآثار التي ألزم الله

بها ذاته، كما تلاحظ في الآيات الدالة عليها، ثمناً وجزاء لجهودهم التي يؤدونها في الانقياد لأوامره واجتناب نواهيه، وتزكية نفوسهم من الشوائب.

فمن أظهر الاهتمام بالجزاء الذي ألزم الله به ذاته، وأعرض عن موجبات الجزاء التي ألزمه الله بها، فهو في الحقيقة غير مهتم بالجزاء الذي ينتظره دون أن يهتم بتقديم ثمنه، إنه إنما يمارس في ذلك أمانيّ باطلة، تشبه تلك التي قال الله عنها وعن أصحابها: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ..﴾ [النساء: ٤/١٢٣].

ألا تلاحظ حال كثرة كاثرة من الناس اليوم، يقومون ويقعدون بالحديث عن أحلام قيام دولة إسلامية قوية رشيدة، كتلك التي كانت في العهود الإسلامية الغابرة، وهم أبعد ما يكونون عن الانضباط بأوامر الله والابتعاد عن نواهيه، حذرهم الله عن الافتتان بزخرف الحياة الدنيا، وهم يتهافتون عليها في تنافس وصراع!.. أمرهم بالتآخي الحقيقي والتآلف الذي يبعث على وحدة المشاعر ونبذ الخلاف، وهم متخالفون متهارجون يتنازعون على الزعامات والرتب!.. أمرهم أن يعكفوا على تزكية النفوس من أوضارها وتطهير القلوب من التعلق بالأغيار مؤكداً لهم أن ﴿...وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾ [البقرة: ٢/١٦٥] فاستخفوا بالتزكية وسبلها، وأعرضوا عن قلوبهم وما استكنّ من الأمراض التي فيها!..

عباداتهم مجرد تقاليد سطحية يمرون بها، والنصف الأول من لياليهم أسمار وأحاديث عن الدنيا وأحداثها أو عن أمانيّ الدولة الإسلامية

وأحلامها، أما النصف الثاني منها فاستغراق في رقاد ثقيل إلى أن توقظهم طلائع بزوغ الشمس ضياء منتشراً في الأرجاء!.. وجملة القول، أنك تنظر فتجد أن الأنشطة الإسلامية في حياتهم وتصرفاتهم ليست إلاّ مطايا مذللة لمصالحهم وطموحاتهم الدنيوية المتنوعة.

فكيف يصدق في حقهم أنهم مهتمون ومتحرقون فعلاً على قيام المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية وهم عن اتخاذ السبل الضرورية إليها معرضون؟

رحم الله من قال:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس

إن الأمداد التي يتحدث عنها ابن عطاء الله، جمع مدد، والمدد خطوة ربانية تفد إلى العبد من لدن مولاه وخالقه، تتمثل في كل نعمة يقصر عنها باع الإنسان، فيكرمه بها الواحد العظيم المنان، فمنها ما يدخل في خوارق الإكرام الإلهي، ومنها ما يدخل في بوارق الإلهام والمعارف والتوفيقات الربانية، ومنها ما يدخل في مظاهر النصر على الأعداء، والفوز في الجهود المبرورة وأنواع الجهاد، وإكرام الله الجماعة المسلمة الملتزمة، بإخلاصٍ، لأوامر الله، بالدولة والمنعة وترسيخ وجودهم الحضاري على الأرض.

فهذه الإمداد المتنوعة، إنما تأتي نتيجة للاستعداد السلوكي، وثمرة لصفاء السريرة وطهارتها من التعلق بالأغيار، وشفائها من الأدواء والأوضار، وتعلقها، بالحب والمهابة والتعظيم، بالله الواحد القهار. أي تأتي نتيجة للانقياد لأوامر الله ولاجتناب نواهيه.

وهذه الحقيقة بكل ما فيها من تفاصيل، محشوة وماثلة في قول الله تعالى: ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظّالِمِينَ ، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤/١٣-١٤] وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾ [العنكبوت: ٢٩/٦٩].

* * *

الحكمة الحادية عشرة بعد المئة

«الغافل إذا أصبح ينظر ماذا يفعل، والعاقل ينظر ما يفعل الله به»

كان المفروض أن يعبر عما يقابل العاقل بـ: الغبي أو الساذج مثلاً. ولكنه عبر عما يقابله بـ: الغافل، كما ترى. فلماذا؟

والجواب: لأن مراده بالعاقل من يحكّم عقله في حقائق الأمور، ويستعمله في فهمها وإدراكها على ما هي عليه. وإنما يقابله، بهذا المعنى، الغافل. إذ الشأن فيه أنه ذاهل عن استعمال عقله منصرف عن تحكيمه في حقائق الأمور وعن السعي به للوصول إلى كنهها ولإدراكها على ما هي عليه.

وهذا يدلّك على أن كلا الرجلين يتمتعان بالعقل، ولكنّ أحدهما جادٌّ في استعماله مخلص في التعامل معه، والآخر مهمل له، لا يلجأ إليه إلا لينجده في تحقيق أهوائه وتذليل رغباته. فهو فيما وراء ذلك مهمل له، أي فهو غافل عنه وعن المسائل والأمور الأخرى التي لا يهمه شأنها.

إذن فصنيع ابن عطاء الله هذا (إذ أراد بالعاقل ما قد ذكرته لك، ومن ثم قارنه بالغافل) يردّ استشكال من قد يقول: ولكن الدنيا مليئة بالعقلاء والأذكياء الذين لا ينظر أحدهم إذا أصبح ما يفعل الله به، بل ينظر، كما ينظر الغافل، ماذا يفعل، أجل.. إن صنيعه هذا يردّ هذا الاستشكال ويجيب عنه بأن هؤلاء العقلاء والأذكياء غافلون عن الاهتمام بما لا غرض لأهوائهم به، معرضون عما يرون أن لا مصلحة لهم بالنظر أو التفكير فيه، فهم لا يُعملون عقولهم فيه على الرغم من أنهم يتمتعون بها.

* * *

والآن.. لاحظ الدقة التالية في كلام ابن عطاء الله:

يقول عن الغافل: إنه ينظر ماذا يفعل، ويقول عن العاقل: إنه ينظر ما يُفعل به. استعمل كلمة «ينظر» في الحالتين، بدلاً عن كلمة «يقول» فلماذا؟ لماذا لم يَصُغْ حكمته هذه بالعبارة التالية: الغافل إذا أصبح يقول: ماذا أفعل، والعاقل إذا أصبح يقول: ماذا يُفْعَل بي؟!..

والجواب أن المسألة هنا تتعلق بالاعتقاد، لا باللفظ والعبارة، أي إن المطلوب من المسلم أن يعلم أنه لا يستقل بأمر نفسه في حال من الأحوال ولا فعل من الأفعال ولا في حركة أو سكون، وإنما هو مقود في كل ذلك بقرار الله وقضائه، وبعونه وتدبيره.

فإذا علم المسلم ذلك واستيقنه، فلا حرج، عند التعبير والبيان أن ينسب إلى نفسه الفعل مخبراً عن الماضي أو المستقبل، بأن يقول: فعلت

كذا، أو سأفعل كذا، ولا ضير في أن يخطط لما هو مقبل عليه من شؤونه وأن يضع لنفسه المنهاج الذي يريد، وأن يعلن عن التزامه به وعزمه على تنفيذه. بل هذا هو المطلوب من حال المسلم وشأنه. وتلك هي سيرة رسول الله في تقلباته وأعماله.. ولو لم يصح من المسلم أن يعزم بصريح القول على الأفعال والتصرفات التي يريد أن يقوم بها، لما صح أن يطالبه الله بالأفعال التي أمره بالقيام بها، من صلاة وصوم ونسك وجهاد ونحو ذلك.

إذن فلا حرج في أن يقول المسلم إذا أصبح: سأفعل اليوم كذا، ولكن يجب على كل مسلم أن يعلم أنه إذ يقول ذلك مقرراً النهوض بأعماله وشؤونه التي عزم على القيام بها، إنما يمارس من ذلك القدر الذي متعه الله به، وهو العزم النفسي على الشيء. وهو ثمرة اختيار متع الله به الإنسان، فهو يملك أن يتوجه بقصده الاختياري إلى ما يشاء من التصرفات والأعمال. أما التنفيذ الفعلي له فيتوقف على أن يوفقه الله له بأن يقدره على النهوض به، وبأن يمنع العوارض والموانع التي قد تعوقه عنه، وبأن لا يكون في قضاء الله ما يخالف اختياره وعزمه.

وبالجملة فإن العبد إذ يتجه إلى فعل ما، لا يملك تجاهه إلا القصد إليه والعزم عليه، أما المبادرة إليه بالتنفيذ فإنما تكون بخلق الله له.

إذن، فليس المهم في هذا الأمر العبارة التي تدور على اللسان من مثل كلمة «سأفعل» وإنما المهم العقيدة التي ينبغي أن تستقر في العقل.

فمن أجل ذلك حاد ابن عطاء الله عن كلمة «يقول» واستعمل بدلاً عنها كلمة «ينظر» وإنما أراد بها النظر الفكري والاعتقادي.

أي إن العاقل، وإن قال: سأفعل اليوم كذا، فإنه يعلم جازماً أنه لا يملك من الفعل الذي يعنيه إلا القصد إليه والعزم عليه، أما التنفيذ فمتوقف على حكم الله وقضائه ومعونته وتوفيقه، ومن ثم فهو ينظر بعقله إلى ما يفعله الله به تجاه الأمور التي عزم عليها وقرر القيام بها.. أما الغافل فهو الذي لا يدري هذه الحقيقة، ومن ثم فهو ينظر إلى الفعل الذي عزم عليه على أنه هو المستقل بشأنه، والمتمكن من النهوض به، وعلى أنه هو المتسلّط على أفعال نفسه بما يملك من قدرة وتنفيذ وتدبير.

* * *

ثم إن هذه الحكمة مبنية على مبدأ معلوم من مبادئ العقيدة، وهو أن من الثابت باليقين العلمي والنصوص القاطعة أن الله هو الذي يخلق أفعال العباد، وهو مصدر القوى والقدر كلها.

أما المثوبة والعقاب، فإنهما يدوران على محور القصد والعزم، لا على الفعل المادي الذي هو بخلق الله عز وجل؛ والمصطلح القرآني الذي يعبر عن القصد والعزم، هو «الكسب» في مثل قول الله تعالى: ﴿لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها ما اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢/٢٨٦].

وإياك أن تتوهم الخطأ الفادح الذي يقع فيه عوام الناس وكثير من أنصاف العلماء فيهم، إذ يتوهمون أن القضاء هو إلزام الله الإنسان بما

حكم عليه به، ومن ثم فإن بين القضاء الإلهي وحرية التصرف تناقضاً حاداً، يمنعهما من التلاقي والاجتماع، فيما يحسبون أو يتوهمون.

إن معنى القضاء فيما يتعلق بأفعال الإنسان وتصرفاته الاختيارية، علم الله عز وجل بما سيختاره الإنسان ويفعله. والقدر وقوع هذه الأفعال أو التصرفات مطابقة لعلم الله. إذن فلا علاقة بين القضاء الإلهي، ووقوع الإنسان في قيود الجبر وأسره.

على أننا نقول هنا كلاماً موجزاً في مسألة الجبر والاختيار وما يتعلق بهما، فإن أعوزك التفصيل، وكنت ممن غُمَّ عليه هذا البحث، فارجع إلى تفصيل القول فيه، في كتابي (الإنسان مسير أم مخير).

فابن عطاء ا لله يبني حكمته هذه - كما قلت لك - على هذا المبدأ الذي هو من أهم مبادئ العقيدة الإسلامية. غير أنه ليس معنياً هنا بالتركيز على معناه النظري ودلائله العلمية التي تبسط في أماكنها من كتب العقيدة. وإنما الذي يلفت إليه النظر في حكمته هذه، هو ضرورة وضع المسلم هذا المبدأ الاعتقادي الهام، من حياته موضع التنفيذ، ولا يحبسه في مخزن المعارف النظرية من فكره. وذلك هو شأن المسلم الذي هيمنت عقائد الإسلام على كيانه فغدت القائد الأوحد له في سائر سلوكاته وتصرفاته.

ومن ثم فإن من شأن المسلم الذي صحا إلى معاني التوحيد وسلطانها على كيانه (وهو المقصود بالعاقل) كلما أصبح، أي كلما أقبل على شأنه الذي أقامه الله فيه، أن ينظر أي يتأمل ويفكر فيما يفعله الله به. ترى هل سيوفقه الله فيما قد عزم عليه من الأفعال

والتصرفات والمشاريع؟.. هل ستمتد به الحياة فيعيش بياض يومه الجديد هذا؟ هل في قضاء الله تعالى أن يُبتلى بمصيبة ما في جسمه أو ماله أو بعض من أهله؟[١].

ونظراً إلى أن الحقيقة العلمية، تقول لصاحب هذه التساؤلات: لا أملك من علم هذه الأمور الاحتمالية شيئاً، وإنما مردّ ذلك كله إلى الله ومشيئته، فإن الشأن فيه أن يعلم في كل لحظة، لا في كل صباح فقط، أنه إنما يتحرك في قبضة الله، ويُساق تحت سلطان الله. فهو مهما قرر وخطط، ومهما عزم على أن يفعل أو يترك، لا يملك أن يتحرك إلا بمدد من الله وعون منه.

ومن ثم فإن الشأن فيه أن يستعمل ملكة الاختيار التي متعه الله بها، وأن يتوجه بها إلى العمل الصالح الذي شرعه الله وأمر به، مما يعود بالفائدة الدينية أو الدنيوية إليه وإلى إخوانه، وأن يعزم على النهوض به، خدمة للأمة، وإرضاء لله عز وجل، وأن يسعى سعيه للإنجاز والتنفيذ، على أن يستسلم في الوقت ذاته لتدبير الله، ويتكل على توفيق الله، وعلى أن يعلم أن مشيئة الله هي النافذة. ومن ثم فهو يسعى سعيه إلى إنجاز ما عزم عليه، منتظراً ظهور قرار الله في شأنه، متسائلاً عما يفعل الله به.

فمن هنا جاء الأدب الإسلامي بتنبيه المسلم إلى أن يقيد وعوده وإخباراته عن الأعمال والتصرفات التي عزم على إنجازها، بمشيئة الله

---

(١) لعلك تقول: ألم تقل إن القضاء هو علم الله بما سيختاره الإنسان من التصرفات، ولا شأن له بالجبر؟ والجواب، أن القضاء ليس له إلا ذلك المعنى بالنسبة لأفعال الإنسان الاختيارية. أمّا ما وراءها من الأمور القسرية التي لا اختيار له فيها، كالأمراض وأحداث الولادة والموت ونحوها، فقضاء الله بالنسبة إليها يعني علمه جل جلاله بما سيخلقه من ذلك، بعيداً عن قصد الإنسان واختياره.

عز وجل. ليأتي كلامه بعد تقييده بمشيئة الله أرسخ في دائرة الصدق، وأبعد عن احتمال الكذب والخلف. وبوسعك أن تتبين أهمية هذا الأدب الإسلامي، في هذا الكلام الذي يخاطب الله به رسوله محمداً ﷺ: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذَلِكَ غَداً ، إِلاّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذا رَشَداً﴾ [الكهف: ١٨/٢٣-٢٤].

وأجلى من ذلك في هذا الباب قول الله تعالى لرسوله: ﴿قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّ ما يُوحَى إِلَيَّ وَما أَنا إِلاّ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٤٦/٩].

وأصح ما قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ﴾ أن ذلك عائد إلى أمور الدنيا وتقلباتها، أما في يوم القيامة فقد أنبأ الله رسوله بما قد أعدّ له فيه من المقام المحمود والحوض المورود والمكرمات التي لا حصر لها[1].

فإذا التزم المسلم تجاه شؤونه وأعماله وتصرفاته التي يقبل إليها، بهذا التسليم موقناً بأن الله هو المسيّر له في كل شؤونه وتقلباته، فإنه لا يفاجأ من إرادة الله فيه وقضائه بحقه، إلا بما يستيقن أنه خير. ذلك لأنه إنما ينسب النتائج كلها إلى إرادة الله وحكمه. والمؤمن بالله حقاً لا يكون إلاّ واثقاً بحكمة الله ورحمته، ومن ثم فهو يوقن بأن ما اختاره الله له هو الخير، حتى وإن كان ظاهره دالاً على خلاف ذلك. كيف لا وهو يقرأ قول الله تعالى: ﴿ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ

(١) انظر ما قاله في ذلك مفصلاً ابن كثير في تفسيره ٤/١٥٥.

وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/٢١٦]، ويقرأ قوله عز وجل: ﴿..فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾ [النساء: ٤/١٩].

وحتى في الأمور التي لايستبين له، ولا لغيره، وجه الخير فيما اختاره الله له وقضى عليه بشأنها، فإنه لا يشك في أنها تربية من الله له، وإيقاظ له من التيه أو الغفلة إلى مزيد من الانضباط بطريق الرشد، فهي وإن تلقاها ضربات موجعة، ولكنه لا يشك في أنها كعصا المؤدب، موجعة في وقعها ولكنها مريحة بل ممتعة في عاقبتها. ورحم الله من قال:

فقسى ليزدجروا ومن يك راحماً فليقس أحياناً على من يرحم

ولا تسل عن السعادة النفسية والصحة الجسدية اللتين يحرزهما الإنسان لنفسه، إذ يكون من صنف «العقلاء» على حدّ تعبير ابن عطاء الله، فيتلقى الظروف التي تمرّ به، والأحوال التي يفاجأ بها، والأعمال التي تصدر منه أو التي يعزم عليها، على أنها اختيارات من الله، وأحكام قضى عليه بها، وأنه في خضم الحياة التي يعيشها لا يملك أن يفعل، بقدرة وسلطان منه، شيئاً، بل هو الله وحده، يفعل به ما يشاء.

مثل هذا الإنسان لا يعرف التوتر العصبي إليه من سبيل... ولا تجد الكآبة إلى نفسه، ومن ثم إلى قلبه، أي منفذ. وقد تتركه الدنيا كلها، في بياض يوم واحد، بعد أن ذاق طعمها، وتقلب في نعيمها، فلا يودعها إلاّ كما استقبلها، بنفس مطمئنة راضية، وبأمل مزدهر من الله

عز وجل بأن خيراً سيفد إليه من خلال هذا الشر أو من ورائه، وبأن الله يمتحن في هذا الابتلاء صبره، وأن عاقبة صبره ستأتي مثقلة بأضعاف ما قد خسره أو فقده الآن.

فتلك هي حالة المؤمن الذي إذا أصبح ينظر ما يفعل الله به، وقد علمت معنى كلمة ((ينظر)). وعن هذا الفريق من المؤمنين يقول رسول الله ﷺ: ((عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحدٍ إلاّ للمؤمن. إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له))[1].

بل المؤمن الصادق في إيمانه لا يكون إلاّ كذلك، أي لا يرى نفسه إلا متقلباً في كل الأحوال، في قبضة الرحمن، ومن ثم فإنه لا يرى نفسه إلا ممتعاً بخير محظياً بما يسره ويسعد إن عاجلاً أو آجلاً.

* * *

أما الغافل، على حدّ تعبير ابن عطاء الله، وهو الذي لم يستعمل عقله في إدراك الحقيقة والتعامل معها، فإنه يرى أنه هو المستقلّ بأمر نفسه، وأنه هو المنفذ لخططه ومشروعاته، ناسياً أنه لا يملك من وراء اختياراته وعزائمه النفسية أي قدرة تنفيذية، وذاهلاً عن أن خالق كل شيء والمدبر لكل شيء إنما هو الله، ومن ثم فإنه إذا أصبح ينظر، أي يفكر، فيما قرره وقضاه في حق نفسه.

والشأن في حال هذا الإنسان الغافل، أن يتعرض للمفاجآت التي لم يكن يضع لها في نفسه أي حساب، مما يخالف قراراته وأحكامه التي

(١) رواه مسلم وأحمد من حديث صهيب الرومي.

اتخذها في حق نفسه، إذا لأمر - كما قد علمت - ليس عائداً إليه، وإنما هو عائد إلى قضاء الله وحكمه وخلقه. وهو لم يكن يضع لذلك في ذهنه أيّ اعتبار.

ولا تسل عن الضيق الذي ينتابه، إذ يفاجأ بأن آماله خابت، وبأن أحكامه التي عوّل على نفسه بها، عادت أمنيات باطلة.

قرر، ولم ينفّذ قراره. وعوّل على قدرته وإمكاناته، ولم تنجده قدرته ولا إمكاناته بشيء، وأصرّ على أن ما تعلقت به نفسه واتجهت إليه رغائبه هو الخير، ولم يتحقق له ذلك الخير، فمن أين ينفذ إلى قلبه العزاء؟ وأنى له أن يعلم أن الله هو المسيّر، وأنه هو صاحب القوى والقُدَر، وأن الذي يعلم ما تنطوي عليه ظواهر الأشياء من خير أو شر إنما هو الله؟ أنى له أن يعلم هذا كله، وهو غافل إلا عن الاغترار بنفسه، محجوب بأوهام قدراته عن وحدانية الله وقدرته.

حياة هذا الصنف من الناس معرضة دائماً لأخطر المنغصات، ولأسوأ الأمراض النفسية والجسمية، ولا علاج لذلك كله إلا اليقظة من الغفلة والإصغاء إلى صوت العقل، ولسوف يقول العقل لصاحبه عندئذ: انظر ما يفعل الله بك، ولا تنظر - تحت سلطان الوهم - ما تفعله مستقلاً بنفسك.

* * *

الحكمة الثانية عشرة بعد المئة

((إنما يستوحش العباد والزهاد من كل شيء، لغيبتهم عن الله في كل شيء. فلو شهدوه في كل شيء لم يستوحشوا من شيء))

في العُبّاد والزُهّاد، من يحسبون أن الانقطاع لكل من العبادة والزَّهادة يستدعي العزلة عن الدنيا والابتعاد عن الناس، لتصفو قلوبهم عن الشواغل، ولكي يكون ابتعادهم عن الدنيا عوناً لهم على الزهد فيها والإعراض عنها، فيبحثون لعباداتهم عن أماكن معزولة عن الناس مفصولة عن زخارف الدنيا وشواغلها، ويمارسون زهدهم من خلال الابتعاد عن النعيم وأسبابه، والتجرد عن الزينة، والحذر من التبسط في المأكل والمشرب والمباحات.

فهل هذه هي الرتبة العالية المثلى التي ينبغي أن يشدّ العبد نفسه إليها، لينال رتبة الأبرار والصديقين؟

يؤكد ابن عطاء الله من خلال هذه الحكمة أن التفرغ للعبادة والإعراض عن زخارف الدنيا وملهياتها، لا يكون السبيل إليها بالعزلة

في الكهوف ونحوها، وبهجران مقومات الحياة الدنيا، كزراعة الأرض وبناء البيوت، وإنشاء المعامل وإقامة المشروعات التجارية، والسعي وراء اكتشاف الحقائق العلمية.

ولو صح أن يكون سبيل العبادة والزهد في الدنيا، الاستيحاش من كل شيء تراه العين من مظاهر هذه الحياة الدنيا، ومن ثم الفرار منه والابتعاد عنه، إذن لعادت الأرض خراباً، ليس فيها عرق أخضر، ولا بناء لساكن، ولا رزق يُعدّ لطاعم، ولتحولت أرض المسلمين إلى مرتع للكافرين من أعداء الله وعباده المؤمنين به، دون أن يكون في المسلمين جند يذودون عنها ولا حاكم يرعى شؤونها ومصالحها.

وكل ذلك يتناقض مناقضة حادة مع قول الله عز وجل: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١/١١] أي أمركم بعمارتها، ومع قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥/٦٧] ومع قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢/٧].

ولكن كيف السبيل إلى أن يقبل المسلم فيلبي نداء الله الآمر له بعمارة الأرض والتقلب في نعيمها والاستفادة من خيراتها والتعامل مع كنوزها ومدّخراتها، دون أن تشغله عن الإقبال إلى الله وعن أداء الرسالة التي خلق من أجلها والتي دلّ عليها قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ

الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ، ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥١/٥٦-٥٧] بل كيف السبيل إلى أن يقبل المسلم إلى الدنيا وخيراتها وكنوزها هذا الإقبال، ثم لا يحجب بها عن الله وعن الدار الآخرة؟

يجيب ابن عطاء الله، من خلال حكمته هذه عن هذا السؤال.

يقول ابن عطاء الله: إنما يأسرك من الدنيا تعلقك بها، لا تعاملك معها. والمطلوب منك أن تتعامل معها لا أن تتعلق بها.

والسبيل إلى ذلك أن تأخذ نفسك بالأسباب التي توقظ بين جوانحك محبتك لله، والتي تزيدها قوة وتأثيراً على قلبك. وأهم هذه الأسباب الإكثار من ذكر الله ومراقبته، وقد مرّ بك الحديث عن أهمية ذكر الله تعالى وآدابه وآثاره، في أكثر من مناسبة، فلا داعي إلى التكرار.

غير أني أذكرك بما قلته لك من أن أفضل وأيسر طريقة لذكر الله تعالى أن تربط النعم التي تفد إليك بالمنعم جل جلاله، بأن لا تتلقاها غافلاً عن مصدرها الذي وصلت إليك منه. ونظراً إلى أن نعم الله تعالى سلسلة متصلة الحلقات لا تكاد تنقطع عنك، إذن لا بدّ أن تكون دائماً مع الله في استقبالك لنعمه، بفكرك ووجدانك، وهذا هو أعلى مراتب مراقبة الله وذكره.

فإذا أخذت نفسك بهذا الورد، بل بهذا الغذاء الروحي المتميز، واستقمت على ذلك دون انقطاع، تراقب المنعم المتفضل، كلما تقلبت

في نعمةٍ من نعمه، فإن قلبك يصبح وعاء يفيض بحبه وحده، وتغيض بل تزول منه محبة الأغيار.

واعلم أن محبة الله موجودة بالفطرة في أفئدة عباده جميعاً، ولكنها قد تكون راقدة، من جراء ما قد غشّى عليها من محبة الشهوات والأهواء. ولكن الدوام على ذكر الله تعالى، لاسيما بالطريقة التي حدثتك عنها، يوقظ هذه المحبة الربانية من رقدتها، ثم إنها تزداد قوة وتكاملاً مع الاستمرار على مراقبة الله وذكره، إلى أن لا يبقى في القلب شريك مع الله في حبه.

وربما استشكلت هذا الذي أبينه لك، قائلاً: ولكن ألا تبقى في القلب مع محبة الله تعالى محبة الأب لأولاده، والزوج لزوجه، والمسلم لإخوانه.. إلخ؟

والجواب أن الذي فاض قلبه حباً لله تعالى، لا يتأتى منه أن يحب مع الله أحداً، فإن أحب ابنه أو أباه أو إخوانه، أو الرسل أو الصالحين من عباد الله، فإنما هو حبٌ في الله تعالى، وليس حباً مع الله. وبينهما فرق كبير.

إن الحب مع الله لون من أخطر ألوان الشرك، أما الحب في الله فمن أجلّ ثمار التوحيد.

ونعود الآن إلى ما نحن بصدده، من بيان معنى هذه الحكمة، فنقول: إن هذا الذي فاض قلبه حباً لله عز وجل، لا يبصر من الدنيا إلا ما يذكره بالله، ولا يستقبل شيئاً من نعيمها أو يصادف شيئاً من ابتلاءاتها، إلا ويرى نفسه يتعامل من خلالها مع الله.

إن محبة الله تعالى تجعل عين المحب، مهما تقلبت في أنحاء المكونات وصورها وزخارفها، لا تشهد في ذلك كله إلا صفات الله تعالى ومظاهر آلائه وحكمته وبالغ سطوته وقدرته. وهي حال يعرفها ويتذوقها كل من استقام على مراقبة الله وذكره بالنهج الذي أوضحته لك، وهي الحال التي يسمّونها وحدة الشهود.

ففيم يستوحش صاحب هذه الحال من الأشياء التي يراها أو يتعامل معها، وهي إنما تذكره بالله، بل لا يشهد فيها إلا صفات الله عز وجل؟

ومن ثم ففيم يفرّ منها، أي من أشياء الكون ومقومات الحياة الدنيا إلى الانعزال في الكهوف وشعاف الجبال؟

إذن، فالذي لا تحلو له العبادة إلا بعد أن يقصي نفسه عن معترك الحياة، ولا يتأتى له ذكر الله إلا بعد أن يقطع نفسه عن أسباب الدنيا كلها، محجوب عن الله بصور الدنيا ومظاهرها، غائب بل مشغول عنه بأشيائها وخيراتها، ومن ثم فهو يعالج نفسه، إذا أراد الإقبال إلى الله، بالاعتزال عن الناس ودنياهم، وبالانفراد في الكهوف والشواهق. وهذا شأن من كان حديث عهد بمعرفة الله والإقبال إليه، والانضباط بأوامره. وربما كان من الخير بالنسبة له ولأمثاله، أن يأخذ نفسه أحياناً ببعض الخلوة، ليروضها على التحرر من الملهيات والمنسيات الدنيوية، وليجمع ذهنه وشتات فكره بين يدي مراقبته لله تعالى. بل إن ورداً جزئياً من الخلوة يأخذ به المسلم نفسه في كل يوم وليلة، كالقيام في الأسحار، أو في أي من أوقات البكور والآصال، من شأنه أن يعينه

على تصفية فكره من الشواغل والشوائب، وعلى التوجه بقلبه إلى مراقبة الله والتفكر في نعمه وآلائه وباهر صفاته.

وليس في الصالحين والربانيين من عباد الله، من ليس له حظ من هذه الخلوة الجزئية يغذي بها وجدانه، ويتطهر بها من وساوس نفسه.

ولكن ابن عطاء الله يتحدث هنا عن المنقطعين عن الدنيا تزهداً فيها ورغبة في التفرغ لعبادة الله ظناً منهم أن التعامل مع الدنيا يشغلهم عن الله. وقد علمت مما شرحته لك من كلام ابن عطاء الله، أن هذا النهج في تربية النفس خطأ لا يُقرّ عليه. وبتعبير أدق: هذا النهج شأن من لم يبلغوا درجة العلماء الربانيين الذين كانوا امتداداً لما عليه السلف الصالح رضوان الله عليهم، فإنهم كانوا مع سموّ درجاتهم، وشدّة إعراضهم عن الدنيا، وعظيم قربهم من الله، ودوام ذكرهم له، يتعاملون معها، وينشطون في القيام بما أمرهم الله به من عمارتها، ويندمجون في المجتمع الإنساني الذي من حولهم، دون أن يعكر شيء من ذلك على قربهم من الله وشهودهم الدائم له بأعين بصائرهم.

ألا ترى إلى الخلفاء الراشدين؟ ألم يكونوا نُقاية السلف الصالح؟ أفهجروا الأوطان والأموال والديار، واستوطنوا الكهوف وبطون الأودية أو شعاف الجبال؟.. ألا ترى إلى عمر كيف أنشأ ديوان العطاء، وبنى الكوفة ومارس جهوده الهندسية في بنائها، وباشر في إنشاء أسطول بحري؟ ألا ترى إلى أبي بكر كيف كان تاجراً يصفق من أجل الرزق في الأسواق؟ وهل كانت تقوم للإسلام الحضاري قائمة، بل للإسلام من حيث هو قائمة، لو أن أولئك الخلفاء ومعهم

ذلك الرعيل الأول، هجروا الدنيا وخيراتها و فعلوا ما فعله المتعبدون الذين يتحدث عنهم ابن عطاء الله؟.

غير أنك قد تسأل: فكيف أتيح لذلك السلف الصالح أن يسبحوا في بحار الدنيا، كما قلت، دون أن يختنقوا في أعماقها، ودون أن تعصف بهم أمواجها؟

إن ابن عطاء الله رحمه الله تعالى قد تولى الإجابة عن سؤالك هذا، عندما قال: ((فلو شهدوه في كل شيء، لم يستوحشوا من شيء)).

هكذا كان شأن ذلك السلف: شاهدوا الله تعالى في كل شيء من مخلوقاته، فكانت مخلوقاته دليلاً لهم إليه، ولم تكن حجاباً يصدهم عن معرفته وشهوده، ويشغلهم عن تسبيحه وذكره!.. ففيم يستوحشون مما يدلّهم على الله ويبصّرهم بمظاهر ربوبية الله؟

وأنت تعلم أننا لا نعني بقولنا: إنهم شاهدوا الله في كل شيء من مخلوقاته، وحدة الخالق والمخلوق، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ولكنا نعني، كما قلت أكثر من مرة، أنهم لم يروا في مخلوقات الله أياً كانت، إلا ما يذكرهم بالله، فهي - فيما يبصرون - أشبه ما تكون بألواح زجاجية شفافة نقية صافية، تنظر إليها، فلا تبصر منها إلا ما وراءها. فهي دالة عليه تبصّر العين به، وليست حاجزاً يحول بينه وبين العين.

وإنما استطاع الرعيل الأول الجمع بين هذين الأمرين: التعامل مع الدنيا والترفع فوقها، والإقبال إليها مع ذهولهم بالله عنها، عندما أخذوا أنفسهم بالعلاج الذي ذكرته لك: أكثروا من ذكر الله

ومراقبته، حتى فاضت أنفسهم حباً له وثقة به، ثم وجدوه يحدثهم في خطابه القرآني عن تفاهة الدنيا وعن كونها مجرد متاع يُستخدم لقضاء حاجة ثم يلقى به أرضاً، ورأوه يؤكد هذه الحقيقة ويكررها بأساليب شتى. فاستقر في أنفسهم هذا الذي وصفها الله به وأيقنوا أنها عرض زائل وبرق خلّب، فاجتثوا محبتها من قلوبهم، بدافع من عظيم حبهم لله وثقتهم التامة ببيانه وخطابه.. ثم وجدوه يأمرهم بأن يقبلوا إليها فيتعاملوا معها ويستفيدوا منها، ولكن تعامل المستخدم للخادم، والمؤجر للمستأجر، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٥/٨٧]، وقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٧/٣٢] مقيَّداً بقوله عز وجل: ﴿وَابْتَغِ فِي ما آتاكَ اللَّهُ الدّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا﴾ [القصص: ٢٨/٧٧].

* * *

بقي أن تعلم أن ابن عطاء الله، لا يتهم المتعبدين والزهاد الذين يستوحشون من مظاهر الدنيا التي تفور بها المجتمعات، فيفرون منها إلى خلواتهم التي يطيب لهم أن ينقطعوا إلى عبادة الله فيها، أقول: لا يتهمهم بالانحراف عن جادة الدين ولا يأخذ عليهم تورطاً في بدعة أو ارتكاباً لمحرم.. كيف، وهو يسميهم متعبدين وزهاداً.

ولكنه يلفت النظر من خلال كلامه الذي شرحته إلى أن رتبة هؤلاء المتعبدين والزهاد، متقاصرة على رتبة العارفين ومن كان قبلهم من أصحاب رسول الله ﷺ. إذ إن الذي يرى زخارف الدنيا وخيراتها

أمامه فلا تشغله عن الله، بل تزيده قرباً منه وتذكرة له، أرفع شأناً في سلّم الوصول والقرب من الله، من الذي إذا رأى زخارف الدنيا وخيراتها شغلته عن الله وصرفته عن مراقبته وذكره.

ومن المستحسن أن يعالج هذا الفريق الثاني من الناس، نفسه بالفرار منها مستعيناً بالعزلة، كما يفعل هؤلاء المتعبدون، ريثما تضؤل الدنيا ومغرياتها في نفوسهم، وتهيمن رقابة الله ويستحوذ ذكره على قلوبهم. وعندئذ عليهم أن يندمجوا في مجتمعاتهم ويمارسوا وظائفهم الدنيوية فيها، ويتحققوا بالقاعدة القائلة: ((إنما الخلوة في الجلوة)) لأن غلبة شهود الله عليهم يمحق حجاب الدنيا عن بصائرهم.

والزهد ليس في نفض اليد ولا في إخلاء الجيب أو الصندوق من المال، وإنما الزهد أن تخلي قلبك من التعلق والاهتمام به، مستعيضاً عنه بثقتك بالله عز وجل وبرحمته التي لا تنفك عنك. مصداق ذلك قول الله تعالى: ﴿وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/٣٢] وقول رسول الله ﷺ: ((ليست الزهادة في تحريم الحلال ولا في إضاعة المال، إنما الزهادة أن تكون بما في يد الله أوثق مما في يدك)).

ولكن عندما يجد المسلم تعلقه بالمال وتلذذه بجمعه والركون إليه، فليس خطأ أن يفطم نفسه عنها بأن يمارس نوعاً من البعد عنها، كي يعوّد نفسه على الإعراض عنها، ويخفف من تعلقه بها.. فالابتعاد عن المال في هذه المرحلة علاج قد يحسن استعماله بين يدي الوصول إلى الزهد الحقيقي، الذي هو فراغ القلب عن الانشغال بالدنيا.

فافهم هذا الذي قلته لك، كي لا تتوهم أن ابن عطاء الله يستهين بحال هؤلاء الزهاد والمتعبدين، وينكر عليهم شأنهم، وينسبهم إلى

معصية أو ابتداع، فيحملك ذلك على أن تنضم إلى الناس الذين ينكرون حال أصحاب العزلة والابتعاد عن الناس رغبة في التفرغ لعبادة الله وذكره، فتقع من جراء إنكارك عليهم، في شر أنواع المعاصي التي قد تستنزل غضب الله. وشرّ أنواعها سوء الأدب مع الصالحين من عباد الله.

* * *

الحكمة الثالثة عشر بعد المئة

((أمرك في هذه الدار بالنظر في مكوّناته، وسيكشف لك في تلك الدار عن كمال ذاته))

من شأن المؤمن الذي أكرمه الله بمعرفة ربه، فتنبه إلى توارد نعم الله عليه، وعلم أنه يتقلب دائماً في حماية الله ولطفه، أن يتمنى لو رآه.. لا سيما عندما يناجيه ويدعوه فتأتيه الاستجابة، يلتجأ إليه، فتأتيه النجدة.

إنه يشتاق، تحت سلطان هذه العوامل، إلى رؤية مولاه الذي يكرمه ولا يتخلى عنه، يلبيه كلما توجه إليه بطلب، يكشف عنه ضره، ويصلح له أمره..

ولكن قضى الله تعالى أن يكون العبد محجوباً في هذه الحياة الدنيا عن رؤية ربه، فقد أنشأه نشأة ترابية، وأقامه ضمن قدرات وإمكانات محدودة، لا تؤهله لرؤية قيوم السماوات والأرض.

وقد سبق أن أعلن كليم الله سيدنا موسى عن اشتياقه الذي وصفته لك إلى رؤيته، فقال له: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ..﴾ [الأعراف: ١٤٣/٧] ولكأن سؤاله هذا اتجه إلى الله عز وجل باسمه وباسم سائر عباده

الذين تطلعوا إلى رؤيته لما عرفوه، ثم ازدادوا تطلعاً وشوقاً إلى رؤيته لما راقبوه وذكروه فأحبوه، ولكن الله عز وجل أجابه، بل أجاب كل متطلع إلى رؤيته كتطلعه، بالقضاء الذي قضى به، فقال له ولهم: ﴿لَنْ تَرانِي..﴾ ونبهه ونبههم إلى الكينونة الضعيفة التي أقام الله فيها عباده في حياتهم الدنيوية هذه، والتي لا تتناسب إلا مع مرحلة التكليف التي يأخذهم بها، ومع الحياة الترابية التي يعيشون في غمارها، فقال: ﴿وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي فَلَمّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً..﴾ [الأعراف: ١٤٣/٧].

إذن فقد قضى الله عز وجل، في حق أحبائه المتطلعين، بل المتشوقين إلى رؤيته، في هذه الحياة الدنيا، بالصوم عن بلوغ هذه الأمنية العظمى.

ولكنه عوضهم عن ذلك بأمرين اثنين: أحدهما: الموعدة التي وعدهم إياها بأن يريهم ذاته العلية، إذا وفدوا إلى الله صالحين ملتزمين بالعهد، وأن يجعل رؤيتهم له في مقدمة المكرمات التي سيتحفهم بها. ثانيهما: مكوَّناته المتنوعة العجيبة التي تحمل إليهم الكثير من مظاهر لطفه وإحسانه وحكمته وجماله.. إنها لوحات متنوعة شتى مبثوثة في جنبات هذه الدنيا، بوسعك أن تقرأ في كل منها رسالة مرسلة من الله إليك، تحمل إليك في طواياها الكثير من صفاته وآلائه، وتزيدك حباً له، وحنيناً إلى رؤيته.

ابعث بطرفك إلى السماء في جنح الليل، وتأمل في كواكبها الكثيرة التي تخفق في حلك الظلام وانظر إلى القمر المتألق فيما بينها، تَجِدْ

نفسك منها أمام رسالة موجهة إليك من الله، تعرّفك على ذاته والكثير من صفاته.

ثم ارجع البصر إلى الأرض، وتأمل في بساطها السندسي أيام الربيع وأنواع الزهور التي نَقشت ذلك البساط الأخضر بألوانها المتآلفة الرائعة، على أوراقها الغضة الناعمة، وتأمل كيف ينتعش الفؤاد بروائحها الفواحة العجيبة، وانظر إلى أعاجيب الورود التي تحكي التفافةُ أوراقها الحلوة، بعضها على بعض، قبلات جاثمة على شفاه متضامّة سكرى. تجد نفسك منها أمام رسالة أخرى مرسلة من الله عز وجل، إلى الذين برّح بهم الشوق إلى مصدر الجمال الذي حيل بينهم وبينه، لتكون بكل ما فيها من عبق وجمال، نديماً يسامرهم، وجليساً يؤنسهم، ونجيّاً يتأثر لأناتهم، ويتمايل لآهاتهم، وليكون عزاء لهم عن الجمال الذي افتقدوه، وسلوى عن الحبيب التي لم تحن ساعة اللقاء به بعد[1].

وانظر إلى الرياح الهابّة ما بين السماء والأرض، وما تثيره من سحاب سرعان ما يتراكم منبسطاً في جو السماء، ثم يرسل الله منه الأمطار سخية إلى عباده في الأرض، ليتلاقى من جوده العطاءان: فيض السماء ونبات الأرض، ولتمتد من ذلك مائدة الرحمن مبسوطة لعباده جميعاً، وفياضة بأنواع المطعم والمشتهيات. وصدق الله القائل: ﴿كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ [الإسراء: ١٧/٢٠].

(١) هذه الرسالة يقرأ فيها كل فريق من الناس ما يصلح أن يكون عزاء لحاله، وفي مقدمتهم أولئك الذين تجاوزوا صور الجمال إلى صانعها ومبدعها، فتعلقوا به وبرّح بهم الشوق إليه.

فما الذي تراه في هذه المكوَّنات التي يأمرنا الله عز وجل - كما يقول ابن عطاء الله - بالنظر فيها؟

إنك لترى فيها ما يسليك عن التلهف إلى تعجل لقائه.. وإنك لترى فيها ما يؤنسك بذاته العلية، وإن لم تكن ساعة اللقاء قد حانت بعد، بل إنك لتنظر إليها بعينيك، فتغيّبك بصيرتك عنها لتشهد الله في مكانها أمامك بصفاته وآلائه الأخاذة الباهرة، فكأنك من المكونات المتنوعة التي تراها، أمام الله عز وجل، وتلك هي وحدة الشهود التي كم استمتعتُ وأمتعتك بالحديث عنها، وإن لم نكن قد بلغنا رتبة التمتع بها.

* * *

فإذا طويت هذه الدنيا، بكل ما فيها من متاع، وتجاوز الناس مرحلة الحياة البرزخية، وقاموا جسداً وروحاً لرب العالمين، فإن من الثابت يقيناً أن الله يخلقهم خلقاً جديداً ممتعين بطاقات عضوية وجسدية متميزة عما كانوا عليه في دار الدنيا، كي يتأهل مستحقوا العذاب للمعاناة الجسمية من العذاب الذي أعدّه الله لهم. ولو حشروا بأجسادهم وطاقاتهم العضوية التي كانوا يعيشون بها في دار الدنيا، لذابت في ضرام ذلك العذاب خلال دقائق يسيرة. ولكي يتأهل الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه في دار الدنيا، لأصناف النعيم التي أعدها الله لهم، مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وفي مقدمتها وعلى رأسها رؤيتهم لله عز وجل رؤية حقيقية بأعين رؤوسهم. ولو حشروا هم الآخرون بطاقاتهم وإمكاناتهم العضوية

المحدودة التي كانوا مجهزين بها في دار الدنيا، لما تم الانسجام المطلوب بينها وبين تلك الأصناف الجديدة من النعيم، ولعانوا من إمكان تمتعهم بها وهضمهم لها عجزاً وأي عجز، ولما أمكنهم التمتع برؤية الله عز وجل بتلك العيون التي كانوا يبصرون بها في دار الدنيا، ولوقعوا في العجز ذاته الذي وقع فيه سيدنا موسى، عندما خرّ صعقاً لرؤيته الجبل الذي تجلى الله عليه كما لا نعلم.

إذن فرؤية العبد الصالح الذي ختم الله حياته الدنيوية بالحسنى، ربه يوم القيامة في جنان الخلد، أكدها الله عز وجل في مثل قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ ، إِلَى رَبِّها نـاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٧٥/٢٢-٢٣] وزادها تأكيداً رسول الله ﷺ في مثل قوله: ((إنكم سترون ربكم عياناً، كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته))[١] وفي مثل قوله: ((إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيّض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجّنا من النار؟ فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم))[٢].

وتلك هي السلوى الحقيقية التي ينتظرها أحباء الله السائرون على صراطه اليوم، والتي سيسعدون ببلوغها غداً يوم الجزاء. وكل أنواع المتع والنعيم التي وعد الله بها عباده الصالحين، تقف دون مرتبة النظر إلى الله عز وجل.

وآية ذلك أن النعم والمنح الكثيرة المتنوعة التي يكرم الله بها عباده في الدنيا هي من أهم العوامل التي تهيِّج بين جوانح الصالحين من عباد

---

(١) متفق عليه من رواية جرير بن عبد الله قال: كنا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال... الحديث.

(٢) رواه مسلم في صحيحه من حديث صهيب رضي الله عنه.

الله لواعج الاشتياق إلى رؤية ذاته العلية، فكيف إذا تضاعفت هذه النعم يوم القيامة وتسامت في أنواعها، وتمتع منها هؤلاء الذين استبدّ بهم الشوق إلى رؤية الله بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر؟

لاريب أن لواعج اشتياقهم إلى رؤية الله تتضاعف، وتزداد هياجاً.. مع تزايد النعم ومضاعفة الإكرام.

فافرض أنهم حرموا مع ذلك من إطفاء غلّة اشتياقهم، وحيل بينهم وبين رؤية الله، إذن سيتقلبون من ذلك في آلام مبرّحة، ولن تقوى سائر ألوان النعيم التي يمتعهم الله بها على صرف تلك الآلام المبرحة عنهم. وقد علمنا أن الجنة لا يستقيم أن يوجد فيها أي أثر لآلام. كيف، وإن الجنة كما وصفها الله تعالى هي دار النعيم الصافي من الشوائب، وهي الدار التي وصفها الله بقوله: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/٧١]. وليس فيما تشتهيه نفوس الصالحين من عباد الله وأحبائه، شيء أشهى وألذّ إلى نفوسهم من أن يروا مولاهم الذي تتوافد إليهم منه نعمه الطارفة والتليدة. أفيكرمهم إذن بنعمه، ثم يذيقهم آلام احتجابه عنهم، ويعيدهم إلى مثل الآلام التي كانوا يتقلبون بها في حياتهم الدنيا، إذ كانوا في شوق لاهب إلى رؤيته؟ تعالى الله عن أن يتبلى عباده الصالحين في جنة خلده، بهذا البلاء الممضّ علواً كبيراً!..

أما الحجج التي يتكلف الاستدلال بها، منكروا هذا النعيم الذي تتوق إليها نفوس سائر عباد الله المؤمنين حقاً به، وفي مقدمتهم

المعتزلة، فكلها أوهام باطلة يتكلفون إظهارها في مظهر الحجج المنطقية.

يقولون: إن رؤية العبد ربه، تستدعي انحصار المرئي أياً كان داخل ضلعين من زاوية النظر، وذلك يستلزم أن يكون الله محصوراً مثلنا في مكان محدد، وهو منزه عن ذلك كما هو ثابت ومعلوم.

أقول: إن هذا التصور منهم مبني على أن الله ينشئ عباده النشأة الثانية بالقوى والإمكانات الجسمية والعضوية المحدودة ذاتها التي كانوا مجهزين بها في دار الدنيا!.. وهذا وهم عجيب لا تزلّ فيه أذهان البسطاء السذج من الناس المؤمنين بالله!..

إذن كيف تتحمل جسوم الكافرين الخلود في النار؟ وكيف يمارس السعداء الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، المتع والنعم النوعية التي لا عهد لهم بها، بجسومهم وإمكاناتهم الضعيفة المحدودة التي لم تهيأ لها؟ وكيف يجهل هؤلاء ما هو ثابت بالأحاديث الصحيحة من أن الصالحين الذين يدخلهم الله في نعيمه ورضوانه، يبعثون بقامات أطول، وأشكال أجمل، وإمكانات أقوى؟

ويقولون: إن الله أجاب موسى عندما سأله رؤيته بقوله: لن تراني. ويزعمون بأن «لن» تدلّ على تأبيد النفي!..

أقول: مردّ هذه المسألة إلى قواعد العربية، ولم يقل جماهير علماء العربية أن «لن» تدل على التأبيد. وأوضح دليل من القرآن على ذلك قول الله تعالى عن اليهود الذين زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه (بعد أن طلب منهم أن يتمنوا الموت إذن ليستعجلوا لقاء الله الذي لابدّ أن

يكون قد برّح بهم الشوق إليه): ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٢/٩٥].

فقد عبر البيان الإلهي بكلمة ((لن)) وزاد النفي تأكيداً بكلمة ((أبداً)) ومع ذلك فقد أكد البيان الإلهي أن أصحاب النار - واليهود الذين يتحدث الله عنهم هنا منهم - يتمنون لو ماتوا ليتخلصوا بذلك من عذابهم، فقال: ﴿وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٤٣/٧٧] فدل ذلك على أنّ لن لا تدلّ على التأبيد الذي يخترق حدود الحياة الدنيا إلى الآخرة، ودلّ ذلك على أن كلمة ((أبداً)) بعدها ناظرة إلى الوحدة الزمنية المحصورة في الحياة الدنيا وحدها.

وأعجب من هذا الوهم والذي قبله أن منكري رؤية الله يوم القيامة، يقررون من خلال إنكارهم لها، أنهم أعلم بذلك من كليم الله سيدنا موسى، فقد فاته ما استقلوا هم عنه بعلمه، وغاب عنه، ما لم يغب عنهم، من حقيقة هذا الأمر، فسأل ربه أن يريه ذاته العلية بعيني رأسه، ذاهلاً أو جاهلاً، بأن رؤيته له لا تدخل في حدود الإمكان!.. فكيف يتأتى لهؤلاء أن يعتقدوا أنهم أعلم بهذا الأمر من سيدنا موسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام؟

هذا، وقد علمت أن الأدلة التي استند إليها جماهير المسلمين وأئمة أهل السنة والجماعة، لا يرقى إليها شك، سواء النصوص الصريحة التي جاء بها القرآن وأكدتها السنة، والأدلة العقلية التي ذكرتها لك قبل قليل.

ولا تلتفت إلى التنطع المحجوج الذي تكلفه من قالوا إن ((ناظرة)) في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ، إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٧٥/٢٢-٢٣] معناها منتظرة، والتقدير منتظرة نعيم ربها. فما من عربي ذي فهم للغة العربية في أبسط دلالاتها، وذي ذوق سليم، يفسّر كلمة ﴿ناظِرَةٌ﴾ بهذا التفسير. إن ((منتظرة)) تتعدى بنفسها، وناظرة متعدية بإلى، وناظرة بمعناها المعروف لا تحتاج إلى تقدير، بل يفسدها التقدير، أما تحويلها، بل تصحيحها إلى ((منتظرة)) يضطرها إلى التقدير، إلى تقدير مفعول به لها وهو ((نعم ربها)).

ثم ليقل لنا المعتزلة ومن تابعهم في الأخذ بهذا الوهم:

ما العزاء الذي بوسعهم أن يقدّموه لعباد الله الذين برّح بهم الشوق في دار الدنيا إلى لقاء ربهم، إذا فوجئوا يوم القيامة، بأن آمالهم التي كانت مزدهرة في دار الدنيا برؤيته، خائبة باطلة، وأن رؤيتهم لله مستحيلة؟

ما العزاء الذي سيقدمه المعتزلة لهؤلاء الناس، كي يتحقق لهم قول الله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/٧١].

* * *

الحكمة الرابعة عشرة بعد المئة

((علم أنك لا تصبر عنه، فأشهدك ما برز منه إليك))

هذه الحكمة ليست أكثر من تأكيد للتي قبلها. وربما انطوت على تفسير وبيان لجانب منها.

قال لك هناك: أمرك في هذه الدار بالنظر في مكوَّناته ثم فسر هذا الأمر هنا بقوله: علم أنك لا تصبر عنه.. إلخ، لتعلم أنه أمر إرشادي وجهه الله إليك لطفاً بك وتحبباً إليك، أكثر من أن يكون أمراً تكليفياً تنفيذاً لواجب.

والحقيقة أن الأمر الصادر من الله بالنظر في مكوَّناته يختلف معناه حسب حال المخاطب من حيث صلته بالله عز وجل. فالناس التائهون عن الله، الغافلون عنه برغائبهم وأهوائهم، والمعرضون عن آيات وجوده ووحدانيته وباهر صفاته، يتجه إليهم هذا الأمر على وجه التكليف، ليفيقوا من غفلتهم، وليذكروا الله من خلال التأمل في سطور المكونات، وما تنطق به من آيات وجوده ودلائل حكمته وعظيم سلطانه.

أما الذين عرفوا الله فأحبوه وأكثروا من مراقبته وذكره، وحركهم الشوق إلى رؤيته، فإنما يتجه إليهم هذا الأمر على وجه الإرشاد إلى السبيل الذي يعينهم على الصبر عن رؤيته في حياتهم الدنيا هذه، ألا وهو النظر إلى ما قد برز لهم منه، من بديع آثاره، ومظاهر حكمته وإحسانه وجماله. فإن ذلك سيؤنسهم به وإن لم يروه، ولسوف يشهدونه فيها، أي في تلك المظاهر، وإن كانت تشوِّقهم إليه.

وقد علمت أن ابن عطاء الله إنما يخاطب بهذه الحكمة والتي قبلها، هذا الفريق الثاني من الناس، فهم الذين يصدق عليهم أنهم لا يصبرون عنه؛ أما عامة الناس، فيغلب أن تشغلهم دنياهم ورغائبهم عن الله، وإن كانوا مؤمنين به بعقولهم وقناعات أفكارهم؛ فإن صدق على هؤلاء أنهم لا يصبرون، فإنما ذلك عن الدنيا وشواغلها؛ وإن صدق عليهم وصف الحنين والاشتياق، فإنما ذلك إلى رغائبهم وأحلامهم الدنيوية التي حيل بينهم وبينها.

إن في إشهاد الله عباده ما برز منه لهم من مكوَّناته، تذكرة وإيقاظاً لعباده الغافلين، وتمتيعاً وإيناساً وسلوى لعباده المقربين، وإن في ذلك لحكمة بالغة، ورحمة عميمة لكلا الفريقين.

فاحرص أن يكون إشهاد الله ما برز من مكوناته لك، إيناساً لك بذاته، وسلوى عن حرمانك من رؤيته في هذه الحياة الدنيا، وأن لا يكون ذلك علاجاً لأمراض غفلتك، وإيقاظاً لك من ضلالك وتيهك.

ولكن إن قضى الله أن تكون من الفريق الثاني، تائهاً عن ذاتك، محجوباً عن الله بالركون إلى لهوك وشهواتك، فاحرص على أن تلتفت باليقظة والاعتبار إلى ما ينبهك الله إليه من دقيق صنعه وبالغ حكمته

وباهر صفاته، في كل ما يلوح لك من مكوّناته ومخلوقاته العلوية والسلفية وما بينهما. وجاهد نفسك أن توقظها من نومة الغافلين، حتى ترى الله بكل ما هو موصوف به من صفات الكمال، في مرآة مكوناته. واتخذ من كتاب الله حافزاً لك إلى هذه اليقظة، وآخذاً بيدك إلى حيث ترى الله من خلال موجوداته.

فإذا عدت إلى كتاب الله، فتدبر معانيه ولا تجعل حظك منه ترديد كلماته وألفاظه، وتأمل بعين عقلك في هذا الذي يقوله الله لك: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ النّاسَ وَما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ وَالسَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢/١٦٤].

فإن ألزمت نفسك بذلك، فلسوف تتجاوز حال الغفلة والضياع عن ذاتك وربك، إلى صعيد الهداية والعرفان، ولسوف ترقى بك مرحلة معرفة الله، إلى مرحلة حبه والاشتياق إلى رؤيته وشهوده.

فإذا عدت عندئذ إلى ما يشهدك الله إياه من رائع صنعه ومكوناته، فلسوف تجد فيها حينئذ ما يؤنسك بالله، ويسليك عن ألم اشتياقك إليه، ويعينك على الصبر عن رؤيته، ريثما تنتقل إلى رحابه، ويكشف عنك غطاء كينونتك الترابية، ومظاهر ضعفك البشري.

وعندئذ يرقى بك الحال إلى الفريق الثاني الذي يخاطبه ابن عطاء الله بحكمته هذه قائلاً: ((علم أنك لا تصبر عنه، فأشهدك ما برز منه إليك)).

* * *

الحكمة الخامسة عشرة بعد المئة

((لما علم الحق منك وجود الملل، لوّن لك الطاعات وعلم ما فيك من وجود الشره فحجرها عنك في بعض الأوقات، ليكون همّك إقامة الصلاة لا وجود الصلاة، فما كل مصلّ مقيماً))

مرة أخرى أذكرك بأن ابن عطاء الله إنما يخاطب، في أكثر حكمه هذه، المؤمنين الباحثين عن الطريق الموصل إلى الله، وقل أن تجده يناقش جاحداً أو يخاطب مرتاباً في الله عز وجل.

وهو في هذه الحكمة، يلفت النظر إلى الحكمة من تنويع الله عز وجل الطاعات، وإلى الحكمة من منعك منها، لاسيما الصلاة في بعض الأوقات.

أما التنويع فلأنه سبحانه وتعالى علم أن الإنسان من شأنه أن يدركه الملل مما يلازمه بالاعتياد والتكرار، وذلك مظهر من مظاهر ضعفه. فهو لو كلفك من الطاعات بالصلاة وحدها في مكان سائر الطاعات والعبادات الأخرى، لأدركك من ذلك الملل، ولربما شعرت بأنك قد أشبعت حاجة من حاجات نفسك إلى العبادة والتقرب إلى الله،

ولكنك لم تشبع حاجات نفسك الأخرى. إذ العبادات المختلفة كالأغذية والأطعمة المتنوعة، لكل منها متعة مختلفة ومذاق مختلف، بل لكل منها أثر من الفائدة في الجسم، لا ينوب عنه في ذلك غيره. فلو وضعك الله من أنواع الأطعمة كلها أمام طعام واحد لا تحيد عنه، إذن لأدركك الملل منه، خلال مدة قصيرة من الزمن، ولتطلع جسمك إلى حاجات أخرى من التغذية لا يستقل النوع الواحد بتحقيقها.

كذلكم العبادات، نوعها الله لك، وندبك إليها جميعاً، كالصلاة، والذكر، وتلاوة القرآن، والصوم، والحج، وكالتفكر في مخلوقات الله، كما شرحنا في الحكمة السابقة، بل إن الله عز وجل وضعك منها أمام آفاق لا حصر لها. إذ أعلمك أن كل ما تسعى لتحصيله، من مصالح دنياك، لنفسك أو لأي من أهلك وأولادك، أو لأي من إخوانك في الله، قربات وعبادات يتقبلها الله منك مأجورةً؛ إن أنت قمت بها على النحو المشروع، وقصدت بها التقرب إلى الله.

وقد مرّ بك حديث رسول الله عن الرجل الذي خرج باكراً إلى كسبه، إذ قال أحد أصحابه عنه: ويح هذا لو كان جَلَدُه في سبيل الله، فأجابه رسول الله قائلاً: إن كان خرج يسعى على أبوين شيخين، فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى ليعف نفسه وأهله، فهو في سبيل الله.. الحديث.

إن العبادات ليست محصورة إذن في أنواعها التي لا يقبل المسلم إليها إلا ابتغاء مثوبة دينية كالصلاة والصوم والحج والأذكار، بل هي تشمل كل ما تبتغي منه مصلحة دنيوية لطعام وشراب أو لمسكن أو

نحو ذلك، إن صفا القصد إلى ذلك عن الأهداف والغايات النفسية التي حرمها الله.

وهكذا فإن المؤمن الذي اتجه منه القصد دائماً إلى مرضاة الله تعالى، أينما سار، وكيفما فعل، وحيثما تقلب، لا يخرج من محراب عبادته وعبوديته لله، وهيهات أن يدرك الملل من العبادة من كان هذا شأنه. ذلك لأنه يعيش منها داخل ما يشبه بستاناً تنوعت ثماره وطعومه وألوان زهوره ووروده، ومظاهر خضرته، وعبق رياحينه، فهو منها، كل يوم أمام جديد، فأنى ولماذا يداخله الملل منها؟..

* * *

أما الحكمة من حجره عز وجل عنك بعض الطاعات، في بعض الأوقات، فهي - كما قال ابن عطاء الله - أنه عز وجل علم أن العبد الذي ذاق لذة معرفته لربه، وعاش تائقاً إلى مرضاته وسعادة لقائه، شغوف بالإكثار من العبادات شره إلى الدوام عليها والتكرار منها، لاسيما الصلاة التي قال عنها رسول الله ﷺ: ((وجعلت قرة عيني في الصلاة)).

غير أن هذا الشغف منه بالدوام عليها والتكرار لها، قد يعرضه إلى آفتين اثنتين أو إلى واحدة منهما.

أما الأولى: فهي الملل والسآمة على أعقاب ملازمته الدائمة لها، والحديث هنا عن الصلاة، ومن شأن الملل أن يزج صاحبه أخيراً في نقيض ما كان مقبلاً عليه شغوفاً به، فإن المُنْبَتّ - كما ورد عن رسول الله - لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.

وأما الآفة الثانية: فهي الحرص منها على تكرار الركعات والإكثار من الكمّ والأعداد، وإنما يكون ذلك في الغالب، على حساب الإتقان في الأداء والخشوع فيها، والتمهل في انتقالاتها، والترتيل في تلاوتها. وهذا شأن كثير ممن يستزيدون من نوافل الصلاة، أو يقبلون على الإكثار من تلاوة القرآن.. تنظر فتجد قصارى همهم الإكثار من عدد الركعات، واعتبار الإكثار العددي منها مناط المثوبة والقرب، وتنظر فتجد أن غاية أحدهم أن يرى نفسه قد أتى على القرآن كله خلال ثلاثة أيام مثلاً.

وكلا الأمرين آفة، كما قد ذكرت لك. فإن العبرة بأسرار العبادات لا بأشكالها، واستزادة الكم العددي منها من مظاهر الصور والأشكال، ولا علاقة لها بالمعاني والأسرار.

وهذا ينطبق على سائر العبادات، ولكن ابن عطاء الله ضرب مثلاً لها بالصلاة فقال: ((ليكون همك إقامة الصلاة لا وجود الصلاة، فما كل مصلّ مقيماً)).

وهو ينبهك من خلال كلامه هذا إلى كلام الله عز وجل، إذا يأمرك دائماً بإقامة الصلاة لا بمجرد إيجادها، كقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ٢٠/١٤] وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ [المزمل: ٧٣/٢٠].

وفرق كبير بين أداء الصلاة وإقامتها، فأداء الصلاة يصدق بإيجادها موفورة الشروط والأركان الشرعية المعدودة، أمّا إقامتها فهي من إقامة عمود الخباء، وإنما تتحقق إقامته على خير وجه برسوخه واستقامته

عمودياً لا ميل فيه يسرة أو يمنة، فاستعير هذا اللفظ لإقامة الصلاة على وجهها المطلوب من خشوع فيها وتمهل في انتقالاتها، وتدبر لتلاوتها، والتزام بآدابها وأذكارها القبلية والبعدية.

ومن الثابت أن ركعتين يوفق العبد لأدائهما وإقامتهما على النحو الذي ذكرتُ، خير من عشرات الركعات يركعها المصلي تائهاً عنها غافلاً عما يقول فيها، لا يصحو منها إلا على حساب عدد الركعات، بل هما خير له من كنوز الدنيا كلها.

فمن أجل أن تلتفت إلى كيفية أدائك للصلاة، وأن لا تحمل نفسك منها مجرد الإكثار من ركعاتها، منعك منها في كثير من الأوقات كالوقت الذي بين أداء صلاة الفجر وطلوع الشمس وكالوقت الذي بين أداء صلاة العصر ومغيب الشمس.

نهاك عنها في أوقات معلومة، مع أن الصلاة خير مشروع كما قال رسول الله ﷺ، لينبهك إلى أنه لو كان المطلوب منك في القيام إلى الصلاة الاستكثار من ركعاتها لمنحك الأزمنة والأوقات كلها ميقاتاً لها ومجالاً لأدائها. ولكن لما حجزها عنك أو حجزك عنها في بعض الأوقات، دل ذلك على أن الذي يقرّبك إلى الله منها - بعد توافر أركانها وشروطها - إنما هو حالك التي تكون عليها في الصلاة، من الضوابط والآداب التي ذكرتها لك. كذلك تلاوة القرآن وسائر العبادات الأخرى.

ثم اعلم أن هذا الذي يقوله ابن عطاء الله، إنما يصدق على النوافل المطلقة أي التي لم يقيدها الشارع بعدد. فأما تلك التي ندب إليها

منضبطة بركعات محددة كالتراويح مثلاً وكصلاة الضحى والنوافل التابعة للفرائض سواء المؤكدة منها وغير المؤكدة، فإن أداءها مرتبط بالوارد من أعداد ركعاتها.

ولعلك تسأل: فهذه النوافل التي حددت ركعاتها، أيهما أفضل في أدائها: أن يُستوفى عدد ركعاتها ولو كانت دون المستوى المطلوب في آدابها والترسل في تلاوتها والخشوع فيها، أم أن تؤدى بآدابها الكاملة والاستزادة من التلاوة والتسبيحات فيها، ولو اقتضى ذلك النقص من عدد ركعاتها؟

والجواب: أن ما ندبنا الشارع إلى فعله منضبطاً بكم معين من الركعات، في مثال الصلاة، يتعلق الأمر فيه بشيئين معاً: أحدهما نوع النافلة بحدّ ذاتها، ثانيهما أداء عدد الركعات المطلوبة منها، فطلب الشارع متعلق بهذين الشيئين معاً. إذن فالوفاء بالمطلوب إنما يتم بأداء كل من الأمرين معاً، أي أصل النافلة، والعدد المطلوب منها. ولا يحلّ أداء أحدٍ منهما محلّ الآخر.

أي فالمطلوب لأداء النافلة، الوفاء بها من حيث كمية الركعات، والوفاء بها من حيث الحضور فيها والتمهل في أدائها ومراعاة آداب الصلاة فيها.

فمن رأى أن من الخير أن يصلي التراويح في رمضان أربع ركعات أو ثمانياً، على أن يزيد من حصة التلاوة في كل ركعة منها، وأن يتمهل في أداء أبعاضها وهيئاتها، وأن يكون حاضر القلب فيها، فقد أحرز أجر الوفاء بآدابها، وقصّر من حيث الوفاء بالكمّ المطلوب منها. ولو فعل العكس، لكان تقصيره في الوفاء بها على العكس أيضاً.

وصلاة الضحى أو سبحة الضحى كما وردت في الصحيح، تصلى ركعتين، والأفضل أن تصلى أربعاً، والكمال أن يصليها ثماني ركعات. فمن صلاها ركعتين وأطال القراءة فيها ما شاء، وزاد من التسبيحات فيها، وكان حاضر القلب فيها، فقد أحرز فضيلة هذه الآداب، وفاتته فضيلة الكمال في استيفاء العدد الأتم من ركعاتها. والعكس كذلك.

أما النافلة المطلقة من صلاة وغيرها، كالذكر وتلاوة القرآن فيلاحظ أن الطلب من الشارع إنما هو متعلق بجنسها بقطع النظر عن كمّها، ومن ثم فلو أمضى الليل كله بصلاة ركعتين أو أربع ركعات وافية الآداب. فقد أحرز المثوبة المطلوبة، إذ المطلوب إنما هو قيام الليل بالصلاة، وإن أكثر فيها من الركعات معرضاً عن آدابها والحضور مع الله فيها، فالمأمول أن يكون قد أحرز أصل قيام الليل من حيث هو، ولعلّه فوّت على نفسه مثوبة التقيد بآدابها والحضور مع الله فيها، وقد ورد أن العبد له من صلاته بالقدر الذي كان حاضراً مع الله فيها.

كذلك تلاوة القرآن، لمّا لم يكن العبد مطالباً بأكثر من جنس التلاوة، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ لا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِهِ﴾ [الكهف: ١٨/٢٧] دون بيان لعدد الآيات أو الأجزاء التي ينبغي أن يقرأها، فإن مجرد الإقبال على تلاوته مصدر لأجر كبير، ثم إن الأجر يزداد مع زيادة التلاوة. فإن كانت التلاوة قراءة للألفاظ واستكثاراً منها، مع الغفلة عن المعاني والإعراض عما تتضمنه العبارات من صفات الله ووعده وعيده وأحكامه، كان له أجر

القراءة المجردة التي أنبأ عنها رسول الله ﷺ. وإن اقترنت التلاوة بالخشية والتدبر والتنبه إلى المعاني التي فيها، كان له من الأجر العظيم على ذلك ما لا يحصيه إلاّ الله.

ومن ثم، فإن رأى القارئ نفسه بين أن يستكثر من تلاوة الآيات ذاهلاً عن معانيها غير متدبر لها، وبين أن يقرأ حزباً واحداً أو حزبين فقط مع التدبر والتأمل والحضور مع خطاب الله له فيها، فليجنح إلى هذه الطريقة الثانية، ولا عليه أن يقلل من كمية الصفحات التي يمرّ عليها. لأن تلاوة القرآن من النفل المطلق الذي تعلق الطلب فيه بأصل القراءة، دون أن يقترن ذلك بطلب آخر متعلق بكمية المطلوب منها.

إذا تبين ذلك، فاعلم أن هذا ما عناه ابن عطاء الله في لفته النظر إلى الفرق بين إيجاد الصلاة وإقامتها، مع بيان أن المهم في ميزان الله إنما هو إقامتها لا مجرد إيجادها، ولكن بهذا التفصيل الذي مرّ بيانه، والذي أوضحت لك فيه الفرق بين النفل الذي اقترن به طلب للكمّ وتحديد له، والنفل المطلق الذي لم يتعلق الطلب إلا بجنسه أو بذاته من حيث هو.

على أن الإخلاص لله عز وجل هو المدار والأصل في كل ذلك، وبوجوده يحلّ كل إشكال، ويتم الانسجام كاملاً ما بين نوع الطاعة والكمّ منها.

* * *

الحكمة السادسة عشرة بعد المئة

«الصلاة طهرة للقلوب من أدناس الذنوب، واستفتاح لباب الغيوب»

الصلاة في الظاهر، واحدة من التكاليف الشاقة التي يجب على كل مسلم أن يؤديها في مواقيتها المحددة لها، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾ [النساء: ٤/١٠٣].

ولكنك لو تأملت، لرأيت أن الصلاة شفيع متكرر يبعثه الله بين كل حين إلى عباده، ليمحو عنهم ما ارتكبوه من أوزار بين الصلاة والأخرى!.. لا يتوقف ذلك إلاّ على حسن الاستقبال لها من العبد.

وما الصلاة في حقيقتها؟

إنها ليست أكثر من استضافة الله للعبد إلى رحابه، فإذا أقبل العبد مستجيباً لضيافة الله، ودخل إلى رحابه ووقف في حضرته، وخاطبه بما علمه الله إياه من الحمد له والثناء عليه وتوحيده له بالألوهية والعبادة، ثم التوجه إليه بسؤال الهداية والرحمة والمغفرة، لباه الله عز وجل، وحباه بما يكرم به الكريم أضيافه، وهل في المكرمات الإلهية لعباده

أجل من أن يكرم وفودهم إليه بمغفـرة الذنـوب والصفـح عـن الـزلات والآثام؟

فمن هنا كانت الصلاة التي هي تكليف في الظـاهر، شـفيعاً يرسـله إلى عباده في اليوم والليلة خمس مرات في الباطن وحقيقة الأمر، إذ هي، كما قلت لك، استضافة من الله للعبد، كي يكرمــه بـأجلّ ضيافـة، ألا وهي الصفح والمغفرة. وهل في شــفعاء الدنيـا مـا هـو أحلـى مـن هـذا الشفيع الذي لا يطلب منك جهدٌ تجاهه إلا حسن الاستقبال؟..

وانظر، كيف يتجلى هذا المعنى الحقيقي للصلاة في الحديث القدسي التالي:

((يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم قال الله تعالى: أثنى عليّ عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدين، قال: مجدني عبدي، فإذا قال: إياك نعبـد وإيـاك نستعين، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل. فإذا قال: اهدنـا الصراط المستقيم، صراط الذي أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل))(١).

فهذا هو معنى الشطر الأول من هذه الحكمة، وهو قولـه: ((الصـلاة طهرة للقلوب من أدناس الذنوب)).

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث أبـي هريـرة ورواه مـالك في الموطـأ بألفاظ قريبة.

ولعلك تدرك مما ذكرته لك الآن، الحكمة من تكرر الصلاة المفروضة في اليوم والليلة خمس مرات. بل الحكمة من إرسال الله إليك هذا الشفيع - بتعبير أدق - في اليوم والليلة خمس مرات.

إن الحكمة، أن مخاضة الدنيا تعرضك لرشاش المعاصي الكثيرة المتنوعة مادمت داخلاً في غمارها. ومن المعلوم أنك لا تنفك عن التقلب فيها، في ليل ولا نهار. فكان استمرار تعرضك للمعاصي، مقتضياً لتكرير وفادة هذا الشفيع إليك، كي تكون وظيفته مستمرة في تطهيرك من الأوزار ومحو الآثار.

وفي الحديث النبوي التالي، ما يجلّي لك هذه الحكمة بوضوح تام.

يقول رسول الله ﷺ: ((أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟.. قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا))[1].

بل إن الصلاة التي تؤدى بشروطها وأركانها وآدابها، شفيع لصاحبها تجاه الأوزار التي من شأنها أن تخضعه للحدود، ما لم تكن هدراً لحقوق العباد، كالقذف والقتل.

فقد دخل رجل على رسول الله ﷺ في المسجد، قبل الصلاة، وقال له: إني أصبت حداً، وكررها، فسكت عنه رسول الله ﷺ إلى ما بعد الصلاة، فعاد الرجل يذكره بما قال له. فقال له رسول الله ﷺ:

---

(١) رواه مسلم وأحمد وأبو داود من حديث أبي أمامة.

((أرأيت حين خرجت من بيتك، أليس قد توضأت فأحسنت الوضوء، ثم شهدت معنا الصلاة، فإن الله قد غفر لك حدّك)) أو قال: ((ذنبك))[(١)].

* * *

أما قوله رحمه الله في الشطر الثاني من هذه الحكمة ((واستفتاح لباب الغيوب)) فلعله إنما يقصد ما يتقرب به المصلي إلى الله من الثناء والدعاء اللذين يتقي بهما آفات المستقبل وأخطاره. فالثناء على الله هو مفتاح الدعاء وفاتحته، والدعاء بعده، لا سيما في الصلاة، مظنة القبول والاستجابة، وإنما يستفتح الداعي بدعائه باب العطاء الإلهي له. وهو إنما يتعلق بالغيوب المقبلة المتعلقة بمستقبل شؤونه الدنيوية، أو المتعلقة بمستقبل شؤونه الدينية والأخروية. فإن المتجه إلى الله بالدعاء إما أنه يستدفع بدعائه شراً يخشى حصوله أو يتوجس خيفة من عاقبته، وإما أنه يستقدم لنفسه بدعائه خيراً ينتظره ويحتاج إليه. وهو في كلا الحالتين إنما يطرق بدعائه باب الغيوب، أي يسأله خير ما قد يأتي به الغيب أو يستدفع شرّ ما قد يأتي به الغيب.

ولعل هذا المعنى هو الأليق بمراد ابن عطاء الله، بهذا الشطر الثاني من حكمته هذه.

ذلك لأنا لو ذهبنا، كما ذكر بعض الشراح، إلى أن معناه أن إقبال العبد إلى الله في الصلاة، يكرمه بتجليات ربانية تكشف له عن غيوب

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي، ومالك في موطئه بألفاظ متقاربة وهذا اللفظ للبخاري ومسلم. من حديث جابر وأبي هريرة، وإنما أراد الرجل بموجب الحد الزنا.

لم يكن يعلمها، ويبصِّره بإلهامات لم يكن له من سبيل إليها، أقول: لو فسرنا هذا الشطر من حكمة ابن عطاء الله بهذا المعنى، لجاء ذلك منافياً لما أوصى به هو ذاته رحمه الله، في حكمة سابقة، وهي قوله: ((تشوفك إلى ما بطن فيك من العيوب خير من تشوفك إلى ما حجب عنك من الغيوب)).

إذن، فحتى ولو كانت الصلاة مهبطاً لتجليات ربانية تكشف للمصلي عن بعض ما هو مخبوء وراء سجاف الغيب، إلا أن المصلي ما ينبغي أن يتشوف في صلاته إليها، ولا أن يجعل من الصلاة مفتاحاً لبلوغها، بل ينبغي أن يجعل من الصلاة إذ يقوم إليها شفيعاً له أمام الله عن عيوبه ونقائصه ومظاهر تقصيره.

* * *

بقي أن تعلم أن الصلاة التي يتحدث عنها ابن عطاء الله هنا، ليست تلك التي يؤديها أحدنا حركات بأعضائه وقراءات بلسانه، ويكون قلبه منصرفاً عنها منشغلاً بآماله وآلامه الدنيوية.. وإنما هي تلك التي يدخلها العبد بمشاعره وقلبه، قبل أن ينضبط بآدابها الشكلية، وهي تلك التي إذا دخلها أسدل منها حجاب يحجبه عن الدنيا ويرحل به إلى الله.

تلك هي الصلاة التي تكون طهرة للقلب من أدناس الذنوب، وتكون استفتاحاً لباب الغيوب، وتلك هي التي أخبر الله بأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر.

والذي يهيئ الإنسان لأدائها على هذا النحو، إنما هو الإكثار من ذكر الله ومراقبته، وتجنب المال الحرام أكلاً وسكناً ولبساً وتمتعاً.

فاللهم يسر لنا سلوك هذا السبيل، كي نبلغ مستوى القدرة على الاستجابة لأمرك القائل: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ٢٠/١٤].

* * *

الحكمة السابعة عشرة بعد المئة

((الصلاة محل المناجاة ومعدن المصافاة، تتسع فيها ميادين الأسرار، وتشرق فيها شوارق الأنوار، علم وجود الضعف منك فقلل أعدادها، وعلم احتياجك إلى فضله فكثر أمدادها))

تتضمن هذه الحكمة متابعة للحديث عن الخصائص التي تتميز بها الصلاة عن سائر العبادات الأخرى.

فأول هذه الخصائص أنها محل المناجاة.. ولعلك تقول: إن العبد بوسعه أن يناجي ربه في كل الأحوال ومن خلال سائر العبادات، فأين هو وجه الخصوصية للصلاة في ذلك؟ والجواب أن ما يملكه الإنسان من ذلك في الأحوال العامة، هو التوجه إلى الله بالخطاب والثناء والدعاء ونحو ذلك، من طرف واحد، أي من طرفه هو. وهو مختلف عما يعبر عنه ابن عطاء الله هنا بالمناجاة. ذلك لأن هذا الوزن ((مفاعلة)) يدلّ على معنى المشاركة، فخطاب المصلي لربه ليس خطاباً من طرف واحد، بل إن العبد كما يتجه إلى ربه فيها بالتوحيد والثناء والدعاء، يتوجه الرب جل جلاله فيها إلى عبده بالإجابة والمصافاة

والقبول. لا أدلّ على ذلك من الحديث القدسي الذي مرّ بك في شرح الحكمة السابقة، وأوله: ((قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين..)).

وكما أن للصلاة خصوصية الحضور مع الله، فالمناجاة التي فيها لها خصوصية الحوار والأخذ والعطاء معه عز وجل، كما دلّ على ذلك الحديث القدسي السابق.

والخاصة الثانية أنها معدن المصافاة. وهذه الكلمة تدلّ هي الأخرى بوحي وزنها: ((مفاعلة)) على المشاركة. فكيف تدلّ على ذلك؟

إن كلمة ((مصافاة)) مأخوذة من ((تصفية)) وتستعمل عادة في التعبير عن تصفية حساب بين اثنين. وإنما استعير هذا المعنى للطلب الذي يتجه به العبد في الصلاة أن يصفح عنه فيتجاوز عما تورط فيه من سيئات، معلناً له توبته عنها، وعزمه على الرجوع إليها، فيستجيب الله طلبه، ويصفح عنه ويمحو ما قد ثبتته الملائكة على صحائفه من سيئات.

وهكذا تتم تصفية ما سجل على العبد من تبعات وأوزار، من خلال هذا الحوار الذي عبر عنه ابن عطاء الله بالمصافاة.

وإذا كانت الصلاة منضبطة - بعد تكامل الشروط والأركان - بآدابها، فما من ريب أنها تكون فرصة فريدة لتصفية ما بين العبد وربه من مسؤوليات وحساب. لا يستثنى من ذلك إلا ما قد تحمّله المصلي من حقوق للعباد، فإن الصلاة وحدها لا تبلغ أن تكون فرصة لتجاوزها ومحوها. بل لا بدّ لتحقق المصافاة فيها مع الله، من المصافاة بشأنها أولاً مع أصحاب الحقوق. إلا أن يتحمل الله عن الملاحَقِينَ

بحقوق الناس، تجاه من يلاحقونهم بها، بما قد يمتن عليهم به من مكرمات وأعطيات، فعندئذ تتم المصافاة بالفضل الرباني، وبالرحمة التي يلهم الله بها صاحب الحق أن يتجاوز عن حقه. غير أن هذه حالة استثنائية من القاعدة القائلة «حقوق الله مبنية على المسامحة، وحقوق العباد مبنية على المشاحّة» لا مقياس لها، ولا قاعدة تستند إليها. وإنما الأمر فيها عائد إلى رحمة الله وفضله، وهو سبحانه وتعالى يؤتى فضله ورحمته من يشاء.

أما الخاصة الثالثة فهي أن الصلاة أشبه ما تكون بساحة أو ميدان يتعرض فيه المصلي لأسرار علوية تهبط إلى قلبه، وأنوار ربانية تسري في كيانه وتمتزج بروحه.

فكيف يتم ذلك، وما الدليل عليه؟

والجواب أن الإنسان إذ يكون خارج الصلاة معرّضٌ لأنواع الغفلات والكثير من أسباب اللهو والنسيان، إذ الشأن فيه أن يكون منصرفاً إلى شؤونه الدنيوية المتنوعة التي لا غنى للإنسان عنها. ولا بدّ أن يتكون من هذه الشواغل الكثيرة المتلاحقة حجاب يحجبه عن الله وعن التأمل في الدار الآخرة والمصير الذي هو مقبل إليه، وحتى لو أتيح له أن يصحو من سكر دنياه وشواغلها لبضع دقائق، تعود شواغله وأفكاره الدنيوية لتتسرب إليه وتستولي عليه.

ولكن إذا أقبل يلبي النداء إلى الصلاة، واتجه إلى القبلة وقد أخذ أهبته للوقوف بين يدي الله، ودخل حضرة الله مكبراً، وبدأ يكلمه ويناجيه، فإن الله يقبل عليه، وما معنى إقبال الله عليه؟

معناه أن الله يتجلى عليه، أي على قلبه ومشاعره الروحية، باللطف والرحمة والقبول. فينجذب القلب بذلك إلى الله، وتتجه منه المشاعر إلى الحديث الذي يخاطب به ربه بل إلى جواب الله له، وقد مرّ بك الحديث القدسي المعبر عن ذلك.

وعندئذ تتنزل من الأسرار العلوية ما لا يعلمه إلا الله على قلب المصلي وتفيض مشاعره بأنوار التجليات الإلهية، المتمثلة في الخشوع والمهابة والتعظيم والحب..

وحسبك من ذلك أن الله إذا أقبل على عبده إذ يقبل هو إليه في الصلاة، مازج إقبالُ الله عليه روحه، فانتعشت بذلك أيما انتعاش، وتذكرت العهد القديم إذ كانت تجوب في الملأ الأعلى قبل أن تفصل عن عالمها العلوي ذاك لتحبس في هذا الجسد الترابي على هذه الأرض إلى أجل مسمى، وذكّرها العهد القديم بخطاب الله لها، المتجه إليها مع سائر الأرواح الأخرى، والقائل: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٧/١٧٢]؟

فهذا هو مبعث الأسرار الربانية والأنوار العلوية إذ تمتزج بمشاعر المصلي، وتوقظ روحه إلى ذكريات العهود القديمة الخالية يوم ناجى الله الأرواح.

وسرّ خصوصية الصلاة في ذلك، أن الصلاة في جملتها ليست إلا دخولاً في حضرة الله عز وجل، واستضافة من الله لعبده، كما سبق أن ذكرت لك، فإذا سلّم من صلاته فقد خرج من حضرة الله، وانتهت استضافة الله له، وعندئذ تعود إليه الدنيا التي انفصلت عنه مؤقتاً بسائر شواغلها وملهياتها ومنسياتها.

ولكن لا تنس ما سبق أن قلت لك من أن حديث ابن عطاء الله إنما هو عن الصلاة التي توافرت آدابها التامة، بعد توافر شرائطها وأركانها.

*　　*　　*

ثم ذكر ابن عطاء الله عن الصلاة شيئاً آخر يكشف عن بالغ لطف الله بعباده، وواسع فضله عليهم ورحمته بهم. وهو أن الله أحب أن يكرم عباده بأضعاف ما أكرمهم به من استضافتهم إليه، واستقبالهم في واحة حضرته، ولكنه علم ضعفهم وعجزهم عن تحمل التردد على أعتابه خمسين مرة، كل يوم وليلة، فلم يحملهم من ذلك إلا العُشْرَ، خمس مرات فقط كل يوم وليلة.. ولما علم احتياجهم إلى رحمته وصفحه وجوده، خفف عنهم تحمّل العبء، دون أن يخفف لهم من المثوبة والأجر. فهي كما تعلم في الأداء خمس صلوات فقط، ولكنها في الأجر خمسون كاملة.

فهذا معنى قوله: علم وجود الضعف منك فقلل أعدادها، وعلم احتياجك إلى فضله فكثر أمدادها.

*　　*　　*

أرأيت إذن الصلاة وبالغ أهميتها؟

إنها استضافة من الله لك إلى كريم رحابه، وفرصة نادرة تناجيه فيها فيقبل إليك، وهي ساعة لتصفية الحساب وإغلاقه لصالحك، تَبيضُّ

بعدها سود صحائفك، وتمحى بفضلها سيئات أعمالك. أليس عجيباً إذن أن يكون المرء مسلماً ثم يكون زاهداً في استضافة الله له؟

بل أليس عجيباً أن يكون مسلماً ثم يقاطع الصلاة ويقطع سبيل الناس إليها؟

قلت لك من قبل: إن الصلاة في الظاهر تكليف، وهي في الحقيقة استضافة وتشريف. فما بال قِطاعٍ كثيرة من المسلمين لا تعرف جسومهم الصلاة ولا تعرف جباههم لذة السجود لله؟

((لقد كانت صورة اجتماع المسلمين على الصلاة، آخر مشهد رآه رسول الله من أمته، وآخر ما تزود به في رحلته من الدنيا إلى رحاب الله عز وجل.

فلقد أراد عليه الصلاة والسلام ((بأبي هو وأمي)) وهو يمرّ بالدقائق الأخيرة من عمره أن يتزود من أصحابه رضوان الله عليهم بآخر نظرة، وأن يطمئن إلى الحق الذي تركهم عليه والهداية التي أرشدهم إليها، فأراه الله منهم ما طابت به نفسه وقرّت له عينه، حتى غلب ذلك المشهد آلام الموت السارية في جسده فغلبها، وإذا بالبشر والرضا يطفح كل ذلك على وجهه، حتى خيل للصحابة أنه ﷺ قد نشط من أوجاعه وعوفي من آلامه!...

ولكنهم ما عرفوا إلا أخيراً أنه إنما وقف ينظر إليهم نظرته تلك، لينقلب بها إلى سكرة الموت وهي آخر لوحة تسجل في ذهنه مشهد أصحابه بل أمته كلها، كي تكون العهد الباقي بينهم وبين الله

عز وجل، ولتكون هي الهمزة الواصلة بين لحظة الوداع لأمته في الدنيا ولحظة الاستقبال لها في الآخرة على حوضه المورود.

لقد شاءت حكمة الله أن يكون هذا المشهد هو الصلاة.. وشاء الله تعالى أن تكون هي العهد الأخير.

فيا أخي المسلم: كن وفياً بهذا العهد.. العهد الذي فارقك عليه رسول الله ﷺ، وهو راض يبتسم))[١].

* * *

(١) هذه الفقرات من كتاب فقه السيرة النبوية: ص٥٠٧ للمؤلف.

الحكمة الثامنة عشرة بعد المئة

«متى طلبت عوضاً على عمل طولبت بوجود الصدق فيه، ويكفي المريب وجدان السلامة»

من المعلوم أن المطلوب من العبد أن يخلص الطاعات التي أمره الله بها، لوجهه وحده، وأن لا يشرك معه أحداً أو شيئاً آخر، في الدافع الذي يحمله على أداء طاعاته. والآيات في ذلك كثيرة وصريحة، من مثل قوله تعالى: ﴿وَما أُمِرُوا إلاّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٩٨/٥] وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كانَ يَرْجُو لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف: ١٨/١١٠].

ولعل كثيراً من المسلمين، بل ممن يتحدثون في الإسلام ويدعون إليه، لا يدركون المعنى السليم والدقيق للإخلاص في العبادة لوجه الله وحده.

إنهم يتصورون أن المسلم إذا خلت عباداته وطاعاته من الرياء، فتلك هي قمة الإخلاص.

غير أن الأمر أدق من ذلك.. انظر إلى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كانَ يَرْجُو لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾

وكلمة ﴿أَحَداً﴾ هنا أعم من أن يكون خاصاً بمن يعقل. إنها تشمل أي شيء ما عدا الله عز وجل، فمن أشرك في عبادته لله طمعاً في مال أو مكانة أو شهرة، أو رغبة في عافية بدنية، كمن يشرك في صلاته مع قصد التقرب إلى الله، قصد الرياضة والنشاط الجسمي، فقد حرم من صفة الإخلاص لله في عبادته، وذلك بدلالة واضحة من قوله تعالى: ﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾.

إذا تبين لك هذا فدعني إذن أسألْك:

ما الفرق بين أن يكون الشيء الذي تجعله شريكاً مع الله في القصد إلى مرضاته، مالاً تناله، أو رياضة بدنية تكسبها، أو أجراً من الجنة تناله؟

إذا كان الإخلاص لله، أن يتمحض العمل خالصاً لذاته، فكل ما يدخل معه شريكاً في هذا القصد، فإن من شأنه إذن أن يجرح الإخلاص لذات الله أو أن يعكر من صفوه، أياً كان هذا الذي دخل شريكاً معه. واصطناع الفارق بين الأجر الدنيوي والأجر الأخروي، على الطاعة، تمحّل لا وجه له ولا دليل عليه.

كما أن الذي يحضر صلاة الجماعة ويتوخى فيها مع القصد إلى مرضاة الله أجراً دنيوياً يناله على ذلك، يعدّ بعيداً عن الإخلاص لوجه الله، فكذلك الذي يؤديها متوخياً مع القصد إلى مرضاة الله أجراً من نعيم الجنة أو فراراً من عقاب قد يلاحقه، هو الآخر يعدّ بعيداً عن الإخلاص لله.

ومقياس الدلالة على ما يعكر صفو الإخلاص لدى العبد، أن ينظر إلى القصد الآخر الذي تسرّب إلى قلبه شريكاً مع القصد إلى مرضاة الله في أداء عبادة ما، فإن وجد في نفسه أن غياب ما تأمله من قصده ذاك من شأنه أن يفتّر من رغبته في أداء تلك العبادة، وأن يغيب بسبب ذلك قدر ولو يسير من نشاطه في القيام بها، فذلك دليل قاطع على غياب الإخلاص الذي أمر به الله تعالى عن عبادته تلك، بقطع النظر عن نوع الشريك الذي دخل واشترك مع القصد إلى مرضاة الله تعالى في النفس.

لعلك تستشكل في هذا قول الله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢/١٦] وقوله تعالى: ﴿وَجَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾ [الإنسان: ١٢/٧٦] وأمثالهما من الآيات التي تصرح بأن الله تعالى جعل الجنة جزاء الأعمال الصالحة التي تقرب بها المؤمنون إلى الله في دار الدنيا.

إذن، فاذكر ما سبق أن ذكرته لك في أكثر من مناسبة مرت، من أن جعل الجنة جزاء للأعمال الصالحة إنما هو قرار من طرف واحد، ألا وهو الله. أما عباده المؤمنون فإنهم لم يبرموا بينه وبينهم عقداً على هذا الأساس، وما ينبغي لهم - وهم عبيد مملوكون لله - أن يبرموا معه مثل هذا القرار.

ولقد أطلت.. وفصلت.. وذكرت الأدلة الكثيرة، على هذا الذي أقوله لك هنا توطئة بين يدي شرح هذه الحكمة الجديدة. فإن أعوزك علم ذلك فارجع إلى تفصيل ما قلته لك في بيان هذه الحقيقة.

فإذا تبين لك هذا الذي أوضحته لك، فإن ابن عطاء الله يبني عليه هنا الكلام الدقيق التالي:

يقول: عندما تريد أن تطلب من الله عوضاً، أي أجراً، على طاعتك له، سائل نفسك هل كنت صادقاً مع الله في الإخلاص له في أدائها؟

والحقيقة أن هذا التساؤل الذي يذكرك به ابن عطاء الله، إنما هو تنبيه منه إلى أنه لا يجتمع الصدق في الإخلاص لله في العمل، مع طلب العوض منه عز وجل عليه، ذلك لأن الإخلاص يقتضي أن يكون قيامك بالعمل متمحضاً لوجهه، ولا يكون متمحضاً لوجهه إن أنت أشركت مع القصد إلى مرضاته قصداً إلى عوض أياً كان نوعه، كما سبق أن ذكرت لك.

إذن فمن تقرب إلى الله بطاعة ما، وسأله «العوض» عنها، فإن عليه أن يعلم أنه غير مخلص لله فيها، وإذا ثبت أنه غير مخلص لله فيها فأنى له أن يطلب منه عوضاً عليها.

وانظر إلى دقة العبارة في كلامه.. استعمل كلمة «العوض» لا كلمة الثواب ونحوها، لينبهك إلى ما تتضمنه كلمة العوض من قصد العامل إلى الحصول لقاء عمله على البديل الذي يبتغيه من ورائه. وهذا المعنى لا يتراءى في كلمة «الثواب» مثلاً. ذلك لأن هذه الكلمة يعبر بها البيان الإلهي عن الإكرام الذي أعدّه الله لعباده الطائعين منحة منه وتفضلاً وإحساناً، ومن ثم فليس فيه أثر لمعنى العوض أو البدل عن الشيء.

ولئن سمى البيان الإلهي المثوبة التي أعدّها الله للصالحين من عباده أجراً أو جزاء، فإنما هي تسمية جاءت من طرف واحد، أي من قبل الله عز وجل تحبباً لعباده ومبالغة في الإحسان إليهم والثناء على قرباتهم وطاعاتهم. وما ينبغي أن يفهمها العبد على أنها أجر أو عوض حقيقي استحقه على عمله، فنقده الله بسبب ذلك حقه، بل يجب أن يعلم أنه لا يستحق على طاعاته مهما كثرت شيئاً، ولكن الله يمتن عليه فضلاً منه وإحساناً بالمكرمات التي يسميها أجراً أو جزاء.

إذن، فالمخلص في عمله لله، يغيب عن ذهنه معنى العوض وقصده، إذ هو لا يتجه بقصد إلى مرضاة الله وحدها.. والباحث عن العوض يغيب عن ذهنه الإخلاص له عز وجل في غمرة مزاحمة العوض أو البديل الذي يطلبه.

وهذا يعني أن انتظار العبد الثواب من الله عز وجل، موقناً أنه إنما يتلقاه منه على سبيل التفضل والإحسان والعفو والتجاوز عن السيئات، إثر توفيق الله العبد للنهوض بأداء بعض حقوقه المتراكمة عليه، لا يخل بالإخلاص لذاته العلية. بل إن رجاء الثواب وانتظاره على هذا النحو، من أبرز مقتضيات العبودية لله.

فمن هنا استعمل ابن عطاء الله كلمة «العوض» في المعنى الدقيق الذي نبه إليه، بدلاً من كلمة «الثواب».. إن طلب العوض شأن من يعتقد أنه حقق لغيره نفعاً يستحق عليه العوض. أما طلب الثواب الذي أطمع الله العبد به فشأن من يعلن عن افتقاره إلى كرم الله وجوده في كل وقت.

ثم إن ابن عطاء الله ينبّه من يخلط التوجه إلى مرضاة الله في أعماله، بالطمع في العوض الذي ينتظر أن يناله بدلاً عنها، إلى أن الأولى به أن يسأل الله السلامة من العقاب الذي قد يتعرض له بسبب آفة الشرك الخفي الذي تركه يتسرب إلى قلبه.

وليس في عباد الله الصالحين فضلاً عن المقصرين والتائهين، من بوسعه أن يطمئن إلى أنه مطهر من شوائب الشرك الخفي في أعماله وقرباته، بل إن العبد كلما ازدادا قرباً من الله ازداد تبصراً بعظيم حق الله عليه، ومن ثم ازداد شعوراً ويقيناً بتقصيره في جنب الله وتبصراً بسوء حاله. وهم الذين قال الله عنهم: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ راجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠/٢٣].

وقد علمت مما سبق في بعض الحكم السابقة أن المعنى: يؤتون ما آتوا من القربات والطاعات، وهم خائفون من أن لا يتقبلها الله منهم ويردّها عليهم، لما فيها من الشوائب والزغل، فيما يتصورون ويقدرون.

وهل علمت من هم هؤلاء الذين يتحدث الله عن خوفهم من سوء المآل ومن عاقبة حبط ما قدموه من أعمال؟ إنهم الذين وصفهم الله من قبلُ بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧/٢٣-٥٩] فهؤلاء هم الذين يقول عنهم بعد ذلك مباشرة: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ راجِعُونَ﴾.

فتعال أقارن أنا وأنت أيها القارئ، حالنا وأعمالنا، بأحوال وأعمال أولئك الذين وصفهم الله بما قد رأيت، أفنملك أن ندعي أننا بلغنا شأوهم وتحققنا بالصفات ذاتها التي وصفهم الله بها.

إن قلنا: نعم، إذن فنحن أسوأ حالاً من العصاة التائهين الذين يتألمون من سوء حالهم ويئنون تحت وطأة عصيانهم، فإن أنينهم وآلامهم وانكسارهم ذلاً وخوفاً على أعتاب الله، قد يكون شفيعاً لسوء حالهم. أما المدلّ بطاعاته على الله، والواثق بأنه قد بلغ شأو من وصفهم الله بتلك الصفات فأغلب الظن أنه ساقط من عين الله، هالك بالشهادة التي يزكي بها نفسه!..

لو بلغنا حقاً مبلغ أولئك الذين أثنى الله عليهم بتلك الصفات، إذن لانتابنا الخوف الذي أخذ بمجامع نفوسهم من أن يحبط الله أعمالهم لما فيها من زغل وشوائب الأهواء النفسية، ولما ركبهم من التقصير في جنب الله، أليست هذه صفة من صفاتهم التي أثنى الله عليهم بسببها إذ قال عنهم: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ راجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠/٢٣].

أما أن نرى أننا قد أنجزنا كل ما هو مطلوب منا لله، على الوجه الذي طلب، صافياً عن شوائب الشرك بأنواعه، ونتطلع بناء على ذلك إلى العوض أي الأجر الذي نستحقه لقاء ذلك، فإن هذا هو بعينه الشرك الذي حذر الله منه، وتوعد بإحباط الأعمال الصالحة المشوبة به.

إذن فإن العبد مهما ارتقى في رتب الصالحين والصديقين، لن يجد نفسه في حالة يثق فيها بسلامة طاعاته وكمال قرباته، بحيث يجرؤ على أن يتوجه إلى الله بطلب (العوض) عليها. فإن ثقته التي تبعثه على هذه الجرأة هي دليل شركه وسوء إخلاصه.

غير أن هذا لا يعني أنه لا يطلب المثوبة (لا العوض) التي يطمعه الله بها، بل ينبغي أن يعلن دائماً عن افتقاره إلى الله، وإنما يصدق معنى الافتقار فيه بالمسألة الدائمة، يسأله العفو والعافية، ويسأله كل ما يصلح أمر دينه ودنياه، ويسأله أن يكرمه بمثوبة رضوانه وجنانه، وإن لم يكن أهلاً لها.

فإن خطر في باله العوض، أو أخطره في باله، بعض المتحذلقين. فليعد إلى نفسه ليرى ما تنطوي عليه من الشوائب والأهواء والرعونات، وعندئذ يجد نفسه مريباً، كما قال ابن عطاء الله، والمريب لا يطلب من ربه إلاّ السلامة، والتفضل عليه بالقبول والمغفرة.

ويقول في هذا خير النساج أحد رجال الرسالة القشيرية: ((ميراث أعمالك ما يليق بأفعالك، فاطلب ميراث فضله وكرمه، فهو أولى بك)).

وصفوة القول أن طلب العبد المثوبة التي وعد الله بها عباده الصالحين على وجه العوض عن طاعاته، من الشرك الخفي الذي حذر الله منه، والذي ربما أحبط العمل، أما طلب المثوبة على وجه إحسان الله وتفضله بها عليه، موقناً أنه ليس أهلاً لها، فهو من مقتضيات عبوديته لله عز وجل، والمأمول أن يتقبل الله منه عمله، وأن يكرمه بالمثوبة التي وعده بها وأطمعه بسؤالها.

نسأله عز وجل أن يرينا من أنفسنا مظـاهر تقصيرهـا وسـوئها، وأن يرينا من ذاته العلية مظاهر كرمه وتجاوزه وإحسانه، حتى نسأله المثوبـة على وجه العفو والإحسان، لا على وجه التعويض والاستحقاق.

* * *

الحكمة التاسعة عشرة بعد المئة

((لا تطلب عوضاً على عمل لست له فاعلاً، يكفي من الجزاء لك على العمل أن كان له قابلاً))

بعد أن حذّرك ابن عطاء الله من طلب العوض على الطاعات التي توفق لأدائها، للسبب الذي ذكره لك، وهو غياب الصدق في طاعتك له إن أنت طلبت منه العوض، أضاف في هذه الحكمة الثانية إلى هذا التحذير سبباً ثانياً، وهو أن العوض من شأنه أن يكون على عمل أنت القائم به والمنفذ له. فهل أنت الفاعل للطاعة التي تطلب من الله عوضاً عليها؟

والجواب الذي تبصرك به الحقيقة العلمية ومبادئ العقيدة الإسلامية، أن الذي يخلق أفعالك على اختلافها هو الله عز وجل. وحسبك من الأدلة النقلية على ذلك قول الله عز وجل: ﴿اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾ [الفرقان: ٢/٢٥]، والأفعال التي تصدر من الإنسان تدخل - كما هو معلوم - في عموم الأشياء.

ومعنى ذلك أن الذي يقدرك على النهوض إلى الصلاة مثلاً هو الله، وأن الذي يبث في كيانك القدرة على أفعالها وحركاتها من قيام وركوع واعتدال وسجود هو الله. إذن فهو الذي يخلق فيك هذه الأفعال. إن من المعلوم أنك بقدرة الله تتحرك وتؤدي وظائفك التي تقوم بها على اختلافها. ولا يوهمنك خلافَ ذلك ما تراه من تلبس الأعمال بك ونسبتها إليك، فتلك هي الصورة، أما الحقيقة الكامنة وراءها، فهي أنك وسائر أفعالك من مخلوقات الله. وإنه لعجيب أن يدرك الإنسان أن الله هو الخالق لذاته، ثم لا يدرك أنه سبحانه وتعالى هو الخالق لأفعاله!...

ولعلك تستشكل ما استشكله المعتزلة فتقول: فكيف يثيب الله أو يعاقب عباده على أفعال هو الخالق لها؟ وكيف السبيل إلى القول بعدالة الله في هذه الحال؟

والجواب أن الثواب والعقاب ليس شيء منهما على الأفعال الصادرة من الإنسان والتي يخلقها الله فيه كما أسلفنا، وإنما ينالهما العبد على عزمه القلبي الذي توجه به إلى الفعل الذي اختاره. وهو ما يعبر عنه البيان الإلهي بالكسب، في مثل قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٧٤/٣٨]، وقوله: ﴿لَها ما كَسَبَتْ وَعَلَيْها ما اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢/٢٨٦].

وإنما دور الفعل الذي يخلقه الله في العبد موافقاً بل خادماً لعزمه، أن يكون شاهداً يوم القيامة على عزائمه وقصوده التي كان يكنها في نفسه.

فإن قلت: فكما أن الأفعال الصادرة من الإنسان بخلق الله، فينبغي أن تكون قصوده وعزائمه هي الأخرى بخلق الله، وعندئذ يعود الإشكال ذاته.

والجواب أن الذي يشكل على ما قلناه، هو أن نتصور أن الله تعالى هو الذي يخلق في الإنسان قصوده وعزائمه المتجهة إلى جزئيات الأعمال.

وهذا خطأ كبير في الفهم لم يقله أحد، وليس هو المراد بما ذكرناه، إذ لو كان الأمر كذلك لكان مؤداه أن الإنسان إنما ينقاد إلى اختيارات الله له، لا إلى اختباراته التي اختارها لنفسه، وهذا هو الجبر بعينه، بل هو أسوأ مظاهر الجبر الذي لا يستقيم مع التكليف.

إن المراد بما ذكرناه، أن الله هو خالق الملكة الكلية للقصد والاختيار في كيان الإنسان. ومن الواضح أن ملكة الإرادة والاختيار شيء، وممارسة هذه الملكة من خلال الاختيارات الجزئية شيء آخر. وبينهما فرق كبير لا يغيب عن العاقل. فالملكة الكلية للاختيار، بخلق الله تعالى. أما ممارستها باختيار الأشياء الجزئية فمن الإنسان وهي مصدر التكليف، ولا يقال: فلماذا لا تكون ممارستها باختيار الأمور الجزئية هي أيضاً بخلق الله، لأنا لو قلنا ذلك لعاد الإنسان مجبراً لا يستطيع أن يمارس إلاّ ما يختاره الله له، ولكان ذلك عندئذ مناقضاً لما قررناه من أن الله هو خالق الملكة الكلية للاختيار في الإنسان. ويستحيل أن تكون ثمرة الشيء مناقضة لأصلها، ولأن ممارسة هذه الملكة باختيار الأمور الجزئية ليست شيئاً آخر غير أصل الملكة التي خلقها الله فينا، أي فممارسة أحدنا لهذه الملكة أمر اعتباري صرف.

هذا هو القدر الذي يسمح به مجالنا الذي نحن بصدده، في شرح هذه المسألة وردّ الشبهات التي قد تحوم حولها. فإن أردت المزيد من الشرح والتفصيل فارجع إلى ما كتبته في ذلك مفصلاً في كتابي (الإنسان مسيّر أم مخير) بدءاً من الصفحة الثامنة والخمسين فما وراءها.

* * *

فإذا عرفنا أن الأفعال التي تصدر من الإنسان، إنما تصدر منه بخلق الله لها، فينبغي أن تعلم إذن أن طاعاتك التي تتقرب بها إلى الله، إنما تم أداؤها بخلق الله لها في كيانك. فافرض أنك كنت صادقاً مع الله في الإخلاص بها لوجهه، - وهو ما نبه إليه ابن عطاء الله في الحكمة السابقة - كيف يسوغ لك أن تطلب من الله العوض على طاعة هو الذي أقدرك عليها وخلق فيك أفعالها وأقوالها؟ أليس من عظيم فضل الله عليك أن يخلق فيك ما ينسب إليك؟

أليس من عظيم فضله عليك أن يوقظك ليلاً للوقوف بين يديه، وأن يحرك لسانك بمناجاته، وأن يلين جذعك للركوع والسجود بين يديه، وأن يخلق فيك القدرة على كل ذلك؟

فكيف تستسيغ - وأنت تعلم هذا - أن تطلب منه العوض على ما وفقك له وأقدرك عليه؟

لعلك تقول: إنني لا أطلب العوض على الفعل الذي هو بخلق الله وفضله، وإنما أطلب العوض على العزم الذي توجهت به إلى طاعة الله،

وقد علمنا الآن أن توجه القلب بالعزم على الفعل صادر من العبد، ومن ثم فهو مناط الثواب والعقاب في حياته.

فالجواب، أن الله تفضل عليك فكسى عزمك القلبي كسوة الفعل والتنفيذ. ولولا تفضله عليك بذلك، لما وجدت طاعتك له.. وقد تفضل عليك أيضاً إذ منحك ملكة الاختيار والقدرة على اتخاذ القرار. ولولا هذه الملكة الكلية التي منحك الله إياها، لما استطعت أن تتجه برغبتك إلى فعل ما تشاء أو ترك ما تشاء.

مثال هذا، ما ينبغي أن تعلمه من أن إقبالك إلى دراسة العلوم وتتبع الحقائق لا شك أنه توجه ذاتي منك، ولكن ينبغي أن تعلم أيضاً أنه لولا ملكة الوعي والإدراك التي متعك الله بها، لما استطعت أن تتجه اتجاهك الذاتي إلى دراسة ما تشاء، ولما استطعت أن تصل من وراء ذلك إلى أي جدوى.

فكما أن الله متفضل عليك بأصل ملكة الاختيار وملكة الإدراك، فهو متفضل عليك أيضاً بآثار كل منهما، وإن كانت مظهراً لسعيك وتوجهاتك الجزئية التي جعلها الله مناط الأجر والثواب، أو العقاب والعذاب.

إذن، فقد تبين أنك لا تستحق أي عوض على طاعاتك التي تؤديها لربك، لا إن لاحظت فيها عملك التنفيذي، ولا إن لاحظت عزمك المتجه إلى الاستجابة والتنفيذ. ولا تنس ما نبهتك إليه من معنى (العوض) الذي يختلف عن عموم معنى الثواب. فإن عاد الأمر فالتبس

عليك، فما عليك إلا أن تعود إلى ما ذكرته لك في بيان هذا الفرق في شرح الحكمة التي قبل هذه.

فإذا تبينت ذلك، وأدركت الحقيقة التي أوضحتها لك، وتذكرت أنك عبد مملوك لله، فلسوف يكون قصارى همك عند أداء العبادة التي كلفك الله بها، أن تعلم أنه قد تفضل عليك فقبلها منك، على الرغم من الأخطاء والنقائص التي فيها، ولسوف يكون شغلك الشاغل عند إنجاز الطاعة، وقبل النهوض إلى أدائها، أن تسأله جل جلاله أن يوفقك لأدائها على خير وجه وأن لا يؤاخذك بما قد يتسرب إليها من تقصير وأخطاء.

وقد صح أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: ((يا معاذ والله إني أحبك، أوصيك، لاتدعن في دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادك))[١].

ولو كانت عبودية الإنسان لله، وتفضل الله عليه بتوفيقه لأداء ما افترض عليه، يلائم كل منهما طلب العوض عليه، لنبه رسول الله معاذاً إلى ذلك وأرشده إلى طلب العوض بدلاً من طلب العون على حسن الأداء.

سل الله، إذا أنجزت الطاعة أياً كانت، أن يتقبلها منك، على ما فيها من نقائص، وما قد تسرب إليها من سوء الأدب وعدم اللياقة، وأن يتغمدك الله برحمته، واحصر أملك ورجاءك في ذلك، كما قال رسول الله ﷺ في نهاية الحديث الذي ذكرته لك أكثر من مرة ((..إلا أن يتغمدني الله برحمته)).

---

(١) رواه أبو داود والنسائي وأحمد والحاكم في المستدرك، من حديث معاذ.

اِجعل ديدنك، بعد إنجاز العبادات والطاعات، أن تسأل الله تعالى ذلك، فهو الأولى بعجزك وتقصيرك، وهو الأليق بما ينبغي أن تعلمه من تفضل الله عليك إذ لين أعضاءك وبث فيها القدرة على النهوض بما أمرك به، وشرح صدرك لأسباب التقرب إليه، بدلاً من أن يشرحه ويوجهه لأسباب الابتعاد عنه.

فإنك إن التزمت هذا النهج، فلسوف يكرمك الله بالقبول، ويتوج قبوله لك بالمثوبة التي هو أهل لإكرامك بها، وإن لم أكن أنا وأنت أهلاً لشيء منها.

* * *

الحكمة الموفية تمام العشرين بعد المئة

«إذا أراد أن يظهر فضله عليك، خلق فيك ونسب إليك»

الصيغة التي أحفظها لهذه الحكمة، هي: «من تمام فضله عليك، أن خلق فيك ونسب إليك» ولكني لم أعثر عليها في المراجع والمظانّ التي تحت يديّ.

وعلى كل فإن الذي أراه الأنسب في التعبير عن عموم فضل الله وشموله للناس جميعاً، لا سيما في هذا الذي ينبه إليه ابن عطاء الله، إطلاق بيان هذا الفضل الرباني في عموم الأحوال، وبالنسبة للناس كلهم، وعدم تقييده بإذا، المنبئة عن وجود فضله هذا في حالة دون أخرى، وفي حق أناس دون غيرهم.

ذلك لأن هذا التفضل الرباني سارٍ للناس جميعاً على اختلاف أحوالهم. ألا ترى أنه سبحانه وتعالى ينسب إلى الناس كلهم ما يصدر عنهم من طاعات وقربات، على الرغم من أنه هو الخالق لها والموفق إليها، ففضله في ذلك شامل للناس جميعاً، وهو ظاهر وبيِّن في سائر الأحوال.

ألاَّ ترى إلى قوله عز وجل: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ١٦/٣٢] فقد نسب الطاعات التي كان قد وفقهم إليها وأقدرهم على أدائها، وخلقها فيهم، كما مرّ بيانه، نسبها على الرغم من ذلك إليهم. والخطاب، كما تعلم، لعموم من شملهم هذا التوفيق.

ألا ترى إلى قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿مَنْ ذا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢/٢٤٥]؟ إنك لتعلم أن المال مال الله وهو المالك له وللشخص الذي يرى نفسه مالكاً له، ولكن الله مع ذلك ينسب ماله هذا لعبده الذي أكرمه ومتعه به، ويسأله، سؤال المستجدي، أن يقرضه منه شيئاً، مؤكداً أنه سيوفيه ما أقرضه منه، مضافاً إليه أضعافه.

إذن، فهي سنة ربانية ماضية في عموم عباده الذين يوفقون لأداء الطاعات والقربات، يخلق فيهم تلك الطاعات التي عزموا عليها، وينسبها إليهم ليظهرهم في مظهر المستحقين لأجورها وما علق من أنواع المثوبة عليها.

ولا يفوتنك أن الحديث هنا موجه إلى من تولاهم الله بالعناية والتوفيق، ولا التفات فيه إلى من وكلوا إلى نفوسهم الأمارة، فلم يجر الله على أعضائهم ولا على ألسنتهم شيئاً من الطاعات التي وعد عباده بالمثوبة عليها.

* * *

ثم إن هذه الحكمة سيقت مساق الإجابة عن سؤال مؤداه أن ما قاله ابن عطاء الله في الحكمة السابقة التي شرحناها، يتعارض مع التزام الله بتقديم العوض على الطاعات التي أنجزها عباده المؤمنون على الوجه المطلوب. وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ [آل عمران: ٣/١٨٥] وقوله: ﴿فَاسْتَجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ٣/١٩٥] وقوله تعالى، وهو يصف بعضاً من نعيم يوم القيامة: ﴿إِنَّ هَذا كانَ لَكُمْ جَزاءً وَكانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُوراً﴾ [الإنسان: ٧٦/٢٢]. فهذه الآيات – ومثلها في القرآن كثير – واضحة في بيان أن الله قد ادخر لعباده العوض على الطاعات التي أنجزوها على الوجه المطلوب، فأين هو وجه الخطأ في أن يطلب العبد ما قد وعد به له الرب جل جلاله؟

والجواب عن هذا السؤال، ما يقوله ابن عطاء الله هنا: إن ما ينسبه الله إليك من الطاعات، إنما برز منك وظهر فيك بخلق الله له متلبساً بك ومنسوباً إليك على وجه التفضل عليك والتحبب إليك.

فكيف تجعل من هذا الذي هو مظهر تفضل الله عليك، سبباً لاستحقاقك الأجر والعوض عليه؟

وما ينبغي أن تتيه عن هذه الحقيقة التي من شأنها أن تشكر الله على فضله، بدلاً من أن تطالبه بأجر أو عوض، بسبب ما قد وعدك به من الأجر على طاعاتك. فينسيك ذلك هذه الحقيقة، وتقيم نفسك منه مقام من أنجز المطلوب على وجه السليم، فاستحق بذلك العوض الذي وُعِدَ به.

وليت شعري، كيف يستحق العبد المملوك الذي لا يملك من أمر نفسه شيئاً، ولا يستطيع أن يعتمد على ذاته في إنجاز أي شيء، أن يطالب سيده بالعوض عما يتوهم أنه قد أسداه إليه من خير أو عون؟..

ولا حاجة إلى أن أفيض لك في بيان هذا الأمر، فقد سبق أن شرحته مفصلاً في أكثر من مناسبة، ولكن فلتعلم أن كل ما ذكرته لك مفصلاً في بيان هذه المسألة من قبل، تتجمع عصارته في هذه الحكمة البليغة: ((من تمام فضله عليك، أن خلق فيك ونسب إليك)).

وسل نفسك الآن: أفمن مقتضى هذا الفضل الإلهي عليك، أن تطلب منه العوض على فضله، أم أن تؤدي الحق المترتب عليك في تكرمه عليك بهذا الفضل؟

* * *

الحكمة الحادية والعشرون بعد المئة

((لا نهاية لمذامّك إن أرجعك إليك. ولا تفرغ مدائحك إن أظهر جوده عليك))

من المعلوم أن الإنسان يتألف من حقيقتين اثنتين إذا أسقطنا قفصه الجسدي عن الاعتبار، هما الغريزة الحيوانية والروح العلوية.

ونعني بالغريزة الحيوانية الطبيعة التي تميل به إلى شهوات الطعام والشراب وغريزة الجنس، وتحتضن مشاعر الأنانية والحقد والحسد ومسابقة الآخرين في احتياز الرغائب والممتلكات والرغبة في التعالي والتغلب عليهم، ويعبّر عنها بعض الباحثين بالغريزة الترابية.

أما الروح العلوية، فنعني بها ذلك السرّ الذي عبر عنه البيان الإلهي بقوله عز وجل للملائكة عن الإنسان: ﴿فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩/١٥] إنه ذلك السر الذي عبر عنه البيان الإلهي بكلمة ﴿مِنْ رُوحِي﴾ ولا حيلة للإنسان في معرفة هذا السر، بعد قول الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي..﴾ [الإسراء: ١٧/٨٥] كل ما في الأمر أن الله نسب هذا السر الذي سماه الروح إلى ذاته العلية، ولا شك أنها نسبة تكريم وتشريف

أولاً، ثم هي تيئيس لأصحاب الطموحات المعرفية من إدراك حقيقته ثانياً.

وإذا كانت الغريزة الحيوانية من شأنها أن تهبط بالإنسان إلى أحط دركات التصرفات البهيمية، فإن الروح العلوية التي بثها الله فيه، من شأنها أن تسمو به إلى مصاف الملائكة، بل ربما إلى أعلى منها. ويعبر البيان الإلهي عن هذين العاملين المتناقضين في حياة الإنسان، بقوله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَما سَوّاها ، فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها﴾ [الشمس: ٩١/٧-٨] فمصدر الفجور فيه هو الغريزة الحيوانية، ومصدر التقوى هو الروح الهابطة إليه من الملأ الأعلى، ولكن أي هذين العاملين له التأثير الأقوى في حياة الإنسان؟

نقول في الجواب: إن الله إذا ترك الإنسان وشأنه ووكله إلى صراع ما بين هذين العاملين، فإن الغلبة تكون للغريزة الحيوانية التي سميت في القرآن بالنفس الأمارة بالسوء. فتهتاج في هذه النفس الصفات والطباع المرذولة التي حدثتك عنها. وما هو إلا أن ينقاد الإنسان لسلطانها.

وفي القرآن آيات كثيرة يصف الله فيها الإنسان بالجنوح إلى الكفران، وإلى الطغيان، وإلى نكران النعم وتجاهل المنعم، وإلى القنوط واليأس عند المصيبة، والإعراض عن الله عند النعمة.

فلتعلم أن الإنسان الذي يصفه الله بذلك كله، هو ذاك الذي وكله الله إلى نفسه، وتركه لجموح غرائزه وأهوائه، فغدت روحه العلوية في

كيانه كالسجين المقهور والمغلوب على أمره. والروح إن لم تلق عناية من مولاها تخمد جذوتها وتخبو شعلتها ويضعف بل يختفي تأثيرها.

فعن هذا الإنسان يقول الله تعالى: ﴿كَلاّ إنَّ الإنْسانَ لَيَطْغَى ، أنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٩٦/٦-٧]، وعنه يقول: ﴿قُتِلَ الإنْسانُ ما أكْفَرَهُ ، مِنْ أيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ، ثُمَّ السَّبيلَ يَسَّرَهُ ، ثُمَّ أماتَهُ فَأَقْبَرَهُ ، ثُمَّ إذا شاءَ أنْشَرَهُ ، كَلاّ لَمّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ﴾ [عبس: ٨٠/١٧-٢٣] وعن هذا الإنسان يقول: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنا الإنْسانَ مِنّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْناها مِنْهُ إنَّهُ لَيَؤُوسٌ كَفُورٌ ، وَلَئِنْ أذَقْناهُ نَعْماءَ بَعْدَ ضَرّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئاتُ عَنّي إنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١١/٩-١٠].

ومن هنا يزول الإشكال الذي يتوقف عنده كثير من الناس، إذ يرى هذه الصفات المرذولة التي يحكم بها الله عز وجل على الإنسان من حيث هو، أي لا على صنف منه دون صنف، مع ما هو معلوم من أن هذه الصفات لا تنطبق على الناس كلهم. إذ فيهم من وصفهم الله تعالى بأكمل الصفات، ومن أخبرنا في محكم تبيانه بأنهم خير البرية.

* * *

إذن، فرق ما بين الصنف الهابط من الناس إلى أحط دركات السوء، والصنف المرتفع منهم إلى أعلى درجات الفضل والرشد، هو أن الصنف الأول، وكله الله إلى نفسه وأرجعه إلى ذاته، أما الصنف الثاني فهو ذاك الذي جاد عليه بعنايته ورعايته وألطافه.

والإنسان الذي وكله الله إلى ذاته، هو ذاك الذي قطع عنه رفده وحجب عنه سبل التوفيق إلى تنفيذ أوامره والالتزام بهديه وشرائعه.

ترى هل يغني هذا الإنسان وأمثاله عما فاته من ذلك، أن يرجع إلى عقله ووعيه، أو أن يعتبر بتجارب الناس من حوله وأحداث التاريخ من خلفه؟

لن يغني عنه شيء من ذلك، بعد أن فاتته عناية الله وحمايته له من نفسه ورعوناته.

إن الإنسان الذي تنقطع عنه عناية الله، يغدو عبداً لغرائزه ونفسه الأمارة بالسوء، بدلاً من أن يكون عبداً لله عز وجل، في تنفيذ وصاياه وأوامره.

وإذا آل الإنسان إلى هذه الحال، فإن إنسانيته كلها تنمحي وتذوب في ضرام رعوناته واستكباره وأهوائه، ويتحول إلى أشرس وحش من وحوش الغاب، لا يتقيد بخلق ولا بشرعة ولا نظام.

بل إنني أجزم أن في هذا التشبيه ظلماً لتلك الوحوش.. فإن تلك الحيوانات التي نسميها وحوشاً إنما تمارس حياتها من خلال نظام حازم لا تتعداه ولا تحيد عنه، وهو ما يسمى بنظام الغريزة التي قيدها الله به، فهي لا تفترس إلا عن الحاجة وضمن حدود ونظام، ولا تمارس علاقاتها مع أمثالها من الحيوانات إلا ضمن حدود مرسومة، ولا تمارس علاقاتها الجنسية إلا وفق الحاجة وإن لم تكن تعلمها أو تشعر بها.. إنها قانون الغريزة التي أقامها الله في حياتها وعلاقة ما بينها وبين الحيوانات الأخرى، مقام الشريعة التي عرّفنا عليها ودعانا إليها. ثم إن الحيوانات بما فيها الوحوش، ملجمة بلجام قانون الغريزة تلك، لا تتعداها ولا تحيد أو تتفلت عنها، إذ هي مسوقة إليها قسراً بحكم من

الله عز وجل، أما الإنسان فإن الله إذ عرفه على شرعه وخاطبه بأوامره ونواهيه، لم يفرض شيئاً من ذلك عليه، عن طريق الغريزة، بل خاطب في ذلك عقله، ووكله في ذلك كله إلى اختياره، تكريماً من الله له أن لا يساق سوقاً إلى ما يطلب منه، كما تساق البهائم والأنعام.

فمن جاد الله عليه باللطف والتوفيق، تحرر من أسر رعوناته وأهوائه، وسمت به إنسانيته إلى أعلى مراتب الخير والفضائل، وكان نفاعاً لعباد الله محباً لهم، يؤثرهم على نفسه ولا يستأثر لها، وفي الجملة لا تنتهي مدائحه على حدّ تعبير ابن عطاء الله، وإنما الفضل في ذلك لعناية الله وتوفيقه.

أما من وكله الله إلى نفسه الأمارة بالسوء، أو أرجعه إلى ذاته ورعوناته على حدّ تعبير ابن عطاء الله، فلن يبرز فيه إلا النقائص، ولن يظهر في تصرفاته إلاّ المذامّ.. إذ إن مصير من أرجعه الله إلى نفسه ووكله إلى رعوناته، أن لا يقيد نفسه بشيء من تعليمات الله وشرائعه، وليس ثمة بديل عنها من الغريزة التي نظم الله بها حياة البهائم، تتحكم فيه وتهيمن عليه، فيتحول هذا الإنسان عندئذ إلى ما يشبه ثوراً هائجاً تمرّد على قيود غريزته وجبلته، فراح يعثو يميناً وشمالاً، يفسد... ويسفك... ويظلم.. ويحطم.. لا القانون أو الشرعة الإلهية تردعه، ولا الغريزة التي هي البديل عنها في عالم البهائم تحكمه.

ومما يزيد هذا الإنسان ضراوة عن الوحوش في أدغالها، أنه يتمتع بما لا تتمتع به تلك الوحوش من العقل والإدراك والمعارف التي بوسعه أن يسخرها لتحقيق المزيد من قوى الفتك وأسباب القتل والدمار.

إن الوحوش لا تملك للقيام بمعايشها، إلا المخالب والأنياب.. أما هذا الإنسان فإن بوسعه أن يجنّد كل ما سخره الله له من قوى الطبيعة، ليجعل منها جنوداً لبغيه وأسلحة لفتكه.

على أن الوحوش لا تستعمل مخالبها وأنيابها إلا بدافع من غريزة حب البقاء وذلك عندما يهتاج بها الجوع وتعض عليها الحاجة لها أو لصغارها.. فإذا تمتعت بالشبع وسدّت حاجتها، غابت عنها طبيعة الافتراس، واستسلمت للهدوء مريحة ومستريحة.

أما هذا الإنسان، أي هذا الصنف الذي نتحدث عنه، فشأنه البغي والسطو والفتك في كل الأحوال، جاع أو شبع، استغنى أو افتقر، لا يردّه عن طغيانه إلا الضعف والعجز. فهل في وحوش الدنيا كلها، من هو أبلغ وحشية وضراوة من هذا الإنسان.. أي من الإنسان الذي أرجعه الله إلى نفسه، ووكله إليها، فشرد بذلك عن حمى الله وتوفيقه، وتفلت عن تعاليمه وهديه؟

فهذا هو مجمل ما يعنيه ابن عطاء الله بقوله: «لا نهاية لمذامّك إن أرجعك إليك، ولا تفرغ مدائحك إن أظهر جوده عليك».

وهذا المعنى هو الذي يتجلّى في قول الله عز وجل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنا الإِنْسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ، ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ ، إِلاّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٩٥/٤-٦] فإنما يردّه الله إلى أسفل سافلين، بإرجاعه إلى نفسه إذ يكله إليها، ويتركه لها..

وإنما استثنى من هذا الفريق من شملته رحمة الله فتحرر من غوائل نفسه واستجاب لنوازع فطرته وحنين روحه. فأولئك هم الذين عناهم البيان الإلهي بقوله عز وجل: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

* * *

الحكمة الثانية والعشرون بعد المئة

((كن بأوصاف ربوبيته متعلقاً، وبأوصاف عبوديتك له متحققاً))

أوصاف ربوبية الله كثيرة، ولكنها تلتقي في صفات الغنى والعز والقدرة والقوة. كما أن صفات العبودية في الإنسان هي الأخرى كثيرة، ولكنها تلتقي في صفات الفقر والذل والعجز والضعف.

والمطلوب من الإنسان أولاً أن يعلم أوصاف عبوديته، فإنه إن علمها علم ربوبية الله له، وأدرك أوصاف ربوبيته.. وإنك إن تأملت، وجدت أن بين ألوهية الله للكون وعبودية الإنسان لله تلازماً بيناً. فلا يكون الله إلهاً للإنسان إلا حيث يكون الإنسان عبداً له، والعكس أيضاً صحيح. فلا يكون الإنسان عبداً لله إلا حيث يكون الله إلهاً له والعبودية تعني منتهي الذل الصادر عن منتهى الضعف والعجز.

ولكن ما الدليل على أن الإنسان متصف بهذه العبودية فعلاً؟

أي هل الإنسان يعاني فعلاً من منتهى الضعف والعجز تجاه ذي قوة مطلقة؟

يلتبس الجواب العلمي عن هذا السؤال على كثير من الناس، لسبب هام، هو التباس الفعل الاختياري الذي يفترض صدوره عن الإنسان، بالانفعالات القسرية التي يتلبس بها. فأكثرهم يحسبون الانفعالات القسرية التي يتلبسون بها أفعالاً اختيارية صادرة طواعية عن ذواتهم، أي دون أي تدخل خارجي، ومن ثم فهم يتوهمون أنهم ليسوا عبيداً مملوكين لكائن ما.

غير أن الحقيقة العلمية التي لا مجال للريب فيها، هي أن الإنسان، من حيث التصرفات المتنوعة التي تصدر منه، أشبه ما يكون بجهاز استقبال، تتجلى عليه الحركات والصور والألوان.. إن من الواضح أن شيئاً من ذلك كله لا يصدر من داخل ذلك الجهاز، وإنما ينعكس متجلياً عليه من جهاز آخر، هو ما يسمونه بجهاز الإرسال.

كذلكم الإنسان، إنه يفكر ويعقل... غير أنه منفعل بالفكر والعقل، وليس فاعلاً لشيء منهما، ذلك لأن الوعي أشرق في دماغه دون أي تسبب أو قصد منه، وغداً سيذبل أو يغيب ربما هذا الوعي عن دماغه، دون أن يملك حيال ذلك وسيلة استبقاء لهذه النعمة حتى لمدة جزئية محدودة.

والشأن في القوة التي يتمتع بها كذلك... إنه يمارس قوته من خلال ما ينهض به من أنشطة وأعمال، غير أنه منفعل بتلك القوة وليس فاعلاً لشيء منها. لقد تسربت إليه بالأمس بعد عجز، وغداً ستفارقه بعد عزم ونشاط، دون أن يعلم كيف أقبلت إليه بالأمس، وكيف غابت عنه أو تراجعت اليوم.

والإنسان ينطق فيبين.. ولكنه لا يعلم قط كيف تتم عملية النطق ما بين فمه وحلقه، وربما تعرض من بعدُ لآفة تفقده هذه النعمــة، دون أن يعلم كيف تمتع بها ثم كيف حرم منها.

وكذلكم استقبال الإنسان لنعمة النوم، ثم تجاوزها إلى نعمة اليقظة، وممارسته لعملية الأكل والمضغ، وسير أحدنا متوازناً معتدل القامة على قدميه، كل ذلك وغيره، يتم في حياة الإنسان عن طريق الانفعال، لا عن طريق الفعل والإبداع.. والدليل على ذلك أنه يتمتع بها ولكنه لا يستطيع أن يتحكم بشيء منها.

إذن، فالإنسان حقاً ليس إلا جهــاز استقبال، بل إنه مجرد شاشة استقبال إن انقطع عنها الإرسال عادت صفحة جامدة باهتة وقد غاب عنها كل شيء.

وسواء أعلم الإنسان الجهة التي يأتيه منها الإرسال أم لم يعلم، فإنه على كل حال، لا بدّ أن يعلم أنه يتقلب من واقعه هذا في منتهى الضعف والعجز.. وهذا هو معنى العبودية في أجلى معانيها وصورها.

وإنها لحقيقة ثابتة في كيان الإنسان، لا تحتاج لإدراكها إلى أي معتقد ديني.. إنه واقع لا بدّ أن يستيقنه كل من يتأمل في ذاته وتقلباته، لا بدّ أن يستيقن أنه مطبوع بطابع العبودية من فرقه إلى قدمه، ومن ظاهره إلى باطنه، إنه مجرد مخزن لطاقات وقدرات شتى يمارسها ويصطبغ بها دون أن يتحكم بشيء منها.

* * *

فإذا علم الإنسان هذه الحقيقة العلمية الجاثمة في كيانه، فإن عليه أن يعترف بها.. أي عليه أن يقرّ بواقع عبوديته وأن يتحقق بها، فلا يتجاهلها ويوهمَ نفسه أنه المتصرف بشأن نفسه، والفاعل للمزايا والمتع والقدرات التي ركبت فيه.

فإذا أقرّ بها ودان لها باعتبارها حقيقة تتسامى على التجاهل والريب، فلا بدّ أن يقوده ذلك إلى البحث عمن هو عبد له، أي عن المصدر الذي تنبعث منه إليه هذه الطاقات والملكات.

وهذا لا يحتاج إلى عميق تفكير ووعي.. فحتى الدابة التي تقاد من الزمام المثبت في عنقها، لا بدّ أن ترفع رأسها وتنظر، لتعلم من هذا الذي يسوقها إلى حيث لا تعلم.. فكيف لا يبحث الإنسان العاقل عن ذلك الذي يقوده من زمام هذه الملكات والطاقات التي ركبت فيه، ليمضي به من خلالها إلى حيث يشاء؟!..

وواضح أن الإنسان إذ يبحث عن هذا المجهول له، فإنه يوقن بوجوده، وإلاّ لما بحث عنه. وحالة الجهل به ليست إلاّ سمة نقص تكتنف حال الإنسان الباحث. ولا ريب أن المطلوب منه أن يتحرر من نقصه هذا بكل ما يملك من جهد.

فإذا توجه الإنسان بعقله إلى البحث عمن يمتعه بهذه الصفات ويقوده إلى حيث يشاء من زمامها، فلسوف يعلم أنه ليس إلا خالق هذا الكون ومبدعه، فهو منشئ القوى والقدر، وهو مجري الحياة طبق ما أقامه فيها من الأنظمة والنواميس... إنه الله عز وجل.

أجل.. فهو الذي يمتعه بتلك الصفات التي ركبت فيه، دون أن يملكه إياها، وهو الذي يستعيدها منه عندما يشاء، طبقاً للنظام الذي أراده فأرساه. وهكذا، فقد صدق من قال: من عرف نفسه عرف ربه.

* * *

والآن، ما هي الخطوة التالية التي من شأنها أن تعقب معرفتك لذاتك، عبداً مملوكاً لله، تفد إليك منه الطاقات والصفات التي تنفعل بها ولا تفعلها، تتمتع بها ولا تملكها؟

إن الخطوة التالية، تتمثل في أن تستكمل نقصك بكماله، وأن تفرّ من ضعفك إلى قوته، وأن تتخلص من فقرك بغناه، وأن تلوذ من مخاوفك بحصن حمايته.

وهذه هي مرحلة ممارسة العبودية، بعد مرحلة الإقرار بها.

وقد عبر ابن عطاء الله عن مرحلة ممارستها بقوله: ((كن بأوصاف ربوبيته متعلقاً)) وعبر عن مرحلة الإقرار بها بقوله: ((.. وبأوصاف عبوديتك له متحققاً)).

وصنيع ابن عطاء الله ينبئ أن التنبه إلى أوصاف الربوبية والتعلق بها، هو السبيل إلى معرفة الإنسان ذاته، ومن ثم إلى معرفة أوصاف عبوديته، فالتحقق بها. فمن أجل ذلك قدم الأول منهما على الثاني.

ويبدو أن كلاً من هاتين الوصيتين العظيمتين سبيل للوصول إلى الأخرى. يقول سيدي الشيخ أحمد زروق في شرحه لهذه الحكمة ((ثم

التعلق بأوصافه يقتضي التحقق بأوصافك، والتحقق بأوصافك يفضي بك إلى التعلق بأوصافه، ولكن يختلف البساط، فتارة يغلب عليك الغنى بالله، وتارة يغلب عليك الفقر إلى الله، فإذا غلب عليك الغنى بالله انبسطت بإحسانه، وإذا غلب عليك الفقر إليه رجعت إليه بمواقف الأدب، فالأول محل البسط والكرامة، والثاني موقف الأدب والتعظيم..»[١].

أقول: ولعل هذا الذي يقوله سيدي الشيخ أحمد زروق يصدق في حق من تجاوزوا مرحلة ابتداء الإقبال إلى الله والاصطلاح معه، بعد التطوح في أودية التيه والضلال، فهم في تقلباتهم كلها مع الله، إما أن تراهم في حالة من البسط بالاستغناء بكرمه وعطائه والتمتع بنعمه وآلائه، وإما أن تراهم في حالة من التجرد عن كل شيء، إلا عن الاصطباغ بذل ضعفهم وافتقارهم إليه، وإنك لتنظر فتراهم يراوحون بين هذين الحالين، ولا ريب أن كلاً منهما يمثل في حياتهم جانباً من جانبي التوحيد للخالق عز وجل.

أما الذين لا يزالون يتطوحون في تيههم، محجوبين عن مولاهم وخالقهم، فأغلب الظن أنه لا بدّ لانتشالهم من التيه ولرفع الحجب المسدلة بينهم وبين الله عز وجل، من أن تكون البداءة بالنسبة إليهم، من نقطة التعرف على الذات واكتشاف دلائل العبودية فيها. بما قد أوضحته لك من الحقيقة التي ينبغي أن لا يفوت أحداً من الناس علمها، وهي أن الإنسان ينفعل بالطاقات والملكات والقدرات

(١) شرح حكم ابن عطاء الله للشيخ أحمد زروق ص٢٢٥.

الموجودة في كيانه، ولا يفعل شيئاً منها، فهو في إقبالها إليه بدون اختيار منه، وفي إدبارها عنه بعد ذلك بدون قرار منه، أشبه ما يكون بجهاز استقبال، ينفعل بالصور والحركات والألوان ولا يفعل شيئاً منها.

فإذا تعرف أحدهم على ذاته، واكتشف هذه الحقيقة في كيانه، فلا بدّ أن يسوقه هذا الاكتشاف إلى البحث عن مصدر هذه الطاقات والملكات في شخصه، أي لا بدّ أن يبحث عن جهاز الإرسال الذي يبث فيه هذه الملكات كلها.

وهكذا فإن التائه عن الله، بوسعه أن يهتدي إليه عن طريق الوقوف بتأمل وتدبر أمام مرآة ذاته، فلسوف تدلّه كينونته على وجود الله وخالقيته، ولسوف يدله ضعفه وعجزه على قدرة الله وقوته، ولسوف يدله فقره وذلته على غنى الله وعزته، إذ هو به يقوى بعد عجز، ويَغْنَى بعد فقر، ويعز بعد ذل، ويأنس بعد وحشة.

ويندر أن ينجذب هذا التائه عن الله قفزاً، فوق مرحلة التعرف على ذاته، واكتشاف بصمات العبودية في تقلباته وحياته، إلى شهود الله والتعلق بأوصافه، كما يقول ابن عطاء الله. اللهم إلا أولئك الذين يجتبيهم الله إليه دون وساطة جهد، ولا سلوك سبيل، أو طرق لأبواب.. فهؤلاء لهم خصوصية ميزهم الله بها عن غيرهم، لا نملك أن نقع على مقياس لها أو طريق للتعرض لها، وإنما هو فضل الله يكرم به من يشاء. وصدق الله القائل: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ٤٢/١٣].

الحكمة الثالثة والعشرون بعد المئة

«منعك من أن تدّعي ما ليس لك مما للمخلوقين، أفيبيح لك أن تدعي وصفه وهو رب العالمين»

هذه الحكمة ذات صلة وثيقة بالتي قبلها، فهي تتمة لها، وتحذير من آفة كثيراً ما يتعرض الإنسان لها.

يمهد ابن عطاء الله بمقدمة بين يدي التحذير من هذه الآفة، وهي لفته النظر إلى أن الله عز وجل يمنعك من أن تنكر لصاحب الفضل من الناس فضله، أو أن تنسب فضله إليك وتخيّل للناس بأنك أنت صاحبه ومصدره، كأن يحسن إليك صديق أو جار لك، بمالٍ يرفدك به، عند ضائقه. فإذا ارتفعت عنك تلك الضائقة بإحسانه إليك، نسيت صديقك أو جارك المحسن، أو تناسيته، وتظاهرت أمام الناس بأنك أنت صاحب الفضل في حق نفسك، سعيت فوصلت، وجالدت فنجحت..

أو كأن يصادفك عدو يريد أن يتربص بك ويكيد لك، وأنت من الضعف بحيث لا تملك دفاعاً عن نفسك، فتستنجد بمن يملك من القوة ما يرد به عنك غائلة العدوان، فإذا استجاب وأنجدك، وانجابت عنك

غاشية القلق والخوف، وعدت إلى دائرة أمنك وطمأنينتك، تناسيت فضل هذا الذي هبّ لنجدتك وقام بنصرتك والدفاع عنك، ورحت تتبجح في الأوساط ببطولة وهمية تزعمها لنفسك، موهماً أنك كنت النصير لذاتك والقاهر لعدوك.

إن من المعلوم أن الله ينهى عن هذا اللؤم، ويأمر عباده بأن يعرف كل منهم لصاحب الفضل فضله، وأن يشكره ويكافئه على معروفه وفضله، وقد قال رسول الله ﷺ: ((من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه))[١] وقال: ((لم يشكر الله من لم يشكر الناس))[٢].

هذا في علاقة الناس بعضهم مع بعض. فكيف بعلاقة العبد بربه؟

والحق أن كثيراً من الناس يعانون من هذه الآفة. بل إن انتحالهم لأوصاف رب العالمين أكثر من انتحالهم، بعضهم لأوصاف بعض.

ذلك لأن أحدنا يبصر أمامه الشخص المتفضل عليه، ويرى عمله وجهده وهو يسعى في رعايته وخدمته أو تقديم المعونة الممكنة له. ومن ثم فإن من العسير أن يتجاهله وهو أمامه، أو أن يدعي لنفسه الجهد الذي امتن عليه صاحبه به وفي الناس ربما جمهرة شهدوا عمله ورأوا مظاهر اهتمامه به ورعايته له.

أما الوصف أو العون الذي يتلقاه أحدنا من ربه عز وجل، فإنما تصل إليه آثاره ضمن أقنية خفية غير مرئية. هذا بالإضافة إلى أن

(١) أخرجه أبو داود والنسائي من حديث ابن عمر، وفي رواية ((من صنع إليكم معروفاً..)).
(٢) أخرجه الترمذي وحسنه من حديث أبي سعيد الخدري، وأخرج نحوه أبو داود وابن حبان من حديث أبي هريرة.

مصدر التفضل والإحسان، وهو الله عز وجل، غير مرئي في هذه الدنيا بالأبصار. فإذا رأى أحدنا في مظهره سيما الصحة والعافية، زُهِي بهذا الذي يراه، دون أن يرى لله عليه في ذلك منة وفضلاً.

وإذا أدرك ما يصفه الناس به من عبقرية في الفهم، وسعة في المعارف والعلم، أعجب بنفسه وتباهى بهذا الذي يمدحه الناس به، دون أن يعلم أن ليس له من الخصوصية أو الفضل على ذلك شيء، وإنما الفضل في ذلك لله الذي متعه بشيء من وصفه عز وجل، إذ العلم علمه والدراية العقلية من أعطياته، وصدق الله القائل: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلاّ بِما شاءَ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٥].

وإذا رأى بسطة الدنيا وكثرة المال بين يديه، ركبه الفخر، واهتاج به الكبر، مستيقناً أنه إنما نال كل ذلك بكدّ يمينه وبعرق جبينه، وبما يتمتع به من معرفة السبل إلى جمع المال وتنميته واستثماره، مردداً قول قارون: ﴿إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٢٨/٧٨] ناسياً أن المال مال الله يؤتيه من يشاء، وأنه سبحانه هو المتفضل به عليه، وأن لا مالك بالمعنى الحقيقي للملك إلا الله عز وجل.

وإذا رأى هالة المجد والعز والشهرة أو الرئاسة تحيط به، طافت برأسه النشوة، ولم يشك أن الذي سما به إلى سدة ذلك كله إنما هو استحقاقه، ووفرة المزايا التي يتمتع بها والتي لا بدّ أن تثمر في حياته هذه المكانة وأن تبوئه هذا المجد والسمو.. ناسياً أنه لو عاد فاستظهر هويته الحقيقة، لن يجد نفسه إلا كتلة من الذل والهوان. ولكن الله يضفي على من يشاء من عباده عزاً من عزته فيرتفع بين الناس شأنه

ويشتهر بينهم أمره، وصدق الله القائل: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٣/٢٦].

ولو كان في الناس من يحق له أن يرى أهليته الذاتية لرفعة المكانة، وسمو الذكر بين الناس، لكان ذلك أفضل الخلائق محمداً عليه الصلاة والسلام، ومع ذلك فقد أكرمه الله بهذه المزية فضلاً منه وإحساناً، وامتن عليه بذلك قائلاً: ﴿وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ بعد أن قال له: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ، الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: ٩٤/١-٣].

* * *

فإذا تبين لك هذا، فاعلم أن الوفاء مع الله الذي خلقك فسواك فعدلك، أهم من الوفاء مع عباد الله. ولا ريب أن العكس أيضاً صحيح، وهو أن نكران الفضل لصاحب الفضل وهو الله، أشدّ لؤماً من إنكاره للناس الذين هم من أمثالك.

إن المطلوب من العبد أن يتعلق بأوصاف الربوبية ليستكمل بها نقصه، كما ذكر في الحكمة السابقة، لا أن يدّعيها لنفسه متجاهلاً بها نقصه.

وإذا تأملت... علمت أن الآفة الكبرى في حياة أكثر المسلمين، هي التورط في نقيض هذا المطلوب، وذلك على نحو ما أوضحت لك في الأمثلة التي ذكرتها لك.

ولكي تتبين عظم اللؤم في هذه الآفة التي يتورط فيها كثير من المسلمين، تأمل في مدى بشاعة حال من يمارس هذا التصرف مع أمثاله من الناس، إذ يتلقى أحدهم الفضل من صاحبه فينجو بذلك من بلاء كان سيحيق به، ثم يمضي متجاهلاً فضله ناسباً ذلك إلى نفسه موهماً أنه المستقل بتخليص نفسه من ذلك البلاء، وانظر إلى شدة تحذير الشارع جل جلاله من الانحدار إلى هذا السوء.

فكم تكون بشاعة هذا التصرف، وكم يكون تحذير الله منه وتحريمه له، عندما يكون المتفضل المانح هو الله، والمتجاهل للفضل المترفع على الشكر عبداً من عباد الله؟!..

ضع يا ابن آدم توحيدك الذي تردده بلسانك، موضع التنفيذ من تصرفاتك وسلوكك أمام هذه الحقيقة التي يذكرك بها كتاب الله إذ يقول: ﴿يا أَيُّها النّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ٣٥/١٥] ويشرحها لك هنا ابن عطاء الله.

إنك في كل تقلباتك وحركاتك وسكناتك عبد مملوك لله.

وإنما تُتَرْجَمُ عبوديتك له بما تتصف به حقاً، من منتهى الذل، ومنتهى الضعف والعجز، ومنتهى الفقر.

وأنت عندما تنشد التخلص من ذلك، فإنما تنشد ذلك بالالتجاء إلى عزة الله.. وعندما تنشد التحرر من ضعفك وعجزك، فإنما السبيل الوحيد أمامك الالتجاء إلى قوته وقدرته. وعندما تنشد التخلص من فقرك فإنما سبيلك إلى ذلك الالتجاء إلى غناه.

إذن، فلا تنسَ - وأنت تتمتع بالعزة - أنك إنما تتمتع بالعزة التي منحك الله إياها، ولا تنس - وأنت تتمتع بالقوة والقدرة - أنك إنما تتمتع من ذلك بقوة الله وقدرته، ولا تنس - وأنت تتمتع بالغنى - أنك فقير منحك الله شيئاً من رفده وغناه.

إنك إن فعلت ذلك غنيت دائماً بالله، وتقلبت من حياتك في عزة ربانية لا تفارقك، وتحصنت من حماية الله بقوة لا تُقْهَر.

والشأن فيك، والحالة هذه، أن لا يفارقك اليقين بفقرك، حتى وإن كنت في أوج الغنى، وأن لا يفارقك اليقين بذُلّك ومهانتك بين يدي ربك، حتى وإن كنت تتبوأ أعلى درجات العز، وأن لا يفارقك اليقين بعجزك وضعفك، حتى وأنت تتمتع بكامل عافيتك وقوتك.

فإذا تمتعت باليقظة التامة إلى هذه الحقيقة، فإنك ستنال من جراء ذلك نعمتين جليلتين، بهما تنال أسمى درجات القرب من الله.

أولى النعمتين: أن شكر الله لا يفارق خاطرك ولا ينقطع سبيله عن لسانك، فإن معرفتك الدائمة لفقرك وعجزك وذلّك، هي التي تدعوك دائماً إلى شكر الله وحمده كلما رأيت فقرك مستوراً بالغنى الذي متعك الله، وكلما رأيت عجزك مستوراً بالقوة التي منحك الله إياها، وكلما رأيت ذُلّك مستوراً بالعزة التي أسبغها عليك.

الثانية منهما أنك تصبح رباني التصرف والسلوك، فلا تقوم ولا تقعد ولا تعطي ولا تأخذ، ولا تنطق ولا تسمع إلا بالله عز وجل، لأنك على يقين تام أنك كتلة عجز وذل وفقر، لا يتأتى منك شيء.

ولكنك بالمدد الإلهي تقوى فتتحرك وتعمل، وبالمدد الإلهي تتقلب في أعمال السوق وتجاراتها وصناعاتها، وبالمدد الإلهي تعقل وتنطق وتسمع، ومن ثم فأنت مع الله في كل الأحوال.

ولعل هذا من بعض معنى كلام الله تعالى في الحديث القدسي: ((وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه..))[1].

أي إنه، وقد ارتقى إلى هذه الحال، يعلم أنه بالله يسمع وبه يبصر، وبقدرته يبطش ويمشي.

ولا يخطرن في بالك أنه قد يعصى الله بسمعه أو بصره أو بما تبطش يداه أو تمشي إليه قدمه، أفيتناسب إذن أن يقال: كنت سمعه الذي يعصى به، وبصره الذي يعصي به.. إلخ؟

إن هذا الخاطر ما ينبغي أن يكون وارداً في هذه الحال. فإن العبد الذي أيقن أنه يعاني من منتهى الفقر والذل والعجز. وإنما يستغني ويعتزّ ويقوى بالله وحده، يكون، كما قلت لك، مع الله دائماً، إذ هو يعلم في كل لحظة أنه بالله يبصر وبه يسمع وبه يتحرك. ولا بدّ أن يكون شعوره الدائم هذا حارساً دائماً معه، يقي جوارحه من الوقوع

(١) رواه البخاري من حديث أبي هريرة، وأحمد والبيهقي وغيرهما من حديث عائشة.

في الحرام؛ وكيف يطلقها صاحبها لفعل الحرام، وهو يعلم أنها بالله تتحرك وتفعل؟!..

ولعمري إن هذه المزية ليست إلا ثمرة ما قرره الحديث قبل ذلك من محبة الله له، وذلك في قوله عز وجل: ((وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه..)).

وإنما يتعرض أحدنا لارتكاب المعصية، عندما يغيب عن شهود الله، بشهود نفسه والإصغاء إلى صوت أهوائه وغرائزه، فينفصل عندئذ - بالوهم أو النسيان الذي يسيطر عليه - عن ارتباطه بالله، فيدركه شيطانه مستعيناً بأهوائه، بعد أن خرج من حصن ارتباطه بالله إلى بيداء رغائبه النفسية الموحشة، متغلباً عليه في بعض ما قد يقترفه من محرمات. ولولا الحاجز الوهمي الذي فصله عن معيته لله وعن يقينه بأنه إنما يتقلب في سلطان الله ويتحرك بقدرة الله، لما تَـأَتّى للشيطان ولا لرغائبه الغريزية أن تقتنصه لتوقعه في محرم.

وهذا هو معنى حديث رسول الله ﷺ: ((لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه أبصارهم فيها، حين ينتهبها وهو مؤمن))[1].

وهذا يعني أن إيمان العبد لا يتم إلا إذا كان متعلقاً بأوصاف ربوبية الله عز وجل، بالمعنى الذي ذكرته، وهذا لا يتم إلا بعد أن يكون متحققاً بأوصاف عبوديته بالمعنى الذي أوضحت.

---

(١) رواه الشيخان وأحمد والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة وابن عباس.

فاللهم حققنا بأوصاف عبوديتنا لك، حتى نوفق للتعلق بأوصاف ربوبيتك تعلق انكسار والتجاء، وحتى تدخلنا فيمن قلت عنه:

((فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها)).

* * *

الحكمة الرابعة والعشرون بعد المئة

((كيف تُخترق لك العوائد، وأنت لم تَخرق من نفسك العوائد؟))

المقصود بالعوائد الأولى عوائد الله تعالى، أي سننه الكونية الماضية في عباده، والقائمة على علاقة ما بين الأسباب والمسببات، وهي علاقة أقامها الله بمحض إرادته وتدبيره. والمراد بخرقها إدخال شذوذ عليها تكريماً للعبد، كالكرامات والخوارق التي تجري لبعض عباد الله الصالحين.

والمقصود بالعوائد الثانية، الرغبات والحظوظ الغريزية التي يبتلي الله بها الإنسان، من حب للدنيا وعصبية للذات، وتعلق بالأهواء، وركون إلى المدح وتبرم من الذم والقدح، إلى آخر ما هو معلوم من الصفات المذمومة، التي ركبت في الإنسان، فأصبحت عوائد وسنناً ملازمة له في حياته وتقلباته، ما لم يجاهد نفسه في التحرر منها، وما لم يسلك مسالك التزكية النفسية، التي أمر الله بها عباده والتي بها تتحول النفس من أمارة بالسوء إلى لوامة فمطمئنة.

إذا عرفت المعنى المراد بالعوائد في هذه الحكمة، في المرة الأولى وفي الثانية، فإن ابن عطاء الله يقول لمن يتطلع إلى الكرامات والخوارق ينتظر أن يخصه الله بها:

إن نفسك الأمارة بالسوء تنطوي على رغائب ونزوات وعلى كثير من الآفات التي سماها الله ((باطن الإثم)) لم تأخذ نفسك بعدُ بالعمل على مقاومتها واختراقها والتحرر منها، طبقاً لما قد أمرك الله به، بل لا تزال خاضعاً لها، مستسلماً لسلطانها.. فبأي حجة وبأي جرأة تنتظر من الله أو تطلب منه أن يخرق لك عوائده وسننه الكونية الماضية في عباده، فيكرمك بالخوارق ويؤيدك بأعاجيب انفصال الأسباب عن المسببات؟!..

ولماذا تظل تنتظر بوارق الكرامات أن تلوح لك؟.. لماذا تصرّ على أن يمتعك الله بها أو بشيء منها أمام المريدين أو الأقران؟.. هل لك من دافع إلى ذلك إلاّ التجمل والتباهي بها أمام الآخرين؟ هل تنتظر من فائدة لها إلا ثناء الناس عليك وإعجابهم بك، إذ كنت أنت الذي اختصك الله بخرق عوائده وإدخال الشذوذ أو الاستثناء في نواميسه؟

ولكن أما تعلم أن هذه الرغبة، شاهد كبير على أنك لا تزال تحتضن عوائدك السيئة التي أمرك الله باختراقها والتحرر منها، بالرعاية والحماية والاهتمام؟

فيا عجباً لحالك!!.. يطلب الله منك أن تخترق عوائدك السيئة، متقرباً بذلك إلى مرضاته، فتعرض عن هذا الذي طلبه وأمرك به، بل

تصرّ على استبقائها وحمايتها. ثم لا تخجل أن تطلب منه خرق عوائده لك على سبيل الإكرام لشخصك، وللشهادة على علوّ شأنك!..

هذا هو معنى هذه الحكمة، وهذا هو شرح الاستفهام التعجبي المنبئة عنه كلمة ((كيف)) في صدر الحكمة.

لعلك تقول: أليس في الصالحين من خرقوا في أنفسهم عوائدهم التي حذر الله منها، وأمرهم بتطهير نفوسهم من رجسها وأوضارها، فتحرروا من كل هذا الذي سماه الله باطن الإثم، فحان لهم أن يسألوا الله ما قد يتطلعون إليه من كرامات يخرق بها لهم بعضاً من عوائده، أي أنظمته وسننه؟

والجواب: أن من أبرز علامات نجاح هؤلاء الناس في خرق عوائدهم النفسية السيئة والتحرر منها، أن لا ينشغلوا بالبحث عن الخوارق والكرامات، وأن لا يلتفتوا إليها ولا يقيموا وزناً لها. فأما إن أهمهم شأنها وأخذوا يتطلعون إليها ويفرحون بها أو بظهور بعض ما يدلّ عليها، فذلك شاهد لا ريب فيه على أنهم لا يزالون سائرين وراء رغائبهم وأهوائهم النفسية، وأنهم يبحثون عما قد يرفع لهم بين الناس مكانة وقدراً. وإنها لآفة من أخطر الآفات.

ولعلك تذكر أنني حدثتك في أكثر من مناسبة مرت في هذا الكتاب، أن الربانين من عباد الله يخشون على أنفسهم من الخوارق والكرامات، ويرون في ظهورها على أيديهم أو بسببهم خطراً كبيراً عليهم. ولقد ذكرت لك ما قاله سيدي الشيخ أحمد الرفاعي، في كتابه

البرهان المؤيد، من أن الصالحين من عباد الله يستخْفون من كراماتهم كما تستخفي المرأة من حيضتها.

إنهم يفترضون - لما يتهمون به أنفسهم من سوء الحال والتقصير في جنب الله - أنها استدراج يحمل إليهم نذيراً من سخط الله ومقته، ولا يفرحون بها على أنها كرامة لهم جاءت شاهداً على حسن حالهم مع الله.

فتأمل في حال هؤلاء الربانيين والصالحين من عباد الله، وقارن بينهم وبين من يطرق باب السبيل إلى الخوارق والكرامات، يستنزلها من عند الله منتظراً لها، مُلِحّاً عليها، دون أن يرجع إلى نفسه فيلحّ عليها أولاً بإصلاح الحال واختراق ما فيها من العوائد السيئة والأهواء الجانحة التي هي السبب في التطلع إلى الكرامات والفرح أمام الآخرين بها.

* * *

ثم إن هذا الذي يقوله ابن عطاء الله رحمه الله تعالى، يصلح أن يكون خطاباً لكثير من الشيوخ الذين يحترفون التصوف والطرق الصوفية اليوم، سبيلاً إلى الحصول على مزيد من المال والشهرة. ضاقت بهم السبل الدنيوية إلى ما ابتغوه من ذلك، فركبوا إليه مطية الدين، واحترفوا مشيخة طريقة من الطرق الصوفية.. دأبهم في المجالس التي يجمعون إليهم فيها التلامذة والمريدين، أن ينوهوا بأنفسهم وأن يلفتوا الأنظار إلى ما يتمتعون به من مكانة عالية عند الله، من خلال كثير من الدلائل التي تؤكد ذلك، منها - بل في مقدمتها - ما قد يدّعيه

أحدهم من الاجتماع برسول الله ﷺ في اليقظة بين الحين والآخر. وما قد ينقله عنه لهم من أحاديث وأخبار اختصه بها، ولم يُطْلِعْ عليها أحداً من أصحابه الذين رووا عنه ما دوَّنه المحدثون ونقلوه عنهم!..

وأنت تعلم أن الشأن في هذه الدعوى إذا فتح بابها أن تميع الشريعة الإسلامية، وأن يستبدل بها غيرها، مما يدعى هؤلاء الدجاجلة تلقنه طازجاً من فم رسول الله، فهو إذن باب جديد من أبواب النسخ يصطنعه هؤلاء الشيوخ كذباً وزوراً على رسول الله ﷺ.

ولقد كان في الناس من ينقل لي عن بعض الشيوخ في هذا العصر دعوى لقائهم برسول الله يقظة لا مناماً، فكنت أرتاب في هذه النقول وأحملها على محمل المبالغة أو التشنيع على بعض الصالحين من المربين والسالكين إلى الله. ثم أقبل إلي من العلماء الثقاة الصالحين الذين لا أرتاب في صدق أخبارهم، من أكد لي صحة هذا الخبر عن كثير ممن يصطنعون مشيخة الطرق الصوفية وما يسمونه الوراثة المحمدية.. مواعظهم ونصائحهم للمريدين، تدور على دعاوي ما يتمتعون به من كرامات وما قد خصهم الله به من أعاجيب الخوارق، وفي مقدمتها دعوى رؤية رسول الله والجلوس إليه يقظة وعياناً!!..

ولم يكن في العصور الخالية التي كانت الدولة الإسلامية تنهض فيها بمسؤولياتها في حراسة الإسلام وحماية مبادئه وقيمه، من يجرؤ على التلبس بمثل هذا الدجل لقد كان الذي يدعي رؤية رسول الله يقظة يعرّض لعقاب التعزير. فإن نقل عنه ما يخالف الشرع أو يناقض بعض ما صح الحديث عنه، ضوعف العقاب في حقه، واستعلن القضاء ذلك في الناس، ليكون عبرة وتحذيراً للآخرين.

أما اليوم، وقد تحولت الدولة الإسلامية الواحدة إلى دول متفرقة شتى، ولم يعد الاهتمام بالإسلام وحراسة حدوده ومبادئه، داخلاً في سلّم أولوياتها، إلا ما قد يتصل من ذلك بالأطر والمظاهر والمحافظة على الأسماء والشعارات، فقد غدت ساحات العمل الإسلامي، العلمية منها، والتربوية، والسلوكية، مرتعاً لكل عابث، وموئلا لكل ذي غرض لم يجد في الوسائل الأخرى سبيلاً إليه.

إنني - مع يقيني بأن التصوف الإسلامي الخالي من شوائب البدع والأهواء؛ لبّ الدين الإسلامي وجوهره - أرى ضرورة تضييق السبيل على من يزدحمون على هذا المورد، بل أرى قصره على من تضلعوا بمعرفة علوم القرآن والسنة ونالوا حظاً وافراً من الفقه في الدين والتبصر بأحكام الشريعة الإسلامية، ثم شهدت جماهير الأمة لهم بالاستقامة على سبيل الرشد وبالورع في السلوك والزهد في الدنيا.

وإذا لم تكن في المهامّ والمسؤوليات التي تتحملها قيادات الدول الإسلامية، مهمة مراقبة هذا الأمر، وحراسة شرائع الدين ومبادئه، أن لا يعبث بها عابث، ولا يتخذها طامع في دنيا، سلّماً إلى مطامعه، فإن على وعي المسلمين وبصيرتهم الإسلامية النافذة، أن تنوب مناب تلك القيادات في حراسة دين الله عز وجل من عبث العابثين، ومن طمع الطامعين، ومن أمانيّ الدجالين. على أن مردّ حراسة دين الله عز وجل، إلى الله ذاته. فهو المتكفل بحمايته من المتربصين أو المتلاعبين به، وصدق الله القائل: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ [الفتح: ٢٨/٤٨].

الحكمة الخامسة والعشرون بعد المئة

«ما الشأن وجود الطلب، إنما الشأن أن ترزق حسن الأدب»

سبق أن ذكرت لك، في مناسبة مرت، الفرق بين الدعاء والطلب. وقلت لك: الدعاء إعلان الافتقار إلى الله، والانصراف بذل العبودية والافتقار إليه وحده، أي فالدعاء عبادة مقصودة لذاتها، وجدت الاستجابة أم لم توجد. أما الطلب فهو أعم من ذلك.. إذ هو إعلان الحاجة إلى المطلوب، لمن يتوقع منه الاستجابة والبذل، سواء كان الطالب نداً أي مساوياً في الرتبة لمن يطلب منه، أو كان أعلى أو أقلّ منه شأناً.

والمعنى الذي يرمي إليه ابن عطاء الله من هذه الحكمة، هو أن طالب الشيء معنيٌّ بالرغبة في قضاء حاجته، وليس له أيّ اهتمام بشيء آخر من وراء ذلك، وإذا طرق بها باب من يتأمل عنده الاستجابة وتحقيق المطلوب، فهو إنما يقبل إليه لهذه الغاية، ويتعلق به لهذا الغرض، وآية ذلك أنه إذا نال منه مبتغاه أو يئس من الحصول

عليه عن طريقه، تجاوزه معرضاً عنه ناسياً له، وصدق المثل القائل: ((صاحب الحاجة أرعن، لا يروم إلا قضاءها)).

وإذا كان طلب الشيء على هذا النحو سائغاً في علاقات الناس بعضهم ببعض، فهو غير سائغ قط في علاقة العبد بربه عز وجل. إن توجه العبد إلى الله بعرض احتياجاته وطلبها منه، على هذا النحو، فيه من سوء الأدب ما يمكن أن يزج صاحبه في أحطّ دركات البعد عن الله عز وجل.

لذا فإن المطلوب من العبد - وقد عرف عبوديته ومملوكيته لله عز وجل - أن يقيد نفسه وسلوكه بضوابط الأدب مع الله، من حيث إنه عبد ذليل لا يشرد عن ساحة عبوديته له، مستجيباً في ذلك لمطالبه وأوامره قبل أن يعرض هو مطالبه.

وإنما يتحقق هذا المطلوب بانقياده لأوامر الله وشرائعه من فرائض ومندوبات ينفذها على الوجه الذي يرضيه عز وجل، مع الاستسلام التام لحكمه والرضا المطلق بقضائه، والتزام نهج اللياقة والأدب وحسن المعاملة مع عباده. وكل ذلك مقرر ومبين في كتاب الله تعالى ومشروح في بيان رسول الله على خير وجه.

فإذا اتجه العبد يصغي إلى متطلبات الله منه، عازماً على تنفيذها والانقياد لها، فلسوف يجد بين هذه المتطلبات التي أُمِرَ بها على وجه الجزم والإلزام، ضرورة الإقبال إليه بالدعاء.. يعرض من خلاله افتقاره المطلق إليه، متحققاً بأوصاف مسكنته وذلّه وعجزه وعبوديته، معلقاً آماله بأوصاف كرمه وفضله وغناه وقوته. وذلك في مثل قوله تعالى:

﴿وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾ [غافر: ٤٠/٦٠]، وقوله: ﴿وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدّاعِ إِذا دَعانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ٢/١٨٦].

فإذا أقبل العبد، ينجز الأوامر المتجهة إليه من الله عز وجل، على النحو الذي ذكرت لك، ومنها الإقبال إليه بالتضرع والدعاء، فإن دعاءه عندئذ إنما هو استجابة منه لأمر الله وطلبه الصادر إليه. وفرق كبير بين السؤال الذي تعرضه بطلب منك، والسؤال الذي تعرضه استجابة لطلب صادر إليك منه.

إنك في الحالة الأولى تستخدم المسؤول في تحقيق طلبك، وفي ذلك منتهى الرعونة وسوء الأدب إن أنت توجهت بطلبك هذا على هذا النحو إلى الله.

وإنك في الحالة الثانية تنصب من نفسك خادماً لأمر الله وطلبه، وفي ذلك منتهى الأدب واللياقة، إن أنت أنجزت أمر الله من خلال مسألتك ودعائك له.

إن من أبرز مظاهر سوء الأدب مع الله في الحالة الأولى، أنك إن لم تجد الاستجابة التي تنتظرها، تهتاج في رأسك الشكوك في رحمة الله ووعده، وتثور بين جوانحك مشاعر التأفف من أنك لم تصل إلى ما تبتغيه منه. وعندئذ تملّ من الدعاء وتعرض عنه.

وإن من أبرز مظاهر حسن الأدب مع الله في الحالة الثانية، أن إقبالك إليه بالتضرع والدعاء سيبقى مستمراً سواء وجدت الاستجابة

أم لم تجدها، ويقينك بحكمة الله ورحمته مع حسن ظنك به، يظل راسخاً في كل من قلبك ونفسك، أياً كانت الأحوال التي تواجهك بعد الدعاء. ذلك لأنك إنما تدعوه إشباعاً لمشاعر عبوديتك له، واستجابة لأمره الصادر إليك، لا أداة لتحقيق رغباتك والوصول به إلى مبتغياتك.

* * *

ثم إن الأدب الذي يلفت نظرنا ابن عطاء الله إلى التحلي به، في معرض السؤال أو الطلب والدعاء، تتفاوت درجاته. وأدناها ما قد ذكرته لك، من اشتغال العبد بما قد طلبه الله منه، قبل أن يشغل نفسه بعرض متطلباته على الله وطلبها منه، ثم أن يجعل دعاءه استجابة لأمر الله، لا استجابة لرغبات نفسه وإلحاح احتياجاته.

غير أن ثمة درجات أعلى في سلّم التأدب مع الله يدركها أصحاب المراتب العالية في القرب من الله عز وجل. ألفت نظري ونظرك إلى بعض منها، لعل التوفيق الإلهي ييسر لنا السبيل إلى التحلي بها.

من أهم وأعلى درجات الأدب مع الله في الدعاء، أن لا تطلب منه إلا التوفيق لإنجاز ما قد طلبه هو منك. وسبيل ذلك أن يفيض قلبك ثقة بحكمة الله ورحمته بك، ومن ثم ترقى إلى درجة التسليم لحكمه. وعندئذ تغنيك الثقة به عن عرض مسألتك عليه، ويغنيك التسليم لحكمه عن الاهتمام بدنياك ومعايشك. وتعود إلى نفسك، فتجد أن همومك قد غدت محصورة في إنجاز الأوامر التي طلبها الله منك، وهي

متفاوتة بين درجات العسر واليسر، وأشقها تلك الأوامر المتعلقة بتزكية النفس وتطهيرها من أوضارها وأمراضها الكثيرة. فلا يكون لك عندئذ همٌّ ترحل إلى الله به بالتضرع والدعاء أن يكشفه عنك، إلاّ همّ التوفيق لإنجاز ما قد طلبه منك على الوجه الأتم وبالطريقة التي يقبلها منك، ذلك لأنه جل جلاله في الوقت الذي تكفل بك فيه بشؤون دنياك، طالبك بشؤون دينك، وأسلمك من ذلك إلى طريق وعرة من مجاهدة نفسك. وإنما الذي يزيل وعورة الطريق ويوجزها لك، توفيق الله تعالى، وسبيل التوفيق التضرع والدعاء.

وقد مرّ بك بيان هذا الأدب وأهميته في الحكمة التي يقول فيها ابن عطاء الله ((خير ما تطلبه منه، ما هو طالبه منك)) فارجع إلى ما قلته لك في شرحها إذ ذاك.

ومن أهم وأعلى درجات الأدب مع الله، في أمر الدعاء، أن تنمحي ضرورات العبد وما يسمى بحالات الاضطرار التي يمرّ بها، في غمار ثقته بالله تعالى.

ذلك أن العبد إذا اشتدت ثقته بحكمة الله ورحمته به، يحيل كل ما قد ينتابه من حالات الاضطرار، إلى حكمة الله ورحمته به. ويسلّم أمره لمن يعلم أنه أشدّ رحمة به من نفسه، فيمنعه ذلك من أن يشكو إليه ضره ومن أن يسأله ما يظن أنه هو الخير له. بل إنه ليحذر من أن يسأل الله شيئاً يظن أن فيه نجاته وسعادته، خوفاً من أن يكون ذلك الشيء في باطنه وحقيقته مبعث بلاء له، فيسكت ويسلم أمره لمن يعلم أنه حكيم وأنه أرحم به من نفسه.

ولقد كان خليل الرحمن سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام، واحداً ممن تبوأ هذه المرتبة في حسن الأدب مع الله. فقد روى البخاري في صحيحه أنه لما وضع سيدنا إبراهيم في القاذف ((المنجيق)) ليلقى به في النار، وعمد إليه جنود النمرود ليلقوه فيها، لم يزد على أن قال: ((حسبي الله ونعم الوكيل)).

وإن بوسعك أن تلاحظ أنه إنما قالها تأكيداً لثقته بحكمة الله ورحمته، واستسلاماً لقضائه الذي لا يشك في أنه هو لا غيره الخير له. ولم يقلها تبرماً بما هو فيه وأسلوباً من أساليب الرجاء والدعاء.

ولعلك تقول: أفليس هذا الموقف منافياً لما قد أمر الله به عباده من التوجه إليه بالمسألة والدعاء؟

والجواب أن الله أمر عباده بالدعاء، دون أن يحدد أو يبين لهم المسائل التي ينبغي أن يسألوه إياها ويدعوه بها. ألا ترى أنه قال لهم: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٤٠/٦٠] فحذف المفعول الثاني لـ(ادعوني)، كي يتخير العبد رغائبه التي يحب أن يسأل الله إياها ويتقدم إليه برجاء إنجازها.. وتختلف رغائب العبد وتتفاوت لديه أهميتها، حسب درجة قربه من الله، وعلى قدر تعلقه بالدنيا أو انصرافه عنها.

فالمستغرق في رغائبه وأهوائه الدنيوية، يجعل من رغائبه تلك قائمة متطلباته ودعائه، كلما أراد أن يتجه إلى الله بالدعاء، ثم إنّ تعلقه بتلك الرغائب الدنيوية يتناقص، كلما ازداد تعلقاً بالله ومحبة له؛ إذ تتحول رغائبه شيئاً فشيئاً إلى ما يزيده قرباً من الله ورضاً من الله عنه،

من أمور الطاعة وأسباب السعادة الأخروية. إلى أن يرقى إلى الدرجة التي يتبوؤها أولو العزم من الرسل ومنهم سيدنا إبراهيم خليل الرحمن.

فهؤلاء الربانيون لا تفتر ألسنتهم عن الدعاء، ولكنهم لا يلتفتون إلى ما يشغل أفكار أمثالنا، من شؤون الدنيا وحظوظ النفس والجسد، وإنما يشغلون أوقاتهم وأفكارهم بما هو أسمى وأجلّ من ذلك، فذلك هو مضمون دعائهم، ومادة آمالهم ورغائبهم.

* * *

إذا تبين لنا هذا، فحسبنا من مراتب الأدب في الدعاء أن نتحلى منها بالمرتبة الأخيرة التي تمثل الجامع المشترك الذي لا بدّ من توفره في سلوك المسلمين جميعاً على اختلاف درجات قربهم من الله.

وهذا الجامع المشترك هو ما قد ذكرته لك من ضرورة اشتغال العبد بإنجاز ما قد طلبه الله منه، قبل أن يشغل نفسه بعرض متطلباته على الله تعالى يطلب منه أن ينجزها له، ومن أن عليه أن يجعل دعاءه الذي يتجه به إلى الله استجابة لأمر الله له بذلك، لا استجابة لرغبات نفسه وإلحاح احتياجاته. فإذا تمسكنا بهذا الأدب الذي لا بدّ منه لكل مسلم صادق مع الله في إسلامه، فإن باب الصعود في المراتب الأخرى التي حدثتك عن بعضها مفتوح لمن شاء، والله هو ولي التوفيق.

* * *

الحكمة السادسة والعشرون بعد المئة

((ما طلب لك شيء مثل الاضطرار، ولا أسرع بالمواهب إليك مثل الذلة والافتقار))

الاضطرار هي الحالة التي تنقطع فيها عن أسباب الكون كلها إلى المكون، إذ تنمحي عن بصيرتك المؤثرات وآثارها، والوسائط ونتائجها. وتغيب عنك مصادر الحول والقوة، لترى في مكان ذلك كله الواحد الحي القيوم الذي إليه الخلق والأمر وبيده الحول والقوة... وعندئذ تتجلى حقيقة افتقارك إليه من دون الكائنات كلها، فتلتصق ببابه وتترامى على أعتابه، وتسأله سؤال من يعلم مستيقناً أن آماله وآلامه واحتياجاته كلها بيده.

فهذه الحالة هي التي تسمى الاضطرار، وصاحب هذه الحال هو المعنيّ بقول الله تعالى: ﴿أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٢٧/٦٢].

إذا تبيّن هذا، فإن ابن عطاء الله يشبه الاضطرار بشخص يتوسط لك بطلب ما تريد، مؤكداً أنك لن تجد وسيطاً يطلب لك ما تبتغيه

ويناله لك، مثل هذا الشخص الذي هو ليس أكثر من حالة الاضطرار التي حدثتك عنها.

ولكن متى يمرّ الإنسان في هذه الحالة، أي متى يكون مضطراً؟ يظن كثير من الناس أن الإنسان يقع في حالة الاضطرار عندما تشتد المصيبة عليه بحيث ييأس من معونة أصحاب القدرات والإمكانات ومن سلطان ذوي السلطة والنفوذ، ويعود من اللجوء إليهم وطرق أبوابهم خائب الآمال، فعندئذ تنطبق عليه صفة الاضطرار، غير أن هذا التصور غير سديد.

إن الإنسان في كل أحواله وسائر تقلباته مضطر، منقطع عن الناس كلهم، وعن سائر الأسباب إلى رب الناس ومسبب الأسباب، وهو الله عز وجل، ولكنه بين أن يكون متنبهاً إلى هذه الحقيقة، وأن يكون غافلاً عنها.

وإنما يكون غافلاً عنها، عندما تكون آماله موصولة بدنيا الناس وبما يخيل إليه من قوة يملكونها، وإمكانات مادية أو علمية يتمتعون بها، أو عندما تكون آماله متعلقة بما يتوهم أنه يملكه من حيل وقدرات وإمكانات. فيحجبه هذا الوهم عن الشعور بضعفه وعجزه، ويسعى معتمداً على تلك الأسباب التي تتراءى أمامه، إنْ فيما يظن أنه متمتع به، أو فيما يظن أن الناس الذين من حوله متميزون به قادرون عليه.

ثم إنه يصحو من غفلته هذه عندما يطرق أبواب الناس ويبلو أخبارهم ويجرب حظه من نفسه، فلا يجد لديهم ولا من نفسه إلا

مظاهر العجز والافتقار إلى الواحد الذي لا ثاني له في ذاته ولا في صفاته.

فهذا هو شأن أكثر الناس.. يرون أن الاضطرار حال يمرون بها، وضيق يقعون فيه، عندما تطبق عليهم مصيبة ما، ثم لا يجدون في سائر الأسباب التي يخيل إليهم أنهم يملكونها، أي منجاة منها.

إلا أن الحقيقة التي يجب أن نعلمها جميعاً، هي أن الإنسان مضطر إلى الله في كل أحواله التي يمرّ بها، فهو حتى في أوج عافيته، وفي أعلى درجات قوته، وفي أبسط ما يتمتع به من غنى، فقير إلى الله عز وجل، لا يتأتى منه حول ولا قوة إلا بالله عز وجل.

والمطلوب من الإنسان أن يكون على بينة من هذه الحقيقة، فلا يخدع عنها بالأوهام، ولا يحجب عنها ببوارق التخيلات والأحلام.

فإذا كان كذلك، فإنه لن يقبل على الله بالدعاء ولا بأمل أو رجاء، إلا إقبال العبد المضطر الذي يعلم أنه لا يملك من أمر نفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.. وعندئذ يكون اضطراره وسيطاً منه إلى ربه في الكشف عن ضره ورفع مصيبته، ولا بدّ أن تكون وساطته له مجدية ومثمرة. وكيف لا والله هو القائل: ﴿أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٢٧/٦٢].

وهذا معنى قول ابن عطاء الله في الفقرة الأولى من حكمته هذه: ((ما طَلَبَ لك شيءٌ مثل الاضطرار)).

ولعلك تقول: ولكن الله وعد باستجابة دعاء الداعي مطلقاً، أي سواء كان الداعي في مستوى الاضطرار أم لا. ألم يقل ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ..﴾ فما هي خصوصية الاضطرار إذن حتى يُعطَى هذه الأهمية، ويكون هو الوسيط الذي لابدّ منه في استجابة الدعاء وتحقيق المطلوب؟

والجواب: أن شعور الداعي بالاضطرار هو الروح السارية في دعائه، والتي تشكل سر الاستجابة له. فليس الدعاء المستجاب متمثلاً في عبارات يؤديها الداعي ويكررها، وإنما هو متمثل في الحالة التي يتلبس بها الداعي، وهي شعوره ويقينه بأنه منقطع الآمال عن الخلائق كلهم إلى الله وحده، فهو وحده موئل الرجاء في تحقيق رغائبه، وفي دفع مخاوفه.

فإن غاب هذا اليقين عن فكر الداعي أثناء دعائه، فهو إذن يوزع آماله بين الله وبين غيره من أصناف المخلوقين، وما نثر أو نشر في الدنيا التي حوله من عوامل وأسباب. وهذا لون من أخطر ألوان الشرك بالله عز وجل، وهيهات أن يلقى دعاءٌ مازجه الشرك استجابةً من الله.

إذن فالداعي الحقيقي لا يكون إلا مضطراً، واضطراره هو سر استجابة الله لدعائه.

وما قد يتصوره كثير من الناس، من أن الاضطرار حالة عابرة تمر بالإنسان، عندما تخونه الوسائل والأسباب وتنقطع عنه الآمال بالناس

وما كان يطمع أن يناله منهم من حماية وعون، وهْمٌ باطل ما ينبغي أن يركن إليه العاقل قط.

ذلك أن الإنسان في كل حالاته وتقلباته مقطوع إلا من لطف الله وعونه وتدبيره، وما قد يخيل إليه من عوامل وأسباب أخرى، ليس إلا جنداً من جنود الله عز وجل، يسخرها له كما يشاء وبالقدر الذي يريد.

ولكن الإنسان من شأنه أن يذهل عن هذه الحقيقة بصور العوامل والأسباب التي تبرز أمامه وكأنها ذات فاعلية وتنفيذ، فيقف عندها ويوليها ثقته وآماله. فإذا اشتد عليه الكرب وأخذت منه المصيبة بالخناق، ولم يجد في الأسباب التي كان يثق بها ما يفيده ويغنيه، تذكر الله عز وجل وهُرِع بشكواه وآماله إليه، وظن أنه يمرّ تلك الساعة من حياته بحالة طارئة، هي حالة الاضطرار، دون أن يدرك أنها ليست حالة طارئة بل هي شأنه ووصفه في كل ساعة وبكل حال، ما دام أنه العبد المملوك وأن مولاه هو الله وحده الذي لا شريك له.

وفي بيان الله تعالى ما يلفت النظر إلى هذه الحقيقة، ويحذر الإنسان من الانخداع بالأوهام والمظاهر التي تنسيه أنه يتقلب من دنياه التي يعيش فيها، في قبضة الله عز وجل، مهما تقلبت به الأحوال.

من ذلك قول الله تعالى: ﴿وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إلاّ إيّاهُ فَلَمّا نَجّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكانَ الإِنْسانُ كَفُوراً ، أَفَأَمِنتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً ، أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ

قاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِما كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنا بِهِ تَبِيعاً﴾ [الإسراء: ١٧/٦٧-٦٩].

فقد بين الله عز وجل لعباده أن الضرورة التي تنتاب الإنسان ليست محصورة في تلك الحالة التي تشبه انطباق أسباب الغرق على ركاب سفينة هاجت بها الرياح القاصفة في عرض البحر، بل هي وضع دائم للإنسان، مهما وجد نفسه مكلوءاً بأسباب الراحة والاستقرار. فإن الله قادر على أن يحيل ما يتخيله أسباباً للطمأنينة والسلامة، إلى أسباب للهلاك والدمار.

فإذا تذكر الإنسان هذه الحقيقة، كان في كل تقلباته وظروفه المتنوعة ملتجئاً إلى الله لائذاً به يسأله الحماية والسلامة، موقناً أن أسباب الوقاية المادية كلها لن تغني عنه شيئاً إن تخلى الله عنه، ووكله إليها أو إلى ثقته بها، وموقناً بأن أسباب الهلاك والمصائب كلها، لن تنال منه شيئاً إن جعله الله في حرزه ووقايته.

* * *

ثم إن الفقرة الثانية من هذه الحكمة، تعبر عن معنى أشمل وأعم مما تدل عليه الفقرة الأولى، فهي كالقانون الكلي الذي تنبثق عنه جزئية ما تدل عليه الفقرة الأولى.

يقول ابن عطاء الله «.. ولا أسرع بالمواهب إليك مثل الذلة والافتقار» أي لن تجد ما يسرع إليك بالمواهب الربانية، سواء منها ما خطر في بالك فطلبته، وما لم يخطر في بالك طلبه، مثل تذلّلك

وافتقارك إلى الله، أي مثل تحققك بهويتك وتجردك عن أوهام غناك وقدرتك.

إنك إن أفرغت كأس وجودك من أوهام القوة وأوهام الامتلاك وأوهام الأنانية والمزايا التي تتمتع بها، ملأ الله كأس وجودك هذا بمنن لا حصر لها من القوة والغنى وأسباب السعادة ومزايا الذات.. ولكنك إن ملأتها بأوهام قوتك وغناك وكبريائك، وكلك الله إلى أوهامك هذه، وجعلك فقيراً في غناك ضعيفاً في قوتك ذليلاً في كبريائك وأنانيتك.

وحصيلة الأمر أنك إن أردت لنفسك سعادة العاجلة والعقبى، فما عليك إلا أن تستسلم لواقع ذلّك وافتقارك الذاتيّين إلى الله عز وجل، تسترحمه بوصفك هذا، وتذكره بوصفه الغنيّ العزيز، موكلاً أمرك كله إليه، مفوضاً تدبير شؤونك إلى لطفه وباهر حكمته.

فإنك إن استسلمت لتدبيره على هذا النحو، ساق إليك من وجوه الإكرام ما لا يخطر منك على بال، وأعطاك من المنح والمنن ما لم يكن لديك أمل في نيله.

ولعل هذا داخل في معنى قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٦٥/٢-٣] وقوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٦٥/٣]. والحديث القدسي الذي يرويه رسول الله ﷺ عن ربه سبحانه وتعالى صريح في

هذا المعنى بيّن الدلالة عليه، وهو: ((من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطيه السائلين))[١].

ولا أتصور ذاكراً يذكر الله بحق، دون أن يتصور بين يدي ذكره له فاقته وافتقاره. بل الشأن في الذاكر أنه كلما ازداد استغراقاً في ذكره لله، ازداد شعوراً ويقيناً بذله وعظيم فاقته وفقره، وازداد مثولاً بين يدي عظيم سلطان الله وغناه وعزته وقهره. ثم إنه يزداد مع الذكر ثقة بلطف الله وحكمته ورحمته به، فترقى به تلك الحال إلى التفويض والتسليم، موكلاً تدبير أمره إلى من بيده تدبير هذا الكون كله، مردداً قول من قال عن الله عز وجل:

لا تدبر لك أمراً نحن أولى بك منكَ

منسجماً مع حكمة مرّ شرحها لابن عطاء الله، يقول فيها: ((أرح نفسك من التدبير، فما قام به غيرك عنك لا تقم به لنفسك)).

* * *

(١) أخرجه البخاري في التاريخ، والبزار في مسنده والبيهقي في شعب الإيمان، من حديث عمر بن الخطاب، وفيه صفوان ابن أبي الصفا، ذكره ابن حبان في الضعفاء وفي الثقات أيضاً.

الحكمة السابعة والعشرون بعد المئة

((لو أنك لا تصل إليه إلاّ بعد فناء مساويك ومحو دعاويك، لم تصل إليه أبداً، ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه، غطّى وصفك بوصفه، ونعتك بنعته، فوصلك إليه بما منه إليك، لا بما منك إليه)).

ما الفرق بين المساوئ والدعاوي؟

المساوئ تلك المعاصي التي يتورط فيها أحدنا، وتتبعها الطبائع المرذولة، والنقائص والعيوب الأخلاقية المتنوعة، وكل ما لا يليق من الأفكار والسلوكات التي قد تصدر عن الإنسان.

أما الدعاوي، فهي اعتداد الإنسان بما قد يصدر عنه من طاعات، ورؤيته لها ثمرة لمواقفه وجهوده، وتباهيه على الأقران بما يرى أنه متميز عنهم به من المزايا العلمية والأخلاقية والمالية ونحوها.

والذي ينبه إليه ابن عطاء الله في هذه الحكمة، هو أن الإنسان، أياً كان، قلما يستطيع التجرد والتخلص من مساوئه ودعاويه.

فمساوئ الطبائع والعادات المرذولة والأخطاء السلوكية لا تكاد تنفك عن الإنسان، إذ هو مبتلى دائماً بنفسه الأمارة بالسوء،

وبوساوس الشيطان التي تجري من ابن آدم مجرى الدم، فهو في عراك معهما دائماً، في أحسن الأحوال.. فإن استطاع أن ينجو بنفسه من كثير من الآفات لم يأمن أن يصيبه رشاش أنواع من السيئات.

ثم إن الشأن فيه، إن وُفِق للخير، وأجرى الله على يديه فضائل الأعمال وتحلّى بالخصال الحميدة، أن يُزهى بنفسه، ويرى الفضل في ذلك لصبره وجهوده، وآية ذلك أنه لو قابل من يتجاهل مزاياه هذه، ويستخف بها، يرى في ذلك إيذاء وأي إيذاء له، ولربما قابله بالمثل عقاباً له وانتقاماً منه.. وآية ذلك أيضاً أنه لا يشك في نفسه أنه قد سجل لنفسه عند الله من المثوبة والأجر على طاعاته وقرباته، ما يضمن له النعيم المقيم والسعادة الأبدية التي لا تشوبها غصة، وهو إن لم يصل إلى درجة اليقين بأنه سينال ذلك، لا يقصر في طلب ذلك من الله تعالى عوضاً عن طاعاته وقرباته التي استجاب له بها.

فالشأن في الإنسان إذن، أن يكون عرضة للوقوع في الأخطاء والمحرمات، فإن صلح أمره واستقام على النهج القويم فالشأن فيه إذن أن يمتع نفسه بالدعاوي العريضة. وهو في كلا الحالين متنكب في نقائص وعيوب خطيرة، ولعلّ هذا من بعض ما يدلّ عليه قول الله تعالى: ﴿وَخُلِقَ الإِنْسانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٤/٢٨]. وهو داخل في صريح قول رسول الله ﷺ: ((كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون))[1].

---

(١) رواه أحمد والترمذي والبيهقي في السنن والحاكم في المستدرك، من حديث أنس بن مالك، وقد صححه الحاكم والذهبي وغيرهما.

فإذا توقف وصول الإنسان، إذن، إلى الله، بقبوله لـه والرضا عنه، على التخلص من هذه النقائص التي هي من شأنه، والتي تظل لاصقة به، فإنه لن يصل إليه أبداً، لأن وصوله إليه متوقف، والحالة هذه، على ما لا قبل للإنسان به، ولا قدرة له عليه.

ولكن الله عز وجل، إذا أراد أن يوصلك إليه، أي بقبوله لك وبرضاه عنك ستر نقائصك بما يقابلها في ذاته العلية، من صفات رحمته ومغفرته وعفوه، وغناه عنك؛ وستر دعاويك بما يقابلها في ذاته العلية من كرمه وتفضله عليك، وإن كنت لا تستحق شيئاً من ذلك على وجه الأجر والتعويض.

فوصولك إلى الله عز وجل، ليس باستحقاق صاعد منك إليه، وإنما هو بتفضل هابط منه إليك. وتلك هي الحقيقة التي أوضحها وأكدها رسول الله ﷺ، إذ قال: «سددوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لا يُدخِل أحداً الجنة عملُه، قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته»[1].

* * *

ثم إن هذا الذي يقرره ابن عطاء الله، مما يدلّ عليه صريح القرآن والسنة، مثار لبعض الإشكالات.

الإشكال الأول: أن الذي يغلب على الظن أن في عباد الله من يسارعون في الخيرات دون أن يروا لأنفسهم أي فضل في ذلك،

(١) متفق عليه من عائشة، وقد سبق تخريجه في أكثر من موضع.

وينهضون بما افترضه الله عليهم بل بما استحبه لهم أيضاً من النوافل دون أي دعاوٍ يدَّعونها فهل يدخل هؤلاء في عموم من وصفهم ابن عطاء الله بأصحاب المساوئ والدعاوي؟

والجواب أن الشأن في الإنسان أن يكون كما قال ابن عطاء الله، أي هذا هو الغالب على أحواله، وهذا من قبيل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنْسانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ، وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ، وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ١٠٠/٦-٨] ومن قبيل قوله: ﴿إِنَّ الإِنْسانَ لَيَطْغَى ، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٩٦/٦-٧] أي إن الغالب على حال الإنسان أن يكون على هذه الشاكلة.. فلا جرم أن في الناس من قد تحرروا من هذا الوصف.

إن الشأن في حال الصديقين والربانيين من عباد الله تعالى، أن تذوب مساوئهم في ضرام عبوديتهم لله تعالى، وأن يكونوا رقباء على أنفسهم من أن تنحرف إلى أي سوء، ومن أن تحدث نفس أحدهم صاحبها بأي سوء.. والشأن فيهم أن يكونوا، مع ذلك، متجردين عن الدعاوي كلها، لا يرون من أحوالهم إلا دلائل التقصير في أداء حقوق الله، والانهماك في حظوظ النفس وأهوائها؛ وإنك لتجدهم خائفين من سوء المصير، بدلاً من الاستبشار بما قد ادُّخِرَ لهم من المثوبة والأجر، فهم كمن قال الله عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ ، وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ راجِعُونَ ، أُولَئِكَ يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ وَهُمْ لَها سابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/٥٧-٦١].

إذن، فكلام ابن عطاء الله لا ينطبق على الناس كلهم، وإنما هو تقرير للشأن الغالب من أحوالهم، إذ يكون التقصير في تنفيذ أوامر الله هو الغالب عليهم، مع الاعتداد بما قد يوفقون له من قربات وطاعات.

الإشكال الثاني: أن هؤلاء الذين يغلب عليهم الوقوع في المساوئ مع الاعتداد بما يوفقون إليه من طاعات، قد يريد الله أن يتلطف بهم فيوصلهم إليه، وقد لا يريد لهم ذلك.. هذا ما يدل عليه كلام ابن عطاء الله، إذ يقول: «ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه غطى وصفك بوصفه.. إلخ».

فمن هم الذين يريد الله أن يتلطف بهم ويوصلهم إليه بتغطية مساوئهم بصفات رحمته، ومن هم الذين لم يرد الله لهم هذا اللطف والإكرام؟ وما هي جريرة هؤلاء الذين لم يرد الله لهم التجاوز عن مساوئهم والتفضل عليهم بالصفح والغفران؟

والجواب عن هذا الإشكال يتم بتقريرين اثنين:

أولهما: أن لله أن يصطفي من عباده للرحمة بهم والصفح عن ذنوبهم من يشاء، وأن يكل منهم إلى ما يستحقه من المقت والعذاب، من يشاء. وليس في ذلك شائبة ظلم منه، جل جلاله، لأحد. كيف وهو الخالق والمالك الحقيقي لهم جميعاً، وللمالك أن يتصرف بملكه كما يشاء، وصدق الله القائل: ﴿وَلَوْ شِئْنا لآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُداها وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣/٣٢]، والقائل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظالِمُونَ ، وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ

لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣/١٢٨-١٢٩].

ثانيهما: أن الله كتب على نفسه الرحمة لعباده تفضلاً منه عليهم، وإحساناً منه إليهم. ومن مظاهر تفضله عليهم أنه فطرهم، منذ أن خلقهم، على فطرة الإيمان به، وعلى الخضوع لمشاعر العبودية له، وعلى الحنين والالتجاء إليه، وصدق الله القائل: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها﴾ [الروم: ٣٠/٣٠].

والشأن في الإنسان أن ينقاد لهذه الفطرة الإيمانية، بالاستجابة لمقتضياتها، وفي ذلك لطف وأي لطف من الله للإنسان أينما وجد وحيثما ترعرع ونشأ، وإذا خطا الإنسان الخطوة الأولى إلى الله، باستجابته لدواعي هذه الفطرة، فإن الله يتكفل له بالتوفيق لمتابعة السير إليه فيما يلي ذلك من الخطوات التنفيذية الأخرى.

ثم إن من المهم أن تعلم أن الله عز وجل كما قرر وأعلن أنه يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء[1] وأنه يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء، فقد قرر أيضاً وأعلن أن رحمته سبقت غضبه، وأن العبد إن أقبل إليه بالتفاتة صدق وأصغى إلى نداء فطرته الكامنة في أعماق نفسه، جذبه إليه بحوافز الهداية والتوفيق، وشرح صدره للسلوك في مسالك الوصول إلى الله، ويسر له أسباب الانضباط بأوامره والانتهاء عن نواهيه، وإنما هي

(١) إياك أن تصغي إلى من أضاف الدجل إلى الجهل، فادعى أن الضمير في يشاء عائد إلى الإنسان، وتذكر الآية التي تصفع هذه الجهالة وتفضح الدجل المقرون معها، وهي قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٦/٣٩].

الخطوة الأولى ينتظرها المولى عز وجل من عباده، فإن هم خطوها إليه بالاستسلام لنداء فطرته الإيمانية، ضمن لهم التوفيق لاجتياز ما وراء ذلك من الخطوات الأخرى.

انظر إلى هذه الحقيقة، كم هي جلية في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ﴾ [يونس: ٩/١٠] وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾ [العنكبوت: ٦٩/٢٩] وفي قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ﴾ [محمد: ١٧/٤٧].

وانظر، كم تبدو هذه الحقيقة جلية أيضاً في قوله عز وجل في هذا الحديث القدسي: ((يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم)).

وبهذا يتضح أن الذين قضى الله أن يزجهم في الضلالة، فإنما هم أولئك الذين بدؤوا فأعرضوا عن نداء الفطرة الكامنة بين جوانحهم، وآثروا الاستكبار على الإصغاء إلى حديث العقل وتذكرة الخطاب الإلهي، ثم أصروا إصرارهم على الاستمرار في استكبارهم على الرغم من النذر الربانية التي تقرع أسماعهم، فهؤلاء هم الذين قضى الله بأن يضلهم، وهم المعنيون بقوله عز وجل: ﴿..وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ﴾ والمعنيون بقوله: ﴿..لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

وهكذا فإنك إن دققت النظر، علمت أن هؤلاء هم الذين حكموا على أنفسهم بالضلالة، وعرّضوا أنفسهم لمقت الله وغضبه، وذلك عندما آثروا الاستكبار على الله، وتجاهلوا واقع عبوديتهم له، وأعرضوا

عن نداء الفطرة الإيمانية الكامنة في أعماق نفوسهم، وأصموا آذانهم عن سماع النذير تلو النذير.

ألا ترى إلى هذا النذير الذي يعبر عنه قول الله عز وجل: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَكانُوا عَنْها غافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦/٧].

بل انظر إلى هذا النذير الثاني، الذي هو أبلغ من الأول، فيما ينبه إليه من الآثار الوخيمة والعواقب المشقية، انظر إلى هذا الذي يقوله الله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآياتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْها وَنَسِيَ ما قَدَّمَتْ يَداهُ إِنّا جَعَلْنا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذانِهِمْ وَقْراً وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً﴾ [الكهف: ٥٧/١٨].

إذن، فكلمة ((إذا)) في قول ابن عطاء الله: ((ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه)) ليست تعبيراً عن إرادة اعتباطية أو عشوائية من الله تعالى لإيصال العبد أو عدم إيصاله إليه بالهداية والتوفيق، بل هي تنطوي على قانون ألزم الله به ذاته العلية، في مجال الهداية والإضلال، خلاصته هذا الذي ذكرته لك. على أن الله تبارك وتعالى يملك أن يزج الناس كلهم في أودية الضلالة والشقاء إن شاء، وأن يرقى بهم إلى صعيد الهداية والسعادة إن شاء، يحكم بما يشاء ولا معقب لحكمه، ولكنه عز وجل كتب الرحمة لعباده، كما قلت لك، وطبقاً لسننه الماضية في عباده والتي حدثتك عن خلاصة لها.

ما الحصيلة التي يرمي إليها ابن عطاء الله من هذا الكلام؟

إن الحصيلة تتلخص فيما يلي: على المسلم أن يكون على بينة من مساوئه الكثيرة التي تلازمه في كل تقلباته وأن يكون على ذكر لها.. وقد حدثتك عن أنواع هذه المساوئ والدليل على أن الإنسان لا يكاد يستطيع التحرر منها.

ثم عليه، إن لاحظ توفيق الله له وانجذابه إلى سنن الهداية والرشد، أن يعلم بيقين أن الفضل في ذلك ليس عائداً إلى جهده وقدرته الذاتية، بل الفضل في ذلك لله وحده. فهو الذي واجه مساوئه المتنوعة بأوصاف مغفرته وصفحه، فكانت هذه الثانية سِتراً للأولى وسبب تغلب عليها، بل سبب محوٍ لها.

إن المسلم المصطبغ بحقيقة العبودية لله عز وجل، لا يعدو أن يكون في إحدى حالتين:

حالة الاعتراف بمساوئه إذ يرى أنها المهتاجة فيه والمهيمنة عليه. وعليه في هذه الحالة أن يلوذ ملتصقاً بأعتاب الله، يسأله المغفرة والصفح، ويعاهده على التوبة وإصلاح الحال، ويسأله التوفيق والعون.

وحالة الاستقامة على أوامر الله والسير على صراطه، وإنما عليه في هذه الحالة أن يعلم أنه مدين في ذلك لتوفيق الله ولطفه. إذ هو الذي حبب إليه الاستقامة على أمره، ووفقه للسير على صراطه، وحرره من آفات نفسه.

إذن فالمسلم في كل الأحوال ليس له إلا الالتجاء إلى الله والانكسار بالمسألة عند بابه، إما على وجه الشكوى إليه من مساوئه التي تتغلب عليه، وإما على وجه الشكر له على اللطف الذي يفد إليه منه، وعلى التوفيق الذي يتفضل عليه.

وهكذا تنمحق الدعاوي الذاتية كلها، في ضرام التنبه إلى حقيقة عبودية الإنسان لله، ومن ثم فإن ديدن هذا الإنسان أن يلهج دائماً بهذه الكلمة القدسية التي هي عصارة هذه الحكمة، وهي: لا حول ولا قوة إلا بالله.

* * *

الحكمة الثامنة والعشرون بعد المئة

((لولا جميل ستره لم يكن عمل أهلاً للقبول))

من حق الله على العبد إذا أقبل على عبادته أن يعبده ولا يشرك به شيئاً. فلا يُخطر في باله إلا قصداً واحداً هو الوصول إلى مرضاته عز وجل. لا يأبه لمدح المادحين له، ولا يطمع بجزاء غيرِ جميلِ صفح الله عنه وقبوله له، إذا أقبل على عبادته غابت الدنيا عنه وغدا إقباله على الله هو شغله الشاغل، لا يمزج مشاعر دنياه بجميل مناجاته مع الله، بل يتجه بكل أفكاره وأحاسيسه إليه، كأنه يراه . وعندما يرى الله بعين قلبه تغيب الأغيار كلها عنه، وتخرج من حدود كل من الزمان والمكان الذي يعيش فيه.

ذلك هو حق الله على العبد فيما ينهض به من الطاعات والعبادات.

فمن من الناس يؤدي هذا الحق لمولاه، كاملاً غير منقوص؟ إذا وقف أحدنا يصلي قامت الدنيا بزخارفها وزينتها، بينه وبين الله. يقول له: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وأطماعه تشرد بخياله إلى السبل التي ينبغي أن يسلكها لنيل تلك الأطماع، وأفكاره تبحث عن أفضل

الحلول للمشكلات التي تقف في وجه مشاريعه الصناعية أو التجارية، وقلبه يحدثه عن الصحب والأحباب الذين طال العهد بفراقهم ثم لم يعلم ما الذي صنع الدهر بهم، ويذكره بأولئك الذين انتقصوا من شأنه وأساؤوا إليه، وبالموقف الذي ينبغي أن يتخذه منهم..

ولا يكاد أحدنا ينجز عملاً صالحاً، مما يُتَقَرَّب به إلى الله، حتى تذوب سلامة القصد إليه، في غمار مدح المادحين أو قدح القادحين له.. وما هذا العمل الذي أعكف عليه الآن، إلا مثال مؤسف لهذا الذي أقول. تتطلع النفس إلى أصدائه بين الناس لتنتشي بالمدح والثناء وتضيق بالنقد والانتقاص، فإن لم تتطلع إلى تلك الأصداء سلفاً، تأثرت بما يفاجئها من ذلك لاحقاً.

وقل مثل ذلك عن الصدقات والمبرات، وعن الأنشطة الخيرية والأعمال الجهادية وأنشطة النصح والدعوة.. فإن الشأن فيها - في غالب الأحيان - أن تتحول إلى تجارة رابحة بيد النفس، وأن توظف لتحقيق مآربها واستثمار مصالحها. أما الإخلاص لوجه الله والاندفاع في ذلك إلى استنزال رضا الله، فإن وجد كل منهما في الخاطر والقصد، فالشأن فيه أن يذبل في غمار هذه الآفات النفسية المتكاثرة.

فلو كان قبول الله للطاعات والعبادات التي يتقرب الناس بها إليه، مشروطاً بتجردها وصفائها من هذه الآفات، إذن لما قبل الله من أحد منهم أي طاعة أو عبادة، لما قد وصفته لك من الحال التي لا يكاد ينفك عنها أحد من الناس.

ولكنه عز وجل في الوقت الـذي يـأمرهم فيـه بصـدق العبوديـة لـه، وبالإخلاص له في العبادة، يعاملهم بلطفه وكرمه، فيتجاوز عـن الكثير من الهفوات ويصفح عن الكثـير مـن الـزلات، ويطمئـن الخـائفين مـن أولي التقصير بما قد أعدّ لهم من مغفرة الذنوب وستر العيوب.. يقـول لهم: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلاّ وُسْعَها﴾ [البقرة: ٢/٢٨٦] ثم يزيـد قـراره هذا تأكيداً ويقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ ما اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ٦٤/١٦] ويبدد عوامل اليأس من رحمة الله في نفوسهم بما يذكرهم به مـن رحمتـه التـي سبقت غضبه، فيقول: ﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِيـنَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَـةِ اللَّهِ إنَّ اللَّـهَ يَغْفِرُ الذُّنُـوبَ جَمِيعـاً إِنَّـهُ هُـوَ الْغَفُـورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٣٩/٥٣].

وانظر إلى دقة النهج التربوي من الله لعباده فيما يخاطبهم به:

يأمرهم، بادئ ذي بدء، بالعزم... العزم في صدق العبودية، وفي دقة الإخلاص لله وحده، محذراً من تسرب أي شـركٍ أو شـريك، ظهـر أو خفي، إلى ما قد يتقربون به إلى الله من طاعات وعبادات.. يقول لهم: ﴿..فَمَنْ كانَ يَرْجُو لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَـلاً صالِحـاً وَلا يُشْـرِكْ بِعِبـادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف: ١٨/١١٠] ويقول: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّـهَ حَقَّ تُقاتِهِ﴾ [آل عمران: ٣/١٠٢] وبقول: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِـكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾ [البقرة: ٢/٢٤٨] ويقول: ﴿لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَلا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ٤/١٢٣].

فإذا اتجهت العزائم إلى بلوغ هذا الكمال الذي أمـر اللـه عـز وجـل به، ثم تقطعت بها الأسباب عـن ذلـك للضعـف الـذي ابتلـى اللـه بـه

الإنسان، فلم تجد سبيلاً إلى بلوغ ذلك الشأو من الكمال، تسربت المخاوف إلى نفوس أصحاب هذه العزائم، من التقصير الذي حاق بها ولم تستطع التحرر منه، فدفعتهم مخاوف التقصير هذه إلى الالتجاء والتضرع إلى الله عز وجل، بالشكوى إليه من العجز الذي ينتابهم والضعف المهيمن عليهم، مع الدعاء الواجف بأن يتجاوز الله عنهم التقصير الذي لا اختيار لهم فيه.. وعندئذ (أي بعد أن يقود الضعف أصحابه إلى ساحة التذلل والانكسار بين يدي الله، يسألونه المغفرة والصفح) تغيب مرحلة العزم في الأوامر والتكليف، لتتجلى من ورائها مرحلة اللطف والرحمة والستر.. فيخاطب الرب جل جلاله هؤلاء اللائذين به والهاربين من ضعفهم إليه قائلاً: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ٢/١٨٥] ويقول لهم مطمئناً ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٢٢/٧٢] ويؤكد ذلك بقوله عز وجل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفاً﴾ [النساء: ٤/٢٨].

والمعنى التربوي الملاحظ في أخذ الله عباده بهاتين المرحلتين، هو أن المطلوب من العبد في كل الأحوال أن يعلم عجزه وأن يقف على منتهى ضعفه، وأنه لن يتأتى منه تنفيذ شيء من حقوق الله عليه أو مما قد أمره الله به، إلا بعون وتوفيق من الله له. والمآل الذي لا بدّ أن ينتهي إليه العبد هو الاعتراف بالمسكنة والعجز، ولكن بعد بذل الجهد والتوجه بالقصد إلى تنفيذ العزائم التي كلفه الله بها، ثم الإلحاح بالتضرع والدعاء أن يتقبل الله منه قصده، وأن يغفر له عجزه ويصفح عن تقصيره. وتلك هي الغاية التي يجب أن ينتهي إليها العبد، أياً كان

في شأنه ومستواه، وأياً كانت حالـه، وهـي الاصطباغ بحال العبودية المطلقة لله عز وجل... وما العزائم الربانية التي يأخذ الله بها عباده في المرحلة الأولى التي حدثتك عنها، والرخص والتخفيفات التي يخاطبهم بها في المرحلة الثانية، إلا عوامل ودوافع تسوقهم إلى هذه الغاية القدسية التي يجب أن ينتهي إليها كل عبد من عباد الله عز وجل، أياً كانت رتبته، ومهما كانت صلته بالله تعالى.

إذن، فالقبول الذي يكرم الله به عباده إذ يتقربون إليه بالطاعات والعبادات، ليس مبنياً على إنجازهم لكامل ما قد طلبه منهم بآدابه وشروطه، وأنى لهم ذلك!!.. وإنما هو مبني على ما هو شأنه من تجاوز أخطائهم، والغض عن هفواتهم، وستر عيوبهم.

وسبحان من أظهر غناه، بالصفح عن عباده، وأظهر عبوديتهم له بافتقارهم إليه. وصدق ابن عطاء الله في هذا الذي يخاطبني ويخاطبك به: ((لولا جميل ستره، لم يكن عمل أهلاً للقبول)).

*　　*　　*

الحكمة التاسعة والعشرون بعد المئة

((أنت إلى حلمه إذا أطعته، أحوج منك إلى حلمه إذا عصيته))

ظاهر هذا الكلام يوهم خلاف ما هو ثابت في الشرع، من أن الطائع هو الأقرب إلى كرم الله وحلمه، وأن العاصي هو البعيد عنهم والمحتاج إليهما.

ولكن ابن عطاء الله ينبه في كلامه هذا إلى الآفة الخطيرة التي قد تذهب بجدوى الطاعة وتحيلها إلى معصية في باطن الأمر وحقيقته، كما ينبه إلى حالة كثيراً ما تنتاب العاصي فتذيب خطر عصيانه وتعرضه للرحمة والصفح من الله عز وجل.

كثيرا ما يوفق الإنسان لأداء عبادة أو طاعة أو عمل مبرور لله تعالى، فينتابه من ذلك العجب بنفسه، ويرى أنه قد أحرز لنفسه بذلك الدرجات العلا عند الله تعالى، ويعلو بنفسه عن الآخرين في الرتبة والمكانة الاجتماعية، وينتظر منهم جميعاً تعظيمه وتوقيره، فتتحول الطاعة من ذلك إلى معصية، ولا يبقى له من تلك الطاعة إلا غلافها

وكثيراً ما يتورط الإنسان في معصية، فينتابه من ذلك شعور بسوء حاله، وتعرضه لعذاب الله ومقته، ويعود إلى نفسه وقد تلبس بتلك المعصية، فيرى أنه شر الناس كلهم، فيغبطهم لما يعتقده من حسن حالهم بالنسبة إلى ما يعلم من سوء حاله.. والمأمول أن يجعل الله تعالى من الانكسار الذي انتابه للمعصية أو المعاصي التي تورط فيها، شفيعاً لسوء حاله.. وأن يجعل ثواب تذلله وانكساره أكثر من عقاب عصيانه، فيغفر الله هذه بتلك.

لعلك تقول: فهل الطائعون كلهم يغترون بطاعاتهم ويعجبون بها؟ وهل العاصون كلهم يتألمون لما تورطوا فيه من العصيان وتقودهم معاصيهم إلى التذلل والانكسار لله، حتى يطلق ابن عطاء الله حكمه هذا في حق كل طائع وعاص من الناس؟

والجواب أن كل إنسان معرض - إذا وفقه الله لبعض من صالح الأعمال - لحديث النفس الأمارة بالسوء والتي من شأنها أن تبعث صاحبها على الوقوع في كثير من الأفكار والخواطر التي قد تحبط الأعمال، فاقتضى الأمر أن يأخذ العامل أياً كان حذره وأن يكون رقيباً على نفسه كي لا يتسرب إليها شيء من تلك الخواطر.. وإنما يأتي كلام ابن عطاء الله تذكيراً بهذا الواجب، وتحذيراً من الانسياق وراء آنانية النفس وأهوائها، وهو واجب يشمل المسلمين جميعاً، لا يتميز في ذلك بعض منهم عن بعض.

وقد ورد في الأثر أنه كان في عهد بعض أنبياء بني إسرائيل رجل اشتهر بالعبادة والزهد، كان يلقب بعابد بني إسرائيل، وكان في العصر

ذاته رجل فاتك مسرف على نفسه يلقب بشقي بني إسرائيل.. قالوا: فلقي الشقيُ العابد ذات يوم في طريق له، فحدثته نفسه أن يدنو فيسلم عليه آملاً أن ينال رحمة من الله تعالى بقربه منه وسلامه عليه، ولما أقبل إليه ليسلّم عليه متأملاً الرحمة والمغفرة من الله بشفاعة ذلك العابد الصالح، انتهره العابد وأمره بالابتعاد عنه مخافة أن يناله رشاش من مقت الله له. فولّى الشقي خائباً منكسراً.. قالوا: فأوحى الله إلى النبي الذي كان في ذلك العصر، أن قل لكل من العابد والشقي أن يستأنف حياته من جديد، فقد أحبطت للعابد عبادته، ومحوت من حياة الشقي أوزاره.

ولا يعنيني في هذا المقام مدى صحة هذا الأثر، فهو، كما يبدو، من الإسرائيليات التي لا يستبين فيها الصحيح من الباطل. ذلك لأن المعنى الذي يتضمنه هذا الخبر صحيح بدون ريب. فالطاعة ليست عبارة عن مجرد الأفعال والحركات التي تتجلّى على الأعضاء، وإنما هي الحال التي تتلبس بمشاعر الإنسان من الخضوع لسلطان الله وحده، فيبرأ بذلك مما قد يخيل إليه من حوله وقوته، وتنصرف آماله ومخاوفه عن الناس كلهم إلى الله وحده، وتحت تأثير هذه الحال تنقاد أعضاؤه إلى أداء ما افترض الله عليه من الواجبات وإلى الانتهاء عما حذره منه من المحرمات، فتكون الطاعة إذن مزيجاً من هذه الحال الإيمانية والتوحيدية، والأعمال العضوية الخاضعة لما ينبغي أن تتحلّى به من الشروط والأركان والآداب.. وهيهات أن يكون المستكبر بطاعته أو المدلّ على الله أو على عباد الله بقرباته وعباداته، متحققاً بهذه الحال التي هي أساس الطاعات وروحها.

والمعصية، وإن كانت تتحقق بمظهرها الذي تتم به، فتسمى بذلك معصية، إلاّ أن عقابها يشتدّ ويهون حسب النتائج النفسية والحال التي تتلبس بالعاصي بعد ارتكاب معصيته، فإذا فرغ من معصيته معتداً بها مبرراً لها، غير آبه بما قد عرض نفسه إليه من العقاب الرباني بسببها، ثقل بذلك العقاب الذي استحقه بسببها، وربما جرفته تلك الحال التي عاد بها من معصيته إلى وادي الكفر. وإما أن أورثته معصيته ألماً وندامة على ما فرط منه، وساقته تلك الحال إلى الانكسار والتذلل على أعتاب الله، يجأر إليه بالشكوى مما بدر منه ويسترحمه ويسأله المغفرة والصفح - وهذا هو شأن العاصي إن كان صادق الإيمان بالله عز وجل - فإن عقاب عصيانه يهون ثم يهون، وربما لقي الله مغفوراً له مرضيّاً عنه، وأغلب الظن أنه سيكون على موعد من الثواب على تذلله وانكساره، وعلى ندامته وتألمه من ضعفه الذي ساقه إلى العصيان، بدلاً من أن يكون على موعد مع عقاب الله على ذلك العصيان.

وحصيلة الكلام أن النهوض بالطاعات والقربات مدعاة للتباهي بها والتعالي على الآخرين ممن لم ينالوا حظهم منها، ما لم يحصَّن صاحبها بحصن العبودية التامة لله عز وجل، وما لم يكن مستغرقاً في حقائق توحيده.. وأن التورط في المعاصي، مدعاة للتخوف من نتائجها وآثامها، وإعلان الألم منها والندامة على انجرافه فيها، ما لم يكن دافعه إليها اللامبالاة والاستكبار على أوامر الله وحكمه.

فمن هنا صح كلام ابن عطاء الله: «أنت إلى حلمه إذا أطعته، أحوج منك إلى حلمه إن عصيته».

الحكمة الموفية تمام الثلاثين بعد المئة

((الستر على قسمين: ستر عن المعصية وستر فيها. فالعامة يطلبون من الله الستر فيها خشية سقوط مرتبتهم عند الخلق. والخاصة يطلبون من الله الستر عنها، خشية سقوطهم من نظر الملك الحق))

من الثابت أن الله تعالى ستير يحب الستر، وقد ثبت فيما اتفق عليه الفقهاء أن المسلم إن تعرض للوقوع في معصية وزلت به القدم في ارتكابها، فإن المطلوب منه شرعاً، إن ستره الله، أن يبقي ستر الله عليه، فلا يتحدث لأحد عما وقع منه، حتى وإن كانت معصية كبيرة تستوجب الحد. وقد صح أن رسول الله ﷺ تجاهل اعتراف ماعز رضي الله عنه بالفاحشة التي تورط فيها وأعرض عنه مثنى وثلاث، ونبهه بالإشارة والتصريح إلى أن الأولى به أن يستر نفسه وأن يطوي الحديث عن هذا الذي وقع فيه.

ومما يدل على أن الله يحب الستر ومن صفاته الستر على عباده العاصين، ما دام الدافع لهم إلى المعصية ضعفاً في التغلب على غرائز النفس، وليس استكباراً على أوامر الله وشرعته أو استخفافاً بهما، أقول: مما يدل على ذلك ما رواه الشيخان والنسائي وأحمد من حديث عبد الله بن عمر، أن الله تعالى يدني المؤمن فيضع عليه كنفه وستره من الناس (أي يوم القيامة) ويقرره بذنوبه، فيقول: أتعرف ذنب كذا يوم كذا، فيقول: نعم أي رب، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه قد هلك، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، ثم يُعطى كتاب حسناته بيمينه.. الحديث.

ومن هنا فقد كان من دأب المؤمنين على اختلاف درجاتهم ورتبهم في الإيمان والالتزام، أن يسألوا الله عز وجل الستر دائماً، وأن يركنوا إلى كنف الله وستره، كلما رأوا أنفسهم محظيين بهما.

غير أن المؤمنين يختلفون في نوع الستر الذي يتفقون جميعاً في رجائه والدعاء به من الله تعالى. فأما عامة الناس من أمثالنا فإن دأبهم أن يسألوا الله عز وجل أن يستر قبائحهم ومعاصيهم عن الناس، حتى لا يفتضحوا بينهم بسببها، أي فهم يخشون على أنفسهم من أن يفتضحوا بين الناس بها، أكثر من أن يخشوا على أنفسهم من الوقوع فيها ومن أن يفتضح أمرهم عند الله بارتكابهم لها وتورطهم فيها.

وأما الخاصة من الناس، وهم العلماء الربانيون من السلف الصالح، فإن دأبهم أن يسألوا الله عز وجل أن لا يفتضحوا بين يديه بأن يراهم

متورطين في المنكرات التي حذرهم منها أو غائبين عن الواجبات التي أمرهم بها.

وفرق كبير بين كل من الستر الذي يسأله أولئك العامة، والذي يسأله هؤلاء الخاصة.. ذلك ستر في المعصية، كما يقول ابن عطاء الله، وهذا ستر عنها، وسبيل الستر الأول أن لا يفتضح العبد بين الناس إن وقع في المعصية وزلت به القدم إليها. وسبيل الستر الثاني أن لا يتورط العبد في المعصية أصلاً، حتى لا يفتضح أمره لا عند الله ولا بين الناس..

الفئة الأولى همّها أن لا يفتضح أمرها بين الناس، أما الفئة الثانية فكل همها أن لا يفتضح أمرها عند الله.. أي إن الفئة الأولى همها أن لا تسقط مرتبتها عند الخلائق، أما الفئة الثانية فهمها أن لا تسقط مرتبتها عند الخالق.

فإذا تبين لك ما يعنيه ابن عطاء الله بهذه الحكمة، من خلال هذا البيان الموجز، فاعلم أنه قد يرد بعض الإشكال على ذلك:

الإشكال الأول: أن الفريقين من المؤمنين بالله عز وجل، العامة والخاصة، يتعرضان لحالين اثنين:

أحدهما أن يكون المؤمن من الفريقين معافى من المعاصي والآثام كلها، والمفروض في كل منهما في هذه الحال أن يسأل الله دوام هذه العافية والبعد عن الآثام. إذ لا يتصور من المؤمن الصادق في إيمانه أياً كانت رتبته، أن يتطلع، وهو في حال العافية عن الوقوع في المعاصي،

إلى وقوع معصية منه، على أن يستره الله تعالى عن النـاس فـلا يعلمـوا شيئاً من حاله.

ثانيهما: أن يكون المؤمن قد تورط في بعـض المعـاصي، سـواء كـان من عامة المؤمنـين أو مـن خواصهـم، وأنـت تعلـم أنـه ليـس في النـاس معصوم عن المعاصي والزلات أياً كانوا، إلا الرسل والأنبياء، فلا بدّ أن يكون السترُ الذي يسألونه الله عز وجل في هذه الحال هـو السـتر عـن أعين النـاس وأسـماعهم، كـي لا يفتضـح أمرهـم ولا يبـوؤوا بـالخجل والخزي منهم.

فقد آل الأمر إذن إلى أن الستر الذي يسأله المؤمنون ربهم، مـن أي الفريقين كانوا، ستر واحد، أي بمعنى واحد.. قبل تورطهم في المعاصي - وهذا ممكن - يسألونه الاستمرار في الثبات على الطاعات والابتعـاد عن السيئات، أما بعد تورطهم في شيء منهـا - وهـذا أيضـاً ممكـن - فيسألونه أن يمدّ عليهم كنفاً من ستره عـن النـاس وأن لا يفضـح لهـم شأناً هو وحده المطلع عليه من دونهم.

الإشكال الثاني: أن الخاصة من عباد الله، وهم العلماء الربـانيون، لا تكـاد تمـرّ بهـم حـال يـرون أنفسـهم فيهـا متحرريـن مـن السـيئات والعصيان، بل إنهم أقرب إلى اتهامهم أنفسـهم بـأنواع السيئات، مـن اتهام العامة من عباد الله أنفسهم بها.. إذ العامة من النـاس لا يتنبهـون إلاّ إلى تلـك المعـاصي الظـاهرة التـي تجـرّ وراءهـا ذيـولاً مـن الأخطـار والآفات، فإن لم يتعرضوا لشيء منها تاهت أعينهم عـن رؤيـة مـا دقّ مـن المعـاصي والسيئات التـي قـد يكونـون متلبسـين بهـا، وتبلـدت

مشاعرهم عن الإحساس بوقوعهم فيها.. أما الخواص منهم، على حدّ تعبير ابن عطاء الله، فهم في كل أحوالهم وتقلباتهم لا ينفكون عن مراقبة أنفسهم وعن استشعار عظيم حق الله عليهم، وعن الشعور بالعجز التام عن أداء، حتى القليل من حقه. فهم من جراء هذه الحال التي تهيمن عليهم دائماً، يتهمون أنفسهم بالتقصير ويرون أنهم مثقلون بالسيئات والأوزار.

فأنّى ومتى يتأتى لهذه الصفوة من عباد الله أن يروا أنفسهم مطهرين من المعاصي والأوزار، حتى يكون همّهم هو أن يسترهم الله عنها فلا يقعوا في شيء منها، كي لا يفتضح أمرهم أمام الرقيب الأعظم، وهو الله؟

وقد قالوا في ترجمة سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني، أنه رؤيا يوماً في الطواف ملتصقاً من بيت الله الحرام بالملتزم، يقول: اللهم إن لم تغفر لي ذنوبي يوم القيامة وكان في قضائك أن تأخذني بجريرتها على رؤوس الأشهاد، فأسألك اللهم أن تحشرني أعمى، حتى لا أفتضح أمام عبادك الذين يعرفونني ويحسنون بي الظن اليوم..

الإشكال الثالث: ما أورده أحمد والبيهقي وابن ماجه والحاكم في المستدرك من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، أن رسول الله ﷺ قال: ((استقيموا، ولن تحصوا..)) الحديث. والمعنى: إحرصوا على الاستقامة على أوامر الله والانتهاء عن نواهيه، واعلموا أنكم لن تنالوا درجة العصمة في ذلك، بل سيظل التقصير في حقوق الله وأداء أوامره، هو شأن الإنسان وديدنه.

وقريب من هذا المعنى، ما يدل عليه قول رسول الله ﷺ في حديث آخر: ((سددوا وقاربوا وابشروا، فإنه لا يدخل أحداً الجنة عملُه..)) وقد مرّ ذكره كاملاً وبيان تخريجه.

أليس إذن في سؤال العبد ربه أن يعصمه من مظاهر التقصير ومن التلبس بالعصيان، ما يعارض هذا الذي أنبأ به رسول الله ﷺ؟ وأليس الأقرب إلى الأدب مع الله أن يطمع العبد بعفو الله وصفحه في كل الظروف والأحوال، بدلاً من أن يطمع بما لا يتأتى له، وهو الترفع عن سائر المعاصي والأوزار، بحيث يرحل إلى الله يوم القيامة وهو مرفوع الجبين مطمئن البال، لما وفق إليه في دنياه من أداء كل الحقوق والواجبات المترتبة لله في عنقه؟

وكيف يطمع المقربون إلى الله بهذا ويسألونه الضمانة لهم بذلك، وقد علموا أن الأنبياء جميعاً، ما عدا محمداً ﷺ، يكونون يوم القيامة في هم كبير وخوف عظيم، مما قد بدر منهم في الدنيا - على حدّ تصورهم - من السيئات والأوزار؟.. ألم ينبئنا رسول الله ﷺ أن كلا منهم يكون يوم القيامة مستغرقاً في النظر إلى حاله، يقول: نفسي، نفسي، ويعتذر للخلائق الذين يستشفعون به لما يرى نفسه متلبسة به من تقصير وعصيان؟!.. فكيف يطمع من هم دون أولئك النخبة من الرسل والأنبياء، من المقربين والصالحين، أن يأتوا يوم القيامة وقد تميزوا عن تلك النخبة من الأنبياء والرسل، بسبب تحررهم من شوائب السيئات والأوزار؟

* * *

والجواب عن هذه الإشكالات الثلاثة، أن المقربين من عباد الله إليه، يخجلون إذ يتلبسون بالمعاصي من رؤية الله لهم وهم على تلك الحال، أضعاف الخجل الذي يساورهم من رؤية الناس لهم، وهم متلبسون بمعاصيهم تلك... وذلك لما يعلمون من أنهم بما تورطوا فيه إنما عصوا أمر الله، ولم يعصوا أمر عباده. فكيف يكون خجلهم من الناس أشدّ من خجلهم من الإله الذي عصوه؟ بل كيف يكون خجلهم منهم مساوياً لخجلهم من الله الذي يرون أنهم قد بارزوه هو، لا غيره، بالعصيان؟

وإذا كان الذي يتقي أسباب خجله من الناس وافتضاحه عندهم، إنما يسعى إلى ذلك بما يتخذه لنفسه من وسائل الابتعاد والاستتار عنهم، فأي سبيل يسلك هذا الإنسان ذاته عندما يتقي أسباب خجله وافتضاحه من مولاه الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؟.. كيف يستتر منه وهو معه في كل أحواله وتقلباته، أم كيف يبتعد عنه وهو أقرب إليه من حبل الوريد؟

من هنا اختلفت لغة عوام الناس عن لغة خواصهم، لدى التخوف من الفضيحة والبحث عن الكنف والستر.

أما عوامهم، فإنما تتغلب عليهم مشاعر الخشية من رقابة الناس ونقدهم والأذى الذي قد ينالهم منهم، ومن ثم فهم يلجؤون إلى الله بالتضرع والدعاء يسألونه الحماية من الافتضاح عندهم بجميل ستره.

وأما خواصهم، فإنما تتغلب عليهم مشاعر الخشية من رقابة الله لهم إذ هو لاغيره صاحب الأمر والنهي، وهو الذي يتوعد على العصيان،

ويعد بالمثوبة على الطاعات، ومن ثم فهم يلجؤون إلى الله بالتضرع والدعاء أن يقدرهم على أن لا يرى منهم إلا الطاعة والاستقامة على الرشد. وقد علمت أن السبيل إلى ذلك لا يكون إلا بحماية الله لهم من الوقوع في المحرمات. إذ لو وقعوا في شيء منها لرآهم الله وهم متلبسون به، إذ يستحيل أن يجدوا سبيلاً للتستر منه.

إن شأن الخواص من عباد الله أن يساور أحدهم الهم ثم لا يفلته، إن هو تورط في معصية تغلبت نفسه فيها عليه، حتى ولو تمت في غبش الظلام، ولم يطلع عليه أثناء ارتكابها أحد، إذ قد علم أنه قد سُتر عن أعين الناس، ولكنه لم يسترعن عين الله ورقابته، فهو يشعر من ذلك بفضيحة وأي فضيحة، ولعلك تراه ينشد ويردد متألماً باكياً:

تَعِسَتْ ليلةٌ عصيتُك فيها   كيف لم أستحِ وأنت الرقيبُ

وعندما يسوقه الألم إلى الدعاء، فإنما يدعو الله عز وجل، بعد توبته مما ارتكب، أن يتفضل الله عليه بالستر لا من أعين الناس الذين هم من أمثاله فقط، بل يسأله ويلحف بالسؤال أن يستره من رقابة الله له، ورؤيته إياه عاكفاً على المعاصي والأوزار، وإنما سبيل ذلك أن يحميه الله من الوقوع في أوديتها وأن يجعله في كنفه بأن يقيه منها ويعصمه من الانقياد وراء نفسه الأمارة بالسوء.

إذا علمت هذا، فما ينبغي أن تتوهم أن خوف الخاصة من عباد الله، من افتضاحهم بالمعاصي أمام الله، ينسيهم الرغبة الفطرية في الستر بالنسبة للناس أيضاً.. فالإنسان أياً كانت درجته عند الله مفطور على كراهية انتشار قالة السوء عنه، وعلى الرغبة في أن تكون معايبه

ونقائصه خفية مستورة عن الناس، وهل حرم الله الغيبة إلا انسجاماً مع هذه الفطرة وتجاوباً مع مقتضاها؟

إلاّ أن كراهية أحدهم الافتضاح بالتلبس بالعصيان، أمام الله، أضعاف كراهيته له أمام عباد الله، نظراً للفارق الكبير الذي ذكرته لك، والذي لا يلحظه ولا يشعر به إلا الربانيون من الناس.

ولا ريب أن سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني واحد من كبار هؤلاء الربانيين، ولكن خوفه من أن يفتضح حاله أمام رب العالمين، لا يمنع من أن يخاف من الفضيحة نفسها يوم القيامة، أمام الناس أيضاً. وقد مرّ بك خبره عندما رؤي ملتصقاً بالملتزم من بيت الله الحرام.

على أنك ينبغي أن تعلم أن تطلُّع المسلم أياً كانت درجته عند الله، إلى أن يظلّ مكلوءاً بكنف الله وستره بين الناس، إنما هو نتيجة لسنة ربانية ماضية في عباده الذين لا يستخفّون بأوامره ولا يستكبرون على شرعته وأحكامه، مهما تفاوتت درجاتهم بعد ذلك، وهي أنه سبحانه وتعالى يستر عن الناس قبائح العبد مهما كثرت، وينشر فضائله بينهم مهما قلت، تفضلاً منه وإحساناً. دلّ على ذلك قوله ﷺ فيما رواه أحمد وأبو داود والنسائي من حديث يعلى بن أمية: ((إن الله تعالى حييٌّ ستير يحب الحياء والستر..)).

ومن شأن هذه المكرمة الإلهية للعبد أن تبعث الحياء من الناس في نفسه، عندما يعود إليها فيرى ما هي متلبسة به من الآثام والقبائح، مع جهل الناس بها وانبهارهم وإعجابهم بالقليل الذي يجدونه فيه من نقائضها..

ويذهب به الخيال والافتراض إلى احتمال أن يكشف الله للناس عن حقيقة حاله وأن يريهم الخفيّ من أمره، ويتصور مدى الخيبة التي يفاجؤون بها عندئذ من الحقيقة التي كانت غائبة عنهم، فيدركه الوجل، بل الذعر ربما، من أن يتحقق بشأنه هذا الافتراض. فيسوقه ذلك إلى التضرع والدعاء والتعلق برحمة الله وإحسانه، يسأله - وقد أكرمه بالستر - أن يديم عليه ستره وأن لا يفضح أمام عباده أمره.

ومن أهم ما يزيد مخاوف العبد من أن يكشف الله الستر الذي تفضل به عليه، ما قد يراه من تقصيره في جنب الله، وما قد يعدّه على نفسه من السيئات والأوزار التي يرى أنه قد ارتكبها، إذ لا يستبعد أن يعاقبه الله على ذلك بإزاحة ستره عنه وكشف خفايا تقصيره في جنب الله أمام عباده، فيكون له من هذه الحال، ما يشعره بالخوف الشديد من عقاب الله ومكره، ومن شأن هذا الخوف أن يدفعه إلى كثرة الاستغفار والإنابة إلى الله، وأن يسوقه منكسراً متذللاً إلى الوقوف على أعتابه والالتصاق بباب رحمته، يسأله أن لا يخرجه من كنفه وستره، وأن لا يفضحه ويكشف سريرته بين عباده.

وهذه الحال التي تطوف بالعبد وتلهب مشاعره بالخوف، ثم تسوقه إلى التضرع والتذلل والدعاء الواجف، بين يدي الله عز وجل، هو لبّ العبادة بل هو جوهر العبودية لله.

فهذا هو جملة الجواب على الإشكالات التي قد ترد على كلام ابن عطاء الله في حكمته الجليلة هذه.

* * *

الحكمة الحادية والثلاثون بعد المئة

((من أكرمك فإنما أكرم فيك جميل ستره. فالحمد لمن سترك، ليس الحمد لمن أكرمك وشكرك))

هذه الحكمة متعلقة، كما ترى، بالتي قبلها. وقد ذكرت لك في آخر تلك الحكمة أن من سنن الله في عباده الستر، يستر القبائح التي تصدر من الإنسان، عن أنظار الآخرين ودرايتهم، مهما كثرت. وينشر الفضائل التي يوفق للتحلي بها مهما هزلت أو قلّت.. لا يستثنى من هذه السنة إلا الذين يتباهون بقبائحهم ولا يخجلون من الناس إن عرفوا بها.

وليس فينا من لا يتنبه إلى هذا اللطف الذي يعامل به الرب عباده، لو تأمل في واقع حاله وفيما يعرفه هو من نفسه من نقائص وعيوب، ثم عاد فأصغى إلى ما يقوله الناس عنه وتأمل فيما يعرفونه من حاله من الفضائل والمكرمات. ولو عرف الناس منك ما تعرفه أنت من عيوبها ونقائصها وسوء حالها، لم تجد فيهم من يلتفت إليك بأي مكرمة أو

اهتمام، ولرأيتهم جميعاً يكرهونك وينفضّون عنك، ولو عرفت أنت أيضاً منهم ما يعرفه كل واحد منهم عن نفسه وعيوبها، لاتخذت منهم الموقف ذاته، وعندئذ تنفك عرى التواصل والتعاون بين الناس، إذ يكره بعضهم بعضاً، وتسود الجفوة فيما بينهم بدلاً من الألفة والتعاون.

ولكنك قد علمت أن الله حكيم ورحيم، قضى أن يكون الإنسان مدنياً واجتماعياً بطبعه، يألف إخوانه ويسكن إليهم ويمدّ يد التعاون والتعامل إليهم، ولا يتأتى ذلك إلا إن قرأ كل واحد منهم في صفات الآخرين فضائلهم ومزاياهم الحميدة، وغيبت عنه نقائصهم وصفاتهم الذاتية المرذولة. فمن أجل ذلك مضت هذه السنة الربانية قانوناً في الناس جميعاً. لا يستثنى من عمومها إلا أولئك الذين لا يستخفون بعيوبهم بل يستعلنون بها ويجابهون بها الآخرين في استخفاف ولا مبالاة.. وأنت تعلم أنه يدخل في هذا الفريق من الناس من يتخذون من صفاتهم المرذولة وسائل لإيذاء الناس أو غشهم والكيد لهم في المعاملات بل حتى كثير من المصادفات. والحقيقة أن هذا الفريق من الناس لم يخرجهم الله من عموم قانونه وسنته في الناس، ولكنهم هم الذين أخرجوا أنفسهم من كنف الله وستره، عندما استعلنوا بعيوبهم وآفاتهم النفسية بين الآخرين، بالكيد لهم وسوء التعامل معهم، والتباهي بما قد ركب فيهم من العيوب وسوء الحال، إذن فهذه السنة الربانية الماضية في الناس لا خلف فيها لدى التحقيق.

إذا تبينت لك هذه الحقيقة، فضعها دائماً في ذاكرتك وإياك أن تستسلم لشيء من عوامل نسيانها.

فإن أنت أنجزت هذه الوصية، فلن تغتر إذن بإكرام أحد من الناس لك أو بثنائه عليك ومدحه لك، ولسوف تعلم وأنت تصغي إلى ثنائه ومديحه، أنه إنما يثني في الحقيقة على جميل ستر الله لك، إذ لولا ما قد أكرمك الله به من ستر قبائحك وعيوبك من الناس، لما التفت أحد منهم إليك بأي اهتمام أو اكتراث، فضلاً عن أن يكرمك بالثناء عليك وتدبيج عبارات المديح لك.

واعلم أنك ما دمت على ذكْرٍ من هذه السنة الربانية التي تفضل الله بها على عباده، فلن تخدع بمدح المادحين لك وثنائهم عليك، بل سيبعثك ذلك على مزيد من الخجل من مولاك الذي يعلم ما استكن وما خفي من حالك، والذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، ثم يبعثك ذلك، أي مدح المادحين لك، على الاستغراق في حمد الله والثناء عليه، أن ستر عن الناس القبيح من خصالك، وهي كثيرة، ونشر بينهم أنباء الحميد منها، وهي قليلة.

ولكنك إن حجبت نفسك عن عيوب ذاتك أو تجاهلتها وتغافلت عن وجودها، فإن إكرام الناس لك بالثناء عليك سيكون مصدر فتنة وأي فتنة لك.. ولسوف يدعوك مديحهم المتكرر لك إلى تصديقهم فيما يقولون، فتقع من جراء ذلك في مصيبة العجب والغرور، وتزداد بذلك غيبوبة عن مشاهدة عيوبك وأخطائك.

فانظر من أي الفريقين أنت.. فإن كنت بحمد الله وتوفيقه من الفريق الأول أي الذي يعلم أنه مكلوء بكنف الله وجميل ستره، فإن إكرام الناس لك بثنائهم عليك لن يعود إليك إلاّ بالخير، إذ ستزداد

بذلك حمداً لله وشكراً له أن حجب عيوبك عن عباده، ولم يرهم منك إلا الجميل والحميد من الخصال. ولعل المصطفى ﷺ إنما عنى هذا الفريق بقوله: ((إذا مدح المؤمن في وجهه ربا الإيمان في قلبه))[1]، ولئن كان في الحديث ضعف من حيث السند، فإن مما يقويه أن رسول الله ﷺ كان يثني على كثير من أصحابه في وجوههم، كثنائه على أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وعلى معاذ وجابر وأسامة بن زيد.. وكل ذلك ثابت في الصحيح، ولعله ما أثنى عليهم إلا لأنهم كانوا من هذا الفريق.

أما إن كنت من الفريق الثاني - وأسأل الله لي ولك العفو والعافية - فإن ثناء الناس عليك سيرسّخ في ذهنك ما تدعيه لنفسك من المزايا والكمالات والصفات الحميدة، ويزيدك جهلاً أو تجاهلاً بعيوبك ونقائصك الكثيرة. وإن في ذلك من الفتنة ما قد يجر عليك أخطر الآفات. ولعله ﷺ إنما عنى هذا الفريق الثاني، عندما قال لأحد أصحابه، وقد سمعه يمدح رجلاً عنده: ((ويحك قطعت عنق صاحبك، لو سمعها ما أفلح))[2].

* * *

والذي يرمي إليه ابن عطاء الله رحمه الله من هذه الحكمة، هو أن على المسلم أن يعلم دائماً أنه بؤرة للنقائص والعيوب والأخطاء، ولكن

---

(١) رواه الطبراني والحاكم في المستدرك من حديث أسامة بن زيد.

(٢) رواه الشيخان من حديث أبي بكرة، وتتمته: ((.. إن كان أحدكم لابدّ مادحاً أخاه فليقل أحسب فلاناً ولا أزكي على الله أحداً. حسيبه الله إن كان يرى أنه كذلك)).

الله، تفضلاً منه ولطفاً، ستر تلك البؤرة بغشاء من المزايا والصفات الحميدة. على أن تلك المزايا التي ستر الله عواره بها إنما هي من عطاء الله وفضله فليحمد الله دائماً على نعمتي ستره للقبائح، وتفضله عليه بالتوفيق لبعض الفضائل، وإذا صادفه من راح يثني عليه لما يرى فيه من تلك المزايا التي أكرمه الله بها، فليزدد حمداً لله أن ستر عن عباده قبائحه وجاد عليه بالصفات الحميدة التي أكرمه بها، وجعل له منها غطاء لتلك القبائح وسبب ستر لها.

وهذا هو شأن عباد الله الصالحين دائماً، مهما مُدِحوا على ألسنة الناس، فإن المدح لا يزيدهم إلا شعوراً بالضآله والذل لله عز وجل، ولا يذكرهم إلا بمزيد فضل الله عليهم. بل إنهم لا يجدون المدح أو الثناء منصرفاً في حقيقته إلا إلى الله تعالى إذ هو صاحب الفضل كله وهو وحده الممدوح بصفات الكمال.

وقد رووا في ترجمة سيدي أبي يزيد البسطامي، أنه كان إذا رأى الناس ازدحموا عليه في مجلسه وقد شدّهم إليه الحب والثقة بصلاحه، أقبل إلى الله يقول: اللهم إنك تعلم أنهم يقصدونك أنت، ولكنهم وجدوني عندك.

فهذه حال من تاه عن نفسه وغاب عن كل ما فيها من موجبات المدح والقدح، ولم يدلّه شعوره إلاّ على موجود واحد، هو الله، فماذا عسى أن يؤثر فيه الإطراء والمدح، وماذا عسى أن يفعل به الانتقاص والقدح، وهو لا يشعر من ذاته بأي شيء ذي بال؟.. كل ما يعلمه من حال نفسه أنه عند الله، وأن كل ما فيه فهو بالله، فإذا مدحه

المادحون فالممدوح في الحقيقة هو الله، وإذا أقبل إليه الزائرون، فإن المزور في الحقيقة هو الله.

ولا يوهمنّك الجهل أن هذا الكلام لون مما تفرزه عقيدة الحلول، بل الأمر على النقيض من ذلك تماماً، أوهام الحلول لدى الزنادقة من أصحابها توهمهم أنهم هم الذين يتجلّى من خلالهم وجود الله، فهم إذن (فيما يتوهمون) مصدر كل ما في ذاته العلية من الكمالات. ومن ثم فهم دائماً في نشوة بالغة من شدة الاعتداد بأنفسهم.

أما هذا الذي أوضحته لك فهو مظهر لوحدة الشهود والفناء عن الذات، وذلك بإحالة كل ما فيها من مظاهر الحول والقوة والملك والفاعلية إلى الله وحده. ومن ثم فإن المصطبغين بهذا الشعور يرقون بذلك إلى أعلى درجات التوحيد، ولا يرون في أنفسهم، مهما تقلبت بهم الأحوال، إلا صفة العجز والذل والفقر.

وأصحاب هذه الدرجة الباسقة من التوحيد، يعاملون الناس في الظاهر، ولكنهم إنما يتعاملون دائماً مع الله في حقيقة الأمر وما تكنّه مقاصدهم وضمائرهم، فهم يرون الناس في الظاهر ولكنهم يتعاملون من خلالهم مع الله في الباطن..

فهم الذين وعوا معنى الحديث القدسي التالي وارتقوا إلى درجة العمل بما فيه، فكانوا بذلك في نجوة من العتاب الذي يوجهه الله إلى طائفة من عباده يوم القيامة. يقول الله تعالى لأفراد هذه الطائفة: ((يا ابن آدم مرضت فلم تعدني. قال: يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده؟ أما علمت

أنك لو عدتني لوجدتني عنده. يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني. قال: يارب وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي. يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني. قال: يارب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه. أما أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي)).

أفترى أن قول الله تعالى ((مرضت فلم تعدني)) و((استطعمتك فلم تطعمني)) و((استسقيتك فلم تسقني)) تكريس لمعنى الحلول والعياذ بالله؟ أم هو توجيه للعبد إلى بلوغ أعلى درجات التوحيد، وذلك بأن يتعامل مع الناس في الظاهر، على أن لا يتجه من خلال ذلك إلا إلى التعامل مع الله في الباطن، وكم هي دقيقة وجامعة، تلك الكلمة التي اشتهرت عن الإمام فخر الدين الرازي: ((كن ظاهراً مع الخلق، وباطناً مع الحق)).

فاللهم حققنا بأعلى رتب التوحيد لك، حتى نتحقق بالحكمة التي يخاطبنا بها ابن عطاء الله: ((من أكرمك فإنما أكرم فيك جميل ستره، فالحمد لمن سترك، ليس الحمد لمن أكرمك وشكرك)).

وعندئذ نعلم أن المتفضل دائماً هو الله، وأن مرد الفضل كله إليه، وأنه هو وحده الذي يستحق الحمد والشكر على كل نعمة وعطية.

* * *

الحكمة الثانية والثلاثون بعد المئة

((ما صحبك إلاّ من صحبك وهو بعيبك عليم، وليس ذلك إلاّ مولاك الكريم، خير من تصحب من يطلبك لا لشيء يعود منك إليه))

يقول ابن عطاء الله: لا يخلص لك في الصحبة إلا من يصحبك عالماً بعيبك، متجاوزاً عنه، في سبيل صحبتك والإبقاء على مودتك ورعايتك ولن تجد من يصحبك على هذا النهج إلا مولاك الأجل، وهو الله عز وجل.. ويقول رحمه الله: أولى من تصحبه من يطلبك لذاتك لا لمنفعة تعود منك إليه، وليس في الناس كلهم من يطلبك لذاتك ولا يطمع منك بأي منفعة تفد منك إليه، إنما هو الله وحده يتولاك ويطلبك ليسعدك بالقرب منه، وليعود بوافر إحسانه وعظيم إنعامه عليك.

فهل الأمر كما يقول ابن عطاء الله؟

هل كل من يصحبك ويعلن عن حبه لك، من الناس، إنما يتعلق بك لمغنم يناله منك؟ وهل كل من يمد يد الصحبة منهم إليك، يضيق ذرعاً بالعيوب التي قد تبدر منك؟

إن تجارب العلاقات الاجتماعية في هذه الدنيا، قديماً وحديثاً تقول: نعم، وتشهد بصدق هذا الذي يقوله ابن عطاء الله، فالناس إنما يتواصلون لحاجة كل واحد منهم إلى الآخر، ولابدّ لكي يحقق التواصل هدفه هذا، من أن يأتي مغلّفاً بغلاف الود والإطراء وتبادل الثناء وكلمات المديح، إذ قلما يصل الإنسان إلى مبتغاه من صاحبه إلا إن سلك إليه هذه الطريقة.

وعندما يواجه أحدهم من صاحبه الذي يواصله بهذا القصد، عيباً في شخصه أو تقصيراً أو خطأً في معاملته له، تفسد الصحبة وتَنْبَتُّ الصلة، ولربما تحولت الصحبة إلى عدوان.

وهذا الواقع الاجتماعي لا ينافيه ما هو ثابت ومقرر أيضاً من أن الإنسان ألوف بطبعه وأن قلبه مفطور على الوداد. ذلك لأن الإلف الذي فطر عليه الإنسان إنما جعله الله خادماً وسبيلاً لسريان المصالح وتبادل الناس لها فيما بينهم. وآية ذلك أن سير المصالح إن توقف بين اثنين أو بين أفراد جماعة من الناس لسبب ما، فإن معين الود والألفة يجفّ فيما بينهم.

ولا ينافي هذا الواقع الاجتماعي ما قد تراه أيضاً من مظاهر الحب الذي يسري، متقداً، من قلب شخص ما إلى آخر ذكراً أو أنثى، فقد يخيل إليك أنه كثيراً ما يكون حباً صافياً عن المصالح متسامياً عن المنافع، وهو ذلك الذي يسمونه العشق أو الهيام.. فإن هذا المحب إنما يحب نفسه من خلال شخص من يحب. وليس صحيحاً أن في المحبين من لا يبتغي من رواء حبه غرضاً أو منفعة لشخصه، أوَ ليس الشأن فيه

أن يحرص دائماً على القرب من محبوبه، وعلى التمتع به بكل السبل الممكنة؟ فهذا واحد من الأغراض الشخصية العائدة إلى منفعة المحب ومصلحته، وإن كانت هذه المنفعة شديدة التعلق بشخص المحبوب والارتباط به.

إن المحب هو الذي يشعر بلذة القرب والوصال، ومن ثم فهو الذي يقطف منافع هذا الحب لنفسه.

فإن رأيت شخصين تسري بينهما مشاعر الحب على نحو متبادل، ورأيت كلاً منهما متعلقاً بصاحبه، فاعلم أن كلاً منهما ينال من الآخر المتعة التي ينشدها لنفسه، فهما في ذلك كشخصين التقيا على منفعة مالية متبادلة بينهما..

والخلاصة أن علاقة الإنسان بالإنسان قائمة على إشباع كل منهما لحاجاته الذاتية، ولكن الحاجة قد تكون مادية وقد تكون معنوية: نفسية، أو روحية أو غريزية.. وما قد يكون بين الناس من نسيج الألفة والود ليس إلا أثراً من آثار المنافع المتبادلة بينهم.. فإن قال لك قائل: إن فلاناً من الناس متعلق بصديق له دون أي فائدة مادية أو معنوية تصل إليه منه، ولا يزال متعلقاً به مهما بدرت منه أخطاء، ومهما تلبس به من عيوب، فاعلم أنه يتخيل شيئاً لا وجود له، ويرسم صورة لا حقيقة لها.

غير أن واحداً لا ثاني له، هو الذي يصحبك دون منفعة تصل منك إليه، ودون أن تتعكر صحبته لك بعيب أو عيوب أو أخطاء تلبست

بها أو بدرت منك. ألا وهو الله عز وجل، ولن تحوجك هذه الصحبة إلى أكثر من أمرين اثنين: أن تعرفه، ثم تتخذه لك صاحباً.

ينفعك دائماً بصحبتك له، وهو الغني عنك.. ويقبلك على أخطائك وعيوبك دون أن يناله من تلك الأخطاء والعيوب شيء.. يرعاك ويحميك من السوء وأنت معرض عنه، بلاحقك بالوصية والتحذير والنصح، على الرغم من كثرة مخالفاتك وعصيانك له.. تنسى أو تتناسى فضله عليك، وهو يتابع إكرامه لك ويرسل عطاياه ورفده إليك.. تخالف أوامره، وتنحط في المعاصي التي ينهاك عنها، وترتكب الشنائع والموبقات، ثم إنه يصطلح معك ويصفح عنك بالتفاتة صادقة منك إليه.. فمن في الناس، الأقربين والأبعدين، العشاق والمولعين، من يصحبك على هذا النهج، ويقبلك على كل هذه التقلبات منك؟..

ثم إن الناس الذين تركن إليهم ويركنون إليك، لا تمتد صحبتهم لك إلى أكثر من عيشك معهم فوق هذه الأرض. فإذا جذبك الموت عنهم إلى حياتك البرزخية، انفضوا جميعاً عنك وأعرضوا عنك، كل إلى شأنه ومصلحته ودنياه، وما هي إلا ساعات أو أيام حتى يطويك النسيان عن أذهانهم وتنمحي ذكراك عن أخيلتهم.. أما صاحبك ووليّك الذي هو الله، فهو باق معك لا يفارقك. يؤنسك في تلك الوحشة، ويجدد آمالك عند تلك الشدّة، ويبدد عنك الكرب بما ينالك من رحمته الدائمة.. وليس من شرط لتسعد بصحبته المتميزة هذه إلا أن تُقْبِلَ إليه بخطوتين اثنتين، كما قلت لك: تعرفه أولاً، وتتخذه لك صاحباً ثانياً.

دعني أضعك أمام شاهد من الحياة الواقعية، على هـذا الـذي ينبهنا إليه ابن عطاء الله:

قصة فتاة خدعت بصحبة الأقران والمحبين والعشاق، ولما انجرفت في منزلق خداعهم تخلّى عنها الأهل والأقربون، وتنكر لها العشاق والمحبون.. ثم لم تنتشلها من وهدة الشقاء إلاّ يد الله.

وها أنا أرويها كما رويتها للقراء في بعض كتبي السابقة:

«دخلت مكتبي في كلية الشريعة، فتاة اصطنعت - فيما بدا لي - حجاباً سترت به جزءاً من شعر رأسها، استأذنتني أن تجلس فتقصّ عليّ مأساتها، أملاً في أن أهديها إلى مخرج أو أعينها على حلّ.

كانت خلاصة قصتها أنها نشأت في بيت لا يعرف للدين معنى ولا ينضبط منه بأي قِيَم.. تلقت تربيتها وثقافتها في المدارس، فالجامعة، دون أي رقيب عليها أو ناصح لها أو مشفق عليها.. قالت: وكان الشباب منذ مرحلة الدراسة الثانوية يحومون حولها، ويظهرون الإعجاب بها، ويدفعونها إلى مزيد من التحرر في المظهر والسلوك.. قالت: فاستسلمت لذلك كله، وتحول قلبي إلى (فندق) على حدّ تعبيرها، يحتلّه الوافدون إليه من الشباب واحد إثر آخر.. وفي الجامعة ازدادت علاقتي مع الشباب استجابة وعمقاً.. وكان الكل معجباً بما أتمتع به من التحرر في المظهر والسلوك، مع الضغط المستمر عليّ بأن أزداد تحرراً وسعياً إلى تحقيق الذات.. وتعلقت تلك الأثناء بشاب منهم، تراءى لي أنني قد أحببته وأن هواه قد أخذ بمجامع نفسي، إذ كان يؤكد لي صادق حبه لي وتعلقه بي، فعرضت عليه أن يتقدم

فيخطبني من أهلي، واقترحت عليه مشروع زواج.. فأظهر الاستجابة الكلية، وأكد أن هذا هو مشروعه القائم في ذهنه، وأنه سيتقدم لخطبتي عما قريب.. وازدادت من جراء هذه الثقة صلة ما بيننا قوة وعمقاً.. وفي إحدى اللقاءات، استطاع أن يستلب مني أعزّ ما أملك، إذ كنت قد أيقنت بحبه ووثقت بوعده، وصدقت أحلامي بأنه الشاب الذي سأركن إليه وأحتمي به.

وتكرر من بعد ذلك حصوله على مبتغاه، ورحت أذكره بالخِطبة، وأستعجله بإنجاز الوعد، وراح هو يستمهلني ويتذرع بأعذار علمت فيما بعد أنه يختلقها.

وفي إحدى اللقاءات طالبته بإلحاح أن ينجز وعده بالخطبة.. فألقي إليّ نظرة تفيض بالازدراء، وقال: عندما أقرر الزواج سأبحث عن فتاة شريفة تناسبني، لا تجعل من نفسها ملهاة للشباب!..

طرقت سمعي هذه الكلمات، وكأنها صيحة كبرى أيقظتني من نوم متطاول عميق، لأجد نفسي بين حشد من الناس العابثين بي والمخادعين لي، ورأيتني أصبحت غريبة في هذا العالم حتى عن أهلي الذين تركوني أهيم على وجهي كما أشاء، ولكني لو شكوت إليهم نتيجة إهمالهم لي وإعراضهم عني لتعرضت يقيناً لأسوأ أشكال الهلاك.

ثم قالت في غمرة التأثر: لقد أيقنت الآن أنني لو تمسكت بمبادئ الإسلام ونصائحه، لما نال مني أي دجال أو مخادع، ولبقيت مكلوءة السعادة والشرف.. ولست أدري ما الذي أستطيع أن أفعله الآن.

قلت لها: أفكان من الضروري أن تمتحني أوامر الله وأن تخوضي غمار هذه التجربة القاتلة، كي تصلي أخيراً إلى هذا اليقين؟!.. ألم يكن يغنيك عن كل ذلك ما ينبغي أن يعلمه كل عاقل (سلفاً) من أن هذا الدين ليس في مجموعه إلا جملة نصائح من إلهنا الذي هو أرحم الراحمين يخاطب بها عباده أجمعين، كي يسعدوا برعايتها ويجدوا فيها ما يحميهم من كل سوء؟

لقد أعرضتِ عنه خلال السنوات التي مضتْ، وآثرتِ على الانقياد لنصائحه الانقياد لخداع العابثين.. واليوم وقد انفض عنك الأهل وتنكر لك الأصحاب والأحباب، ستجدين أن الإله الذي أعرضت عن أوامره طوال هذه السنوات، في سبيل هؤلاء الذين خدعوك ثم أعرضوا عنك، ستجدين على الرغم من إعراضك عنه ونسيانك له أنه اليوم هو الصاحب الصادق الوحيد الذي لن يتخلى عنك.. والذي سيؤنسك في غربتك وينقذك من بؤسك. ولن يكلفك ذلك سوى أن تصطلحي معه بصدق وأن تنقادي لأوامره ووصاياه جهد الاستطاعة، بثقة واطمئنان.

قالت لي: إنني منذ اليوم أعاهد الله، تائبة نادمة، على الانقياد لأوامره والخضوع لجميع أحكامه. ولن ألتفت بعد اليوم إلى خداع شيطان، ولن استخذي لأي من الأهواء والمغريات.

قلت لها: فترددي عليّ بين الحين والآخر، وأعتقد جازماً إذا كنت صادقة في التوبة أن الله سيجعل لكِ من أمرك فرجاً ومخرجاً.

ومن أعاجيب لطف الله أنها ما إن غابت عني أياماً حتى زارني شاب يشكو إليّ أنه بحاجة إلى الزواج، وأنه لا يجد الفتاة المناسبة الدينة، وتبين لي أنه متدين وملتزم عن دراية ووعي.

قلت له: هل لك في فتاة يسرّك شكلها وتطمئن إلى دينها وسلوكها، ويكون لك في الزواج منها أجر كبير لا يناله إلا الصديقون، وأنا بذلك كفيل؟

فأجاب متحمساً: نعم، من هي؟

شرحت له خبرها، ووضعته أمام جلية أمرها. وأكدت له ثقتي بصدق توبتها، فازداد رضاً وانشراحاً، ووكل إليّ مهمة إنجاز هذا الأمر على النحو الذي أريد.

وسبحان الله مقلب القلوب.. سبحان ربي الرحيم الودود الذي شرح الصدر ويسّر الأمر، ومسح بيمين لطفه ركام الآلام الخانقة التي أطبقت على فؤاد تلك التي شردت عن أوامر الله فذهبت ضحية السماسرة.. سماسرة الدعوة إلى (التقدم والتحرر) والتحذير من (القيود والتخلف).

وفقني الله، فجمعت بينهما، وفي جلسة واحدة تعارفا، وتحاورا، وتعاهدا وتواثقا.. فخطبها الشاب من أهلها حسب المألوف، وجمع الله بينهما في حياة زوجية رغيدة، تحت مظلة من الالتزام بأوامره المسعدة)).

تلك هي عاقبة الصحبة الماكرة.. وهذه هي ثمرة اتخاذ الله صاحباً.. حتى ولو جاء ذلك بعد طول تنكر له وشرود عنه.

أليس هذا النموذج الواقعي (وفي الذاكرة نماذج شتى تزيد العاقل ثقة برحمة الله ولطفه، كما تزيده تحذيراً من مكر الماكرين وخداع الكاذبين) أقول: أليس هذا النموذج الذي انتزعته لك من واقع الحياة الاجتماعية، يأتي شاهداً مصدقاً لهذا الذي يقرره ابن عطاء الله؟ وصدق من قال:

أُتـــرك الكـــل جانبـــاً وخـــذ اللـــه صاحبـــاً

* * *

ثم إنك قد تجد في هذه الحكمة بعض ما قد يشكل، وهو:

أولاً: يقول ابن عطاء الله «خير من تصحب من يطلبك لا لشيء يعود منك إليه» أي وهو الله عز وجل. والإشكال الذي يرد على هذا الكلام، هو أن الله يطلب من عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به أحداً وأن ينفذوا التعاليم التي يأخذهم بها وأن يتعدوا عن النواهي التي يحذرهم عنها. أليست هذه المتطلبات التي يخاطب الله بها عباده شرطاً للصحبة التي يتحدث عنها ابن عطاء الله، عائدة إلى الله تعالى؟

والجواب أن اصطباغ الإنسان بحقائق العبودية لله تعالى، ليس فيه ما يعود بأي نفع أو فائدة إلى الله تعالى. وإنما فيه الكثير مما يعود بالنفع والفائدة إلى الإنسان ذاته. إن الإنسان لا يهذبه ولا يقلّم مخالب طغيانه إلا شيء واحد لا ثاني له، هو أن يستيقن عبوديته ومملوكيته لله ثم ينقاد إلى أحكام هذه العبودية ومقتضياتها، فلئن كان في صحبة العبد ربه ما يملي على العبد ضرورة الانقياد لأحكام عبوديته لله، فذلك لأنه

العلاج الذي لا بديل عنه لصلاح حاله، ولمد جسور التعاون بينه وبين بني جنسه.

إذن، فالله يطالبك، ولكن لا بشيء يعود بالفائدة منك إليه، بل يطالبك بما يعود بالفائدة منه إليك.

ثانياً: هل ينطبق وصف الصحبة التي يحذر منها ابن عطاء الله، وهي صحبة ما عدا الله عز وجل من أضراب الناس وفئاتهم، على الصحبة التي تسري بين شخصين تآخيا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه؟..

والجواب أن الوصف الذي ذكره ابن عطاء الله للصحبة التي يحذّر منها، لا ينطبق على هذين الشخصين وأمثالهما.. ولعلك تستشكل فتقول: فكيف يعمم ابن عطاء الله وصف الصحبة الزائفة في كل من تصاحبه من غير الله عز وجل، قائلاً: ((... وليس ذلك إلاّ مولاك الكريم)).

والجواب عن هذا الإشكال أن الشخصين اللذين يتآخيان في الله بجدّ وصدق، إنما يندفع كل منهما إلى تحقيق هذا التآخي، بسائق إقباله على الله واتخاذه إياه صاحباً له من دون المخلوقات كلها. فالأخوة الإيمانية التي تنعقد بين هذين الشخصين ليست إلا أثراً من أهم آثار ارتباط كل منهما بالولاء التام لله وحده، وهل المراد بصحبة العبد لمولاه دون غيره إلا الولاء التام له؟

أي إن الأخوة في الله ليست قسيماً للصحبة التي تسري بين العبد وربه، وليست نوعاً آخر لصحبة مستقلة عنها، بل الأخوة الحقيقية في الله ليست إلا ثمرة من ثمار ارتباط العبد بالولاء التام لله وحده.

ويتفرع عن هذا الذي بينته لك، ما ينبغي أن نعلمه جميعاً، من أن انقياد المسلم لهذا الذي يقرره ابن عطاء الله ويوصي به في هذه الحكمة، من اتخاذه الله وحده صاحباً له، لا يعني أن يركن المسلم إلى العزلة والابتعاد عن الناس، وقطع أسباب التعاون معهم.. فإن ذلك يتنافى مع تعليمات الله وشرائعه التي يأخذ بها عباده.

وإنما الذي يعنيه مضمون هذه الحكمة، أن تكون صلة المسلم بإخوانه وبني جنسه خاضعة لمقتضيات اتخاذه الله وحده صاحباً له، أي ولياً له من دون الناس كلهم، بل من دون المخلوقات جميعاً.

ومن المعلوم أن إخلاص المسلم لربه في هذه الصحبة لذاته العلية، يقتضيه أن ينهض بخدمة المجتمع الإنساني، وأن يبنيه على النهج القويم الذي يحقق الخير للفرد والجماعة، ولا يكون ذلك إلا بالتلاقي والتعاون.

وفرق ما بين هذه النهضة التي هي ثمرة صحبة العبد لربه وحده، والأنشطة الاجتماعية الأخرى، أن المسلم في الحالة الأولى إنما يبحث في كل ما ينهض به من أعمال ويحققه من علاقات عن مرضاة الله وحده، أما في الحالة الثانية فهو إنما يبحث في ذلك عن رغائبه الشخصية أو عن إرضاء أنداد له من الناس، طمعاً في مغنم أو تخلصاً من مغرم.

ثم إن هذا الذي شرحناه من كلام ابن عطاء الله في هذه الحكمة، مقرر في مثل قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١/٤٧] وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ

آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧/٢] وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْداداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥/٢].

اللهم أعزنا بولايتك الدائمة لنا، ولا تذلنا بالخضوع لولاية الأنداد اللذين يُعْبَدُون زيفاً من دونك.

* * *

الحكمة الثالثة والثلاثون بعد المئة

((لو أشرق لك نور اليقين، لرأيت الآخرة أقرب إليك من أن ترحل إليها، ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة الفناء عليها))

ما الذي يحجب الإنسان عن رؤية أحداث الآخرة، التي يصفها بيان الله تعالى، ويؤكد وقوعها بأساليب متنوعة، ويبرزها أمام أبصارنا، وكأنها مشاهد تجري أمام أعيننا اليوم؟

إن الذي يحجب تلك الأحداث عن أبصارنا حجاب المشاهد الدنيوية القائمة أمامنا، والتي تستهوي النفس فينشغل الفكر بها، إذ تنصرف إليها الرغبة، وتهتاج عوامل الخوف من تعثر السبيل إليها وعدم التمتع بها.. وصدق الله القائل: ﴿إِنّا جَعَلْنا ما عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الكهف: ١٨/٧].

فتتكاثف من ذلك الحواجز النفسية والفكرية التي من شأنها أن تسدل ستاراً يحجب أحداث الحياة الآخرة عن الذهن وعن البصيرة، بل كثيراً ما يزج الإنسان في يم مطبق من النسيان لها والذهول عنها.

وإنما ينصرف أحدنا بشكل كلي إلى الاهتمام بمعايشه الدنيوية، ناسياً أو متناسياً ما هو مقبل إليه عما قريب من أحداث مرحلة الحياة الثانية، بسبب هذا الحجاب، بل هذا السور المضروب بينا وبين ما نحن مقبلون إليه. وهو، كما قلت لك، سور تجمعت وتكاثفت أجزاؤه، بعوامل نفسية أولاً، ثم بشواغل فكرية ثانياً.

فما الذي يحطم هذا السور أو يزيح هذا الحجاب القائم بيننا وبين ما نحن مقبلون عليه من أحداث الحياة الآخرة؟

أما الأمل في أن يندك هذا السور الدنيوي أو في أن ترتفع عن أبصارنا زينة هذا الحجاب، حسب التعبير الثاني، فهو وهم باطل وأمنية تستعصي على التنفيذ، ذلك لأن سنة الله ماضية في أن يبتلي عباده بزينة الحياة الدنيا، وفي أن يضعها شاغلاً لهم على طريق رحلتهم في فجاج هذه الحياة.. أليس هو القائل: ﴿زُيِّنَ لِلنّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ مِنَ النِّساءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَناطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ٣/١٤].

ولكن ثمة سبيل آخر، من شأنه أن يقضي على كثافة هذا السور أو الحجاب الدنيوي، وإذا هو كالزجاج الصافي النظيف الشفاف، يشعرك بوجوده ولكنه لا يبصّرك إلا بما وراءه..

إنه السبيل الذي ينمي نور اليقين بما قد أنبأك الله به من الدار الآخرة وأحداثها. ولعلك تلاحظ أنني أحدثك عن السبيل الذي ينمي

نور اليقين لا السبيل الذي ينمي اليقين ذاته، وهي ملاحظة نبهنا إليها ابن عطاء الله في تعبيره الدقيق إذ قال: ((لو أشرق لك نور اليقين..)).

ذلك لأن اليقين باليوم الآخر وأحداثه، هو الجامع المشترك بين المسلمين الصادقين في إسلامهم، على تفاوت درجاتهم، فمن تدانى عنده اليقين به إلى درجة الظن، ولو كان قوياً، فقد خرج بذلك عن ربقة الإيمان.

ولكن المسلمين يتفاوتون بعد ذلك في النور الذي يتمتع به يقينهم هذا.. فما هو أثر هذا النور في اليقين الذي يجب أن يتمتع به كل مسلم؟ وما السبيل إلى الحصول عليه؟

أما أثره فهو أنه يجعل اليقين بما سيجري في المستقبل مما أخبر الله عنه، في حكم الواقع والماثل للعيان حالاً.

وأما السبيل إليه فهو الإكثار من ذكر الله تعالى ودوام مراقبته، وقد مرّ بك الحديث عن أهمية ذكر الله تعالى وعن أثره في تحرير القلب من الغفلة عن الله تعالى، وعن أثره في صرف الذاكر عن الأكوان إلى المكون، عد إن شئت إلى ما قلته لك في ذلك مفصلاً عند الحديث عن الحكمة السابعة والأربعين ((لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه..)) إلخ أو إلى ما قلته في شرح الحكمة السادسة والثلاثين ((شعاع البصيرة يشهدك قربه منك..)) إلخ فذلك خير من أن أكرر شيئاً سبق أن فصلت القول فيه.

وصفوة القول أن الدنيا بكل ما فيها من محاسن ومغريات، إما أن تكون حجاباً تبعد المقبل إليها عن الآخرة وأحداثها وتصرفه عن

تذكرها والاستعداد لها، وإما أن تكون منبهاً إليها مذكراً بها.. فهي ذات أثرين متناقضين يتفرقان حسب حال المقبل إليها والمتعامل معها.

فمن أقبل إليها وتعامل معها غافلاً عن الله معرضاً عن تعريفه لها وحديثه عنها، حُجِبَ بها، وحُبست بصيرته في أقطارها، فلم يعد يقيم وزناً لشيء مما هو مقبل عليه.

ومن أقبل إليها وتعامل معها ذاكراً الله دائماً، متأملاً في تعريفه لها وحديثه جل جلاله عنها، وتنبيهه إلى الأيام الثقيلة الوافدة إليه من ورائها، رآها كالدهليز الذي يدخل منه الوافد إلى الدار، لا يحفل به إلا من خلال أنه طريق ينتهي به إلى مستقره القاصد إليه، هل رأيت قادماً من سفر له إلى داره التي فيها أهله وأولاده، وفيها كل ما قد شدّه الشوق إليه من النعيم وأسباب المتعة وطيب الطعام وفاره الأثاث، ثم وقف عند مدخل الدار يتسلى بالدهاليز التي يمرّ بها، ناسياً ما برّح به الشوق إليه من الدار وكل ما فيها؟

كذلك حال من هيمن ذكر الله على فكره وقلبه، ونظر إلى الدنيا من خلال ما وصفها الله به، ومن خلال كونها المدخل أو الدهليز لتلك الحياة الآخرة التي كم وكم أطنب القرآن وفصّل في وصفها وبيان خلود نعيمها، إنه ينظر إليها ويتعامل معها ولكنه لا يرى ببصيرته من خلالها إلا الآخرة.. فإن رمق بطرفه إلى السماء ينظر في ظلام الليل إلى كواكبها التي تتلألأ لم يجد فيها إلا مصداق ما قد حدثه الله به وأخبره عنه من أنباء المستقر الذي هو مقبل عليه... وإن بعث عينيه في بحار الدنيا ويابستها، وما حوله من زخرف الأرض

وزينتها وثمارها وأزهارها ورياحينها، لم يشدّه ذلك كله إلاّ إلى النبأ العظيم الذي حدثه الله عنه فهيمن على مجامع فكره وخلجات قلبه.. وبعبارة أخرى: إنه إذ يتأمل الدنيا ببصره ويصغي إليها بسمعه، لا يبلغه منها إلا حديثها عن المستقر الذي ينتظره. وهو في مجمله ليس إلا ترجمة دقيقة لوصف القرآن لها، وللأيام بل الحياة الخطيرة والثقيلة الكامنة في أعقابها..

أجل.. إنه إذ يصغي إلى همسها لا يسمع منها إلا ما ينبهه إلى الحياة الآخرة التي هي مدخل ودهليز إليها، ومن ثم فهو يناجي الله قائلاً: ﴿رَبَّنا ما خَلَقْتَ هَذا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النّار ، رَبَّنا إنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَما لِلظّالِمِينَ مِنْ أَنْصار ، رَبَّنا إنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي لِلإيمانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنّا رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا وَكَفِّرْ عَنّا سَيِّئاتِنا وَتَوَفَّنا مَعَ الأَبْرارِ ، رَبَّنا وَآتِنا ما وَعَدْتَنا عَلَى رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنا يَوْمَ الْقِيامَةِ إنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعادَ﴾ [آل عمران: ٣/١٩١-١٩٤].

وهكذا فإن الدنيا، بكل ما فيها من زخارف وملهيات، لا تكون حجاباً عن رؤية الآخرة، لمن داوم على مراقبة الله وذكره، وكان دأبه ربط النعم بالمنعم، والمخلوق بالخالق، بل تكون دالّة عليها، معبرة عنها، جاذبة إليها. بل إنه لينظر إلى الدنيا فيرى الآخرة من خلالها، ولو عدت إلى ما سبق أن ذكرته لك عن وحدة الشهود في شرح بعض الحكم السابقة، لوقفت على مصداق ما أقوله لك.

بقي أن تعلم أن الدنيا وقد أصبحت مرآة للآخرة، أمام من قد وصفته لك من حسن حاله مع الله مراقبة وذكراً له، لا بدّ إن أمعن

النظر إليها، أن يجد نذير الفناء ملازماً لها واضحاً عليها، إذ لا يبقى شيء من ألقها أو نعيمها على حاله قطّ. يولد كل شيء فيها، مما يحبه الإنسان ويتعلق به، برعماً، ثم يتفتح مكسواً بمظهر من الرواء والجمال، ثم ما هو إلا أن يذبل ويختفي فيه ذلك الرواء وتتجرد عنه كسوة الجمال، وإذا هو أثر بعد عين وخيال يحتضنه الوهم. ذلك هو الطابع الذي يتبدّى على أشياء الدنيا كلها، وتلك هي المراحل الثلاث التي لا بدّ أن تمرّ بها، وهي إذ تمرّ بتلك المراحل تتلو على سمعك دائماً نشيد الغروب والفناء، سواء كانت برعماً لم يتفتح بعد، أو تفتحت من بعدُ، عبقاً وجمالاً ورواء، أو تراجعت مصوّحة عائدة أثراً بعد عين.. إن طابع الفناء ملازم لها ومهيمن عليها في كل الأحوال. وهذا ما يعنيه ابن عطاء الله بكلمته البليغة الجامعة «ولرأيت محاسن الدنيا قد ظهرت كسفة الفناء عليها» وكسفة الشيء سوء حاله، من قولهم: فلان كاسف البال. وسوء حال الدنيا ما قد وصفته لك من أمرها الذي يجعلها إلى السراب الوهمي أقرب منها إلى الشراب الحقيقي.

وصدق الله القائل: ﴿اعْلَمُوا أَنَّما الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكاثُرٌ فِي الأَمْوالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٌ وَما الْحَياةُ الدُّنْيا إِلاّ مَتاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٥٧/٢٠].

ولكن فلتعلم أنه لن يفوز بهذا العلم الذي يدعونا الله تعالى إليه، إلاّ من تمتع بنور اليقين، ولم يكن حظه واقفاً عند مرحلة اليقين فقط، كما قلت لك في صدر شرحي لهذه الحكمة.

ولكن من أين لنا الحصول على نور اليقين؟

لا سبيل للحصول عليه إلا بالإكثار من ذكر الله ومراقبته، وبالآداب التي حدثتك عنها، في أكثر من موضع في هذا الكتاب، لا سيما عند الحديث عن الحكمة السابعة والأربعين: ((لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه..)) إلخ.

وقد كان الحارث بن مالك الأنصاري رضي الله عنه واحداً من الذين أكرمهم الله بنور اليقين، فرأوا الآخرة أقرب من أن يرحلوا إليها، ورأوا محاسن الدنيا وقد ظهرت كسفة الفناء عليها، يتجلّى لك ذلك من هذا الحوار الذي جرى بينه وبين رسول الله ﷺ:

((قال له رسول الله ﷺ: كيف أصبحت يا حارث؟

قال له حارث: أصبحت مؤمناً حقاً.

قال له رسول الله ﷺ: اُنظر ما تقول، فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟

قال حارث: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكأني انظر إلى أهل النار يتضاغون فيها.

قال له رسول الله: يا حارث، عرفت فالزم، وفي روايةٍ: عبد نور الله قلبه))[1].

(١) انظر هذا الحديث وتخريجه في الصفحة ٢٥٦ من الجزء الثاني من هذا الكتاب.

اللهم لا تحرمنا من نعمة اليقين بما أنبأتنا به، مما نحن مقبلون عليه من أحداث يوم القيامة، وتوج اللهم يقيننا هذا بالنور الذي يقرب لنا البعيد، ويزيح عن أبصارنا وبصائرنا الحجب، ويرينا مستقبل الأحداث حاضراً واقعاً، حتى لا نغتر بالسراب الذي يلتمع أمام أبصارنا، ولكي لا نفرح بما قد أوتينا من نعيم الدنيا وخيرها، ولا نأسى على ما قد فاتنا من ذلك منها.

* * *

الحكمة الرابعة والثلاثون بعد المئة

((ما حجبك عن الله وجود موجود معه، ولكن حجبك عنه توهم موجود معه))

ليس ثمة ما هو موجود مع الله قط.. ذلك هو قرار العلم، وهو ما يجزم به المنطق.

ولكي تدرك بداهة هذا الكلام، لاحظ كلمة ((مع)) التي تدل على الندّية وعلى المساواة وتنفي تبعية طرف لآخر.

العالم مليء بالأشياء الموجودة، ولا يرتاب في ذلك ناظر عاقل.. ولكنها جميعاً موجودة بالله، وليست موجودة معه.

ذلك لأن كل ما في الكون مخلوق بخلق الله له، ومن ثم فهو موجود بإيجاد الله إياه.. ثم إن فاعلية الإيجاد من الله له مستمرة غير منقطعة. وهذا معنى أن الله عز وجل قيوم السماوات والأرض وما بينهما. فلو انفكت قيوميّته عن موجود ما لحظة واحدة لعاد أنكاثاً وهباء ولتبدّد في ظلمات العدم.

يعبر عن هذه الحقيقة بوضوح قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥/٣٠] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا﴾ [فاطر: ٤١/٣٥] وأنت تعلم أن الفعل المضارع ((تقوم..)) و((يمسك..)) يدل على الاستمرار. وهو يعني أن وجود السموات والأرض وقيامها بوظائفها، إنما يتم باستمرار إمساك الله لها، واستمرار إقامته لها على الوظائف التي أقامها عليها.

إذن، فليس ثمة، في الكون كله، شيء موجود وجوداً مستقلاً بذاته عن الله، بحيث يصح أن يقال: إنه موجود معه. بل إن كل ما تراه عيناك من الموجودات، إنما أوجده الله ابتداء، وأمده بمقومات الوجود دواماً أي لحظة فلحظة، بحيث لو تخلى الله عنه لتهاوى وجوده وغاب، كما قلت لك، في ظلمات العدم.

فإذا ثبت أن الأشياء كلها تستمد وجودها آناً فآناً من الله، وأنها بالله وجدت، وبالله تبقى، وبالله تتحرك وتؤدي وظائفها التي أقامها الله فيها، فكيف تكون إذن حجاباً يحجبك وجودها عن وجود الله؟.. كيف يكون أثر الشيء حجاباً عن رؤية ذلك الشيء؟!.. أم كيف يكون الدليل على الشيء حجاباً يصدّك عن رؤية ذلك الشيء؟!..

كيف تكون أضواء النيون الساطعة في الليل، حجاباً يصدّك عن معرفة المولد الكهربائي لها ويمنعك عن اليقين بوجوده؟.. بل كيف تكون الثمرة اليانعة في أعلى الشجرة حجاباً عن رؤية الشجرة التي تحملها؟..

إذن فالأكوان التي تراها من حولك، لا تشكل في حقيقتها أي حجاب يحجبك عن الله واليقين بوجوده، لأنها لا تملك أي وجود استقلالي عنه حتى تقوم بما تملكه من هذا الوجود بدور الحجاب، بل هي من آثار وجود الله ومن ثم فهي من أبرز الدلائل الناطقة بوجوده.

ولكن الإنسان من شأنه - مهما اقتنع علمياً بهذا الذي تم بيانه - إذا نظر في المكونات وتعامل معها وركن إليها، أن يحجب بذلك عن شهود الله، وأن ينسيه الركون إليها والتعامل معها وجود الله ومراقبته له، وقيوميته على الكون، فما سبب ذلك؟

سبب ذلك، ما يتوهمه الإنسان، بحكم نظرته السطحية، من أن لهذه المكونات التي يراها أمامه وجوداً ذاتياً مستقلاً، إذ هذا هو الذي تبصّره به عيناه.

ونظراً إلى أن الله قضى أن لا يرى الإنسان ربه في هذه الحياة الدنيا، وأن يكون غائباً عن بصره ماثلاً أمام بصيرته، فإنه إذ ينظر إلى ما حوله لا يرى إلا صور المخلوقات، ولا يرى الدنيا إلا ساحة فياضة بوجودها، فيوحي إليه وهمه أن الوجود الكوني كله هو هذا، وإن كان من ورائه شيء ما فهو مغمور ومحجوب بهذا الوجود الكوني الذي استنفد أقطار المكان والمجال كله. فيمضي متوهماً أنه أمام وجود واحد، هو وجود هذه المشاهدات الكونية التي تتراءى أمامه، ولربما يحمله الوهم على أن لا يتعامل إلا مع هذا الذي تبصّره به عيناه..

فإن تحرر عن هذا الوهم، تلقفه وهم آخر، وهو تصور وجودين مستقلين كاستقلال الندين المتماثلين: وجود الله، ووجود المكونات.

ويمضي يقرر وهمه الثاني هذا في كل مناسبة، وهو تصور موجود آخر مع وجود الله عز وجل، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ولكن العلم، كشأنه دائماً، هو الملاذ الذي ينجي صاحبه من كل تخبط ووهم.. العلم هو الذي يبصّرك بالحقيقة، حقيقة الوجود الواحد الذي تفرع عنه (ولا أقول: فاض منه) وجود الموجودات الكونية كلها. وكم هو صحيح وعميق، قول سيدي الشيخ محيي الدين بن عربي رحمه الله في آخر تائيته:

وجدت وجوداً لم أجد ثانياً له وشاهدت ذاك الحق في كل صنعة

وطالب غير الله في الأرض كلها كطالب ماء من سراب بقيعة

بقيت تفصيلات أخرى تتعلق بهذه الحكمة، أحيلك في بيانها والحديث عنها إلى ما قد ذكرته لك في شرح الحكمة السادسة عشرة «كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء..» ففيه تفصيل واف ومستفيض لكل ما يتعلق بهذا المعنى الذي أجملته لك هنا، وفيه جواب عن مشكلات قد تخطر عند تقريره وبيانه، على البال، ولا ريب أن الإحالة في مثل هذا المقام، خير من التكرار.

* * *

الحكمة الخامسة والثلاثون بعد المئة

((لولا ظهوره في المكوَّنات، ما وقع عليها وجودُ إبصار، ولو ظهرت صفاته اضمحلّت مكوّناته))

تأمل في المكونات التي تراها عيناك، من السماء وما فيها من نجوم وأفلاك، وفي الأرض وما فيها من جبال ووهاد وأشجار ونباتات، وما قد بُثَّ فيها من سائر الحيوانات، وفي البحار وشأنها وما فيها من غرائب المخلوقات، ثم قل لي: ما الذي تنطق به هذه المخلوقات كلها، وما الحديث الذي تردده على سمع كل عاقل؟

إنها تتحدث عن علم الله وحكمته ودقيق تدبيره، وباهر قدرته، فهي ألسنة شتى ناطقة بوجود الله ووحدانيته، بل إنها مرآة ساطعة لوجود الله عز وجل لا يتيه عن رؤيته فيها متبصر عاقل، وصدق من قال:

تأمل في رياض الأرض وانظر   إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاهدات   بأن الله ليس له شريك

فماذا لو غاب وجود الذات العلية عن صفحة هذه المكونات ومرآتها، فلم تتبين فيها آثار علمه وحكمته وتدبيره، ومظاهر قدرته؟

إذن لغابت هذه المكونات أيضاً فما رآها مبصر، ولما وقع منها على أيّ أثر. ذلك لأنها إنما تقررت بعلم الله وتخصصت بإرادته، ثم وجدت بقدرته، فلو لم تتجلّ فيها هذه الأسرار التي بها ظهر الله في خلقه وتجلّى لعباده، إذن لغاب السبب الذي به تخصص نظامها ثم تحقق وجودها، ولبقيت عندئذ في ظلمات الغيب والعدم.

فهذا هو مجمل ما يعنيه ابن عطاء الله بقوله في الشطر الأول من هذه الحكمة: ((لولا ظهوره في المكوَّنات ما وقع عليها وجود إبصار)).

فإن قال لك قائل: ولكن ها أنا أنظر إلى المشاهد الكونية على اختلافها، فلا أجد مظهراً لأحد فيها، ولا أبصر فيها إلا ذاتها وطبيعتها، فاعلم أنه كالذي ينظر إلى المرآة الصافية، ثم يقول: إني لا أجد مظهراً لأحد فيها ولا أبصر فيها إلا ذاتها وطبيعتها!..

إنه يعاني من أحد شيئين: إما من عين لا يبصر بها، أو من كبر قد زجه في سجن العناد.

ليس في العقلاء من يسمع كلاماً ثم لا يؤمن بوجود متكلم، أو يشمّ عبقاً يفوح ثم لا يؤمن بوجود ورد أو زهر، أو يقرأ خطاً نقش على ورق ثم لا يؤمن بوجود كاتب.

فإن قال لك هذا القائل: فهلاّ بصرتني بالله ذاته في هذا الذي تنسبه إليه من جميل صنعه، أو بصّرتني بصفاته ذاتها، من العلم أو الحكمة أو

القدرة بدلاً من آثارها التي تزعم أنها بارزة في صنعه، فقل له: لو ظهر لك في ذاته أو في شيء من صفاته، لاضمحلّت منك كينونتك الضعيفة هذه، ولغبت عن وجودك الذي هو أثر من آثار وجوده!..

وهذا هو مجمل ما يعنيه ابن عطاء الله في الشطر الثاني من حكمته هذه، وهو قوله: ((ولو ظهرت صفاته لاضمحلّت مكوَّناته)).

أما تفصيل القول في ذلك، فهو أن الله تعالى قضى أن يكون وجوده في هذه الحياة الدنيا خفياً وباطناً عن الأعين من حيث ذاته وصفاته، وأن يكون جلياً وظاهراً من حيث آثاره الدالة بالبداهة على كل من ذاته وصفاته وأنت تعلم أن من أسمائه الحسنى الظاهر، والباطن.

وفي كتاب الله عز وجل تقرير لاسميه الظاهر والباطن، وفيه بيان مفصل لمعنى الظهور ومصداقه ودلائله في الكون كله... كما أن فيه بياناً مفصلاً لمعنى كونه باطناً ومصداق ذلك والحكمة منه في هذه الحياة الدنيا.

تأمل في الآيات التي يحدثك الله فيها عن بديع صنعه، في سورة النحل أو في سورة الأنعام مثلاً، تجد كيف ينبهك الله تعالى من خلالها إلى الآثار الجلية التي تتبدّى فيها لباهر صفاته من علم وحكمة ورحمة وقدرة..

ألا ترى إلى قوله عز وجل: ﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠/٣٠]، كيف نبهك إلى كل من أثري صفة الرحمة وصفة القدرة في ذاته العلية؟

ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ ما يَشاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤/٣٠] كيف ينبهك إلى كل من أثري صفة العلم والقدرة، في ذاته عز وجل؟

ألم تقرأ بتدبر الآيات الكثيرة التي في سورة النحل والتي تبدأ بقول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النحل: ٦٥/١٦] كيف يبرز الله لك من خلالها آثار صفاته الكثيرة من العلم والرحمة والحكمة والتدبير والقدرة.. إلخ.

فهذه الآيات وأمثالها يتجلّى فيها مصداق اسمه «الظاهر»، وإنما ظهوره فيها، من حيث الآثار التي تتبدَّى للعقول والألباب، لصفاته التي هي مضمون أسمائه الحسنى.

وأما بيان القرآن لمعنى كونه باطناً وللحكمة من ذلك، فتقرؤه في سائر الآيات التي يدعو الله فيها عباده إلى الإيمان بالغيب، أي إلى أن يؤمنوا بوجود ذاته العلية وكل ما أخبر به مما لم يولد من غيبه بعد، على الرغم من أنه سبحانه وتعالى غائب عن أعينهم وحواسهم.

وتقف على بيان الحكمة من ذلك، أي الحكمة من أن الله تعالى قضى أن لا يُرَى في هذه الحياة الدنيا بالأبصار. وذلك طبقاً لقراره القائل: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣/٦] في قوله عز وجل حكاية عن خطابه لموسى عليه الصلاة والسلام، وفي جواب الله تعالى له لما سأله موسى أن يريه ذاته العلية، فقد قال له

تعالى: ﴿لَنْ تَرانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي﴾ [الأعراف: ٧/١٤٣] ثم قال: ﴿فَلَمّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

فما الذي اتضح لنا من خلال هذا البيان الإلهي الذي يخاطبنا الله به حكاية عن الحوار الذي جرى بينه وبين كليمه سيدنا موسى؟

اتضح لنا أن مصداق اسمه «الظاهر» إنما هو بالنسبة للعقول والألباب، وأن مصداق اسمه «الباطن» إنما هو للأبصار وسائر الحواس.

فالتعارض الذي تراه بين هذين الاسمين، نسبي، أو إضافي بتعبير آخر، إذ لو كان التعارض بينهما ذاتياً مطلقاً، لاستلزم ذلك التناقض، وهو محال.

يقول الإمام الغزالي عند تفسيره لهذين الاسمين من أسمائه سبحانه وتعالى: «والله سبحانه وتعالى باطن إن طُلِبَ من إدراك الحواس وخزانة الخيال، ظاهر إن طُلِبَ من خزانة العقل بطريق الاستدلال»[1].

ولكن لماذا كان الإدراك العقلي مؤهلاً لمعرفة الله واليقين بوجوده ولم تكن الحواس، من عين وسمع ونحوهما، مؤهلة للإحساس به؟ لماذا تيسر للعقل إدراك وجوده، ولم يتأت للعين النظر إلى ذاته؟..

والجواب أن الله جلت حكمته، متع الإنسان بقوى عقلية مدركة، مؤهلة للوصول إلى الحقائق والتصديق بها، والله سبحانه وتعالى

---

(١) انظر كتاب (المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) ص١٣٦.

حقيقة، بل هو حقيقة الحقائق كلها، ولما كانت الدنيا كلها تفيض بالآثار الناطقة بوجود هذه الحقيقة التي تشكل جذع الحقائق الكونية كلها، فقد كان يسيراً على العقل أن يهتدي بالآثار إلى المؤثر، وأن يعود من النتائج إلى مقدماتها.

أما الإمكانات الجسدية - والحواس الخمس جزء منها - فغير مؤهلة لأكثر من التعامل مع أسباب معايشها، ولا يشك عاقل في محدوديتها وفي عجزها عن النهوض بما هو شارد وراء حدود إمكاناتها.

أرأيت لو أن عينيك واجهت أضعاف ما تبثه الشمس من ضياء، إذن لغاض من عينيك نورهما، ولا نقلبت الدنيا من حولك إلى ظلام.

أرأيت لو أن صيحة من تلك التي أهلك الله بها ثموداً طرقت سمعك وفاجأت أعصابك، إذن لتحولت إلى هيكل جاثم لا حراك فيه.

أرأيت لو أن أحاسيسك صادفت ما لا عهد لك به مما لا ينسجم مع نظام وجودك، إذن لزجك الذهول في يمّ من الضياع والنكران.

هذا ما سيحصل لك ويطبق عليك، على الرغم من أن ما سيواجهك من أسباب ذلك لم يخرج من عالم المخلوقات التي هي مثلك في المخلوقية والخضوع لمعنى الإيجاد والصنع.

فكيف إن كان الذي ستواجهه بأحاسيسك هذه، الإله الذي خلقك وخلق هذه الموجودات كلها؟..

إن حواسك هذه أضعف من أن تصمد أمام ما هو خارج عن دائرة معايشك الصغيرة المحيطة بك، فكيف تصمد بالرؤية أو الإحساس والاستيعاب أمام مبدع الكون ومنشئه من ظلمات العدم؟!..

إنك إن رأيته، فلن تراه إلاّ به، إذن فقد اتحد الرائي والمرئي، وهذا مستحيل. ولو أحسست بأي من حواسك به، فإنما يكون ذلك أيضاً بالله عز وجل، فقد اتحد إذن المحسوس وأداة الإحساس به، وهذا أيضاً مستحيل.

فأما إن فرضت انفصال الرائي وهو الإنسان عن المرئي وهو الله عز وجل بحيث يغدو الإنسان الرائي مستقلاً عنه سبحانه وتعالى، فإن النتيجة التي لا بدّ منها هي أن يتهاوى وجود هذا الإنسان الذي يفترض أنه انفك عن الإمداد الدائم له من الله باستمرارية الوجود.

وهذا ما أوضحه بيان الله عز وجل في قوله، حكايةً لما أجاب به موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿لَنْ تَرانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي فَلَمّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً...﴾ [الأعراف: ١٤٣/٧].

فقد أخبر الله تعالى أنه تجلّى للجبل، وإنما تم ذلك التجلي عن طريق ثنائية تمت بين الجبل والذات الإلهية التي كانت قد تجلت عليه، وإنما تحققت هذه الثنائية بتخلي الله عز وجل عن الجبل الذي كان يمده إلى تلك اللحظة آناً فآناً بالوجود، فلما تخلى الله عنه من خلال تجليه عليه تهاوى الجبل واندك كأنه أثر بعد عين.. أما موسى فقد خرّ صعقاً لرؤيته الجبل المتجلَّى عليه، فكيف لو رأى المتجلّي جل جلاله.

فهذا هو تفصيل ما تضمنه قول ابن عطاء الله: ((ولو ظهرت صفاته اضمحلت مكوّناته)).

واعلم أن ما يترتب على تجلّي الله عز وجل على المكونات بصفاته، هو ذاته الذي يترتب على تجليه جل جلاله عليها بذاته، للأسباب التي ذكرتها لك.

* * *

لعلك تسأل الآن: فكيف يصح أن يتجلّى الله على عباده الصالحين في الدار الآخرة، حتى إنهم ليرونه كما يرون القمر ليلة البدر، ليس دونه حجاب؟

والجواب أن الله يخلق عباده والعالم كله يوم القيامة خلقاً آخر، وأنه عز وجل يهيئ كلاً، من حيث الخلق والإمكانات، لما قد أعدَّ له، فأما الصالحون منهم فيخلقهم الله مجهزين بالإمكانات اللازمة لرؤيته وهي إمكانات لا تخضع لمقاييس المنطق والعلوم التي نتعامل بها ونحتكم إليها اليوم.. وأما المجرمون والجاحدون، فيخلقهم الله مجهزين بأجساد لا تذيبها أو تمحقها النيران بل تتجدد كلما اهترأ نسيجها أو كاد، مصداق ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿كُلَّما نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُوداً غَيْرَها﴾ [النساء: ٥٦/٤] وهي الأخرى إمكانات لا تخضع لمقاييس المنطق والعلوم التي نتعامل بها ونحتكم إليها في دنيانا اليوم.

* * *

الحكمة السادسة والثلاثون بعد المئة

((أظهر كل شيء لأنه الباطن، وطوى وجود كل شيء لأنه الظاهر))

قلت لك في شرح الحكمة السابقة إن اسمي ((الباطن)) و((الظاهر)) لله تعالى، يصدقان عليه بالمعنى النسبي والإضافي، لا بالمعنى المطلق لكل منهما، إذ هما متناقضان إن لاحظت المعنى المطلق لكل منهما.. فهو جل جلاله ((الباطن)) بالنسبة لحواس الإنسان من سمع وبصر... إلخ، وهو سبحانه وتعالى ((الظاهر)) بالنسبة للمدارك العقلية للإنسان، وقد شرحت لك ذلك بما فيه الكفاية.

ونقول الآن: إن المكوَّنات أيضاً تتصف بكل من وصفي الظاهر والباطن بالمعنى الإضافي ذاته.

فإن لاحظت اسم الله ((الباطن)) فالمكونات تتصف إذن بالظهور، لأنها في مظاهرها البارزة فيها تحمل الأدلة العقلية الكثيرة على وجود الله الخفي عن الحواس والأنظار.. إذ إن ظهورها يحمل - كما قلت لك - آثاراً واضحة من صفات الله المتمثلة في علمه وحكمته ورحمته

وإرادته وقدرته.. ومن ثم فإن ظهور المكونات بأشكالها المرئية تقابل بطون الله تعالى وخفاءه عن الحواس والأبصار.

وإن لاحظت اسم الله «الظاهر» فالمكوَّنات كلها بالنسبة لاسمه هذا تتصف بالخفاء والانطواء.. ذلك لأن ظهور الخالق عز وجل للعقول والألباب ينبهك إلى أنه هو لا غيره صاحب الوجود الحق، والوجود الذاتي المطلق.. ومن ثم فإن الأشياء الأخرى كلها معدومة في ذاتها، وإنما اكتسبت وهم الوجود الذاتي بإيجاد الله لها، ثم بإمداده إياها بالوجود لحظة فلحظة فهي - عند ملاحظتك لمعنى الوجود الذاتي الحق وهو وجود الله وحده - معدومة إذن، أي لا تملك وجودها، وكيف تملك شيئاً لا ينبثق من ذاتها. وما قد يخيل إليك من وهم وجودها، إنما هو وجود الله عز وجل امتد أثره، بإمداد الله، على الكائنات، فرأيت فيها ما هو - عند التحقيق - من صفات الله سبحانه وتعالى. ولسيدي أبي مدين أبيات معروفة يعبّر فيها بدقة عن هذا المعنى الذي يجب أن لا يغيب عن بال أي مؤمن بالله موقن بوحدانيته يقول فيها:

واعلم بأنك والعوالم كلها ... لولاه في محو وفي اضمحلال
من لا وجود لذاته من ذاته ... فوجوده لولاه عين محال
والعارفون بربهم لم يشهدوا ... شيئاً سوى المتكبر المتعالي
ورأوا سواه على الحقيقة هالكاً ... في الحال والماضي والاستقبال

ولا يذهبن بك الوهم إلى أن هذا الذي يقرره ابن عطاء الله، والذي شرحته لك بهذه الأسطر، تقرير لمعنى وحدة الوجود، التي هي من

أسوأ أنواع الباطل ومن أجلى كفريات الحلول.. فإن هـذا الـذي بينتـه لك من كـلام ابـن عطـاء اللـه، جوهـر التوحيـد ولبابـه، ولا شـأن لـه بوحدة الوجود قط.

عندما نقول: (إذا وقفنا عند معنـى اسـم اللـه «البـاطن» فالمكونـات إذن ظاهرة تقوم بـدور الدلالـة علـى وجـوده عـز وجـل) فهـذا تقريـر صريح بأن المكونات موجودة، وإلا لما تحقـق فيهـا معنـى الدليـل علـى وجود الله، ضرورة تحقق التغاير بين الدال والمدلول عليه.

كذلـك عندمـا نقـول: (إذا وقفنـا عنـد معنـى اسـم اللـه (الظـاهر) فالمكونـات إذن بالنسـبة إليـه باطنـة، لأن وجودهـا بـه وقيامهـا بـه واستمرارها به) فإن هذا تقرير واضح بأن المكون موجود، إذ لا يصـح وصف المعدوم بأن وجوده وقيامه به واستمراره به.

لا ينكر وجود المكونات المرئية بالعين والثابتة بالعقل، إلا مجنـون أو أحمق.. ولكن لا يعطيها صفة الوجود الذاتي المستقل بنفسه إلاّ مشـرك تاه عن معنى وحدانية الله من حيث الذات والصفات.

والذيـن يهيمـن عليهـم هـاجس الخـوف مـن وحـدة الوجـود، ولا يحاولون أن يحرروا نفوسهم منه، بالرجوع إلى المنطـق والعلـم، في فهـم معنـى وحدانيـة اللـه والوقـوف علـى دلائلهـا، لابـدّ أن يتقلبـوا خـلال حياتهم كلها في مخاضة الشرك.

ثم إنك لن تستطيع أن تتعامل مع معنى كل من هذين الاسمين مـن أسماء الله الحسنى «الظاهر» و«الباطن» إلا على ضوء هـذا الـذي تـم بيانه في شرح هذه الحكمة:

ظهور اللـه عـز وجـل طبقـاً لاسـمه الأول، لا بـدّ أن يقابلـه خفـاء وكمون المكونات، وذلك لما ينبغـي أن تعلمـه مـن أن الوجـود الذاتـي الحق إنما هو وجود الله وحده، إذن فقد وقعت المكونات التي ليس لها إلا وجود ظلي في ساحة الخفاء.

وبطون الله عز وجل، طبقاً لاسـمه الثـاني، لا بـدّ أن يقابلـه جـلاء وظهور المكونات وذلك لما ينبغي أن تعلمه من أن المكونـات تلعـب في هذه الحالة دور الدلالة على وجود اللـه. وذلـك لمـا تحملـه المخلوقـات المتنوعة من آثار الصفات الإلهية الدالة بدورها على الخالق المبدع جـل جلاله.

إذن فثنائية الخالق والمخلوق قائمة في كل الأحـوال، ولكـن العلاقـة بينهما ليست علاقة الند مع الند أو النظير مع النظير، وإنما هـي علاقـة أصل وفرع، أو هي من نوع علاقة الجداول بالمعين.. وإذا غـاب المعـين عن عينيك فالجداول المرئية دالة عليه.. وإذا تجلّـى لـك المعين وغـابت عنك الجداول فالمعين ناطق بوجوده ودالّ عليه.

بقي أن استدراكات قد تطوف بـالذهن بعـد الشـرح الـذي انتهينـا إليه، لهذه الحكمة. ولكي لا أوقـع نفسـي وإيـاك في التكـرار الـذي لا نرى لزوماً لـه، أحيلـك إلى مـا قـد ذكرتـه مفصـلاً في شـرح الحكمـة التاسعة والعشرين، في الجزء الثاني من هـذا الكتـاب، وأولهـا: ((شـتان بين من يستدلّ به ويستدلّ عليه..)).

أضف إلى ما قد استوعبته من شرح هذه الحكمة هنا، ما قد ذكرتـه لك في شرح تلـك الحكمـة هنـاك، تتكـامل الحقيقـة، وتسـدّ الثغـرات ويغيب، بفضل الله، الإشكال.

الحكمة السادسة والثلاثون بعد المئة (مكرر)

((أظهر كل شيء لأنه الباطن، وطوى وجود كل شيء لأنه الظاهر))[1]

علمت مما ذكرته لك في الحكمة السابقة أن ظهور الله وصف ثابت له من جانب، وأن كمونه أو خفاءه وصف ثابت له من جانب آخر.

فظهوره ثابت من حيث إن العقل سرعان ما يهتدي إليه ويعرفه ويتبين أنه لا غيره صاحب الوجود الذاتي الحق.

وخفاؤه من حيث إن الأبصار لا تدركه وإن الحواس لا تتقّراه.

فمن هذين الجانبين كان كل من ((الظاهر)) و((الباطن)) اسمين من أسماء الله الحسنى.

فما الذي يضيفه ابن عطاء الله في هذه الحكمة إلى هذه الحقيقة التي علمناها وقررناها في الحكمة السابقة؟

---

(١) أخي القارئ: شاء الله أن أعود إلى شرح هذه الحكمة ثانية من حيث لا أشعر، وما تنبهت إلى ذلك إلاّ عندما نبهني إلى ذلك الأخ ((المنضّد)) ولما قرأت الشرح الثاني لها، ورأيت فيه زيادة وتتمة أضفت إلى شرحي الأول لها مزيداً من الجلاء والإيضاح، آثرت أن أبقي هذا السهو الذي شاءه الله على حاله، إذ له في ذلك حكمة ولا ريب. ولكنني أعدت رقم الحكمة ذاته، مضيفاً إليه كلمة ((مكرر)).

الذي يضيفه ابن عطاء الله هنا إلى هذا الذي عرفناه هو التالي:

إن وصف الظهور في ذات الله تعالى يستدعي خفاء المكوَّنات كلها، تماماً كما يستدعي ظهور الشمس غياب النجوم والكواكب الأخرى كلها.. إذ إن ظهوره إنما هو من حيث معرفة العقل له ويقينه بأنه وحده صاحب الوجود الحق، إذن فقد عادت الأشياء الأخرى كلها مغموسة أمام وجود الله تعالى في ظلام العدم، إذ لا قيمة لوجود شيء يستمد وجوده واستمرارية وجوده من غيره، كالطفل الصغير الذي يمسكه أبوه من عضديه ويوقفه بذلك على قدميه، فالطفل يتصف بالوقوف صورة ولكن وقوفه مفقود حقيقة.

وإن وصف الخفاء أو البطون في ذات الله تعالى، يستدعي ظهور آثاره ومخلوقاته المرئية للأبصار، فقد علمت أن وصف الخفاء في ذات الله عز وجل إنما هو من حيث إن الأبصار لا تدركه وإن الحواس لا تتقراه، فعوض الله الإنسان عن إخفائه ذاته العلية عن عينيه وبقية حواسه، بأن ملأ له الدنيا بآثار صفاته ودلائل وجوده، يراها كلها بعينيه ويتبينها بحواسه.

فلئن أخفى الله ذاته العلية عن حواسّك، فقد أظهر أمامها آثاره الدالة عليه والناطقة بوجوده.

ولئن أظهر الله ذاته العلية أمام عقلك وبصيرتك، بما قد عرفت من أنه وحده صاحب الوجود الذاتي الحق، فقد استدعى ذلك اختفاء

الوجود الوهمي أو الظلي والتبعي أمام سطوع الحقيقة التي لا تغيب عن بال عاقل.. أمام صاحب الوجود الذاتي الحق وهو الله.

فانظر إلى دقة التقابل بين صفة الظهور في ذات الله تعالى للعقول والألباب، وصفة الخفاء، من هذا الجانب، في وجود المكونات كلها. وبين صفة الخفاء في ذات الله تعالى للأبصار والحواس، وصفة الظهور من هذا الجانب، أي للأبصار والحواس، للمكونات كلها.

وما أظن أنك بحاجة بعد هذا الذي بينته لك، في شرح هذه الحكمة إلى مزيد.. إذ هي كالذيل أو التتمة للحكمة التي قبلها.

إنما المهم بعد هذا البيان أن نتمثل هذه الحقيقة توحيداً نمارسه في التعامل مع الله ومع الدنيا المحيطة بنا، نعطي الدينا حقها من واقع التبعية والاضمحلال، ونؤدي إلى الله حقه المنبعث من أنه قيوم السماوات والأرض، وأنه وحده الفعال في الكون كله، وأنه وحده صاحب الوجود الحق.

ذلك هو كمال التوحيد، فإن تراجعت عن هذا الشأو، فقد عرضت فكرك وسلوكك، لألوان كثيرة من الشرك. والله هو المأمول أن يجعلنا من أهل اليقين بكامل معنى ((لا إله إلا الله)) وأن لا يوقفنا عند درجة المرددين لقول ((لا إله إلا الله)).

* * *

الخاتمـــــة

هذه هي نهاية ما وفقني الله لكتابته، من أبحـاث الجـزء الثـالث مـن شرح الحكم لابن عطاء الله السكندري رحمه الله.

وإني لآمل من القارئ الكريم أن يدعو الله لـي بـالتوفيق لإنجـاز مـا تبقى من شـرح هـذه الحكـم التـي كنـت ولا أزال أرانـي غـير مؤهـل لخوض غمارها والوصول إلى دقائق المعاني العجيبة الكامنة فيها. ولكنه قضاء قضى اللـه عـز وجـل بـه، وتوفيـق رافقنـي دون أن أكـون علـى مستواه.

فأسـألك يـا أخـي القـارئ أن تدعـو اللـه لـي بـالتوفيق لإنجـاز هـذا الكتاب الذي أرجو أن يصل إلى تمامـه في خمـس مجلـدات، واللـه ولـي التوفيق والحمد لله في البدء ومع الاستمرار وفي الختام.

* * *



الحكم العطائية

شـــرح وتحليـل

الجزء الثالث

المحتوى

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع صفحة